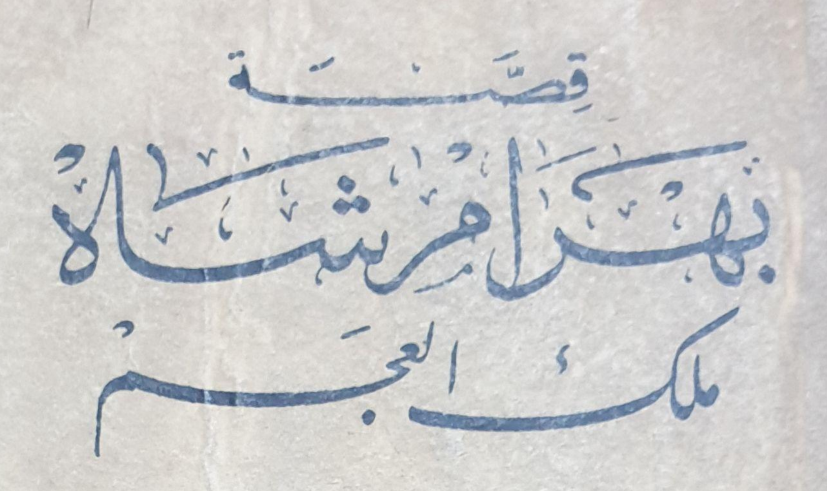


وما جرى له فى بلاد الملك النعمان وتملكه عرش مملكة فارس
والأقاليم السبعة وقهر ملوكها العظام وزواجه
بالسبع بنات ملكات البهاء والجمال .

وهى قصة تاريخية واقعية
منقحة ومهذبة وبها زيادات بقلم
(عبد الله الصاوى)

الجزء الاول والثانى

ملتزم الطبع والنشر
عبد الحميد احمد حنفى
بشارع المشهد الحسينى رقم ١٨
المراسلات : مصر - صندوق بوستة الغورية رقم ١٣٧

اشتريته يوم الخميس ١٠/ ذو القعدة/ ١٤٤٣هـ
٩/ ٦/ ٢٠٢٢م

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر

قصـــة

بهرام شـــاه

الملقب ببهرام (جور) ملك العجم

ما جرى له فى بلاد الملك النعمان وتملكه عرش مملكة فارس
والأقاليم السبعة وقهر ملوكها العظام وزواجه
بالسبع بنات ملكات البهاء والجمال

وهى قصة تاريخية واقعية

منقحة ومهذبة وبها زيادات بقلم

عبد الله الصاوى

الجزء الاول

عبد الحميد احمد حنفى

بشارع المشهد الحسينى رقم ١٨

المراسلات : مصر - صندوق بوستة الغورية رقم ١٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

يحكى أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك عظيم الشان من بني ساسان ملوك مملكة إيران اسمه الملك يزدجرد تولى مقاليد الحكم وهو في الخامسة والعشرين من العمر لا يعرف الخداع والمكر . ومكث في ملكه إحدى وعشرين سنة ملكا عظيما يحكمها ويدبر أمر رعاياها حتى ظهرت عليه أمارات الكبر وبدت في جسمه علامات الكهولة ، وكان قد ولد له إلي ذلك الحين عدة أولاد لكن لم يعش واحد منهم بل كانوا يموتون الواحد بعد الآخر وقد كان لذلك حزيناً جدا لأن الاولاد زينة الحياة الدنيا ، ولأن لذة الأولاد والبنين تفوق ملذات الدنيا ، ولاسيما أنه لم يخلف ولدا يكون وليا لعهده ، فكان يصرف أوقاته في التأوه والغموم والحسرات كلما قرب من الشيخوخة . ففي ذات يوم انفرد في خلوة وصلي وبعد الصلاة رفع يديه إلى قاضي الحاجات وقال : إلهي وربي ومعبودي ارحمني وأفرج كربتي ولا تغلق باب رحمتك عن أسرة بني ساسان وارزقني الولد الوارث للملك الذي وهبته لهم ، إلهي اني أتضرع اليك وأسألك من خزائن جودك ياغني يا كريم أن لا تحرمني من خلف يرثني وتزول به آلام قلبي وتنفرج كربتي فأنت السميع المجيب .

وبعد أن انتهى من صلاته أتى زوجته وقلبه معتقد أن الله يفرج كربته ويجيب دعوته ويتقبل صلاته وكأنما كانت أبواب السماء مفتحة فقد سمع الله دعاءه وأجاب نداءه فلم تمض عدة أيام حتي ظهر الحمل على زوجته فبعثت اليه تبشره بذلك فتلقى البشارة بالفرح والمسرة وقام وسجد عدة مرات على كرسي العرش كأنه في مقتبل العمر وعنفوان الشباب وقد تجدد فيه الصبا وعاد اليه رونق الحياة وفتح الخزائن وأخرج الأموال ففرقها على الفقراء والمحتاجين شكرا لمولاه القدير ودام على ذلك الحال طول مدة الحمل وهو في فرح لا يحيط به الوصف .

وبعد أن مضي على حمل زوجته تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع ساعات وتسع دقائق

وضعت زوجته غلاما ذكرا فزاد سرور الملك وقوى نشاطه وحسب نفسه فى ذلك الحين من أسعد الناس وأما الرعية وأهل المملكة فانهم فرحوا فرحا عظيما بابن الملك الجديد ، وأقيمت الأفراح فى كل ناحية من نواحى المملكة وأمر الملك بأن تزين العاصمة وأرسل الى كل البلاد التابعة له بالبشائر فأقيمت فيها الزينات ودامت الاحتفالات مدة شهر على التمام كما أعفي جميع الرعية من الضرائب مدة سبع سنين كاملة .

وجاء المنجمون والسحرة وأخذوا الولد على أيديهم ثم نظروا فى طالعه وراجعوا كتبهم وبحثوا في الاحكام وفى هذا المعنى وحسبوا الأبراج والدرج والمنازل ورسموا الاشكال والزايرجات ودققوا البحث والنظر فقالوا للملك اعلم ياسيدنا ان هذا الولد سيكون سعيد الطالع جدا فقد تبين لنا أنه يملك السبعة الأقاليم والممالك التى لم يملكها غيره من ملوك ساسان ، فتضاعف فرح الملك وغمر المنجمين بالأنعام والاكرام ودعي اسم الطفل بهرام وأخذ ينظر فى تربيته والاعتناء به

وأما المنجمون فانهم بعد أن أخذوا نصيبهم من التحف والهدايا والنعم التى أغدقها عليهم الملك يزدجرد رجعوا إلى منازلهم وعقدوا فيما بينهم مجلس مشورة وقالوا إذا كان الطفل يبقي في المدينة ويتربى فيها فانه يتخلق بأخلاق أبيه وتسرى اليه قسوة القلب فيظلم الشعب ويكرهه العباد .

وبعد التفاوض نهضوا وجاءوا الملك فأمرهم بالجلوس مبدياً لهم كل الاحترام والاكرام . ثم سألهم عن سبب رجوعهم اليه

فقالوا له بكمال الوقار والاحترام أيها الملك السعيد أعزك الله وأطال عمرك المديد وأبقاك انا ماأتينا اليك ثانية إلا لصالح الملك والمملكة وأنت تعلم أنه قد ولد لك قبل الآن عدة أولاد ولم يعش واحد منهم والآن ننظر فى أمر حياة الطفل الجديد وقد دلتنا القرانات وعلوم التنجيم على أن الواجب أن يتربى هذا المولود في مكان حسن المناخ عذب الماء جاف الهواء غير هذه البلاد وهذا الأمر هو سبب حياته ووسيلة بقائه فى هذه الحياة الدنيا .

فلما سمع الملك كلام المنجمين رآه عين الصواب لأنه كان كثير الاعتقاد فى المنجمين وخاضعا لأوامرهم وكان لايصدر منه أى عمل إلا بعد أخذ رأيهم وقد خاف من موت الطفل ولم يخطر له أن الأجل إذا دنا لايمنعه المناخ والموقع وعلى أثر ذلك جمع اليه الوزراء ووكلاء الدولة وعرض عليهم ماسمعه من المنجمين

فاستحسنوا هذا الامر وغاصوا فى التفكير وأخيرا قال أحد الوزراء انه لمن المعلوم عند سيدى الملك أنه لا يوجد فى هذه الدنيا قوم اتصفوا بالشجاعة و لاقدام والفصاحة فى الكلام والمروءة والكرم والوفاء بالعهد والصدق فى القول وحماية الضعيف ونصرة المظلوم ومحبة الخلق ومعونتهم ومواساة المحتاجين إلا العرب فانهم حصلوا على كل مزية حسنة فاذا وافق سيدى الملك على الرأى الذى أعرضه لديه فليستدع اليه الملك النعمان بن امرىء القيس فهو مطيع لنا صادق فى محبتنا وولائه لنا فيسلمه الغلام . ومن المحقق أنه يعتنى به ويربيه على مانحب ونريد .

ولما سمع باقى الوزراء والاعيان ماقاله الوزير قالوا له بلسان واحد أحسنت وأصبت ، فان الملك النعمان لا يقصر فى مثل هذه الخدمة وبلاده من أحسن البلاد وأظهروا للملك استحسانهم واجماع آرائهم على صواب رأى رفيقهم وفى الحال أمر الملك أن تسطر رسالة إلى الملك النعمان يطلب حضوره اليه فكتب الكاتب الرسالة ودفعها إلى الملك فقرأها وختمها ودفعها إلى الرسول وأمره بسرعة السير إلى مدائن الملك النعمان

فسار الرسول الليل والنهار يقطع البرارى والقفار والسهول والاوعار حتى وصل إلى أرض الحيرة فدخل على الملك النعمان فقبل يديه ودعا له بدوام العز والاقبال وقال له لقد أتيتك على جناح السرعة والاستعجال أحمل اليك هذه الرسالة باسمك من سيدى الملك يزدجرد وناوله الرسالة فأخذ الملك النعمان يتعجب ووقع فى حيرة وقال فى نفسه ترى ما هو ذلك الامر العظيم الجليل الذى اضطر الملك الاكبر إلى أن يرسل إلى برسالة مستعجلة . وفى الحال أخذ الرسالة من يد الرسول وفتحها ولما قرأها وعرف أنه ولد للملك يزدجرد غلام وأن فى نيته أن يسلمه إياه ليتولى أمر تربيته كاد يطير من الفرح ، وفى اليوم التالى أعد ما يحتاج اليه فى سفره ووكل أمر تدبير البلاد إلى ولده المنذر وكان شجاعا مقداما وحكيما عاقلا .

ثم اختار لصحبته مائة وخمسين فارسا أشداء بواسل ليكونوا تحت أمره فى رحلته ثم ركب قاصدا مدينة ايران ومازال يقطع المفاوز والوهاد ويمر بالجبال والقرى والبلاد ويجد السير حتى قرب من المدينة فأرسل رسوله إلى الملك يخبره بوصوله فأمر الملك فى الحال أن يخرج الوزراء والاعيان لملاقاة الملك النعمان وأن يدخلوه إلى المدينة بالاجلال والاحترام

ولما قرب الملك النعمان من عرش الملك خر على وجهه ساجد بين يديه كما جرت العادة التي جرت عليها الملوك الأشروسنية فى الدولة الساسانية منذ القدم فرفعه يزدجرد عن الأرض ، وأخذه بيده وأجلسه على سرير عال بجانب سريره ، ورحب به ترحيبا عظيما ، وبالمثل فان الملك النعمان دعا له بدوام العز وطول البقاء وبارك له الغلام الجديد . وهنأه بميلاده ولم تمض برهة وجيزة حتى نهض يزدجرد شاه وأدخل الملك النعمان إلى حرمه الخاص بعد أن هيأ للنعمان قصرا عظيما مزينا بأحسن الأثاث الفاخر والرياش الثمين وفيه من الخدم والحشم عدد كثير وسأله أن يستريح فيه من مشاق السفر وعنائه ومشقة طول الطريق ، فدخل النعمان القصر واغتسل من وعث الطريق وغباره وغير ملابسه ونام فى دعة وراحة إلى أن أقبل المساء .

أما ما كان من الملك يزدجرد فانه بعد أن استراح خرج إلى تخت السلطنة واجتمع من حوله الوزراء وأكابر رجال الدولة وعظمائها وبقى ينتظر قدوم الملك النعمان ولما لم يأت أرسل إليه أحد الحجاب فدخل عليه الحاجب ودعاه بكل حشمة وأدب ثم أخبره أن الملك فى انتظاره فعند ذلك نهض النعمان من فوره وسار إلى قصر السلطنة وحال دخوله وقف له الوزراء وجميع من كان حاضرا فى الديوان حتى الملك يزدجرد نفسه نهض له واقفا وأخذه إلى جانبه . وقد أحضر إلى ذاك المجلس المباخر الذهبية تسطع بأطيب أنواع العود والمسك والصندل والشمعدانات المضاءة بالشموع المرصعة بالبللور وأنواع اليواقيت والجواهر المختلفة التي تزيد فى أضواء الشموع وأدخلت مائدة الطعام يحملها خمسة عشر رجلا يلبسون الثياب النظيفة البيضاء الفاخرة ومناطق الذهب فى أوساطهم وفي أيديهم المناشف والأباريق لغسيل أيديهم وعلى المائدة من أشكال الطعام ما تشتاق إليه النفوس ويسيل له اللعاب وتتفتح له الشهية وأقام حولها خمسة عشر غلاما بالملابس الذهبية وعلى يد كل واحد منهم شمعدان من الذهب المرصع وبأثمن أنواع الجواهر وكانوا مردا لا نبات فى وجوههم من أجمل خلق الله حسنا ومما زاد فى حسنهم ملابسهم المرصعة ولمعان الشمعدانات الوهاجة التي تشتعل فيها شموع الكافور المصبوب بالمسك والند فجلس الملك يزدجرد وأجلس النعمان إلى جانبه ثم أمر الوزراء والأمراء أن يجلسوا فى الجهة الثانية على حسب مراتبهم ومن ثم باشروا تناول الطعام نوعا فنوعا طبقا للنظام الفارسى فى مملكة ايران . ولما فرغوا من تناول الطعام

نهضوا وقدمت لهم أباريق الذهب محمولة على أيدى مماليك حسان الصور كالاقمار فنسل الملك يزدجرد يده ثم تبعه النعمان وبعده الوزراء والاعيان بترتيب منازلهم وعلى حسب درجاتهم وبعد ذلك عادوا الى مجلسهم الاول كل فى مكانه الذي أعد له .

وبعد مضى ساعة من الزمن دخل عليهم الخدم يحملون الاقداح الفضية وآنية الشراب الذهبية . فطافوا على الجلوس واحدا بعد واحد بالشراب المنعش المرطبات والحلوى التى تحيي النفوس بعد الفناء وبعدذلك دخل المغنون والمطربون وبأيديهم النايات والاعواد وآلات الطرب وجعلوا يغنون ويضربون على آلاتهم حتى كاد المجلس يرقص طربا وطرب الملك طربا عظيما فخطر على باله ولده فأمر أن يؤتى به الي المجلس في تلك الساعة فأتى به فحمل اليه فأخذه على يديه وقبله فى فمه وبين عينيه وقبل عنقه ثم قدمه للملك النعمان فلما رأي الملك النعمان الغلام ورأى ماهو عليه من البهاء والجمال وشاهد ما طبع على جبهته من الذكاء والنبوغ وحسن الطالع أحبه كثيرا ومن عظم ما لحق به من الفرح سقط من عينيه بعض نقط من الدموع . فلما نظر الملك يزدجرد حالة النعمان وما وقع فى قلبه من محبة الغلام طار قلبه من السرور وأمل أنه يسير به بقلب مملوء من الحب فسأله الاعتناء والاهتمام به .

فقال النعمان لو سلم لى طفل كهذا وكان ابنا لأشد الناس عداوة لى لربيته كما أربى ولدى فكيف وهو ابن سيدى الملك الذى أحبه كنفسي فشكره يزدجرد وأثنى عليه . ثم أمر بأن يعاد بهرام الى أمه

ولما بلغ أم بهرام أن ولدها سيؤخذ الى بلاد الملك النعمان يتربى هناك ويبقى الى ان يشب ويكبر وقع الحزن فى قلبها وشعرت بأن مرارتها انفطرت ولم تعد تقوى على شيء . وكانت رحيمة القلب كثيرة الحنو تحمل قلب الامهات الوادعات وأخيرا قررت فى نفسها أن تطلب من الملك أن يرجع عن عزمه فاذا أصر تسأله أن يسمح لها بالسفر والبقاء مع ولدها واذا أبي شربت السم وقتلت نفسها حبا فى ولدها ولكى لا تكدر خاطرها بالبعد عنه لحظة .

وأما الملك يزدجرد فانه بعد جلوسهم للسمر مدة طويلة من الليل مع الملك النعمان على الحظ والصفاء أدرك النعاس الجميع فأمرهم الملك يزدجرد بالانصراف كل الي منزله وركب هو الي حرمه فلما رأته أم بهرام داخلا استقبلته وصاحت

الرحمة ياسيدى وألقت بنفسها على رجليه ورفعت ذيله على رأسها ، وقالت له إذا كنت تفصلني عن ولدى وحشاشة كبدى فانى هالكة لامحالة فارحم ضعفى وساعد حنو قلبي ولا تمتنى بيدك ، وتقتلني ظلما وأنت سيدى وعزى ، وإذا كنت مصمما على إبعاد ولدى وسند حياتى فأبعدني معه ودعني أعيش معه أينما كان وكيف وجد فارحمنى واجبر كسر قلبي . ثم أخذت فى البكاء وتسكاب الدموع والعبرات على أقدامه .

ولما نظر الملك عمل زوجته تحركت الشفقة فى قلبه وسقطت الدموع من عينيه بالرغم منه ، فرفعها بيدها وقبلها فى خدها ، وقال لها لك ما تريدين ، فاذهبي برفقة ولدك وكونى معه مدة غربته فى بلاد الحيرة .

فلما سمعت إذن الملك لها بمرافقة ولدها بهرام شعرت بأن الحياة عادت اليها من جديد ، ودعت له بالبقاء وطول العمر ودخل الملك فنام على سريره وعند الصباح خرج إلى دار الحكم فجلس على العرش وجاء النعمان وباقي الأعيان فأخبره الملك بالذى كان من أمر زوجته وأنه سمح لها بالسفر معه ففرح النعمان لهذا الخبر علماً منه بأن لاأحد يعتني بالولد كأمه وأظهر للملك صواب هذا الرأى وحسن أثره في تربية ابنه بهرام وبعد أن مكث النعمان في بلاد إيران مدة الضيافة سبعة أيام أقامها فى السرور والحظ والصفاء استأذن الملك الاكبر بالسفر الى بلاده فأمر الملك ان تهيأ معدات السفر وأن ينصب لبهرام ووالدته تختروان ، وأن تحمل المؤن والذخائر والاموال التي تنفق عليهما فامتنع الملك النعمان من قبول شيء من تلك الاشياء وقال له ان عندى من أنعام سيدى الملك أكثر مما أمر لى به ولا تسمح نفسى بأن آخذ شيئا ، فكل مافى بلادالحيرة ملكك وتحت أمرك فلا حاجة الآن الى حمل شيء من هنا فألح عليه الملك يزدجرد فأبى وأصر على عزمه . وفى ثانى الايام رفعت الاحمال اللازمة على ظهور البغال وركبت الملكة هودجها وعلى صدرها ولدها بهرام وركب النعمان وجماعته وخرجوا من المدينة فرافقهم الملك يزدجرد بموكبه عدة ساعات ثم عاد تاركا برفقتهم مهجة قلبه وفلذة كبده ومسرة خاطره . وسار النعمان فى طريقه الى الحيرة وهو مسرور القلب والخاطر من عمل الملك وركونه اليه ، وكان يسير الهوينا رفقا ببهرام ووالدته من التعب وحر الطريق . وكان فى المساء يضرب صيوان الملكة الى جانب صيوانه ويقوم بنفسه في خدمتها ولم يزل على مثل ذلك حتي قرب من

ديار الحيرة فأرسل الرسل الى ولده المنذر يخبره بوصوله فخرج مع أمراء العشائر لاستقباله ولما دنا منه قبل يديه وقبل بهرام وقد سر به كثيرا ومن ثم دخلوا المدينة بطنطنة هائلة وضجة عظيمة وأنزل النعمان بهراما ووالدته فى قصره الخاص وعين لها الخدم والحشم وكل ما يكفل راحتهما واختار لنفسه قصرا آخر يسكن فيه . وكان المنذر لما شاهد جمال بهرام أحبه كثيرا فكان يأتى القصر فى كل يوم أربع أو خمس مرات ليمتع ناظره برؤيته ولا يرتاح الا عند مشاهدته وقد مر على ذلك نحو الشهرين تقريبا . وبعد الشهرين دعا النعمان بولده المنذر وقال له انت تعلم ياولدى ان الملك الاكبر قد خصنا بتربية ولده والاعتناء به الى أن يشب ويكبر وتحتاجه البلاد للجلوس على التخت ، ولذلك يجب علينا الاهتمام به ورعايته ، وإنى الآن فى قلق من أجله ، لأن حر المدينة شديد وجسم بهرام لطيف نحيف فربما لا يوافقه شدة الحرّ ولذلك يلزم أن تفتش على مكان لطيف الهواء حسن المناخ عذب الماء فنضع فيه ابن الملك ونضع له من يربيه ويخدمه فاستحسن المنذر ورأى أبيه وقال له انى من هذه الساعة أسعى فى المكان المطلوب عساى أجد المحل المناسب الذى تأمرنى به .

ثم ان الملك المنذر فكر قليلا ثم قال لأبيه الملك النعمان الرأى عندى أيها الملك المعظم أن تسكنه فى قصرك المسمي بالخورنق ولا أظن أن قصرا يعد له فى الدنيا وهو أيها السادة قصر جميل البر خلفه والبحر تجاهه لو صعد الانسان الى أعلاه لرأى الحوت والضب والظبي والنخل وهو بنا لم تبن الملوك أحسن منه بناه الملك النعمان فى ستين سنة بظاهر مدينة الحيرة انتقاه له كبار المهندسين وأعلم الناس بمواقع البناء واعتدال الهواء واختلاف الأجواء بعد أن طوفوا فى الممالك المجاورة والبلاد التابعة للملك النعمان حتى اهتدوا اليه وأجمعوا على أن لا يمكن أن يكون أعظم منه فى كل بلاد العالم .

وعرض النعمان على مهندسي دولته وبنائي مملكته أنه يبنوه ويضعوا فيه العجائب والمدهشات وأن يبدعوا فيه ويتفننوا ووعدهم باجزال العطايا والاموال الكثيرة وطلب منهم أن يكون قصرا منفردا وحيدا يفوق بمحاسنه جميع قصور الدنيا يحس الجالس فيه بالنعيم وينسي هموم الدنيا وأمرهم ان يوجدوا فيه مزايا كثيرة وأوصافا عديدة

ولما كان المهندسون يدركون بذكائهم رغبة الملك النعمان ، ويعرفون أن قصده

الملك النعمان أن يبني على شكل مدائن وقصور مدينة إرم ذات العماد وقصور الملك سليمان التي بناها له مردة الجان فانهم أبدوا لهم عجزهم من بناء القصر على الشكل الذي يريده . فحزن الملك من هذا الامر وقال ماذا ياترى يجب أن أعمل؟ ألا يوجد فى مملكتي رجل يبني لى قصرا على هذه الاكمة يكون نادر المثال فى هذا الزمان .

فقالوا كلا ياسيدى لا يوجد في كل مملكتك من يقدر أن يشفي غرضك ويبنى لك هذا القصر البديع العديم المثال الذى تشير اليه ولا يقدر على ذلك الا رجل مشهور فى بلاد الروم اسمه سنمار وهو وحده القادر على اتمام رغائبك .

فلما سمع النعمان هذا الكلام سر جدا وزال عنه الحزن وفي الحال بعث بالرسل الى بلاد الروم ، وأمرهم بالتفتيش على سنمار وأن يأتوا به ويعدوه بالاموال الغزيرة والثروة الدائمة فسار الرسل إلى أرض الروم وبحثوا عن سنمار حتى اهتدوا اليه فأخبروه بالقصة من أولها الى آخرها وقالوا له ان أنت بنيت للملك القصر المطلوب غمرك بالعطاء وأغناك وأغنى نسلك الى آخر الدنيا ففرح لهذا الخبر ووافق الرسل على السير معهم الى بلاد الملك النعمان فهيأ نفسه وسار الي أن وصل الى مدينة الحيرة أرض النعمان ودخل على الملك النعمان فرحب به وأكرمه غاية الاكرام وقربه اليه وأخبره بعزمه على بناء القصر بشرط أن لا يكون قد ابتني مثله قبله ملك .

فقال انى رهين أمر سيدي الملك فلا أحد غيري يقدر على مثل هـذه الخدمة انما القصر النادر المثال يلزم أن يكون فى موقع نادر المثال فأرنى الموضع الذى ترغب بناء القصر فيه لأرى اذا كان يصلح أم لا .

فركب الملك وسنمار الى المكان الذي اختاره المهندسون فلما رآه سنمار أعجبه جدا وتعهد للملك باتمام مقاصده وأن يبنى له قصرا لم يبن مثله في سالف الاعصار ففرح الملك لما أبداه من مهارته ووعده بكل جميل ووضع تحت أمره خزائنه كلها يأخذ منها ما يريد وما يحتاج اليه من الدنانير لبناء القصر وفرشه .

وفى الحال باشر سنمار استحضار المواد اللازمة وبدأ العمل فى بناء القصر فكان يقيم فى بناء القصر السنتين والثلاث ويغيب الخمس سنوات وأكثر من ذلك وأقل فيغتاظ الملك النعمان لتأخير السنمار عن مباشرة البناء وانهائه ويطلبه ليوقع عليه أشد العقاب فلا يجده فيشتد غضبه ويكثر حزنه ولكنه فى آخر الامر يعلم أن

الحزن لا ينفعه وأنه لا أحسن له من الصبر فينتظر الى أن تسوق اليه المقادير سنمار ويستأذن فى الدخول على الملك النعمان ويبلغ الغضب من الملك أن يأمر بقتله من دون سؤال فى سبب تغيبه وانقطاعه عن البناء ويطلب من السياف أن يأتيه برأسه فيذهب السياف اليه فيجده قد أقبل وهو يحمل من الخرائط والرسومات الجميلة المحيرة للعقول ويطلب فقط عرضها على الملك من قبل ان ينفذ فيه عقوبة الاعدام ويرى الملك النعمان ما فى الرسوم والخرائط من المبانى العجيبة والرسوم المتقنة ما يذهل عقله ويتمنى أن يكون القصر مبنيا على مثالها فيأمر بادخاله اليه فيدخل ويقبل الارض بين يديه ويعتذر له بأن هذه الخرائط كانت مودعة فى بلاد الروم وفى بعض المرات يعتذر اليه بأن القصر ينقصه قطع المرمر وأصناف الجواهر التى يعز وجودها فى الدنيا وهو لم يتغيب الا لاحضارها والواقع أن سنمار كان مثالا للجد والاجتهاد ولم يكن وقته يضيع فى غير مصلحة البناء وقد فهم الملك النعمان حقيقة امره فكان كلما غاب يعلم انه ذهب لقضاء بعض الاشياء الضرورية لبناء القصر ولم يزل سنمار على هذا المنوال حتى انقضى عليه ستون عاما فى البناء

ثم أتم سنمار بناء القصر وزينه بالنقوش الفاخرة وكان متين البناء واسع الهيكل مزخرف الحيطان مرتبا على نسق لم ير مثله ملك وقد أتقن فرشه واستحضر من بلاد اليونان والرومان والعجم كل ما هو نفيس وفاخر من الفرش والرياش والاثاث والمصنوعات الثمينة ووضع عليه من الخارج الجواهر الكبيرة المضيئة فكانت تلمع كالشمس لا يقدر الرائي أن يحدق نظره فيها ومع أن حيطانه لم تكن من زجاج لكن الرائى كان يرى نفسه فيها أجلى من المرآة الصافية وكانت فى كل ١٢ ساعة تتغير إلى ثلاثة ألوان أبيض وأصفر ومائى

فعند الصباح اى عند شروق الشمس وإرسال أشعتها على القصر كانت تظهر على لون مائى وفى نصف النهار تصير من شدة وهج الشمس صفراء كالذهب وعند المساء تصير بيضاء كالفضة

والحاصل أن سنمار بعد أن أنهى بناء القصر وفرشه كما تقدم قدمه للملك النعمان فلما رآه ادهش من صناعته ومن كل ما رآه فيه وتأكد أنه ما رأى مثله ولا سمع بمثله فى شرق الدنيا وغربها ولذلك أظهر شكره وامتنانه من سنمار وأفرغ عليه خزائن الاموال والجواهر أضعاف ما كان يؤمل حتى ادهش

سنمار أيضا من عطاء الملك وكاد يطير عقله وبعد صيت ذاك القصر وانتشرت أخباره فى الآفاق فأخذت الناس ترد أفواجا للتفرج عليه .

وكان كل من رآه يعجب من صنعه ويأسف على بانيه وقد زرعت حوله الرياحين والزهور وحفت به الحدائق والرياحين حتى كانت الروائح العطرية تشم على بعد ساعة من جهات القصر الاربع ، وعلى الخصوص عند هبوب نسيم الصباح فان الاماكن المجاورة كانت تنتعش بذلك النعيم متوهمة أن هنـاك الجنة التى يسمعون عنها .

هذا ما كان من القصر والملك النعمان أما ما كان من سنمار فانه بعد اتمام بنائه وسرور الملك النعمان منه وسروره أيضا بما وصل إليه من العطايا الوافرة والاموال الجزيلة والهبات الكثيرة أقام فى أرض الملك النعمان مكرما معززا يشار إليه البنان وقد سأله الامراء والعظماء أن يبني لهم قصورا تضارع قصر الملك النعمان فكان يتأبى عليهم ولا يقبل من أحد منهم شيئا ويقول إنى لست فى حاجة الى البناء لان الملك النعمان أعطاني وأغناني وأنا قد عزمت على ترك مهنة البناء وسأقضى بقية عمري فى السياحة والنزهة والاستمتاع بالطيبات أيضا فانه قد أدركه الشيب وضعف جسمه وقلت قوته عن مباشرة الاعمال فى البناء أو غيره من المهن الكثيرة التى كان يتقنها ولا أحد فى الدنيا يعرفها سواه .

وقد اشتدت رغبة سنمار إلي العودة الى بلاده كأنه أحس بداعي المنون يدعوه واقتراب الاجل فأراد أن لا يموت الا بين أهله ولا يدفن الا فى أرضه ووطنه فأخذ يعد العدة للرحيل .

غير أن الزمن غدار والدنيا لا أمان لها ففي ذات يوم أصبح الناس فوجدوا سنمارا جثة هامدة بجوار القصر العظيم الذى بناه

وعلت ضجة الناس لذلك وراحوا يتساءلون عن سبب قتله وازهاق روحه الامر الذي كان خافيا عن كل أحد من رعية الملك النعمان كما أنهم سألوا حاشية الملك ووزراءه فوجدوا أن لا علم لهم بسر مقتله ودام أمر قتله مكتنفا بالغموض والابهام .

غير أن بعض ندماء الملك النعمان سأل الملك ذات يوم عن هـذا الحادث فى أثناء الشراب .

وقد حنق الملك على نديمه لتجرؤه على السؤال عن سنمار وعن مقتله ولكنه

عنقه وأمره أن لا يسأله مرة أخرى فعفا عنه و كان قد أمر بقتله .

غير أن هذا النديم انتظر سنة كاملة يترقب يوم سعده و كان للملك النعمان يوم بؤس ويوم نعيم فاذا لقيه أحد بوم بؤسه قتله واذا سأله أحد يوم نعيمه أغناه ولم يخيب له سؤالا فسأله نديمه في يوم نعيمه فأخبره بأنه هو الذي قتله فان سنمار لما فرغ من بناء القصر صعد مع النعمان على رأس القصر وأعلى مكان فيه فنظر الى البحر تجاهه ورأى السمك والحيتان من شدة صفاء الماء .

ثم اتجه إلى خلفه فرأي البر و به الضباب والظباء والغزلان والاشجار والنخيل ومختلف أنواع الزروع فقال ما رأيت مثل هذا البناء قط فقال له سنمار ياملك الزمان انى اعلم فى هذا القصر مكان حجر لو رفع عن مكانه لسقط القصر كله .

فقال الملك النعمان أيعرفه احد غيرك قال لا فقال النعمان والله لا ادع احدا يعرفه في الدنيا ثم امر به فقذف من أعلى القصر الي اسفله فتقطع .

وتناقلت هذه القصة على ألسنة الناس غير انه شاع بين عامة الناس ان سنمار لما فرغ من بناء القصر قال للملك لو كنت اعلم انك ستعطيني كل هذه الاموال لكنت اعتنيت بالقصر أكثر مما اعتنيت فجاء اعظم مما هو بثلاثة اضعاف وعوض ان يتغير فى النهار الي ثلاثة الوان فقط كنت جعلته يتغير الى مائة لون

فلما سمع النعمان هذا الكلام تغيرت احواله واضطرب فى داخله وقال لسنمار أتقدر على بناء قصر اعظم من هذا اذا دفع لك اموال كثيرة ؟ فأجابه سنمار نعم ياسيدي والله اني اقدر ان أبنى قصرا لا يحسب هذا القصر شيئا بالنسبة اليه ، فزاد غضب الملك واحتدم من الغيظ وقال انى متأكد ان لا نظير لهذا القصر فى الدنيا فاذا بقي سنمار على قيد الحياة فانه يبنى قصرا اعظم منه فينحط شأن القصر وتذهب شهرته .

ثم أمر أن يؤخذ سنمار في الحال ويرمي من أعلا القصر الى أسفله فرمي وقضى نحبه (وقد ضرب فى ذلك المثل فقيل عند مجازاة المليح بالقبيح جوزى كما جوزى سنمار)

ومن يفعل المعروف مع غير أهله   يجازي الذي جوزي قديما سنمار

وبالاختصار وافق الملك النعمان ابنه المنذر على صواب رأيه واتفق أن ينقل الملك بهرام مع أمه إلي قصر الخورنق

ومنذ نقل بهرام إلي ذلك المكان والملك النعمان ملازم للقصر لا ينفك عنه دقيقة واحدة معتنيا بأمر الغلام وتربيته ، في ذات يوم كان النعمان جالسا مع وزيره فى القصر فجعل يفكر فى حسن إنشاء القصر وزخرفته وما حف به من الرياحين والعطريات .

فقال لوزيره انى متحقق أن الدنيا جميعها لم يبن فيها قصر جميل مزين بالنقوش والصور كهذا القصر فالدقيقة التى يصرفها لانسان فيه تزيد فى عمره ألف سنة ، فأجابه الوزير إن ماأشرت اليه من جهة القصر فهو الحقيقة لكن الله سبحانه وتعالى قد أنصف فى عباده وعدل ورحم فما الثروة والنعمة بنافعة للانسان ولوصرف المرء ألف سنة في هذا القصر لايمكن أن تزيد عمره دقيقة واحدة فلابد من الموت ليتساوى به صاحب هذا القصر وغيره ممن لا مأوى لهم ويسلك فى طريق ومضمار واحد السيد والعبد والمالك والمملوك

فلما سمع النعمان من وزيره هذا الكلام تأثر له جدا وتغير لون وجهه واصفر بلون الزعفران وامتلأ قلبه من الخوف والرعب وجعل يصيح كالمجنون ونهض بعجلة وعينه تسكب الدموع بغزارة وخرج من القصر ومقر ملكه ودار حكمه يجول فى أطراف البرارى وهو لا يكف عن البكاء والنحيب حتي غاب عن العيون

وأما الوزير فانه ندم علي ماأبداه للملك حيث لا ينفع الندم ثم ذهب من ساعته الي ولده المنذر بن النعمان وأخبره بما كان من أمر أبيه ، فركب المنذر وركب رجال الدولة وفرسان المملكة يقتفون أثر النعمان بن المنذر عساهم يدركونه أو يجدوا من يدلهم عليه وطافوا اطراف البرية الواسعة وأوسعوا فى جنباتها الاربعة . يبحثون عن الملك فلم يقفوا له على أثر ولم يقفوا له على جلية خبر كأن الارض ابتلعته فرجعوا وهم فى أشد اليأس واعظم الحزن وكذلك رجع المنذر يائسا من لقاء ابيه فبكي على فراق ابيه وما أصابه ، ثم أمر ان ترسل الرسل بالكتب الي جميع الممالك المجاورة والبلاد النائية وببث السؤال فى البراري والقفار ويسألون عنه الغادين والرائحين لعلهم يعرفون له مقرا فسارت الرسل والسعاة أشهرا واياما ولكن دون جدوى ولا فائدة وبعد ذلك عادوا الى المنذر وأخبروه بحبوط مساعيهم وخيبة أمانيهم فزاد كدره ولكنه صبر علي حكم الزمان وفوض أمره الي اللطيف الخبير وجلس فى مكان أبيه يدبر أمور الرعية وينظر فى أحوالها

حتي نسي ما أصاب أباه شيئا فشيئا وكان للمنذر ايضا ولد اسمه النعمان كاسم ابيه ولد في السنة التي ولد فيها بهرام بن يزدجرد فكان يعيشان معا ويدرسان على استاذ واحد ، ويأكلان على مائدة واحدة ، وكان المنذر محبوبا من الجميع تطيعه قبائل العراق جميعها وتدعو له بطول العمر والبقاء وقد صرف اعتناءه الى تربية بهرام اكثر من ابيه حتي انه كان لا يرضي بأن يفارقه دقيقة واحدة ولما وصل بهرام الى سن التاسعة عين له الاساتذة والمعلمين فكانوا يلقنونه العلوم والفنون وطرق الآداب والكمال وكان مع صغر سنه على جانب عظيم من الذكاء والفطنة والفهم والاجتهاد .

وكثيرا ما كان يفحم اساتذته عندما يأخذ معهم بالجدال وطرح الاسئلة الصعبة ولذلك لم يمر عليه ثلاث سنين حتى أتقن العلوم اتقانا عظيما وبرع في كل من اللغة العربية والفارسية والهندية حتى أن أساتذته كانوا يعجبون من فرط ذكائه وحذقه وقد تعلم علم الهندسة والرياضيات ورقي العلوم المتفرعة عنها بطريقة يعجزون عنها أنفسهم ولذلك لم يعد في حاجة اليهم . وكانت محبة المنذر لبهرام تزيد يوما فيوما فكان يطوف حوله كالفراشة

وأما بهرام فكان من فرط ذكائه واجتهاده جميل الطلعة وضاح المحيا وكلما تقدم يوما في العمر أفرغت عليه العناية الالهية حللا من الحسن والبهاء حتي كان الذي يراه لحظة واحدة يشتد تعلق قلبه به وتنطبع صورته في مخيلته فلا تفارقه لحظة واحدة . وبعد أن أدرك بهرام السنة الثانية عشرة وهو على ما هو عليه من الحسن والجمال والآداب والكمال والبراعة في العلوم وغزارة المعارف عين له البهلوانات والفرسان لأجل تعليمه الفنون الميدانية الحربية وركوب الخيل ولكي يتفرد أيضا في ذلك لازمه المنذر بنفسه وجعل يدربه ويعلمه . فكانوا في كل يوم يأخذونه إلى ميدان متسع ويعلمونه الرمي بالسهام والضرب بالسيف والطعن بالرماح والحراب وضرب الدبوس واستعمال كل أنواع السلاح . وفي مدة ثلاث سنوات برع بهرام في كل هذه الألعاب وامتاز بها على من سواه .

فانه لم يكد يبلغ الخامسة عشرة من سنه حتى بذ الاقران وتفوق على الشجعان في كل فن من فنون الحرب والصراع وشهد له الجميع بطول الباع وقوة البأس وشدة المراس وصار يتخرج بنفسه بكل أنواع القتال وعلى الخصوص برمي السهام فكان يذهب الى الميادين الواسعة ويضع علامة صغيرة على مسافة بعيدة ويأخذ السهام

فيرميها بها فيصيب الاهداف ولا يخطئها مرة واحدة وكان المنذر ورجاله عندما يرون منه هذه الاعمال تأخذهم الدهشة والحيرة ويثنون عليه ويمدحون شجاعته وبراعته فى كل فنون القتال

ومن ذلك الحين تولع بهرام بالصيد والقنص فكان كل يوم يخرج الى البرارى فى طلب الوحوش والغزلان . وكان الملك بهرام منذ صغره وصباه يميل كثيرا لمطاردة حمار الوحش فيصطاد منه دائما .

ولما كان يقال لهذا الحيوان باللغة الفارسية (چور) وكان بهرام مولعا بصيده اشتهر بهذا اللقب عند الفرس وهو المشهور فى العالم باسم (بهرام چور) ومعنى ذلك أن اسمه بهرام صياد حمار الوحش .

فكان الملك بهرام يصرف نهاره فى الصيد والقنص يتجول فى البرارى والقفار فاذا أقبل الليل وأسدل ذيوله على الفضاء عاد الى القصر وأقبل على الحظ والمسرات ومن أعجب الامور أن بهرام كان يصطاد هذا الحيوان بالوهق يرمى به الوحش فيتكتف ولا يستطيع الافلات منه ويقبض عليه حيا والحيوان الذى لا يتجاوز عمره الاربع سنوات يعطف عليه ويخلى سبيله أما مازاد عن الاربع سنوات فكان يبقيه عنده وكل حيوان يطلقه كان يطبع على رجله اليمنى خاتمه وفى بعض المرات يدمغه ويختمه في أذنه ثم يطلقه وكان يقصد بذلك أن يظهر الذى يقع فى يده حيوان من هذه الحيوانات أنه طليقه ولكي يعرف هو أيضا ذاك الحيوان فيما بعد اذا وقع فى يده .

ولما دخل بهرام فى سن الفتوة وأتم تعليمه ودراسته كان يكثر من الخروج الى الفلوات ففي ذات يوم خرج الى الصيد والقنص وخرج معه المنذر وكثير من رجاله ولما صاروا فى البرارى جعلوا يطردون فى طلب الصيد ، وفيما كان بهرام مشتغلا بطلب حمار الوحش كعادته وجد غبارا يرتفع إلى الجو فتنشره الرياح فأطلق لجواده العنان قاصدا ذلك الغبار ومع أن المنذر وجماعته ساروا فى أثره لكنهم لم يدركوه لسرعة سيره . وعندما قرب من محل ذلك الغبار وجد أسدا عظيم الجرم كبير الهيكل افطس الانف هائل الحجم والمنظر قد قبض بمخاليه على حمار وحش وقد علا فوقه وعزم على افتراسه فلما رأى بهرام ذلك عدم صبره وطار عقله مخافة ان يغتال الاسد حمار الوحش ويقتله قبله فتناول سهما من كنانته ووضعه فى القوس ثم اطلقه بعزم قوي فخرج من يده صوت دوي

كما كرة مدفع وبأسرع من لمح البصر وقع فى ظهر الاسدفخرج من بطنه وكذلك اصاب حمار الوحش من بعد الاسد فخرقه من جهة الى اخرى وهذه الرواية مشهورة عند الفرس وقد سمر الأسد وحمار الوحش معا وفى هذه اللحظة وصل المنذر وجماعته فرأوا ذاك المنظر المدهش وتلك القوة العجيبة فكادت عقولهم تطير من رؤوسهم وقد هالهم منظر الأسد وهو ميت وامتدحوا الملك بهرام وهنأوه على ما أعطاه مولاه من القوة والبسالة والتفنن فى استعمال السلاح فشكرهم على حسن فعلهم معه وكلامهم له ولما رجعوا إلى المدينة أذاعوا فى أهلها ما كان من أمر الأسد وحمار الوحش وكيف أن بهرام قتلهما بسهم واحد فأخذ الناس يتقاطرون إلى تلك الجهة للتفرج على الأسد . وأما الملك المنذر فانه أحضر مهرة المصورين وأمرهم أن يصوروا فى قصر الخورنق صورة بهرام وبيده القوس موتورة والاسد وحمار الوحش وقد دخل فيهما السهم فسمرهما إلى بعضهما وقد أتقن المصورون عمل تلك الصورة حتى أن الناظر فيها عند وقوع نظره عليها تشتبه عليه بالحقيقة فيظن أنها صورة حقيقية ولا يقدر أن يدرك أنها رسم أبدا إلا بعد الامعان والاقتراب منها .

وفى ذات يوم خرج بهرام أيضا كجارى عادته فى طلب الصيد والقنص وصيد حمار الوحش وفى رفقته المنذر ورجاله ولكنهم لما صاروا فى القفار أطلقوا لخيولهم الأعنة وسار كل واحد فى جهة أما بهرام فانه انفرد وقصد إلى أحد الأطراف بعيدا عن رفاقه وأخذ فى مطاردة الوحوش وفيما هو على تلك الحالة رأى حمار وحش عجيب الشكل والصورة بطنه أبيض كالثلج وظهره أحمر كالقرمز مرقط بنقط تزين جلده بهيئة لم يسبق له أن رأي مثلها وقد جاء ووقف أمام جواده فكاد يطير من الفرح والسرور مع ماهو عليه من التعب والاعياء لانه لم يكن شاهد قبل ذلك الحين مثل هذا الحيوان لونا أو استئناسا وأمل أن أن يمسكه حيا فأخذ الوهق فى يده وعزم على أن يرميه عليه لكن لما رآى ذلك الحيوان المسكين آلة الصيد فى يده خاف على نفسه فجمع يديه الى رجليه وقفز إلى جهة نائية وواصل الجرى فى البرية . فعزم بهرام على أن لا يرجع مالم يقبض عليه فتبعه ففر من أمامه ووقف بعيدا ينظر اليه فسار فى أثره وماهو زال على مثل تلك الحالة يطارده أربع ساعات تقريبا وكل مااقترب منه فر وابتعد حتى قارب النهار على الزوال ولم يبق منه أكثر من نصف ساعة وحينئذ وجد بهرام أنه

عن المنذر أكثر من خمس ساعات ورأى أن الليل صار قريبا فأخذه الملل والضجر ولما لم يكن قد رأى منذ يوم خروجه للصيد إلى تلك الساعة حمار وحش كهذا سريع الركض عجيب الهيئة واللون وقع فى حيرة عظيمه وقال فى نفسه ياللعجب أهو حمار وحش بالحقيقة أم هو عفريت مسحور فى صفة حيوان من خلقة الرحمن . ثم عول على الرجوع الى أصحابه لكنه كان قد تعب من كثرة المطاردة والركض فوقف ينظر الى الحيوان فوجده قد توارى عن عينيه فى مغارة عند ذيل جبل هناك .

فلما رأى تلك المغارة قال فى نفسه لقد هان الامر على لاريب فانى أستطيع ان أمسكه فى داخل المغارة لانها على كل حال أضيق من الخلا فساق جواده الى الامام ولم يتقدم أكثر من أربعين أو خمسين خطوة حتي شعر بوقوع فيح عظيم علي وجهه وقد وقف جواده عن التقدم وشخر ونخر فزادت حيرة بهرام من ذلك وغاص فى بحار الفكر ولاسيما عندما شعر بأن قوة الحر الذى وقع على وجهه بغتة قد انقطت عنه بغتة

وبعد أن وقف متفكرا مقدار دقيقة حملته جسارته وشجاعته على الدنو من المغارة فأرغم جواده على التقدم من باب المغارة ، وقد نظر إلى الداخل فوجد أفعى هائلة كالتنين لون جلدها أسود كالزفت يتلوى ويتقلب على نفسه وعيناه كالمشاعل تقدح نارا ويخرج من فمه نفث كالدخان الاسود شديد الحرارة ينتشر فى أطراف المغارة فلما رأى بهرام هذا المنظر المخيف لحق به بعض الخوف والرعب لكن شجاعته تغلبت فلم يهرب ولم تطعه بسالته على الرجوع إلى الوراء أو التقهقر بل وقف فى باب المغارة مقدار نصف ساعة تقريبا وهو ينظر الى ذلك الحيوان وكبر هيكله حتى قرب المساء وكاد الظلام يغطى وجه الارض بسواده المشابه سواد تلك الافعى الهائلة وكان يفكر ويقول فى نفسه ما الذى قادنى الى هنا وأين ذلك الحيوان المرقش الذي يشبه حمار الوحش ولولاه ماجئت الى الى هذا المكان ولا تعرضت للخطر وهل هذا الافعى طلسم ياترى وما الذى حمل حمار الوحش على أن يقودنى الى هذا المكان البعيد ، ويعرضنى الى الخطر الجسيم بهذه الحية العظيمة لاريب أنه متضرر من هذا الافعى وأنه أذاه وهو خائف منه وقد جاء بى الى هذا المكان يطلب الى أن أنتقم له منه .

نعم لا يبعد أن يكون الأمر كذلك وأن هـذا الحيوان اللطيف البديع قد استجار بى واستنصرنى لنجدته وقادنى خلفه حتى أوصلني إلى هذه المغارة ومن يعلم ما هي المضرة التي أضره بها أهلك له ولداً أو زوجا فبشراك يا أيها الحيوان الظريف الحكيم لقـد عرفت كيف تنتقم من عدوك وأصبت باستجادك بفتى لا يخيب أملا ولا يضيع سؤالا فاصبر قليلا تر ما يسرك هذا هو الليل قد أقبل وأرخى سدوله ولكن لا يمنعني عن الانتقام لك من عدوك فهلم وانظر

ثم تناول كنانته وأخرج سهما ذا إبرتين فوضعه فى القوس ونظر إلى داخل المغارة فوجد الأفعى ملتفا على بعضه كهيئة الجمل ورأسه إلى باب المغارة وعيناه تقدحان بالشرر وكأنهما مصباحان مشتعلان فصوب السهم اليهما وأوتره بعنف ثم أطلقه فخرج كالبرق من بين أصابعه وبأسرع من لمح البصر وقع السهم فى عينى الأفعى فاخترقهما فتخبط الافعي ونفخ وعلا ضجيجه وضرب برأسه المغارة وهو لا يعي من شدة الألم وقد ظن بهرام أن الجبل الذى يعلو المغارة قد اهتز تهتز من شدة عزم الافعى وقوته ولذلك لم يترك له فرصة للاستراحة بل أسرع فنزل عن جواده واستل سيفه ودخل المغارة وهو كالاسد الكاسر وأقبل من جانب الافعي وضربه بقوة زند تهتز له الجبال فأصاب عنق الافعى فقطعه وتدفقت الدماء من جوفه كتدفق الانهار وجرت من باب المغارة إلى الخارج .

ولكن بهرام لم يقنع بقطع رأس الافعى بل أراد أن يشق بطنه ليرى مافيه ولاى سبب يطلب حمار الوحش الانتقام منه ، وقد صح تخمينه وصدق ظنه فانه بعد أن شق بطنه وجد فيها اثنين من أجرية حمار الوحش فتعجب من ذلك أشد العجب وقال فى نفسه سبحان الله ان للحيوانات عقلا وفكرا حسنا فكيف طاف هـذا الحيوان البرارى باحثا على من يأخذ له بثاره ، وكيف أدرك بفراسته أننى الذى أصلح للاقتناص له من عدوه وإهلاكه .

والحاصل أن بهرام بعـــد أن أتم عمله أراد الخروج من تلك المغارة قبل اشتداد الظلام فركب جواده ، وعزم على المسير وما لبث أن خطا خطوة واحدة من باب المغارة حتى أبصر حمار الوحش قد ظهر وأسرع فى الدخول إلى المغارة فزادت حيرة بهرام واضطر إلى أن يرجع الى المغارة ثانيا وهو يقول عجبا ألهذا الحيوان عدو آخر يتمنى الانتقام منه وما لبث أن دخل خلفه حتى وجد فى زاوية المغارة لمعانا وبريقا فتقدم نحوه وإذا به يرى ذاك الحيوان قد كشف عن كنز

كان مدفونا في جانب المغاره مملوءاً بالجواهر النفيسة وقطع الماس الكبيرة والذهب الوهاج وبه مقدار عظيم من الاحجار الكريمة التى لا يوجد مثلها فى أكبر خزائن الملوك وأعظمها .

فلما رأى بهرام هذه الجواهر اندهش وتعجب والذي زاد عجبه وجود مثل هـذا الكنز العظيم فى تلك المغارة المنفردة وقد علم أن الحيوان أراد أن يقدم له هذا الكنز النادر في مقابلة قتله الافعى التى قتلها أخذا بثاره .

ولكنه بعد التفكر برهة عاد فركب جواده وأبقى تلك الجواهر فى محلها وفى عزمه أن يطلع المنذر عليها فيرفعها إلى خزائنه غير أنه لم يسر إلا مسافة قصيرة حتي سمع وقع حوافر الخيل على حصباء تلك الارض تقترب منه فتقدم اليه ، فعلم أن المنذر ورجاله قد افتقدوه وانتظروا رجوعه . ولذلك فان المنـذر ورجاله لما طال عليهم الانتظار جعلوا يطوفون فى تلك النواحى للبحث عن بهرام فمكث ينتظر وصولهم ولم يمر غير بضعة دقائق حتى اجتمع بالمنذر . وكان من أمرهم أنه لما غاب بهرام عن أعينهم وهم مشغولون بالصيد ومتفرقون فى تلك النواحى ظنوا أنه يطارد حمار الوحش كعادته فلذلك لم يتتبعوه ولكنهم لما طال غيابه وقرب المساء انتظروه فلم يرجع فشغل بال المنذر عليه وقد خاف أن يكون قد وقع فى محذور أو أصابه أمر مكروه أو افترسه وحش كاسر لانه كان على كل حال صغير السن ولم يبلغ مبالغ الرجال ولم تكتمل قوته فجعل يدور عليه فى الجهة التى سار فيها ورجاله من خلفه يبحثون عنه حتى يسر الله الامر والتقى به في ذلك المكان على سبيل الصدفة فلما رآه فرح كثيرا وسأله عن حاله وعن سبب تأخيره فى ذلك المكان الي مثل تلك الساعة حتى سبب شغل أفكارهم .

وكان بهرام قد سر كثيرا من لقائه للمنذر بالقرب من المغارة فأخبره بكل ما جري له ثم نزل عن جواده وأخذه من يده ومشى به نحو المغارة ثم أدخله اليها ولما رأى المنذر هيكل تلك الافعى العظيم التى لم ير مثله ولا سمع من أحد بوجود نظيره وكان الدم لا يزال ينساب من بطنه الى الخارج تعجب وارتعب وعظم شأن بهرام فى عينيه أكثر من قبل وقال له والله يا ولدى انك نادرة زمانك وفريد عصرك وأوانك ولو لم أر هذه الاعمال بعينى لما صدقتها ولو حكاها لي أبي أو قرأتها فى سير الاولين وأخبار العلماء الماضين وكتب الانبياء والمرسلين لعظم على

تصديقها فليساعدك الله ويمونك ويحرسك من كل عدو ويقيك شر عيون الحاسدين . فقبل بهرام يده وشكره ثم قاده الى مكان الكنز وأراه الجواهر فزاد تعجبه أكثر من الاول وطار صوابه وقال من أين كل هذه النفائس فلا ريب أن أحد الملوك العظام كشداد بن عاد او غيره من الذين ملكوا أكثر أقسام الدنيا دفنها فى هذا المكان لسبب لا يعلمه الا الله .

ولما كان الوقت قد مضي والليل قد اشتدت ظلمته صرفوا ليلهم فى ذاك المكان يتحدثون عن بهرام واعماله وقد نصبوا الخيام وفرشوا مامعهم من المفروشات وأوقدوا النيران وشووا مامعهم من الصيد واكلوا وناموا الى أن اشرق الصباح فهبوا من رقادهم وارسل المنذر السعاة الى المدينة فأتوهم بالجمال والبغال فحملوا تلك الجواهر المتقدم ذكرها ورفعوا الذهب على ظهورها وكان يبلغ قناطير كثيرة . ومن ثم رجعوا الى المدينة وهناك امر المنذر المصورين ان يذهبوا الى تلك المغارة فيروها ويروا ذاك الافعى ومن ثم يصوروا بهرام وقد اطلق سهمه على الافعي فى وسط المغارة فقتلها والدم يجري كالنهر فى حوائط القصر بجانب صورة الاسد .

وشاع خبر بهرام وقتله الافعى فى المدينة فأخذ الاهلون كبارا وصغارا رجالا ونساء يتقاطرون افواجا ويتسابقون الي تلك الناحية للفرجة على تلك العجيبة وما من احد الا وقددهش وكاد لا يصدق ان انسانا يقدر على مثل هذا الحيوان الذى لو ضرب جبلا لزعزعه ولو راى اسدا لقتله وازدرده دفعة واحدة وزادت محبة بهرام فى قلوب الاهلين فكانوا يحلمون به ويحلون قدره ويتمنون ان يروه فى كل ساعة واصبح اسمه فى فم الكبير والصغير وكان الجميع يمدحونه ويدعون له بطول العمر والبقاء .

فهذا ماكان من المنذر ورجاله وأما بهرام فانه عاد إلي القصر كجارى عادته كأن مافعله من الأمور العادية التى لاتثير اهتمامه ولم يكن يفكر فى شيء مماحدث ولا الجواهر ولا الافعى إلى أن رأى نفسه ذات يوم ضيق الصدر متكدر الخاطر فجعل يتنقل من غرفة إلى غرفة ينظر فى القصر وبنيانه قاصداً التلهى والتفريج عن نفسه ليذهب مابه من الانقباض والوحشة .

وفيما هو على مثل ذلك رأي بابا مقفلا وكان قد رآه قبل ذلك كثيرا لكنه لم يكن يحفل به أما فى هذه المرة فقد تاقت نفسه الي معرفة مافى داخله وقال

عجبا انني منذ وجودي فى هـذا القصر وأنا أرى هذا الباب مقفلا ولم يفتح يوما واحدا فلماذا ياترى وماذا يكون داخله فلا بد لهذا الأمر من سبب .

وفى الحال دعى اليه خادم القصر لخضر فقـال له انى منذ جئت الى هذا المـكان وأنا أري باب هذه الغرفة مقفلا كما هو ولم أر أحدا فتحه فلأى شيء هو مغلق دائمـا وماذا يوجد فى هـذه الغرفة قال خادم القصر انى يا سيدى لا علم لى بشيء من ذلك وغاية ما أعلمـه أن الملك النعمان سلمنى مفتاح هذا الباب وقال لي أبقه معك الى حين يطلبه منك الملك بهرام وانى اعتقد ان لا أحد يعرف ماداخل هذا الباب الا سمار الذى بني القصر فانه كان حكيما ماهرا والا الملك النعمان .

فزادت رغبة بهرام فى الوقوف على مافى هذه الغرفة من الخبايا وقد ثبت لديه أنه يوجد شيء هام مهيأ له منذ طفولته وقد أوصى الخادم بأن يكتمه الى حين كبره .

ثم ان الملك بهرام أخذ المفتاح من الخادم فوضعه فى الباب وفتحه ونظر الى مافى داخله واذا هو يرى سبعة كراسي مطلية بالذهب الوهاج مرصعة بالجواهر والياقوت وعليهـا سبع بنات حسان كأنهن الاقمار جالسات كالملوك على عروشهن فأخذته الدهشة والرجفة في الحال لأنه لم يكن ينتظر ان يري مثل هذا المنظر البديع فوقف مبهوتا وعيناه جامدتان فى البنات يري ولا يعى وبقى غائصا فى بحار الحيرة مقدار ساعة تقريبا .

ثم بعد ذلك عاد اليه وعيه وشجاعته فتقدم الى الامام ودنا من الاسرة بقلب واله وعقل تائه وأحدق فى البنات فاذا هن رسوم لا جسوم قد صنعت بيد فنان ماهر ومصور مبدع قادر فتن بصنعه القلوب وموه على الابصار فلا يقدر الرائي على التمييز الا باللمس عن قريب وبعد مدة ارتد الى بهرام وعيه وأفاق من غشيته قليلا لكنه بقي غائصا متأملا فى وجودهن وصنعتهن وعجيب وصفهن وهو يتأمل ويحاول أن يميز جمال واحدة عن أخواتها فلم يقدر أن يحكم لواحدة بالتفوق فى الجمال وأخذ عند ذلك الحب يتجسم فى فؤاده بفعل العناية حتي كاد يقع الى الارض وهو لايعرف ماذا يفعل وقد زاد تأسفه وهيمانه لمـا رأى ان ما أمامه ليس الا رسوما وصورا لا تحس وود لو انها كانت أجساما حقيقية وكان قلبه يخفق عند وقوع نظره على كل واحدة منهن والافـكار تتلاعب به

وتبين له ان لا بد من اصل لتلك الصور القائمة على عروش البهاء والكمال وانها ما صنعت الا لغاية تتعلق به وأمر يختص له وقد حفظت كل ذاك الزمان فى ذلك المكان على أمل أن يراها وقد أوصى بانى القصر والملك النعمان خادم القصر باخفاء مفتاح تلك الغرفة الى حين يكبر فيسلمه اياه ورجح عنده ان لا بد لذاك من سر عجيب وأمر غريب .

وفيما هو على تلك الحالة تارة تتجاذبه الافكار وتتلاعب به التخيلات والاوهام ودواعى المحبة والغرام وطورا يقف عند البحث فى سبب وضع هذه الصور فى ذاك المكان واحيانا يعود اليه الصبر والجلد فيعزم على الخروج والتخلى عن عن تلك المناظر البديعة التى لا يستفيد منها الا الحسرة والحزن لانها جوامد غير ناطقة واذا به يري كتابة فارسية بحروف فضية دقيقة بارزة على ألواح من الذهب الاصفر .

كل منها معلق بكرسى من الكراسي السبعة ، فأدرك أنها أسماء الملكات الجالسات على هذه الكراسي فاقترب من تلك الألواح وأخذها بيده وقرأ مافيها وإذا به يجد مكتوبا على اللوح الأول (هذه صورة نور بنت ملك الهند) وعلى اللوح الثانى (هذه صورة لقمان بنت ملك الصين) وعلى اللوح الثالث (هذه صورة برى بنت سلطان خوارزم) وعلى اللوح الرابع (هذه صورة نسرين بوش بنت ملك الصقالبة) وعلى اللوح الخامس (هذه صورة درستى بنت كسرى من نسل كيكاوس) وعلى اللوح السادس (هذه صورة هماى بنت قيصر الروم) وعلى اللوح السابع (هذه صورة اذربون بنت سلطان الغرب) فلما قرأ بهرام تلك الكتابات وعرف أسماء صاحبات تلك الصور زاد فى الحيرة والاندهاش وجعل يبحث فى أطراف الغرفة وتحت الكراسى عله يقف على أثر آخر يزيده علما أو يوضح له شيئا من أمر تلك الصور أو صاحباتهن وإذا به يعثر صدفة على لوح آخر مكتوب عليه ما يأتى « إن المنجمين وعلماء الدولة والمطلعين على أحوال الملوك وأدوار السلاطين والعارفين بحوادث الدنيا وموجوداتها أخبروا أن بهرام ابن الملك يزدجرد سعيد الطالع وقد قدر الله سبحانه وتعالى أنه يملك السبعة الأقاليم ويحصل على بنات ملوكها السبع أجمل بنات الدنيا ويكون له من المجد والعظمة مالم ينله غيره قبله من الملوك » فلما قرأ بهرام ذاك اللوح وقف متفكرا فى أمر هذه الدنيا وكيف أن الله سبحانه وتعالى خلق فيها أناسا يبحثون عن

أحوال المستقبل ويعرفون ما سوف يقع في مستقبل الايام وأنهم على الدوام يصيبون . ولذلك استغفر الله وخر ساجدا شكرا له علي عظيم فضله ونعمه وبعد أن صلى وطلب المعونة من الله عاد الى صور البنات ووقف أمامهن وقد زادت محبته الى صاحباتهن حتى أصبح لا يقدر أن يفارق ذاك المكان بسهولة . ثم قال في نفسه يجب أن أرى أية صورة اجمل وابدع فنظر في الاولى وأحدق فيها وقال لاريب أن هاته أبدع الجميع حسنا وبهاء وجسماً وقدا واعتدالا وبقي محدقا بها حاكما بوحدانية جمالها وكمالها إلى أن انتقل إلى الثانية فجعل يتأمل فيها وقال لأ بل هذه أبدع منظراً فكل مافيها كامل ومحبوب وبقي كلما وقع نظره على صورة يحكم بأنها أبهى الجميع حتي حكم للسبع بنات بأن كل واحدة أحسن من الثانية ودام على حاله مدة من الوقت وقد انسحب قلبه وهطلت دموعه تكرارا وهو يفكر في الطريق الذى يوصله إلي البنات وفيما هو على مثل ذلك عاودته شجاعته وبسالته ودبت في جسمه حرارة الجد والسعى فقال في نفسه ماالفائدة من وقوفي في هذه الغرفة أمام الاصنام الواقفة والصور الصامتة التى لا تحس ولا تشعر ووقوفي لايزيدني إلا حسرة وألا أزيد الا تأوهاً فالافضل لي ان اتكل على ما اعطانيه الله من الشجاعة والعقل فأسعى خلف صاحبات الصور ولابد لى من العمل بجد وحزم لأحصل على اصحاب هذه الصور الجميلة ولو خضت بسببهن لجج البحار او طويت الفيافي والقفار وماقدره الله على فلابد من وقوعه ولو حال دونه ألف حائل .

ثم انه خرج من تلك الغرفة واقفل الباب ووضع المفتاح في جيبه ورجع الى ما كان عليه من قبل من الخروج إلى الصيد والقنص في النهار وفي المساء يعود الى القصر فيدخل علي الصور وينظر اليها وكثيرا ما كان يخاطبها بقوله وهو سكران بخمر جمال صاحباتها « يا أيتها الملائكة الجالسات على عروش البهاء والجمال من منكن يلزم أن أحب فأخصص لها نفسى لا يمكن أن أعطي قلبي لكن دفعة واحدة وهو لا يطاوعنى الا على محبة الجميع فماذا ياترى اعمل » وكان يحزن ثم يتسلى ثم يسر ثم يعود الى حزنه واخيرا يخرج من تلك الغرفه ثم يعود الى جارى عادته من الصيد والقنص بالنهار ثم الاقبال على الطعام والشراب والانس بالالعاب بقية النهار وعند المساء يدخل الغرفة فيصرف وقتا طويلا على الوصف الذى

قدمناه وكانت الايام تمر عليـه وهو على تلك الحالة الى ان بلغ سن الخامسة عشرة من عمره .

ففي ذات يوم جلس في القصر مع الملك المنذر وأخذا يتباحثان في شتى الأمور فخطر على فكر بهرام أمر أبيه فقال للمنذر عجبا انى منذ زمن طويل لا أعرف شيئا عن أبى فلماذا ياترى هل نسيني ولم أعد أخطر له فى خاطر فأجابه المنذر انه مطمئن البال عليك وان كثرة أشغاله هي التى حملته لا يفكر إلا فى أمر المملـكة . فلم يقنع بهرام بهذا الجواب بل في الحال أحضر رسولا وأرسله إلى ايران لينظر فى أحوالها ويعرف أبيه وهل هو حى أم لحقه المنون .

فسار الرسول وغاب عدة أيام ورجع وهو بحالة حزن ويأس ودخل على بهرام وقبل الارض بين يديه ووقف ذليلا حزينا فخفق قلب بهرام وأدرك أن أباه توفى لامحالة وأنه شرب كأس المنون التي يشربها العالى والدون ، ويجرعها الصعلوك كما يتجرعها الملوك فقال للرسول أخبرنى بما رأيت ولا تخف وعليك الامان فقال : إعلم يا سيدي أنى خرجت من هنا وسرت بعجلة فى طريق ايران حتي صرت قريبا من ضواحيها وقبل ان ادخل صادفت فلاحا فى حقله فسألنى أين تقصد فقلت له قصدى المدينة قال ارجع من حيث أتيت فلا أحد يقدر ان يدخل ومن يرونه داخلا يقبضون عليه فاما يقتلونه واما يبعدونه فانى أنصح لك ان لا تدخل والسلام ثم دار ظهره ومشى فسألته عن السبب فلم يجبنى بجواب وزاد اضطرابى ونويت أن لا أرجع فتقدمت وكان الليل قد أقبل فأخفيت نفسي فى احدي الزوايا الى ان مضي اكثر من نصف الليل فتسللت الى داخل المدينة دون أن يرانى أحد لكن كنت خائفا أن أسأل أحدا فيعرفني غريبا فيقبض على وبقيت متحيراً الى ان خطر لي خاطر وهو ان اذهب الى بيت اناس كنت اعرفهم قديما وهم أنسباء زوجتى فأتيت البيت وطرقت الباب ففتحوا لى ولما راونى عرفوني ورحبوا بى وادخلونى وسألونى عن امرى فقلت لهم قبل كل شيء اريد ان اعرف لماذا منع دخول الغرباء المدينة ولاى سبب .

فقالوا لى ان الحكومة الحاكمة الآن منعت دخول كل من يأتى من الخارج ولذلك ترانا متعجبين من دخولك البلد ووصولك الينا

فقلت وما السبب لهذا العمل مع ان الملك يزدجرد كان يسمح لـكل غريب بالدخول والخروج فماذا حدث بعد غيابى وهل لا يزال الملك يزدجرد حيا

فتأوهوا وقالوا لا تسل يا نسيبنا فان الاحوال قد تغيرت والامور تقلبت وتوفى الملك منذ خمس سنين ومنذ ذلك الحين والطرق مسدودة فى وجه الداخلين الى المدينة والمسافرين اليها وذلك انه بعد ان توفى الملك يزدجرد كفنوه وطلب كبراء المملكة واعيانها الى الوزراء والوكلاء ان يستحضروا بهرام بن الملك فوعدوهم باحضاره وأروهم كتابة كتبوها يستدعونه بها لكنهم لم يرسلوا الكتابة بل اجتمعوا الى بعضهم البعض واعتمدوا ان لا يضعوا احدا من اولاد الملك يزدجرد فيما بعد وصار كل ما سأل الاهالى عن بهرام وزمن وصوله يقولون لهم غدا يحضر وفى الشهر الآتى يحضر وهو مشغول الآن بالصيد والقنص ويختلقون أقوالا لا أساس لها وأخيرا عرفوا أن لا بد لهذه الحالة من نهاية فدبروا الامر فيما بينهم واجلسوا علي العرش رجلا اسمه خسرو وساعدوه بالاموال والجنود واورثوه الدور والقصور والتزمت الرعية السكوت وخصوصا لانها لم تكن تعرف شيئا عن ابن ملكها ولا تعلم أيأتى ام لا والآن هم صابرون على حكم القضاء واما الوزراء والملك خسرو فاهم في خوف دائم من وصول الملك بهرام او وصول اى رسول من قبله ولذلك لا يتركون احدا يدخل المدينة ومن يدخلها يقبض عليه فيطرد واذا اشتبه فيه بانه ربما يكون رسول بهرام يقتل كي لا يوصل اليه الخبر .

فلما سمعت ذلك خرجت فى الحال من البيت دون ان اصغي لدعوتهم لي وانسحبت تحت ذيول الظلام من المكان الذى دخلت منه ولما صرت فى الخارج أمنت على نفسي وشكرت الله على خروجى المدينة سالما لاصل اليك بخبر اولئك اللئام الذين حملتهم الخيانة والغدر على سلب الملك من يدك وهذا كل ما رأيته وسمعته يا سيدى .

ولما سمع بهرام من الرسول هذا الكلام كاد يختنق من الحزن على ابيه ومن الغضب على وزراء المملكة ووكلائها وقد احمر وجهه ثم اصفر واخذ يتلون نحوا من ربع ساعة حتى هدأ غضبه نوعاما ورجع اليه بعض روعه وحينئذ بكى على والده وسالت دموعه على خديه .

وفيما هو علي مثل ذلك دخل عليه المنذر ولما رآه على ما تقدم كاد يطير صوابه واستفسر من الرسول عن السبب فأخبره بكل ما جرى فأخذ المنذر يسليه ويطيب خاطره وقال له ان موت ابيك يفطر قلوبنا ويحزننا كثيراً ولكن علينا

أن نتمسك بالصبر والتعزية لأننا سائرون فى أثره وسيحزن علينا خلفاؤنا كما نحزن نحن على أسلافنا والرجل العاقل هو الذى يدوس المصائب بقدمه فلا يقع تحتها فتسحقه .

وأما من جهة ذلك الذى جلس على العرش واغتصب حقوقك فاننا نسير اليه الجيوش ونحاربه ولابد أن ينضم الينا أكثر شعوب الفرس لعلمهم أنه مغتصب حقوقك متعد على ميراثك فيقلعونه بالقوة عندما يرونك واصلا إليهم ويشاهدون ما أنت عليه من الشجاعة وكمال السجايا وشريف الأعمال وها أنا ورجال العراق بين يديك نفديك بأرواحنا ونسير فى ركابك أينما سرت فأزح عن قلبك الهم والغم وانهض نهضة الاسد فما أنت ممن يعجز عن نيل مراده وأخذ ثأره من خصمه .

فقال بهرام أما ذهابى إلى ايران فلابد منه فانى أوافيها بصارمى الأبتر واجمع لى جيشا من محبى أبى ومهما كان عدده فانى أهدم عليه المدائن وأدك أسوارها فوقه وأجعلها قاعا صفصفا وقد ظن أولئك الوزراء الخائنون انى كغيرى من الضعفاء الذين تسلب أموالهم ويؤخذ الملك من يدهم فلا يتحركون وسيرون سيفا يقد الحديد وغربا تهتزله الجبال لكنى لا أرغب أن أقودك وجيوشك إلى تلك البلاد وكفى ما تحملت من أجلى من العذاب والتعب خمس عشرة سنة وأنت موجه الى كل همك واهتمامك ، كأن لا شغل لك إلا شأنى والعناية بى فأنا مدين لك معترف بجميلك الى الابد وكل مابى من شجاعة أو علم أو كرامة أنت سببها ومصدرها .

فأجابه المنذر عبثا تحاول ياولدى أمر الانفصال عنا فأنت ربيت عندى كولدى وأنا أعزك وأحبك أعظم من أولادى وأهلي ولا أريد أن أتخلى عنك وإن كنت انت لاتسير إلى إيران فها أنا أسير بنفسي من الغد وأستعين بالله على هذا الظالم الغدار وآخذ بثار أبيك لانه كان يعزنا ويودنا ويركن الينا فى أكثر الشدائد والملمات وما يعرض له من النائبات ولم ير من يودع عنده ابنه إلا أبى فانهض فما فى الكلام فائدة .

ثم إن الملك المنذر أمر من تلك الساعة بأن تتأهب جيوش العراق والحيرة وأن يكتب الى قبائل العرب أن توافيه برجالها وسلاحها فتقاطرت القبائل على خيولها ولم يمض الا يسير من الايام حتى ركب الملك المنذر وبهرام وركب من خلفهما مائة ألف فارس من الفرسان المعدودة كلهم بالدروع الداودية والسيوف

اليمنية وتحتهم الخيول العربيــة وساروا يقصدون مملــكة ايران وتلك النواحى وما زالوا فى مسيرهم حتى وصلوا قرب مدينة ايران فنزلوا فى خارجها لأخذ الراحة والنظر في تدبير الامر .

ولما بلغ الخبر الملك خسرو الذى أجلسه الوزراء على تخت فارس خاف لانه كان شيخا طاعنا فى السن وليس فيــه من الشجاعة والقوة ما يثبت به فى ميدان الوغى والنزال ويقاوم به أخصامه الاشداء ولا سيما وقد ثبت لديه أن الرعية كلها ستجتمع إلي ابن ملــكها ووريث العرش بعد أبيه ولذلك أحضر اليه الوزراء والوكلاء وقال لهم : انى أعجب من خيانتكم لملــككم السابق وغشكم ملــككم الحالى فما دام فى الدنيا وارث لتخت فارس فلماذا دعوتمونى وأجلستمونى عليــــه . فأجابوه عفواً يامولانا اننــا فعلنا ما فعلنا لعدم رغبتنا فى بقاء تلك العائلة فاننا لانريدها وأكثر الاهلين ينفرون منها فضلاعن أن شدة رغبتنا وعلمنا بعلو مقامك ورفعة شأنك هما اللذان حملانا على أن نفعل مافعلنا .

والآن لايرهبنك هذا الغلام فانه ولد لم يتجاوز الخامسة عشرة فلا يقدر أن يقاومنا فى عزمنا ومن الواجب أن ترسل إليه تتهدده بكثرة الجيوش والابطال وتبين له أن اتكاله على جيوش العرب التي معه لايدفع عنه شدة وتسأله أن يتنازل لك عن الملك ويهبك حق الميراث فلابد أن الخوف يحمله الي إجابة طلبنا فهو طفل على كل حال ونكون بذلك قد أرضينا الرعية عموما وارتحنا من اللوم والتنديد واستغنينا عن استعمال القوة وأبقينا الســلام بيننا وبين العرب لانهم من أتباع دولتنا وما أخفينا أمر توليك عن الملك المنذر طول هذه المدة إلا لعلمنا بوجود بهرام عنده .

فاستصوب خسرو ذلك الرأى وثبت لديه صوابه وكتب لبهرام كتابا يقول له فيه بعد السلام والثناء إعلم ياولدى أن الله قد أحسن الى بتخت فارس وأوصلني اليه لا بسعى وجد ولا بجند وقوة ولا بميراث وحق لكن إرادة الله قضت بذلك لانه من المعلوم عند الناس أن الرجل الحسن الطالع تخدمه الاقدار . فالآن فانى مهما نظرت الى الملك والعظمة والسلطة فلا أرى نفسى سعيداً لان هذا كله يشبه العسل الممزوج بالسم . وانى كنت في غنى عن كل ذلك قانعا بثروتى ونفوذ كلمتي مرتاحا عن حمل هموم الغير فاجتمع الرعية والجنود وأخذونى من عيشتى فى الراحة والهدوء وأجبرونى على الجلوس على تخت السلطنة . . كلا . كلا . .

انهم لم يقيمونى ملكا بل غفيراً . وفى الامثال :

ان نصف الناس أعداء لمن ولى الحكم وهذا إن عدل

وعليه فأرى أن شابا مثلك فى أول عمره يقدر أن يتناسي الملك وينصرف إلى الملذات والملاهى ويعيش في نعمة وراحة وسكينة لا يتحمل أثقال الملك ومصاعب رجال الدولة بالنظر لاختلاف مشاربهم وغاياتهم وعلى أن أصحاب الامر والنهي فى بلاد فارس لا يريدونك ولا يتركونى فأتخلى لك عن الملك الذى أكرهه فأنت الآن أكثر سعادة لأنك تتنعم بلذات هذه الدنيا خال من كل هم فتخرج الى الصيد عندما تريد وتجلس على موائد السرور والملذات مع أصحابك في أى وقت شئت لا يشغلك عن مشتهاك شاغل مع أنى فى هم وغصة بالليل والنهار أضطر إلى مداراة الخواطر ودفع نقمات العدو والتفكر فى التخلص من وسائس الذين لا يمكن لى أن أرضيهم وهذه أقل هموم الملك وكنت أرغب فى أن أسلمك العرش بهمومه وأثقاله وأعيش كما تعيش أنت بالصفاء والرخاء لكن الوزراء والجند والامراء لا يقبلون حكمك ولا حكم أحد من عائلتك لانهم يرون أن أباك كان أثيما ظالما مر الكلام يحتقر الكبير والصغير ولذلك لا يمكن أن أتخلي عن الملك لمن تكرهه الرعية ومن الموافق أن تتنازل لي عن حقوقك ولا ترغب فى قوم يكرهونك فاذا بقيت مصرا فتأكد انك لا تنجح فان جند فارس كثير لا يحصى له عدد وفى خزائن المملكة من الاموال ما يكفينا لأن نحارب ملوك العرب والروم والهند والصين وكل ملوك الارض ويترجح لنا الفوز لكثرة الجنود والاموال فانظر فى أمر نفسك نظر الخبير العاقل ولا تطوح بنفسك فتندم والسلام .

وبعد أن فرغ من كتابة هذا الكتاب أخذه اثنان من الوزراء وخمسة من حكماء الدولة وساروا به الى جيش العرب ليسلموه إلي بهرام وينذروه بالخطر وينصحوا له أن لا يتصدى لتخت فارس ولم يكن الا القليل حتي وصلوا جيش العرب وأرسلوا فأخبروا بهرام بوصولهم اليه فأمرهم بالدخول عليه فنزلوا عن خيولهم ودخلوا الصيوان وبعد أن أدوا رسوم السلام والاحترام على حسب عوائدهم وقفوا بين يديه وكان بهرام جالسا على كرسي مرصع بكمال الهيبة والوقار ونور جماله يملأ المكان فأمرهم أن يجلسوا في مكان عن يمينه فجلسوا فرحب بهم وبش لهم .

وأما هم فانهم عندما شاهدوا هيبة بهرام وعظمته وما هو عليه من الحسن

والاجلال تعجبوا ووقعوا فى حيرة وخوف . ومن ثم نهض أحد الوزيرين واقفا على الاقدام وبعد الدعاء ناوله رسالة الملك فأخذها من يده وناولها إلى كاتبه وأمره أن يقرأها بصوت عال . فأجاب الكاتب أمره وقرأها عن آخرها حرفا حرفا .

ولما سمع بهرام الرسالة وعرف مضمونها احتدم من الغيظ وصار وجهه أحمر كالدم وتطاير الشرر من عينيه وصبر على نفسه إلى أن استكن وعاد إليه لونه الطبيعى شيئا فشيئا وبعد أن جمع حواسه وقبض على أزمة غضبه أخذ يفكر فى الجواب برهة ومن ثم قال للوزراء بكمال الوقار والاحترام .

نعم قرأت الرسالة وعرفت جميع ما كتب فيها لقد أرسل ينصحنى ويشير على أن أبقى فى الصفاء والانس ولا يخفاكم أن عندي من الجواهر والاموال ماأقدر أن أشترى به السبع أقاليم وأملاك الدنيا من أولها إلى آخرها لكن أري من المفروض على أن لا أترك البلاد التى ملكها أبى وأجدادي والتخت الذى يحق لى ميراثه أن تصرف الآخرين وفى المثل . . إذا ادعى أبى الالوهية وجب على عبادته ، والانسان العاقل لا يسمح له عقله ولا يطيعه شرفه على التخلى عن حق كهذا كان من رغبة أبيه إيصاله اليه ومع ذلك فان كان أبى ظالما فأنا عادل وإن كان غضوبا فأنا حليم وإن كان قاسيا فأنا لين . وإن كان ليلا فأنا نهار ألا تعلمون أن الليل يولد النهار وأن الماس من الصوان . فاذا كنتم تقيسوننى بأبي فأنتم فى غلط مبين . وأما أنا فان كنت نائما إلى الآن فهاقد استيقظت وان كنت جاهلا الخبر فهاقد علمته وعرفت كل شيء ومع ذلك فأتجاهل كأنى لا أعرف شيئا فألتفت الى مصالح العباد ولا أنفصل عن النظر فى شأن المملكة دقيقة ولا أطمع فى مال أحد وروح أحد وأعفوا عن خيانتكم وخطئكم وأجرى ماهو لائق في حقكم ولا أدع الحكماء والعلماء بعيدين عن بابى وأطرد عنه كل جاهل وخبيث وأحافظ على أموال وأعراض الجميع سواء كانوا علماء أو جهلاء ولا أنظر بخيانة الي مال أحد ولا أضيع مصالح الاهالى والعباد وما يتعلق بهم الي غايات الوزراء ورجال المعية بل أراها بنفسي وأحكم فيها بعدل الله وحقه ومازلت حيا لا أقيم على المملكة وكيلا لى ولا أختار وزيرا الا من فلاسفة العصر وعقلائهم والحاصل أنى لن أغفل دقيقة عن أمور الملك ولا أفعل الا ما يرضى الله ويسر الرعية .

ولما فرغ بهرام من كلامه والوزيران ورجال الفصاحة والحكمة الخمسة يسمعون كلامه اندهشوا من فصاحته وطلاقة لسانه وحسن آدابه وكانوا قد انقادوا لهيبته وحسن طلعته فعرفوا أنهم فى غلط مبين وقد ندموا على ما سبق منهم لان مثل بهرام يفدى بالارواح والاموال ومضى عليهم مقدار ساعة وهم سكوت لا ينطقون ببنت شفة يفكرون مطرقين الي الارض فى ماذا يجب أن يعملوا .
وبعد ذلك نهض الوزير الاول واقفا على الاقدام ودنا من السرير الجالس عليه بهرام فعمله وبعد أن أكثر له من الدعاء والثناء قال له اننا نعلم ياسيدى أننا غلطنا وارتكبنا طريق الشطط ويكفى أن فصاحة لسانك الآن وحلاوة حديثك تنسينا كل مالاقينا قبلا من أبيك فوارث المملكة الحقيقي هو أنت ولذلك نرجو من لدنك العفو عن خطئنا وخيانتنا والآن نؤكد لك أن العرش والتاج والصولجان خلقت لك فلا تليق بغيرك وعلى الخصوص أنها ملكك وحقك فقد تركها لك أبوك وأجدادك ومن يطمع فيها فهو باغ واننا على يقين من ان عامة الرعية والجند يكونون ممنونين من توكيلك عليهم ويفرحون. لذلك كثيرا لكن ما الفائدة الآن فاننا نعترف لك بالحق الذى أنت أهله ونتمنى من كل قلوبنا أن تكون سيدنا وسندنا وقد سبق لنا أن بايعنا خسرو وعاهدناه على الامانة وأقسمنا له الايمان العظام بأن نكون أمناء على شخصه وتاجه ولانخون له عهدا ولا ميثاقا وهااننا الآن نفدي أرواحنا فى سبيل خدمتك فقط نرجو منك أن تبحث لنا عن حجة نحتج بها لدى خسرو فاننا لا نقدر أن نقاومه وقد اخترناه من نفوسنا فيلزم أن نخرج من عهدنا بسبب الاعتراض عليه .
ولما سمع بهرام كلام الوزير سر منه قلبا وقالبا وتبين من وجهه صدق كلامه وحينئذ قال بكمال الاحترام والوقار لكم الحق بذلك لأن العهد والميثاق شيء عظيم لكن يلزم أن تتفقوا وتقرروا على مايأتى وهو أن تأخذوا تاج أبي وتأتوا به الى ميدان المدينة الواسع الجوانب وتأتوا بأسدين جائعين مدة أيام وتربطوهما الى تخت تضعونه فى نصف الميدان وتضعون التاج على التخت فمن يقدر أن يجتاز بين الاسدين ويأخذ التاج عن التخت ويلبسه يكون نصيبه عرش مملكة فارس ويتنازل له الآخر عن حقوقه عن طيبة خاطر ورضا وهاأنا راض بهذا الشرط وقابل لكل مافيه وحينئذ اتفق رجال مملكة ايران على هذا الرأي واعتمدوه فيما بينهم وهم في حيرة عظيمة من هذا العمل وقد وافق هذا الرأى مشربهم لانهم

علموا أنه يستحيل على كل واحد من الاثنين أن يجتاز بين الاسدين لكنهم تيقنوا أنهم لابدوأن يخلصوا من هذا المشكل و يتخلى عن الملك أحد الملكين أو يذهب فريسة الاسدين

وبعد أن قر قرارهم على هذا الشأن نهضوا وقبلوا التخت الجالس عليه بهرام وخرجوا من حضرته وهم فى حيرة عظيمة مما شاهدوا وسمعوا ولازالوا يتحدثون بأمر بهرام حتى دخلوا على الملك خسرو وأدوا له واجب الاحترام ثم أطلعوه على الكيفية وعلى ما اتفقوا عليه بهرام وحالما سمع خسرو بذكر الاسدين انخطف لونه وصار كالرماد وفى الدقيقة نفسها قام عن الكرسي ونزل الى الارض وقال لا أريد الملك ولا أنازل الاسود ، فها أنا اترك الملك لبهرام من الآن وأتخلى عن التاج لصاحبه فان الحياة لدى أغلى من الملك وليس فى وسعي أن أوافقكم فانكم عن قريب تضيعون لى حياتى و تفقدونى راحتي

الا أن الوزراء والوكلاء لما سمعوا أجابوه من حيث انك قد تخليت عن العرش من نفسك فنحن نقبله ونعيده الى الوارث الحقيقي قال افعلوا ما شئتم واذا كان بهرام يفعل كما تقولون وكما تزعمون بأن يأخذ تاج أبيه عن التخت الموضوع بين أسدين فلا أمانعه فى الملك ولا أزاحمه وأسلمه اياه من يدى وأحلكم جميعكم من عهودكم وميثاقكم واحفظ دماء العباد وأصون حياتي ، قالوا أصبت فاننا لانسلم التاج لبهرام مالم يف بما وعد ونحن نرى من الصعب جداً أن يتخلص بهرام من مخالب أسدين عظيمين فاذا لم يجسر على الدنو منهما بقي العرش لك واذا حمله العنفوان والعتو والجهل والطمع على المخاطرة بنفسه فلا يرجع سالما وعلى كل حال يبقى التاج لك فكن في راحة ، وبعد أن دار بينهم هذا الحديث وقر رأيهم على ما تقدم تفرقوا فى ذلك اليوم الى بيوتهم وفى الصباح التالى خرج الوزراء والوكلاء وأرباب الدولة وأهالي المدينة صغاراً وكباراً نساء ورجالا الى ميدان متسع فى نصف المدينة وجميعهم في حيرة عظيمة وارتباك ونفوسهم تطمح الى التفرج على مثل هذا المشهد العظيم الذي مارأوا ولا سمعوا بمثله من قديم الازمان وكان الملك خسرو أيضا قد جاء لاجل الفرجة ومشاهدة شجاعة منافسه على العرش الملك بهرام وهو على يقين أنه سيذهب فريسة الاسدين ، وحينئذ جاءوا بكرسي الملك فوضعوه فى وسط الميدان وجاءوا بالتاج فوضعوه عليه والناس تنتظر النهاية وفى الوقت نفسه جيء بالاسدين الى الميدان يقودهما و

مائة رجل من الرجال المنتخبين والشجعان المختصين بخدمة الاسود وقد أوصوهم منذ مساء الامس أن لا يطعموهما شيئا وكان الرجال يلاقون أعظم مشقة وأشد عذاب فى قيادة الاسود وقلوبهم ترتجف من الخوف لأن الاسد إذا جاع يأكل الحجارة إذا وصل اليها فضلا عن أنهما كانا هائلين جداً من أكبر الاسود وأعظمها هيبة ولما قربوها من التخت دقوا لهما الاوتاد فى الارض وربطوهما من جانبي الكرسى الواحد الى رأس الآخر بحيث لا يمكن للبرغوث أن يجتاز بينهما بسهولة وأما الناس المتفرجون فقد وقعوا فى عظيم الخوف والوجل وصاروا يرجفون من منظر الاسدين ويتأسفون علي فوات عمر بهرام متأكدين انه سيكون فريسة للأسدين وكان الاسدان فى غليان وهيجان من شدة الجوع وقد فتتا بأظافرهما الحجارة الكبيرة حتى جعلاها كالتراب المنخول وحفر الارض بأيديهما وملأ زئيرهما القلوب خوفا

وفى ذلك الوقت أرسل الوزراء خلف بهرام يعلمونه بأن كل شيء قد حضر وأن التاج موضوع على كرسى الملك بين أسدين كما أمر وأنه اذا أخذه أخذ المملكة

فلما اتصل الخبر ببهرام نهض بدون تأخير ولا تأجيل وقد سار من جانبه الملك المنذر وبعض الوزراء والاعيان فدخلوا المدينة واجتازوا الميدان المذكور حيث ألوف الناس ينتظرون وصوله ليروه

ولما وصل ونظره الناس مالوا إليه وتعلقت قلوبهم به وقد تعجبوا من بهاء طلعته وصبوح جبينه وجسارته علي مفاجأة أسدين كاسرين عظيمين مع صغر سنه وأدركتهم الرحمة له وامتلأت قلوبهم محبة له وشفقة عليه وكثر القال والقيل وارتفعت التنهدات من الصدور والتحسرات عليه وكلهم يتمنون له الخلاص ولو فدوه بأرواحهم وقالوا فى نفوسهم هذا هو ابن ملكنا ووارث العرش فكيف نتركه عرضة لمخالب الاسود فجازى الله الوزراء والوكلاء فهم علة الخبث والفساد وتقدموا يريدون انتشاله من وسط الميدان فصاح بهم وأرجعهم عنه وقال لهم اجلسوا فى أماكنكم وانظروا بأعينكم عجائب ابن ملككم وتحدثوا عن أفعاله ولا يهولنكم ضخامة هذين الاسدين فهما عندى كهرتين ضعيفين وسترون صدق ما أحدثكم به ولما رأى الناس عناده واصراره رجعوا متأسفين عليه وأعينهم تقطر دما وقلوبهم تتفطر أسى ووقف كل واحد فى مكانه .

وأما بهرام فانه وقف فى مكان عال وأمر المنادين أن ينادوا أن تاج فارس موضوع الآن على العرش بين أسدين وهو مباح لكل فرد من شعوب ايران فمن أراده من الوزراء والاعيان ورجال الدولة وجنودها وعوام الناس فليتقدم ويأخذه ويضعه على رأسه وبذلك تنقاد لامره الرعية وأكون له من جملة الطائعين وأتخلى له عن حقوقي ويصبح ملكا على الدوله وحاكما فيها

وبعد أن طاف المنادى ثلاثا عاد إليه وما تجاسر أحد على المخاطرة بروحه فى جنب هذا التاج العظيم وقد تقدم إليه الوزراء وقالوا له لا أحد ياسيدنا يجسر على نوال هذه النعمة فهى مختصة لابك لغيرك وهذا أمر اقترحته أنت فأرنا فعالك ، فقال سترون بأعينكم وتتعجبون منه أشد العجب ثم نزل من مكانه إلى الارض فألقى عنه سلاحه ونزع عنه الدرع والطاسة فألقاهما إلى الارض وليس قفطانا كعادة العرب وربط فى وسطه زنارا ونزع عن رأسه ما كان عليه وانفصل عن المنذر وقومه وتقدم إلى وسط الميدان وأقبل بوجهه على الناس يطوف ويسلم عليهم ثم رفع رأسه الى السماء ودعا الله سبحانه وتعالى فاستنجده وسأله المعونة ثم بعد ذلك تقدم نحو الاسدين

وأما الوزراء ورجال الدولة فكانوا يضحكون منه ويستهزئون به وقد حكموا بأنه مجنون وقالوا ان كانت هذه الحالة حالته فالاوفق هلاكه فتتخلص المملكة من الويل وسفك الدماء

وأما المنذر ورجاله فقد خافوا عليه وأخذت دموعهم تذرف وأعينهم شاخصة اليه وكذلك تلك الجماهير الكثيرة فانها رفعت أكفها الى الله سبحانه وتعالى تدعوه وتسأله خلاصه من هذه المحنة الوبيلة وأن ينزل من سمائه نارا وكبريتا فتأكل الاسدين ولا يصاب ملكهم بشر

وأما بهرام فتقدم من الاسدين بقلب لا يخاف من الموت ولا يهاب الاسود كثرت أوقلت ولما رآه الاسدان وقد صار على بضع خطوات منهما زأرا وهاجا وضربا بأكفهما الارض ففتحا فيها خلجانا وارتفع فوقهما الغبار حتى كاد يحجبهما عن الابصار لولم يفرقه الهواء ثم رفعا أيديهما وانحدرا بكليتهما فجأة على بهرام فلم يعبأ بهما بل بقي واقفا محدقا بهما يسأل الله نصرته وأن لا يتخلى عنه وانتظر حتى قرب منه رأس الاسدين فأسرع ومد يده كالبرق الخاطف وقبض على أذنى الاسدين وذكر الله قبل كل شىء ثم صاح بصوت ارتجت منه المدينة

وأرجف قلوب سكانها وقال أى كلاب البرية أتطمعان في لحم مثلي وتقصدان مقاومتي ولا تحسبان لي حسابا وأنا سيد الأسود ومرجفها فسأجازيكما على سوء ظنكما بي مجازاة تستحقانها و كان الأسدان قد ارتجفا عند سماع صوته وارتعبا وقبل أن يتمكنا من فتح فمهما والايقاع به تمطى بكل قوته وشد على أذنى الأسدين فتألما أشد الألم وغابا عن الصواب ودارا على محورهما وأقعى كل منهما على مؤخرته ثم وقعا على الأرض جثة هامدة و نفسا خامدة لا يأتيان بحركة . وحينئذ انسحب بهرام من بينهما إلى التخت فأخذ التاج عنه فوضعه على رأسه وجلس فوقه كأنه لم يفعل شيئا .

ولم يلبث أن سمع دوى أصوات تلك الجموع المحتشدة من الناس يرعد فى الفضاء وقد علا صياحهم و كثرت أدعيتهم و كلهم ينادون فليعش ملك الفرس وسيدها فليعش إلى الأبد ولتمت حساده وتكمت أعاديه وتزاحموا يترامون فوق بعضهم البعض ويتباركون بالنظر إلى محياه الصبوح الجميل .

و كان أول من وصل إليه خسرو الغاصب لكرسى المملكة فسجد بين يديه وقبل ذيله وبايعه ودعاله ثم تبعه الوزراء والوكلاء ومن بعدهم الضباط والجنود ثم الأهالي كبارا وصغارا وكلهم يدعون له بدوام العز وطول البقاء فكان يهش في وجوههم ويثنى عليهم ويبدى لهم سروره منهم ومن بعد ذلك نهض من هناك وجاء الديوان والاهالى يحتاطون به من كل ناحية وقد أعلنت البشائر فى سائر نواحي المدينة وعمت الافراح وزينوا المدينة وقاموا بكل أسباب المسرات فأمر بهرام أن تفتح الخزائن وتوزع الاموال والكسي والاطعمة على الفقراء والمساكين وأعطى ووهب وخلع الخلع النفيسة على الاعيان وشمل بجوده الكبير والصغير حتى صبح الجميع كبارا وصغارا نساء ورجالا يثنون عليه ويعجبون من كرمه وحسن أخلاقه و كمال أوصافه وعظم مزاياه .

وعلى هذا الوجه جلس بهرام على تخت أبيه وأجداده وأخذ ينظر فى أحوال الحكومة ومصالح العباد وأول شيء عمل انه بعث المنادين ينادون فى الازقة والشوارع قائلين بلسانه (أنا بهرام بن يزدجرد بعد أن جلست على تخت الحكومة أعلن لكم أن الله سبحانه وتعالي لما وجد أن التخت والتاج يليقان بى أحسن على بهما ولذلك لا يمكن لي أنا الحقير أن أقف دقيقة عن الشكر له لعنايته بى لانه حمانى بحمايته ووقانى بنعمته وإنى لم أتوفق لاخذ التاج من بين الاسدين بشدة بأسى ولا بحسامى

بل بقوة ربى وخالقى وقدرته تعالى لأنه أهلك بين يدى الأسدين ومد إلي يد المساعدة حتي أصبحا بين يدى أضعف من كلبين وأذل من هربن صغيرين تعرضالى فوجب على تحصيل رضاه والعمل بموجب ارادته وعلى أن أعدل في الرعية وأعمل بينهم بالانصاف وأسهر على راحتهم وأرى أمورهم بنفسي وأقيم عليهم الحكام العادلين إلى غير ذلك من الأمور التي تكفل راحة عباده ورفاهيتهم وأنا أؤمل من أتباعى ووزرائى ورجال معيتى أن يعملو بين الرعية بالعدل والانصاف والحكمة وخوف الله لأن من شرط التابع أن يتأثر المتبوع فيسير على خطته وفى طريقه ولذلك أبشركم بتحسن الاحوال وصفاء الازمان والخصب والبركات فى الاعمال وفى الزراعات والطمأنينة والهدوء ولو فرض أن أحد الحكام ظلم الرعية وخالف الاوامر وسلك سبل الظلم والتعدى فعليكم فى الحال أن تعلمونى فأنصح له فى أول فاذا رجع عن عمله وسلك مسلكاً جديداً وعدل بين اخوته وأبناء جنسه أبقيت عليه وإلا فما دواؤه الا القتل لأنه لا فائدة فى حياة الظالمين العاملين على الغدر بعباد الله والمتعدين على رعايا الدولة وأهل الملة والعالم أجمع وليعلموا أن الله قد بعثنى لأكون لهم غوثا على الزمان وعونا على الظالمين)

وكان المنادون ينادون بمثل هذا الكلام فى الأزقة والشوارع ويبثونه بين الشعب والشعب فى فرح زائد يدعو للملك المحبوب منهم بطول العمر والبقاء وقد أملوا وصولهم إلى درجة عالية من المجد وادراك النجاح على يده بعدأن شاهدوا منه ماشاهدوا وثبت عندهم أنه سيفتح البلدان ويدوخ العواصم ويملك الاقاليم لانه نادرة الزمان وقد خصه الله بكل السجايا الحميدة والمزايا الفريدة .

والحاصل أن بهرام تمكن من عرش الفرس وأحاط الرعية بعنايته وحبه فاتحا أبواب العدل والانصاف فى كل صوب مانحا الصناع وأرباب المعارف اخص اهتمامه ملقيا بغضبه وانتقامه على أهل الجرائم والمفسدين المضرين بالدولة والمكدرين راحة الامة وقد تأثرهم حتي قطع دابرهم وبذلك نشر على رؤوس الرعية علم الراحة والامان وباتت جيوش الدولة فى راحة بعد أن كانت لاترتاح يوما من جراء تعدياتهم وهجماتهم على الاطراف والضواحى وكانت كل دعوى تقع بين اثنين تقدم اليه فينظر فيها بحكمة ويساوى بين المتخاصمين فيرجعان وكل واحد منهما فرح بحصوله على حقه وأما المعتدي فكان ينصح له ويأمره بالامتناع ويسامحه فى الاول حتى إذا عاد ثانيا جازاه على ما استحق وبذلك أصبح الناس

فى أمن لامثيل له وقد تساوى الغنى والفقير فى عين الشريعة والقانون ومات النفوذ الاستبدادى من بين الحكام فلم يبق لظالم غادر حول ولا طول بل كانت عين الملك ترقب الجميع وتسحق شوكة المعتدى وتدوسها تحت أرجل العدالة

وكان الملك بهرام قد بلغ الثامنة عشرة من عمره وشهد له العقلاء والفضلاء من رجال المملكة أنه كان مولعا بحب الرعية وبالقيام بالعدل والانصاف وبذل الخير ومساعدة الفقير حتى لم يبق له عدو فى كل ايران وقد مر عليه أربع أو خمس سنوات على مثل ذلك لم يفتر دقيقة عما هو متوليه لكن مع ذلك كان لاينسى ما كان قد زرع فى قلبه بيد العناية لان العشق قد جرح قلبه جرحا لا يندمل إلا بعلاج واحد وهو الوصال والحصول على المعشوق

وقد تقدم لنا فيما سبق أن الملك بهرام شاه كان قد رأى رسوم البنات السبع فشغلن خاطره ورمين قلبه بجمرة تزيد التهابا واشتعالا على مر الزمان والايام وعلى الخصوص بعد أن تأكد لديه أن لتلك الرسوم أصلا وأنه لا يتعشق الوهم بل الحقيقة وقد أقيمت تلك الاصنام فى القصر لحكمة خاصة به ولكى يذهب فى طلبهن فهن نصيبه من النساء ومادام الله قد كتبهن له فلابد له من الحصول عليهن . ولذلك كان يجلس عدة أياما على كرسى المملكة ينظر فى أمر عباد الله كما تقدم معنا الكلام وأحيانا يعتكف فى خلوته فلا يخرج قط إلى الخارج بل يتسلى بنظم الاشعار موجها كل أفكاره إلى من أحبهن قلبه فيناجيهن عن بعد، ويسألهن الرحمة والعفو عن تقصيره وتأخره عن المسير إليهن لانه مضطر الى الاهتمام بأمر المملكة ومراعاة أهلها وتنظيم أمورها فكان واقفا بين أمرين عظيمين حبه للرعية والمملكة واعتقاده بأن خدمتها فرض لازم عليه وعشقه للبنات السبع وتعلق قلبه بهن لايتخلى عنهن بل يزيد فى محبتهن يوما فيوما فيلتزم أن يطيعه لان سلطان الهوى لا يغلب وحكمه لا يقهر فهو حاكم القلوب ومستعبدها ونور الخواطر فلا يتسلط على أحد إلا ويذله ولا يصل إلى خاطر الا ويشغله

وبقيت هذه الحالة حالة بهرام وهو غارق ببحور العشق والغرام مشتت الافكار والبال اذا ماانفرد وبعد عن الناس ولكنه لم يدع أحداً يلحظ عليه ولا ترك أمراً من أمور المملكة الا وتناوله بمزيد الاعتناء والرعاية للشعب ومصالحه . وأخيرا خاف من السقوط وضياع نفسه فقال خير لى أن أتخذ لي ما يشغلنى عما أنا فيه فدخل دار الحريم واختار لنفسه جارية رخيمة الصوت

بديعة المحاسن باهرة الجمال اسمها فتنة وكانت بالحقيقة فاتنة فاتخذها لنفسه لكنه كان عندما يسمع رخامة الصوت ورنة العود يتأثر وتتجاذبه موجات الهوى والغرام وكان نظره إلى جمال فتنة يهيج فؤاده ويستحثه على الوصول إلى جمال من أحبها قلبه وهام بها ولذلك فانه كان عندما يجلس معها يصرف الوقت فى البكاء والأنين وهي تحاول أن تؤنسه وتبذل جهدها فى مسرته وانشراح صدره وقد صرفت عنايتها لاستجلاب خاطره

وكانت مع ماهي عليه من الجمال وحسن الصوت عاقلة أديبة حكيمة أدركت بذكائها أنه شغل بحب من لا وصول اليهن وقد أخذتها الغيرة النسائية ولكنها مع ذلك كانت تشفق عليه وتحكي له النوادر المضحكة وتنشده الاشعار الغرامية وتتحبب اليه يوما فيوما فتبعد بأفكاره عما يضمره ويصفو لها الوقت ودام الحال على ذلك حتى تعود عليها وصار يهواها ولم يعد له صبر على فرقتها . ومع أن قلبه كان لا يزال على حاله لكن فتنة فتنته بجمالها وعذوبة ألفاظها وقد زاحمت واجتهدت حتى دست بنفسها فى قلبه واحتلت فيه موضعا رفيعا فتعشقها وأصبحت موضع آماله فكان يخرج إلى دار الاحكام ويهتم بأشغال الدولة وينظر فيها كعادته ثم يعود إلى قصرها ويقيم معها على الحظ والصفاء وإذا خرج إلى برية متنزها أخذها الى جانبه فلا يفارقها أبدا

وفى ذات يوم عزم على الخروج الى الصيد فأمرها أن تذهب معه فأركبها مراكب العظمة والاجلال وسار أمامها موكب عظيم وعندما ساروا فى البرية أمر الفرسان أن تتقدمه وبقى هو وفتنة متأخرين يتمهلان فى السير وكتف الواحد الى كتف الآخر وقد أمرها أن تغنيه كجارى عادتها ففعلت حتى كاد يغيب عن الوجود وهو محدق بها وموجه بكل عقله وقلبه اليها وفيما هما سائران على مثل هذه الحال تاركين عنان الجوادين وإذا باثنين من حمر الوحش قد ذعرا أمامهما إلى مقدار مائة قدم ثم وقفا فتحركت فى بهرام الرغبة إلى مطاردتهما وقد تقدم معنا أنه كان مولعا جداً بصيد هذا الجنس من الحيوان ولذلك قال لفتنة إنى أرغب فى أن أرمى أحد هذين الحيوانين فأجابته افعل لأجل أن أعرف بنفسى شهرتك فى رمى السهام وقد سمعت عنك كثيراً لكن من المعلوم أن حمار الوحش عندما يري سهم الصيد وقد تجاوزه يرفع احدى قوائمه ويحس بها اذنه ليرى اذا كان السهم لم يثقبها فالصياد الماهر يرمى سهمه ثانيا فيخترق اليد والأذن

معا فهل لك أن تفعل مثل هـذا قال سترين بعينك وقد تحركت فيه المزوءة من كلامها وتاقت نفسه إلى أن يريها شدة براعته في رمي السهام فتقدم قليلا وأخذ سهما وأوتره في قوسه وأطلقه غير متعمد اصابة الحيوان فمر السهم كالنجم اذا زرق فرفع الحيوان يده ولمس بها أذنه وما لبث أن وصلت الى أذنه حتي كان سهم بهرام قد سمرها بهـا لأنه أخذ بأسرع من البرق سهما آخر وأوتره ورماه بدقة فأصاب المرمي وحينئذ تقدم من فتنة وقال لها أنظرت كيف فعلت فانظرى الحيوان وقد ثقبت أذنه ويده معا . فقالت وقد ضحكت مظهرة عدم الاكتراث والتعجب من سؤاله أتظن انى أعرف هذه الصنعة ومع ذلك أقول لك ان هذا الذى عملته لم يكن شيئا عجيبا لأنك تعلمت رمي السهم وألفته فرميك هذا السهم هو بحكم العادة ولم يكن مما يذكر .

فلما سمع بهرام كلامها تحركت فيه عوامل الغضب لانهـا أهانته وفى الحال ألقاها على ظهر الحصان الى الارض ولم يستطع أن يضبط نفسه ثم فكر فقال ان أبقيت عليها تزيد في احتقاري واهانتي واذا قتلتها فلا يليق بى لأن من العار العظيم أن يمد مثلي يده على امرأة . فدعا اليه قهرمانه وقال له خذ فتنة واقتلها فى الحال ولا تطلع أحداً على هذا الأمر وادفنها فى مكان خفى .

فلما سمع القهرمان من سيده هـذا الـكلام علم أنه فى غضب زائد فأطاع فى الحال وأخذ فتنة وسار من أمام سيده وفيما هو ذاهب يفكر كيف يقتـل فتنة وما الذى أوجب غضب الملك عليها حتى استحقت منه هذا الجزاء مع أنها موضع أسراره وآماله فماذا ياترى بدا منها فى حق الملك فلا ريب أنها أهانته لان لا شيء يغيظ الملك مثل الاحتقار به وجعل يتأسف عليها وهو سائر بها مطرق الى الارض فلحظت فتنـة منه ذلك وعلمت أنه يتأسف عليها فى نفسه ويبحث عن السبب فقالت له ، ياأيها القهرمان أنت تعلم أنى من أخص جوارى الملك بهرام ومؤنسته الوحيدة التى لا يصبر على فراقها دقيقة واحدة وأنت تعلم ما بيننا من العشق والمحبة ومع كل ذلك فانه غضب على لسبب وقع منى لم يوافق مزاجه فاعتبره اهانة موجهة منى اليه وربما كان اهانة لـكن من غير قصد فهاج فيه الغضب حتى قام مقام الحب وأعمى بصيرته فأمر بقتلى قبل أن يعي على نفسه فالآن اسمع واصغ لى واني أنصح لك بما فيه خيرك ففـكر وتأمل فيما أقوله لك . فاصبر على قتلى بضعة أيام فقتلى لم يكن أمراً عظيماً فابق علي واذهب الى الملك فمتى سألك عنى

قل له قتلتها وانظر اليه فاذا رأيته سر وفرح فارجع الى واقتلني وإذا رأيته حزن وظهرت على وجهه علائم الكدر فاعلم أنه سينتقم لي منك فانه ولو أنه هو الذى أمر بقتلي فلابد أن يخطر له أنه كان من اللازم أن تبقى على أنت وتنظر فى الأمر مرة ثانية فاذا كان لا يزال مصرا أنفذت أمره واذا كان ندم أرجعت له جوهرته التى يأسف عليها وإنى أعرف الملك بهرام أكثر مما أعرف نفسي فهو حليم وليس ظالما وهو عاقل غير جاهل لكنه مملوء بالعنفوان والغطرسة والعظمة وهذا هو الذى هيج فيه غضبه على فلا يمكن أن ينام الليلة إلا آسفا على ما صدر منه فتأمل فى مصلحة نفسك جيدا واعمل ما تراه سببا لخيري وخيرك

ثم أخرجت من عنقها عقدا من الجواهر فيه سبع جوهرات نفيسة واعطته الى القهرمان فلما رأى الجواهر كاد يطير صوابه وعلى الخصوص فانه كان يرى أنها مصيبة فى كل ما قالته وقال فى نفسه لا بد للملك من أن يندم على قتلها فأنا أبقي على محظيته عندى فاذا سألني أقول له قتلتها وأرى ماذا يكون منه ولا يصعب قتلها إذا تبين لى أنه لا يزال مسرورا من أمره . وفى الحال أخذ فتنة الى بيته وكان قريبا من تلك الناحية في ضيعة يملكها فوضعها فيها ثم أخذ عليها العهد وجعلها تقسم له أن تبقى مختفية ولا تبوح لأحد بوجودها فأجابته إلى طلبه وأقسمت له أن لا تغادر هذا المكان وتظل مختفية عن الانظار فودعها ورجع الى الملك بهرام . وكان المساء قد أقبل والملك ذهب الى قصره .

وفى اليوم التالى أخذ الملك يفكر فيما مر عليه وقد أدرك أنه أخطأ فى حكمه بقتل فتنة تحت عامل الغضب وندم على ما فعل وأخذ يلوم نفسه ويقول هذه ثمرة العجلة وحزن فى قلبه حزنا عظيما ودعا بالقهرمان فسأله عن فتنة ، فأجاب بناء على أمركم الكريم قتلتها . ولم ينته من هذا الكلام حتى رأى قطرات الدمع تتساقط من عيني الملك وقد ظهرت عليه علائم الحزن والكآبة . فسر القهرمان من ذلك وكاد يطير فرحا وقال حسنا فعلت فهو نادم على ما صدر منه حزين عليها لأنه يحبها ولا يطيق فراقها ولو كنت قتلتها فعلا لندمت كثيرا لانى أكون قد ضيعت ثمرة الثروة وظلمت الملك ومحظيته ، ففتنة هي صاحبة ذكاء مفرط وفراسة عجيبة

وفى الحال خرج من بين يدى الملك وتركه لا يعى على نفسه وركب الى بيته ولم يخبر فتنة بما كان وما رأى من الملك بل زاد فى اكرامها واحترامها .

وكان قد ابتني منذ أمد قريب قصرا جميلا فى أطراف الضيعة علي قارعة الطريق فأخذ فتنه اليه وعين الخدم لخدمتها وكان يصعد الى الطابق العلوى من ذلك القصر بسلم عالية فيها ستون درجة

وبعد أن أقامت فتنـة عدة أيام فى ذلك القصر تصرف الوقت لوحدها ليس لها من يسليها خطر لها خاطر وفى الحال دعت أحد الخدم وقالت له أريد منك أن تبحث لى على عجل صغير ابن يومه أى تكون أمه قد ولدته فى هذا اليـوم وادفع ثمنه مهما طلب فأجاب طلبها وسار إلى الرعيان وأصحاب المواشي يسأل منهم عن بقرة تلد فى ذلك اليوم أو ولدت وبعد البحث وجد المطلوب فأخذ العجل فى الحال ورجع الى مولاته مسرورا ، ولما رأته فتنة فرحت كثيرا وأخذت فى أن تعتنى به وتربيه بذاتها فكانت تنزل اليه فى الصباح فتحمله علي عاتقها وتصعد به السلم أى الستين درجة فتطعمه وتسقيه ثم تحمله كالاول وتنزل به الى الأسفل وتفعل ذلك فى النهار ثلاث مرات ولم تنقطع عن هذه العادة يوما واحد ففى الاول كان العجـل صغيرا حقيقة لـكنه كان يكبر يوما فيوما وكذلك كانت قوة فتنة تزيد يوما فيوما ولم تكن تشعر بالثقل الذى كان يزيد في العجل من مرة الى مرة بل كانت العادة تضيعه ، وقد دامت علي مثل هذا الشأن مدة ثلاث سنين لم تنقطع مرة واحدة قط عن حمل العجل حتي صار بقرة كبيرة سمينة جدا وهى لا تزال قادرة علي حمله فتصعد به إلى أعلى الدرجات ثم تعيده الى الا سفل فى الصباح والظهر والمساء .

ففي ذات يوم دعت اليها القهرمان وأخرجت له بعض حجارة كريمة كانت لاتزال معها وقالت له خذ هذه فبعها فى السوق ثم ائتني ببعض الخرفان والماعز وعدة أقات من السكر وماء الورد والعسل والشيء الفلانى والشيء الفلانى وجعلت تعدد له أشكالا وألوانا بعضها مأكولات وبعضها مشروبات وبعضها مشمومات حتي تعجب من ذلك القهرمان لـكن لما أعلمته الغاية ذهب فأتاها بكل ما طلبت ولما رجع قالت له الآن جاء وقت العمل ومن الواجب الانتفاع بنتيجة بقائي سواء كان لى أو لك . ومن حيث ان الملك بهرام يخرج كثيرا إلى هذه الاطراف لطلب الصيد فتوسل اليه أن يشرف محلك ويستريح عنـدك ويتناول ما يتيسر من الاطعمة والمرطبات وأنا أعرف أنه لا يرد لك التماسا لانه وديع متواضع القلب يحب رجاله كما يحب نفسه ويرغب فى أن يعرف كل مالم يعرفه ولا يرد

سؤال سائل . فلما سمع القهرمان كلام فتنة دخل فى خاطره من باب الأمل وتيقن النجاح والخير الكثير وأخذ يهيء أسباب الضيافة ويعدد من يوم الى آخر كل مايراه لائقا بالملك وبات يترقب خروجه الى الصيد فى تلك النواحي ليدعوه الى ضيافته وينفذ طلب فتنة .

ففي ذات يوم خرج بهرام شاه الى القنص مع رجال دولته كما سبقت عادته وكان القهرمان فى معيته وبالتصادف وقع طريقـه من تلك القرية فجعل ينظر فيها فرأي قصر القهرمان فتأمل فيه وقال عجبا لمن هذا القصر فيظهر أنه متقن البناء وجميل المنظر من الخارج فهـل ياترى داخله كخارجه . ولم يتمم كلامه حتى تقدم القهرمان بين يديه وقال له أطال الله عمر سيـدى الملك وزاد في فضله ونعمه ان هذه الضيعة التي أحسنت بها على أحقر عبيدكم منذ توليت التخت قد اعتنيت بها وابتنيت فيها عدة بنايات وأقمت في هذا القصر على الطريق مكانا ترتاحون فيه إذا صادف مروركم من هذه الجهات والآن فقد خدمتنى العناية وقربتكم من بيت عبدكم فألتمس أن تشرفوا مسكنى بأقدامكم وتغمروا عبدكم الحقير بقبول ضيافته وان كان ليس من حقي أن أطلب تشريفـكم بل يعد ذلك جرأة عظيمة لكنى عبد أمين على خدمتكم وأعرف عنايتكم بالضعفا نظيري وأنا أكيد رغبتكم فى جبر خاطر المسكين وبذلك تكون قد شملتنى بعناية أحسبها سعادة عظمى وفضلا عميا لأنني منذ زمان طويل وأنا أترقب مروركم من هذه النواحى لأنال حظ تنازلـكم بتشريفى وأنا أصلى الى الله وأدعوه حتى ألهمكم المرور من هنـا فأشكره فهو السميع المجيب

فلما سمع بهرام شاه كلام قهرمانه سر منه وتاقت نفسه الى اجابة طلبه وقال له أحسنت ظنك أيها الأمين فاني أعترف بصدق خدمتك وأمانتك وسأجيب طلبك عند عودتى من القنص بحيث أكون محتاجا للراحة فأقيم عندك وآكل ضيافتك مع قوادي فاذهب الى قصرك وانتظر عودتنا .

وفى الحال وقع القهرمان على رجلى بهرام شاه فقبلهما ومن ثم سار الشاه فى طريقه وأسرع القهرمان الى القصر وهو يكاد يطير من الفرح والمسرة وبدقائق قليلة صعد القصر وقال بشراك يافتنة فقد استجاب الله طلبك وأرسل سيدى اليك كما كنت تشتهين وأعاد عليها ما كان من أمر بهرام شاه وكيف وعده أنه بعد ساعات قليلة يكون فى القصر فامتلأ قلبها فرحا وما صدقت أن سمعت هذا الكلام

حتي أسرعت الى تهيئة ما يلزم للضيافة من المآكل والمشارب شيء يليق بالملوك لانها في رأس نساء بهرام شاه وتعرف كل مايليق بشأنه وما تحبه نفسه وسكثت على هذا الحال وهي تعد الدقائق وفي كل برهة تذهب الى شباك القصر وترسل بنظرها الى البر لتتحقق أمانيها وكانت تعد نفسها بأنها ستعاد إلى بهرام في ذاك اليوم لانها تحبه كثيرا لما تعلم من عظم محبته لها ولانه أوحد رجال عصره حسنا وأدبا وكمالا وهي تطلب من الله نجاح مساعيها وأنها اذا عادت وصادفت نعمة في عيني الملك لاتعود الى مخالفته لانها كانت تعرف أن المرأة لاتتغلب على الرجل وتستجلب قلبه الا باللطف واللين والتحبب اليه والتزلف عليه والاغضاء عما يقع منه واستحسان كل مايبدو منه مليما كان أو قبيحا .

ولما كان المساء رجع بهرام من الصيد فعرج الى القصر إيفاء بوعده وطلبا للراحة وحينئذ أعلمت فتنة القهرمان بذلك وأسرت في اذنه بكلام يلقيه أمام بهرام شاه فأسرع القهرمان الى الخارج ولاقي الملك باحترام وقبل أياديه وسار في خدمته الى أعلى القصر ومن خلفه الوكلاء والقواد الذين كانوا معية الملك فصعدوا السلم ودخلوا ردهة الاستقبال وقد شعر بهرام بتعب من كثرة درجات السلم وما صدق أن جلس يستريح ويأخذ النفس وكذلك جميع رجال المعية فقد تعبوا وقالوا لماذا كل هذا الارتفاع وهذه السلم الطويلة وبعد أن جلس الملك جاءه القهرمان بالشراب فشربه وقد انشرح له صدره وسر منه كثيرا لانه كان يشرب مثله من يد فتنة . ثم أمر بهرام شاه القهرمان أن يضع مائدة الطعام ففعل وجلسوا جميعا وكان الملك يأكل مسرورا ويقول لا ريب أن الذى طبخ هذا الطعام تربى في قصور الملوك فهو طعام لذيذ . وبعد أن فرغوا من تناول الطعام جلسوا للراحة وأخذ كل واحد مقامه الا القهرمان فبقي واقفا في المجلس ينتظر أوامر الملك ويقوم بخدمته وخدمة أرباب مجلسه . وحينئذ قال بهرام شاه للقهرمان أريد أسألك عن شيء فأجبني عليه قال إني تحت أمر سيدى فها أنا مستعد للجواب، قال انى لا أزال في شرخ الشباب وقد تعبت أثناء صعودى السلم فانها تتجاوز الستين درجة فكيف تعمل أنت وقد تجاوزت الستين سنة وصرت تحسب شيخا . فأجاب القهرمان أطال الله عمر سيدى الملك وحفظه للرعية والشعب وجعل كل أيامه أيام سؤدد وصفاء وأبعد عنه كل تعب وعناء إن ما تتعجب منه ليس بعجيب فان لدى فتاة صبية حسناء يكاد لايوجد مثلها في زمانها من بهاء طلعتها

ونور جبينها ونعومة أطرافها ولدونة بدنها ومع ذلك فهى في الصباح والظهر والمساء تنزل الي أسفل القصر فتحمل على عاتقها بقرة تربيها فتصعد بها السلم بطوله وبعد أن تطعم البقرة وتسوسها تعود أيضا فتحملها على عاتقها وتنزل بها الي مكانها

ولما سمع بهرام شاه هذا الكلام زاد تعجبه وعظم هذا الامر في عينه وكاد لا يصدقه وكذلك الحاضرون فما منهم إلا من أظهر تعجبه وقالوا انه يستحيل مثل هذا الامر من فتاة وقد يصعب على أقوى الرجال أن يصعد مثل هذه السلالم وهو يحمل جديا فكم بالحري بقرة فاننا لا نصدقه . فقال القهرمان : ان ما أقوله الصحيح لا أزيد حرفا واحدا فاذا أمر سيدى الملك أحضرت الجارية وفعلت أمام أعينكم كل ما عرضته بين أيديكم فقال بهرام شاه انى أرغب رؤية ذلك ولو كنت أعرف أن ما تقوله صحيح ينتج عن حكم العادة لكن مثل هذا أمر تتوق نفسى إلى التفرج عليه لانه من خوارق الاعمال التى اذا حكاها الانسان لا يصدق قطعيا وأصحاب العقول الضعيفة ينسبون ذلك إلى السحر والطلاسم

فما صدق أن سمع القهرمان أمر الملك حتى أسرع الى فتنــة وأخبرها بذلك ففرحت وكانت قد لبست أفخر ملابسها وتزينت زينة بديعة وضربت لثاما على وجهها وجاءت الى الحيوان وكان يعرف عادتها ففي الحال جمع قوائمه الاربع الي بعضها فرفعته بين يديها ووضعته على عاتقها وتدرجت فيه تلك الدرجات الكثيرة وكان الملك وجماعته قد وقفوا في رأس السلم ينظرون وهى تقرب منهم شيئا فشيئا حتى وصلت من الملك والجاموس على عاتقها فأوقفته الي جانب ودنت من الملك فقبلت الارض بين يديه وقالت له هو ذا جاريتكم حسب أمركم قد أتيت بهـذا الحيوان الثقيل محمولا على عاتقى من الاسفل الى الاعلى دون أن أشعر بتعب لا من حمله ولا من السلم فتعجب الملك من كلامها ولكن لم يرد أن يعطيها حق الفخر فقال لها إن هذا لم يكن عظيما لانك بدون شك قد تعودت عليه فكنت تحملين هذا الحيوان عندما كان عجلا صغيراً وداومت هذا العمل يوميا فلم يعد يصعب عليك حمله ولذلك لم يكن شيئا موجبا للتعجب

وحينئذ ركعت فتنة أمام الملك وقالت له العفو ياسيدى فأنت أكرم من عفا وليزدك الله عمراً وحلما اذا كنت أنا قد ربيت هذا الحيوان الصغير حينما كان يسهل على حمله وصرت أفعل كما أشرت أنزله وآتى به في اليوم ثلاث مرات وبحكم العادة صرت أحمله وهو في هذا الجسم العظيم والثقل الاعظم حتي لو لم تر

ذلك بعينك لما صدقته من أحد ولما رأيته من أنه عجبا حكمت بأن العادة جعلتني ذات مقدرة على مالا يمكن أن يعمله غيري بدون العادة ولو كان أشد رجال العالم قوة فكيف تتكدر عظمتكم إذا قيل لك وأنت ترمي الحيوانات بسهامك العجيبة هذا ليس شيئا فانك تعودت عليه

فلما قالت ذلك تحركت كل جوارح بهرام شاه وترقرقت الدموع من عينيه لانه بأسرع من البرق وقع فى خاطره أمر فتنة وما كان منه فى حقها وتبين لديه أنها هي التي بين يديه ولم يعد يتمالك نفسه فنهض اليها وأزاح اللثام عن وجهها بقلب خافق وأياد مرتجفة ولما رآها صاح من الفرح يا ألله . أأنت فى قيد الحياة وفى الحال رمت بنفسها على رجليه تقبلهما وتغسلهما بالدموع وتسأله العفو والمعذرة وأنهضها فى الحال وقبلها فى جبينها من دون حياء ولا خجل لانه أضاع عقله فى تلك البرهة ولم يعد يرى إلا بهاء وجهها ونور جمالها ولم يقدر أن يقاوم نفوذ أمياله . ولما رأت منه ذلك أعادت اللثام وقالت مر ياسيدي بالذهاب الى المدينة فلم يبق من وجودنا فى هذا المكان فائدة ولا سيما أن رجالك يطلبون ذلك . وحينئذ انتبه بهرام شاه الى نفسه ورأى العودة الى قصره بسرعة عين الصواب حيث يقدر أن يجتمع بمن أحبها قلبه وقد عادت اليه من عالم الاموات على انفراد فما من رقيب هناك .

وفى الحال التفت إلى الوزراء والقواد وقال لهم هلموا بنا فقد مضى الوقت وكذلك التفت الى القهرمان وقال له حسنا فعلت لانك أبقيت فتنة ولم تقتلها وأعدتها الى حية ولو قتلتها لكنت أبقى متحرقا عليها طول حياتي لانى أعرف من نفسي انى ظلمتها وأطعت غضبي فأكافيك على ذلك بأن اجعلك قائداً لجيش من جيوش فارس وأزيدك ضيعتين من ضياعي فأهبك اياهما منذ الآن وإنى أعرف انى لو وهبتك مملكتي لكان قليلا فى جنب ما دعاته أنت فقد أعدت لي الحياة وراحة الضمير فأنا لا أنسى جميلك .

وفى الحال ركب بهرام شاه وأركب فتنة الى جانبه وركب رجاله وسار فى أولهم وهو يكاد لا يصدق بوجود فتنة الى جانبه ويتمنى ان لو كانت له أجنحة يطير بها الى خلوته لينفرد بها . ولم يكن الا ساعات قليلة حتي دخلوا المدينة وتفرق كل من الحاشية الى حاله ودخل الملك قصره واجتمع بفتنة اجتماع الاحباب بعد طول الغياب وتحبب منها أكثر من الاول ليكافئها على ما فرط منه فى حقها وهي

كذلك كانت تتزلف له وتتقرب اليه وتطنب فيه وتظهر له من الحب والغرام مالا يطاق وتشكو له مالاقت من بعده كل هذه المدة الطويلة ولذلك حصر كل قلبه فيها ووجه اليها عنايته وفكره . وكان في بداية الامر لا يخرج إلى الديوان إلا نادراً وأخيرا انقطع عن الديوان بالكلية وصار يصرف وقته على الحظ والسرور وشرب الخمور ومعاشرة فتنة ومغازلتها وترك أمر عباد الله ولم ينظر فى مصالحهم كما كان قبلا وتخلى عن الاهتمام بأمر الملك وتدبير المملكة ولم يعد يهمه أمر من الامور سوى العكوف على ملذاته وقضاء شهواته وصرف الوقت على حسب أهوائه . ومن جراء ذلك أخذ نظام الملك ينحل وأحوال الرعية تختل وخلا الجو للحكام فتوغلوا فى العتو والقسوة والظلم ونهب أموال الناس وراج سوق الفساد فى الاحكام ولم يكن ذلك أمراً ممنوعا بل كان الرؤساء والوزراء والنواب يسلبون أموال الناس عيانا ويقاولون أصحاب الدعاوي نهارا جهارا مقاولة البائع المشترى فمن زاد كان السائد وبذلك كثر القتل والتعدى وعدم الامن وفقدت الراحة وأصبح الرجل لايخرج من بيته إلا عند الاضطرار دفاعا عن نفسه أو ماله وفى الليل يمتنع الناس عن الخروج من بيوتهم خيفة من الاشقياء الذين كانوا يتجولون في المدينة فى أمان واطمئنان غير خائفين سطوة لانهم كانوا يشاركون الشرط ومن لم يكن شريكا لرجال الشرط فيكون محميا من قاضى المدينة الذى كان ميالا للأشقياء محبا للشر كارها الخير مفسدا بين عبيد الله ومن لم يكن تحت حماية هذا فيكون لائذا برئيس أو وكيل أو صاحب نهى وأمر فيدفع عنه اللوم والقصاص وقد وصلت حالة إيران إلى هذا الحال فى زمن انشغال بهرام شاه بمحبوبته وحصر أمياله بها غير عالم بما هو خارج القصر .

وكان البعض من الوزراء والوكلاء والشيوخ أصحاب العقل والحكمة يأتون اليه وينصحونه ويخبرونه بما هو واقع فى معاملات المملكة ويطلبون اليه أن يخرج من قصره ويرجع الى ما كان عليه أولا وإلا خسر ملكه وأضاعه لأن الملك لا يتقوى أساسه الا بالعدل والتقوى وأن الحكام لا يصلحون نفوسهم إلا اذا تهددهم رئيسهم وسيدهم فلا يخاف بعضهم بعضا لكنهم إنما يخافون الملك ويرهبونه وهم أيضا لا يقدمون على عزل بعضهم بعضا لانهم يتسترون على بعضهم ويخشون الملك لئلا يقاصهم وينتقم للمظلوم من الظالم فكان الملك بهرام يعدهم من وقت إلى آخر ، وكثيرا ما كان يغلق أبوابه فى وجوههم فلا يخرج إلى مقابلتهم بل

يقال لهم إن الملك (فى الحريم) فيرجعون آسفين على خيبة سعيهم وضياع اجتهادهم وأخيرا تخلوا هم أيضا عن وظائفهم ولازم كل واحد مسكنه فصاروا لا يخرجون الى الديوان إلا مرة فى كل شهر أو شهرين وفى أثناء وجودهم فى الديوان يسمعون قصصا وحكايات تتفطر لها القلوب السليمة فيرجعون فى الحال

ودام الأمر على مثل ذلك حتي انتشرت أخبار أحوال المملكة وسوء إدارتها وإختلال نظامها وفساد أحوالها إلى الممالك الخارجية وبلغت إلى مسامع الملوك والسلاطين فحركتهم المطامع الي اغتصاب المملكة وكان أول من فكر فى الاستيلاء عليها ملك الصين فقال لعظماء دولته وكبار رجاله ينبغي أن لا تضيع هذا الفرصة وأمامنا الآن غنيمة باردة فاذا تهاوننا أو تقاعدنا كانت من نصيب غيرنا وخابت آمالنا على أن حالة البلاد الايرانية وضعف وانحطاط فأصغر ملوك العالم يقدر أن يستولي عليها وينزع الملك منها فانهضوا الآن واجمعوا الجيوش على وجه السرعة وسيروا على عجل للاستيلاء عليها فليس أمامكم إلا مسافة الطريق فرأى الجميع مارآه الملك عين الصواب وأخذوا في جمع الجيوش وتهيئة ما يلزمهم فى الحمل على إيران ولم يكن الا أيام قليلة حتي تم كل شيء وأخبر الملك بذلك فركب وركب من ورائه قواده وجيوشه وعددهم ثلاثمائة ألف مقاتل ونشرت فوق رأسه الرايات والأعلام وما زال سائرا حتى قرب من حدود بلاد الفرس فبلغت الأخبار الوزراء والوكلاء فاجتمعوا مع بعضهم وقالوا لاريب أن بلادنا أصبحت فى خطر مبين فملك الصين يقصدنا وقد طمع فى بلادنا لضعفنا وملكنا مشغول بجاريته لا يفكر فيها وقد أهمل أمر الملك وجعله وراءه فأذا قاومنا جيوش الصين ننهزم أمامهم وتهرق دماؤنا وتقتل رجالنا وتنهب أموالنا فالأوفق أن نسلم إليه بغير حرب ولا قتال . وقد اعتمدوا على التسليم وأرسلوا يخبرون الملك بهرام شاه بذلك فلم يعبأ بهم ولم يفكر فى هذا الشأن بل بقي مقيما في حظه وأنسه متوهما أن أحد فى الدنيا يقدر أن يقرب من بلاده أو يطمع فيها وقد خافت الأنس والجن بأسه ولا زال على ماهو عليه حتي وصل الصينيون المدينة وحاصروها وطلبوا إلى أهلها التسليم فتأكد له ذلك وثبت لديه ما كان قد سمعه عن ملك الصين فأرسل فى الحال وطلب اليه الوزراء والقواد فلم يحضر أحد منهم ولا أصغوا الى كلامه بل قالوا لرسوله اننا لا نقدر الآن على اجابة طلبه وقد احتاطت جيوش الاعداء بالمدينة وهم كالجراد المنتشر ولا طاقة لنا على الدفاع ولذلك اعتمدنا فى الصباح

على أن تخرج الى ملك الصين ونسلم اليه المدينة والاهل كنا عن آخرنا وسبيت النساء ونهبت الاموال وأهرقت الارواح وخربت بلاد ايران عن بكرة أبيها

ولما بلغ الخبر الملك بهرام شاه طار صوابه وقد شعر بخطئه وقال نعم اني انشغلت عن الحقيقة بالملاهي الباطلة وتخليت عن الرعية تخلى الاب الجاهل عن صغاره حتى ظنوا العجز الآن ولم يعودوا يركنوا الي ومن الصواب أن أنسحب عن المدينة في هذه الليلة وأخرج الى الخلاء والا أخذت بكثرة الاعداء لأني وحيد منفرد وليس لدى من الجيوش ما استطيع به مقاومة العدو .

ثم دعا من حوله من الاجناد فلم يجد الا ثلاثمائة فارس من فرسان العربان وقد كان الملك المنذر بن النعمان تركهم في خدمته لما قدم معه لحرب خسرو الذي اغتصب الملك بعد موت أبيه فلما وقفوا بين يديه قال لهم انى أعلم أنكم فرسان اقيال لا تخافون الموت ولا تهابون الجيوش كثرت أو قلت ولذلك لم يبق اعتمادى الا عليكم فقالوا حبا وكرامة فها نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك فاذا شئت أن تهجم بنا على الثلاثمائة الف صيني الذين حول المدينة فلا نتأخر ولا نفقد عزمتنا بل نعدك بالنصر والنجاح اذا كنت قائدنا وفارسنا وحامينا . فامرنا بما ترد تجدنا أطوع لك من العبيد قال لا أوافق على أن تقاتل الاعداء في ضواحى المدينة لانهم كثيرون والمجال متسع عليهم فيقتلونكم عن آخركم وربما قبض على لان الكثرة تغلب الشجاعة فالاوفق أن أخرج بنفسي هذه الليلة مستخفيا في الظلام فاجتاز الاعداء وانتظرهم الى أن يدخلوا المدينة ويتفرقوا فيها ولا ريب أن ملكهم يطلبني فلا يرانى فيعلم أنى قد هربت في الليل فيبيت من قبلى في أمان ولا سيما اذا حكي له الوزراء الخائنون عن حالتي وما أنا عليه فلا يرهب سطوتى وفى الليلة الآتية أهجم على المدينة من الباب الشرقى فالتقوا بى هناك وحينئذ أسير فوراً الي ملك الصين فأقبض عليه وأذله وأذبح جنوده ذبح الغنم .

فلما سمع فرسان العرب كلام الملك بهرام شاه تعجبوا من حسن تدبيره وشجاعته وعلموا أنه يقدر على أكثر مما يقول وقد شاهدوا شجاعته تكرارا ورأوا بعيونهم أن الأسد لا تثبت أمامه فأجابوه الى طلبه ووعدوه بالانتظار في الليلة الآتية حسب أمره . ثم تقلد الملك بهرام شاه سلاحه الكامل وركب جواده وخرج من المدينة تحت الظلام وقد ستره الله عن أعين الاعداء ولم يتجه اليه نظر أحد لانه وحيد وهو الآخر لم يتحرش بأحد بل كان يسير منفردا وعلى

الخصوص ان ملك الصين كان أوصي الجند ان لا يضروا أحدا من أهل المدينة لأنه عرف أن أعيان ايران وأمراءها ووزراءها سيأتون اليه فى الصباح ويدخلون فى طاعته ويفتحون له أبواب المدينة .

ولم يزل بهرام شاه علي مسيره وأمامه الجيوش الصينية وهو يتحرق على الايقاع بهم وكثيرا ماحدثته نفسه أن يشهر حسامه ويبطش بهم ويلقى بنفسه بين تلك الجماهير لولا أنه كان يعد نفسه بعمل أعظم يضمن به نجاحه . ولم تبزغ أنوار الصباح حتي اجتاز معسكر الاعداء ووصل الى خلفهم وحينئذ تحول عن جواده وتركه يرعى فى ذلك البر ووقف ينتظر مايكون من أمر الصينيين وبقى مقدار ساعتين وهو واقف فى مكانه علي ذلك الحال واخيرا راى جيوش الصين اخذت تتقدم نحو ابواب المدينة وبدأت بالدخول فيها فقال انالله وانااليه راجعون وقد امتلك الاعداء تختي وملكهم اياه الوزراء والاعيان ولكنه من الصعب جدا على ملك الصين ان يستقر على التخت فسيبيت هذه الليلة انشاءالله أسيرا أو قتيلا وصبر ينتظر الليل بفروغ صبر .

فهذا ما كان منه وأما ما كان من أمر الوزراء والامراء فانهم عند الصباح خرجوا إلى ملك الصين وقبلوا الارض بين يديه وسلموه مفاتيح الابواب وقالوا له يامالك الزمان لا يخفاك أن ملكنا ولد جاهل لا يهمه من الدنيا الا معشوقته والاستمتاع بها والاقبال على اللهو والحظ ولذلك نتمنى الدخول فى طاعتك فتكون البلاد فى حوزتك ويكون أهلها على الدوام من رعاياك وعبيدك ونحن كذلك بين يديك نعترف بانقيادنا اليك ودخولنا فى جملة رجالك فرحب بهم وقال سترون مني حاكما عادلا متيقظا :

ثم أخذ منهم المفاتيح على الفور وأمر جيوشه أن تزحف على المدينة وتدخل من أبوابها فى الحال وتتفرق فى كل جهاتها وتقبض على قلاعها وحصونها وركب هو فى الاول وتقدم محفوفا بالفرسان والابطال ودخل من باب المدينة ثم تدفقت من ورائه الرجال والفرسان وسار فى الحال قاصدا نحو قصر الملك بهرام شاه وهو متيقن أنه لا يزال فيه مشغولا بلهوه غارقا فى حظه ولما دخل القصر ولم يجد أحدا سأل عنه فقيل له انه خرج منذ أيام منخفيا ولا يعرف أحد الى أى جهة قصد فقال انه لما علم بقدومى لحربه علم انى لا بد من أن أرسل فى طلبه الفرسان والابطال ففر ثم قصد فى الحال الى قصر الاحكام ودخل الديوان وجلس

على تخت ايران واعتني بنفسه وفرح بجلوسه على عرش الفرس بلا تعب ولا عناء ثم جمع الوزراء والاعيان ومدحهم على خدمتهم له وما بذلوه نحوه وحمدهم بكل جميل وقد سألهم أن يأتوه بالخزائن والاموال ويخرجوا له الدفائن وما عند بهرام من الجواهر والذهب وبقي على مثل ذلك حتى دخل الليل وهو مغتر بما حصل عليه مستبشر بعزه ونصره وكان الوزراء قد جاءوا اليه بالخزائن محمولة على ظهور العبيد ووضعوها بين يديه ودفعوا اليه مفاتيحها فتناولها وأراد ان يفتحها ويشاهد ما فيها واذا به يسمع الصياح والنواح قد علا من كل الجهات والناس يتراكضون في الاسواق من جهة الى أخري فارتاع ووقف ينظر ماالخبر واذا بأحد قواده قد دخل عليه وقال له خذ لنفسك الحذر ياسيدى فان بهرام دخل المدينه بجيش قليل لكنه كالقضاء المنزل والبلاء المرسل فهو كالغول الأكول يقتحم المخاطر ويدوس بحوافر جواده أقحاف الرجال ويفرق الألوف ويخترق الصفوف ولا يقدر أحد أن يثبت بين يديه وفي برهة وجيزة قرب من هذا القصر وكنت انا فى جملة من قام لقتاله لكن من أين للقش اليابس أن يقاوم النار ذات اللهب المتوهج والشرر المتاجج .

(قال الراوى) ياسادة هذا وقد تقدم لنا أن بهرام شاه وقف ينتظر دخول الأعداء المدينة وصار كلما تقدموا يتقدم من خلفهم وهم يتقاطرون إلى الابواب ويتفرقون فى جهاتها حتى أمسي المساء ولم يبق منهم الا العدد القليل عند ذلك تيقن أن الملك يكون فى ذلك الاوان جالسا فى الديوان على تخت مملكة ايران فهاجت به بلابله واشتعلت بقلبه النيران وغضب غضبا شديدا وصبر إلى أن دخل آخر رجل من الصينيين الابواب وحينئذ دخل هو ونظر يمينا وشمالا فرأى الاعداء يفترقون نحو القلاع والحصون ورأي أحد فرسان العرب واقفا عند الابواب فسأله عن رفاقه فقال انهم قريبون من هذه الناحية فأمره بسرعة إحضارهم ولم تكن الا دقائق معدودة حتى صاح بصوت ارتجت له أركان مدينة ايران ورجفت منه قلوب الاهالي والسكان وحمل على جيوش الاعداء بقلب لا يهاب الموت ولا يخاف كثرة الجيوش وقال ويلكم يارجال الصين ويا أخس الكلاب أظننتم ان الملك بهرام يتخلى عن عرشه ويترك ملكه وتخته لغيره وهو فارس الارض بالطول والعرض فها هو قد جاءكم ليقصر آجالكم ويزهق أرواحكم ويستخرجها من أجسامكم فاثبتوا لتروا الموت الاحمر والهول الاكبر من كف هذا الليث الغضنفر والبطل الضرغام

وجعل يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال فيصيب مقاتل الرجال وينثر رؤوسهم بالسيف البتار ويمدد أجسامهم على الارض بعضها فوق البعض هذا وقد انتشر الخبر في كل ناحية وخرج الناس من البيوت يسألون عن جلية الخبر ولما عرفوا دخول بهرام شاه المدينة وهجومه على الاعداء وتشتيت جماعاتهم وقتل فرسانهم ورجالهم واعدامهم الحياة بعد أن كانوا فى راحة تامة تأكد لهم أنه سيعيد ملكه مرة ثانية بسيفه ، وعند ذلك تحركت فى نفوس أهل إيران الحمية ودبت فيهم الاريحية فحملوا السلاح ونادوا بعضهم على بعض وتقدموا بين يدى ملكهم الهمام بهرام شاه وقالوا له يامولانا وسيدنا نحن وأرواحنا فداك ولا شمتت بك أعداك وأخذوا يضربون رقاب الاعداء ويرمونهم بنيران حرابهم وكان بهرام كالاسد الضرغام مداوما على الفتك والقتل وكلما ازدحمت عليه الرجال فرقها بالصارم والسنان وحمل عليهم حملة الليث الغضبان ومن حوله فرسان العرب كأنهم النار ذات اللهب والاحمرار وقد قويت ظهورهم واشتدت عزائمهم لما رأوا فعل بهرام الذى تعجز عن وصفه الاقلام ولم يكن إلا القليل حتى وصل أبواب قصره فاعترضه الحجاب القائمون عليه وكانوا من الصينيين فأنزل عليهم صواعق غضبه وأبلاهم بضرب الحسام وعجل لهم الحمام ففر الجبان ومنى بالخذلان ورضى لنفسه بالذلة والهوان وخطفت روح من عرض نفسه للقتال فى حومة الميدان فتفرق شمل الحجاب بأسرع من لمح البصر ، وقد اتصل الخبر بملك الصين فحار وأدركه الانبهار وعمى فى رابعة النهار ولم ير بدا من الفرار فأسرع الى باب آخر وخرج منه بسرعة قبل أن يدركه بهرام ويسقيه كأس الحمام ويريه الموت الزؤام وركب أسرع جواد صادفه وانسحب يعدو الى خارج المدينة وأسلم لجواده العنان وقد تبعه كثير من رجاله الذين سلموا من سيف بهرام وما أشرقت شمس الصباح وفى المدينة رجل واحد من الصينيين ولما وجد ملك الصين نفسه بعيداً عن المدينة عند الصباح ولم يجد أحداً من الايرانيين فى أثره وقف يأخذ لنفسه الراحة وكان رجال الصين الذين هربوا من المدينة يصلون اليه شراذم بين عشرة وعشرين وفى ساعات قليلة اجتمع حوله بضعة آلاف فارس ولما انقطع الوارد علم أن الباقين قد هلكوا وحينئذ قال لمن حوله هلموا بنا نرجع الى الصين فلم يبق من أمل فى فتح ايران لأن بهرام بطل الابطال وقد دبر تدبيراً حسناً حتى ظفر بنا سريعاً وقتل أكثر رجالنا وأهاج علينا جيوشه واسترد منا المدينة

في ساعة واحدة من الزمان ومن تلك الساعة ساروا على طريق الصين يندبون رفاقهم ويأسفون على ما أصابهم وشخص بهرام يلوح أمامهم وصوب تهديده ووعيده يرن في آذانهم .

فهذا ما كان من ملك الصين وجنوده وأما ما كان من بهرام فانه بعد أن فرغ من الايقاع بأعدائه ودخول قصره جعل يتفقد عدوه فلم يره فعرف أنه هرب ونجا بنفسه فقال حسنا فعل .

ثم جلس على العرش وشكر الله جل جلاله الذى أعاد اليه عرشه ثانيا وثبت عنده أن ذلك نعمة من الله سبحانه وتعالى لينتبه إلى نفسه ويعرف أن الله أقامه حاكما في الرعية يدبر أمورها وينظر في قضاياها بنفسه لا ليتخلى عنها ويتركها فى أيدي حكام لا ضمير لهم ولا دين ، ومن ثم قبض على الوزراء وأعيان المملكة الذين خانوا بلادهم وسلموا مملكة إيران إلى العدو فشنق بعضهم فى الاسواق ونفي بعضهم إلى بلاد بعيدة وألقى بعضهم فى الحبوس جزاء فعلهم الشنيع لأنهم كانوا قادرين على أن يقفلوا أبواب المدينة فى وجه الاعداء إلى أن يخرج اليهم فضلا عن أنه كان متكدرا من جهتهم منذ خيانتهم فى المرة الأولى وقد عفا عنهم لانهم كانوا سلموا تاج أبيه وجده الى خسرو المغتصب ومن بعد أن فرغ منهم توجه بأنظاره الى الحكام وولاة الامور فعزل وحبس وأقصى كثيرين منهم وكل ذلك كان بمزيد الاحكام ومراعاة القوانين والاحكام وحكم القضاة العادلين الأعلام فانه كان لا يظلم أحدا ولا ينتقم من أحد الا بعد أن يقيم عليه البينة ويشهد الشهود بخيانته وسيرته المعوجة وسريرته السيئة وعندما تثبت جريمته يوقع عليه العقاب ولم تمض أشهر قلائل حتى رجعت الأحوال الى مجراها الاول وعاد الامن الى نصابه وزادت الراحة والطمأنينة وعم الهدوء وبلغ الاهلين الدرجة القصوى من الرفاهية وباتوا يشكرون العناية الالهية التي ردت الملك عن غيه وأعادت اليه صوابه حتى انتقم لهم من الظالمين ، وتناقل الناس هذه الاخبار فى أنحاء العالم وعرف ملوك الارض أجمعون أن الملك بهرام شاه بثلثمائة فارس من العربان بدد ثلثمائة ألف من جيوش الصين وأرغم ملكهم على الفرار والهرب تحت استار الظلام خوفا من شرب كأس الحمام فرهبه الملوك وخافوا بأسه وشدة سطوته وتحدثوا بشجاعته وأحبوه لذلك وزالت مطامع الملوك الذين كانوا يطمعون فى الاستيلاء على بلاده وعرفوا انه وان كان مشغولا بصفوه وأنسه فشجاعته

النادرة المثال تحمي البلاد وتصونها وترد عنها هجات المغيرين ونزوات الطامعين وغارات المغيرين .

وبعد أن هدأ بال بهرام شاه واستقر أمره واطمأن على صلاح حال رعيته كتب إلى ملك الصين يقول له : « أما بعد فاني أشكر الله سبحانه وتعالى على عدله ورحمته وأعلمك أيها الملك العظيم أني لا أنسى تعديك على بلادي وطمعك في تختي واغتنامك الفرصة لتملك بلادي واستعباد رعيتي ولكن الله الذي أعطاني من الشجاعة والبسالة مالم يعطه لغيري من أهل الارض في طولها والعرض نصرني عليك فبعد أن هربت منك لا خوفا لكن لانظر حالة وزرائي الخونة الذين طرحوا ببلادهم إلى الذل وسلموا عرشي لعدوي ، ولما تبين لي كل شيء فاجأتكم بثلثمائة فارس من العربان الشجعان أصحاب المروءة الباهرة والنخوة والشجاعة النادرة والقوة العجيبة التي خصهم الله بها وفي ليلة واحدة طردتك عن ملكي ولم أدعك تتمتع سوادها به بل بددت جيوشك وأجريت دماء فرسانك وشجعانك وخاصتك كالانهر في الاسواق ، وأرغمتك على الفرار كما يفر الجبان والآن وقد راق لي الزمان وصفت الحال وتهيأت لي أسباب توسيع رقعة بلادي لن أطيق الصبر على ما ألحقته بي من الاهانة قد فكرت في الزحف على مملكة الصين فأهدمها من أساسها وأخليها من ناسها وأجازيك على فعالك وأريك شر عملك لكن نظرت في لامر وتدبرت السر والجهر ، فرأيت الصلح أوفق والمسالمة أرفق ، ولكن لا يمكنني الصلح قبل الترضية منك والتعويض على ما لحقني من الاهانة والتشنيع ، فحال وصول كتابي هذا اليك ارسل لي ابنتك لقمان ذات العصمة والعفاف لاتخذها زوجة لي ويتصل نسبي بنسبك وارسل معها أيضا خراج سبع سنين وذلك في مقابل ما تلف وخرب من بلادي بسببك وهذا نهاية ما عندي فاما أن تستمع لنصيحتي وتجيب طلبي وتفضل الصلح على الخصام وإما أن أزحف بجيوش إيران على الصين وأنتقم لنفسي بيدي من العدوان والسلام » .

وبعد أن فرغ من الكتاب أرسله مع قائد من قواده وأمره أن يسير ببعض الفرسان والقواد إلى ملك الصين ويأتي منه بالجواب وإذا سلمه بنته يأتي بها معززة مكرمة فقبل القائد الأرض بين يديه ولما خرج من عنده اختار بعضا من القواد والفرسان وسار يقطع الفيافي والوديان قاصداً بلاد الصين .

وبعد أن سار الرسول بأيام دخل على الملك بهرام شاه بعض الوزراء الجدد الذين عينهم الملك بنفسه وقال له اعلم ياسيدى أنك حتى الآن لا تزال بغير زواج وأن الزواج لا غنى عنه وخاصة لمن كان مثلك ملكا على البلاد فهو له راحة ولذة وهو سبب للنسل ودوام البقاء وإنى أعرف بنتا كاملة فى الحسن وفائقة فى الجمال والقد والاعتدال لا نظير لها بين بنات ملوك هذا الزمان وهى بنت أحد أكاسرة إيران من عائلة كيكاوس وهي ذات حسب عال فيمكنك أن تتزوجها فى الحال لكونها تحت يدك وفى قبضة يمينك . فلما سمع بهرام هذا الكلام طار صوابه وقال فى نفسه إنها واحدة من البنات السبعة اللاتى شغلن فكرى وسلبن قلبى وفى الحال أرسل على وجه الاستعجال بعث يخطبها وتم مراسيم الخطبة وأقيمت الزينات بنواحى المملكة واحتفل الناس بزواج الملك بهرام وأقاموا أسبوعا كاملا فى عيد الزواج ولما تم عقده عليها بحضور الكبراء والعظماء والوزراء والكتاب والعلماء ورجال الدين أمر أن يبنى لها قصرا يفوق قصر الخورنق سبعة أضعاف ثم دخل بها فوجدها أجمل مما نظر لانها كانت كالبدر بهاء والشمس سناء والغصن قدا والورد خدا والشهد طعما والحرير ملمسا والغزال لفتة والظبي جيداً ، والمها عيونا ، والنجم جبينا وضاء والضياء لمعانا والبرق سناء ، والليل شعرا فعشقها من ساعته ولم يعد يسأل عن معشوقته فتنة ولم تعد تخطر له على بال لانها كانت لا تصلح جارية لها وبعد أن أتم بناء القصر العجيب نقلها إلى القصر الذى خصه بها وصار يأتيها فى كل ليلة ويصرف وقته عندها وفى الصباح يخرج إلى الديوان ويقضى بين الرعايا وينظر فى أمور البلاد ومصالح العباد .

وأما القائد الذى أرسله إلى ملك الصين فانه بقي فى مسيره الايام والليالي يجد السير ويوصل النهار بالليل فلما وصل أرض الصين دخل على ملكها وقبل الارض بين يديه ودعا له بطول العمر والبقاء ثم سلمه رسالة سيده ففتحها الملك وسلمها إلى أحد وزرائه ليقرأها له فقرأها وبعد ذلك أمر أن يؤخذ القائد إلى دار الضيافة مع رفاقه إلى أن يرى الرأى فى جوابه . وكان ملك الصين قد أحب بهرام حبا عظيما لما شاهده من شجاعته فلما سمع أنه يرغب فى الاقتران بابنته انسر قلبه بذلك وقال فى نفسه لا يليق بابنتى شمس المحاسن إلا بهرام الليث الاروع فهو الوحيد الذى يستحقها وسأرسلها له وأفضل السلم على الحرب لكنه لم يبت فى ذاك اليوم أمرا بل جمع في اليوم التالي الوزراء ورجال الدولة واستشارهم فى الامر

الذي جاء في الرسالة وقال لهم إننا حقا تعدينا على الملك بهرام وطمعنا في بلاده ظنا منا بأنه كغيره من الناس لكنه أسد كاسر وليث قاهر لا يصطلى له بنار وبطل نادر وفارس مغوار والآن هو يريد منا أحد أمرين وهما اما الصلح واما الخصام ويطلب الصلح على بنتي وخراج سبع سنين كغرامة حرب أو أنه يزحف على بلادنا ويخرب أوطاننا وقد رأيت من مصلحتي أن أزوجه بنتي لقمان فهو أليق بها من غيره وأما المال فأمره مفوض إليكم .

وبعد أن أطرقوا برءوسهم في الارض يفكرون فيما صاروا اليه وقد صعب عليهم هذا الأمر الذي دعاهم اليه الملك بهرام وكيف يذلون لدولة الفرس ويرسلون لها الخراج عن سبع سنين ويرسل الملك ابنته الى عدوه ففي ذلك اهانة كبري في عرف الصينيين لكنهم لم ينطقوا ببنت شفة بل لبثوا في حيرة وارتباك إلى أن نهض من بينهم وزير مسن قد عرك الزمان ورآه ذا ألوان واختبر الايام وحنكته التجارب وعرف بالرأى الصائب وقال اعلم أيها الملك وأنتم أيها الوزراء أن الصلح في هذا الامر أوفق من الحرب وانى أؤكد لكم أن الحرب ستفقدنا بلادنا لان أرض الصين لابد أن تدخل في حكم بهرام كما قررته الاحكام وجرى به القدر المحتوم فاذا ملكناها بالاسم كان أوفق لنا وأشرف وبقينا عليها كما نحن لانه قبل أن يخلق بهرام ظهر للمنجمين وعلماء الفرس أنه سيكون سعيد الطالع وأنه سيملك أقاليم الدنيا السبعة العظيمة ويتزوج بسبع بنات أجمل بنات العالم ومن عاند فعل القدرة وقع في الخسران فضلا عن أن شجاعته ظاهرة للعيان فقد بدد ثلاثمائة ألف فارس بثلاثمائة فارس وقد أعطي من القدرة مالا يعطى لاحد قط وقد حكى لي أحد السياح الذين كانوا في ايران يوم تولى عليها بهرام شاه أنه هجم على أسدين جائعين وهو بغير سلاح فقبض على كل واحد بيد وأماتهما في الحال وهذا العمل مما ترتجف منه القلوب فعبثا تقاومون ايران فمن رأيي أن تجيبوا بهرام الى طلبه وترسلوا له جميع مطالبه والا ندمتم غاية الندم فسيملك الصين رغم كل معاند وهذا معروف في كتب الاولين ومبين للعلماء والمنجمين

فلما سمع الملك والوزراء هذا الكلام تبين لهم وجه الحق من الضلال وخافوا أن يمتنعوا فيجروا على الصين الوبال ولذلك أجمعوا على إجابة طلب الملك بهرام شاه ووافقوا ملكهم على ذلك وحينئذ أرسل ملك الصين فاستدعى سفير بهرام وقال له ان رغبتي الصادقة في التقرب من سيدك الملك بهرام حملتني على اجابة طلبه

فبعد ثلاثة أيام تجهز للعودة الى بلادك وسنصحبك بالاموال التي طلبها الملك وسترافقك كريمتي اقمان زوجة للملك بهرام شاه وسيدة لبلادكم . فشكره القائد على ذلك وقال له إن سيدى لا ينسى لك هذا الجميل وهو اذا عرف انكم راغبون في الصلح فسيسر لذلك كثيرا وأن رغبتكم فى التقرب منه ليست أكثر من رغبته في التقرب اليكم وانى من الآن في انتظار أمركم لي بالسفر والتجهز للارتحال الى سيدى وفى خدمة سيدتى لانه يترقب اجابتكم وعودتى من هذه المهمة التى عهد الي بها بفارغ الصبر وعند ذلك أخذ الملك فى تجهيز الاميرة لقمان واعداد الهدايا النفيسة لبهرام شاه ولأمراء ايران وفى نهاية اليوم الثالث أيام أستدعى ملك الصين السفير وسلمه الهدايا والتحف وأصحبه كريمته الاميرة لقمان ذات العفاف والجمال الفتان وكتب الى بهرام شاه كتابا يبين له فيه أن رغبته فيه ومحبته له هى التى حملته على ملازمة السلام واجتناب الحرب والخصام وحببت اليه مصاهرته واهداءه ابنته الدرة الغالية التي هى أعز عليه من نفسه التى بين جنبيه

وفى صباح اليوم الرابع ركب السفير بجماعته وحمل الهدايا والنفائس التى أخذها من ملك الصين وأركب ابنته لقمان وأصحبها بجماعة من الفرسان وسار لوداعها من الوزراء والاعيان فساروا فى رفقتها طول ذلك النهار وعندما أقبل عليهم المساء عادوا إلي المدينة وسار سفير دولة ايران بمن معه يقطع السهول والوديان ويصل سير الليل بالنهار حتي اقترب من مدينة ايران فأرسل يعلم الملك بهرام شاه بقضاء غرضه ونوال رغبته ففرح بهرام شاه فرحا لا يوصف وأمر الوزراء بالخروج إلى ملاقاة بنت ملك الصين وأن يصحبوا معهم الجنود والقواد وأمر أن تزين المدينة وأن توقد النيران وتضاء عموم مدينة ايران فكان فرح الناس عظيما وما منهم الا من خرج لمشاهدة الزينات واحتفلوا بقدوم ملكتهم الجديدة وتقاطروا لرؤيتها من كل صوب وهاجوا وماجوا حتي سمح لهم جميعا بمقابلة الملكة الجديدة والتسليم عليها ثم ساروا بين يديها إلي المدينة وأدخلوها فى موكب عظيم ما بين أصوات الدعاء ونغمات الترحيب وأناشيد الفرح والابتهاج ومن ثم أخذوها الى قصر الحريم وكان قد أعد به كل أسباب الزينة والفرح . وبعد أن أولم الملك بهرام شاه الولائم وأقام الافراح مدة ثلاثة أيام كاملة دخل على الملكة لقمان وهو لا يصدق أن يراها فى عالم الحقيقة بل كان يظهر أن ذلك أضغاث أحلام لأن قلبه كان مشغولا بها منذ رأى صورتها فى

قصر الخورنق وحالما دخل عليها وشاهد جمالها الفاتن ومحياها البهيج تاه عقله لانه لم ير فى طول عمره لحسنها نظيرا وأدرك ان المصور الماهر الذى صنع تمثالها العظيم الذى فى قصر الخورنق لم يستطع أن يأتى بصورتها ولا بما يدانيها وأراد أن يتقدم نحوها فلم تحمله رجلاه وكانت الثمان قد رفعت عينيها فرأته ورأت ماهو عليه من البهاء وصبوح الوجه فطار قلبها شعاعا وعلمت أنها لم تضع وأن حظها السعيد وطالعها الموفق وجمالها الفريد هو الذى أنعم عليها بالاقتران بالملك بهرام وفى الحال وقفت اجلالا لمقامه وتقدمت مطرقة من شدة الحياء وقبلت الارض بين يديه فطبع قبلة حارة فوق جبينها ثم ضمها الى صدره وعانقها معانقة العاشق الولهان والمدنف الحيران وأمضى معها ليلته على الحظ والنعيم وأراد فى اليوم الثانى أن يبقى عندها فسجدت بين يديه ثم قالت له العفو ياملك الزمان انى دخلت قصرك ولم أعد اخرج منه الا الى القبر ولا يقدر أحد من ملوك الارض أن ينزعني من بين يديك فانى لك وفى ملكك أما أنت فلشعبك ولرعيتك أكثر مما انت لى وهم الآن ينتظرون خروجك ليباركون لك ويهنئونك فاخرج اليهم واقض مصالح الملك ثم ارجع فستراني كما تركتني ويكفى أنى انى ماطرق هذه البلاد إلا بعد أن سمع بأنك توغلت فى الملاهى والملذات وتركت الملك حتى ضعف أمره وكرهتك الرعية والوزراء وسلموا الملك غنيمة باردة ولقمة سائغة لوالدى ومازالت الثمان فى مثل هذا الشأن وهو يتأمل فيها ويسكر من سحر صوتها وحكمة أقوالها وصواب معانيها ولما اتمت ماعندها من الكلام قال لها أصبت ياذات الجمال والكمال فلو ان فتنة محظيتي الاولى التي كنت منشغلا بها مثلك لما جرى ماجرى بل كان همها الحصول على قلبي وعقلي ولو خربت المملكة فى سبيل الهوى

ثم إنه بعد ذلك قبلها وخرج الى مقر الحكم وقلبه مملوء من السرور والابتهاج حتى جاء العصر المعد لاستقبال المهنئين من أعيان الدولة وكبرائها فهنئوه وباركوا له ودعوا لدولته بدوام العز والسلطان وكانوا يأتونه أفواجا أفواجا فيقدمون تهانئهم ويشربون الشراب ثم يخرجون فيأتى سواهم وهو يلاقي الجميع بوجه باش ويرد عليهم بلسان عذب وكلام حلو ومازال على تلك الحال حتى أقبل المساء الذى كان ينتظره بفارغ الصبر ولم يكد يقبل الليل حتى جاء الى الملكة الثمان وبات عندها الى الصباح وفى الصباح أمر أن يبنى لها قصر خاص كما فعل لبنت كسرى وكانتا الاثنتان فى جمال واحد لا يقدر الرائى أن يفرق الواحدة من

الاخرى وكأنهما توأمتان من أب وأم واحدة ومن تلك الليلة صار بهرام يقضي أسبوعا عند الملكة لقمان وأسبوعا عند الملكة بنت كيكاوس ولم ينقطع عن ديوان الاحكام قط . الى ان كان ذات يوم جلس يفكر فيما اعطى من النعمة فشكر الله سبحانه وتعالى علي ذلك وتوسل اليه ان يسهل له الوصول الى البنات الخمس الباقيات كما سهل له الحصول على الاثنتين المتقدم ذكرهما وقد صمم كل التصميم على السعى وراء الباقيات اللاتى قدر له المولى ان يتزوج بهن . ولذلك كتب الى الملك قيصر ملك الروم كتابا يطلب اليه فيه ان يرسل له الهدايا والاموال والجزية وان يهيء ابنته ويرسلها اليه بالاكرام والاعزاز فيتخذها فى جملة حرمه وان ابى وامتنع عن اجابة طلبه فليستعد للحرب والقتال لانه سيحمل عليه بجنوده ورجاله ويأخذ بنته سبية بالرغم منه ولما بلغت الرسالة الملك قيصر وقرأها الى آخرها غضب غضبا عظيما وتكدر مما حوته من التهديد والوعيد وفى الحال أمر ان يجاب على رسالته بالشتائم والتحقير وأن يحضر للحرب والقتال فانه له بالانتظار وبعد عودة رسول الملك بهرام بجواب ملك الروم أمر بجمع العساكر وحشد الجيوش وتهيئة المؤن والاستعداد لحرب الفرس .

واما الملك بهرام فانه عندما قرأ جواب قيصر تغيظ واحمر وجهه وقامت قيامته وارغى وازبد وأقسم وتوعد وهدد وقال لقد دفعت الكبرياء بالملك قيصر الى العناء فوجب على تأديبه وارجاعه الى جادة الصواب ليعلم قدر الملوك .

ثم جمع ما وصلت اليه يده من الجنود والفرسان وخرج بهم من ايران قاصدا بلاد الروم وقد نشرت فوقه الرايات وصفقت الجنود وعزفت بين يديه الموسيقات وما زال يسير بالجيش فى الطريق البرئ الى أن وصل الى بحر الروم فأمر بتهيئة السفن وعبور الجنود من البحر الى ساحل الروم وعند ذلك التقى بجيوش ملك الروم في قلب بلاده وكان ملك الروم لما سمع بركوبه اليه خرج برجاله لقتاله عند التخوم وهو يؤمل أن يسحق جيوش الفرس ويهلك ملكهم بهرام شاه ومن ثم يسير الى المدائن ويستولى على عرش الاعجام ويقرض تلك الدولة التى دوخها الكبر والعتو وأسكرتها خمرة الظفر ونشوة الاستبداد حتى رأت دول العالم أقل منها قوة وأخس مقاما . ولما وقعت العين على العين تحرك القديم من الضغائن بين الطرفين فهجم الفريقان واصطدم الجيشان هجوم الذئاب الكاسرة واصطدام الليوث القاهرة وقد قوموا الأسنة وأشهروا الرماح وعلا من الفريقين

الصياح وأغمدوا فى الصدور الصفاح وفتحت الحرب أبوابها من كل ناحية ونعق غراب البوم على النفوس وناح فدخل فيها الكبير والصغير ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى اختلط الفريقان وعلا فوقهما الغبار إلى أعنان السماء وجرت الدماء على الصحصحان كجرى المياه فى الغدران أو الميازيب فى أعلى البنيان أو المطر الهتان وكان المعول فى كل ذلك على الملك بهرام عروس ذلك الميدان فانه كان كالغول أو كالأسد الأكول يلتهم بسيفه الفوارس ما بين عشرة وعشرين ويلقى بها إلى عزرائيل ويعجل بها الرحيل إلى سجيل فلم يقدر أحد من جيش الروم أن يثبت أمامه دقيقة واحدة ولذلك كان المجال يتسع عليه فيصول من مكان إلى مكان ويحمي رجاله كما يحمى الأب أطفاله والليث أشباله الى أن قرب الزوال ودقت طبول الانفصال فافترقوا على سلام ورجعوا الى الخيام وأوقدوا النيران وتحارس الفريقان وقد رأى الملك قيصر أن النقص قد وقع في عساكره حتى قتل أكثر من ربعهم فقام وقعد ورمى بالزبد ولام القواد وأنب الأجناد على هذا التراخى والضعف فوعدوه أنهم في اليوم التالى يعوضون ما فات ويسقون الفرس كؤوس الممات . ولما كان الصباح نهض بهرام وسبق الجميع الى الهجوم على الأعداء فاخترق الصفوف وشتت الألوف وأنزل عليهم المصائب والبلايا وجعلهم مثلا بين البرايا هذا والملك قيصر يدفع القواد والفرسان لتحمل عليه ويحرضها على قتله واعدامه فتهجم عليه أو يصل يده اليه لا يلبث حتى يتكردس بين يديه وتدوسه سنابك الخيل ويلاقي مر الويل فكل من يقترب اليه كمن يلقي نفسه فى نار ملتهبة أو أرض منقلبة ولم يمض الا القليل حتى حملت فرسان الفريقين ومشاتهما واتقدت شعلة الحرب أى اتقاد ورعت الحرب نفوس العباد فبيعت النفوس بغير ثمن وعدمت الأهل والسكن فدارت الدائرة على قيصر الروم ورجاله ووقع فيهم النقص والفناء .

قال الراوي يا سادة ولما رأى ملك الروم ما وقع برجاله علم أنهم سائرون إلى الزوال فألوى عنان جواده وطلب الهزيمة والهرب وأمر بأن تتبعه العساكر والجنود ليسبق الأعداء الى المدينة ويغلق دون جيوش الفرس أبوابها ويستعد للحصار فأدارت الفرسان وجوهها وأطلقت لخيولها الاعنة تاركة المؤن والذخائر فى ذلك المكان غنيمة لجيوش مملكة ايران وحينئذ وقف بهرام شاه عن القتال والتفت الى من حواليه من القواد فقال لهم اجمعوا المؤن والذخائر ولموا الاسلاب

واتبعونى الى المدينه فانى أحب أن أتأثر قيصر في الحال قبل أن يلحق بالمدينة فيدخلها ويحاصر فى داخلها ويحفر حولها الخنادق فنبقى خارج المدينة الى ما شاء الله حيث لا تغنى الشجاعة ولا تنفع قوة الجلاد .

ثم انتخب نحو عشرة آلاف فارس من نخبة الفرسان وسار بهم يتأثر قيصر ورجاله وكلما وقع بيدهم جماعة من المنقطعين أسروهم أو قتلوهم حتى أقبل المساء وكان بهرام قد ظن أن قيصر سينزل فى تلك الارض فينام بجيوشه إلى الصباح ولكن المقادير خيبت ظنه ، وأخلفت أمانيه فانه سار إلى المدينة ببطء وأما بهرام البطل المقدام فانه لم ينزل عن جواده هو وجنوده حتى أدرك قيصر فى الصباح على أبواب المدينة وكان في نية قيصر الدخول اليها لكنه لم يقدر ولا تركه بهرام بل فاجأه وأمر رجاله بالحملة والمسارعة إلى المدينة وان كل من اعترضهم قتلوه وكانت أبواب المدينة مفتوحة من كل جهة فاكتفي بهرام بأن ملك واحدا منها فأقام عليه نصف فرسانه كحراس ودخل هو بالنصف الآخر وأوقع بالمدينة وسكانها الفزع وعمهم الخوف والجزع والرعب والهلع وكان قيصر ورجاله قد دخلوا من الابواب الاخرى وظنوا أنهم إذا ضيقوا المجال على بهرام شاه فى المدينة يقبضون عليه فحملوا عليه وازدحموا حوله وعلت منهم الصيحات وتوالت الزعقات وسدت عليه الطرقات ولكن أين لهم أن يثبتوا أمام فارس الميدان ومبيد الشجعان فكان كلما تجمعوا فرقهم وكلما كثروا محقهم حتى أرعب المدينة وأوقع الخوف فى قلب قيصر وحينئذ لم ير أوفق من الصلح والسلام وطلب الامان والانقياد لارادة بهرام شاه لان قصده بنته والجزية فلا يمنعها عنه وعند ذلك نادى بطلب الامان وارتفعت الاصوات من السكان بطلب الامان والدعاء لبهرام شاه فارس الفرسان .

ولما سمع بهرام النداء رفع يده عن القتال وأمر فرسانه بالكف وقال لهم ان الروم استسلموا فحرام علينا قتالهم وفى الحال اتجه الى قصر قيصر الروم فتلقاه بالترحيب والاكرام وألقى سيفه عند أقدامه وطلب اليه العفو والامان والمعذرة عما فات وما وقع منه من الهفوات فصالحه بهرامشاه وقال له ان النسيان فى مثل هذا الشأن أوفق لبني الانسان . والآن قد مضي ما مضي وكأن لم يكن بيننا شيء .

ثم دخل واياه الي القصر وقيصر الروم قد امتلأ قلبه من الفرح لانه أحب بهرام شاه محبة لا توصف لما شاهد فيه من الشجاعة والاقدام والمروءة والبسالة ولين الجانب وبهاء الطلعة فقد جمع الله فيه كل ماهو حسن ولما صاروا فى أعلا القصر طلب قيصر الى بهرام شاه أن يجلس على العرش فأبي وقال له ان عرشك يبقي لك فانى لا أطمع فيه ولا اقصد انتزاعه منك بل جل ما أقصده هو أن آخذ بنتك لأننى أعلم أن الله قد من علي بأن تكون لى زوجة وأن أكون مالكا للسبعة الأقاليم والآن وان كان بلاد الروم قد وصلت فى يدى وقد فتحتها بسيفي وعزمي لكننى أحب ان تبقى انت عليها كما كنت لكن ترجع دائما فى أمورك الي وتعول فى كل شدة على حتى اذا احتجت الى مساعدة أو دفع عدو فانى مستعد لذلك فأدفع الضر عنك .

ففي الحال أمر قيصر بتزيين المدينة واقامة الافراح وعمل الولائم ترحيبا ببهرام وجماعته وأعلن أمر الصلح والاتفاق فى كل بلاده وقد دخل الوزراء والاعيان والبطارقة والجثالقة والرؤساء على بهرام شاه فسلموا عليه وقبلوا الارض بين يديه وشكروه على حلمه وعفوه ودام فى المدينة ثلاثة أيام على أتم مايرام من المسرة والهناء وكان قد وصل باقي الفرس الذين تخلفوا فى الطريق فضربوا أطنابهم حول المدينة ودخل القواد وانضموا إلى سيدهم يشاركونه فى أفراحه وبعد الثلاثة أيام امر قيصر بأن تجمع الاموال والهدايا من كل ثمين ونفيس فجمعت وقدمها كلها بين يدي بهرام شاه .

ثم أحضر بنته فعرضها عليه وقال له ان جاريتك بين يديك فانى أقدمها لك لكي تزف عليها فى بلادك لانه على حسب اعتقادنا لا يصح تزويجها بك لكني أهبها لك هبة وأوصيك بها لانها تربت فى بيتى على الدلال والرفاهية فأجاب كن براحة فاني أكرمها وأعظم قدرها لانها زوجتي والعاقل لا يحتقر زوجته بل يكرمها اذا كانت امينة مطيعة لامره .

وبعد ان شكر بهرام شاه ملك الروم امر ان تحمل الاحمال وتركب الفرسان وترفع عروسه على تخت روان ، ولم يكن الا القليل حتى ركب وركبت عساكره ورجاله وساروا بين يديه وسار هو ايضا بعد ان ودع الملك ولا زال حتى دخل بلاده فلاقته الرعية بالتكريم والاحترام وزينت المدينه فرحا بانتصاره

وباحضاره بنت ملك الروم فدخل عليها وقد فرح بها كثيرا وابتنى لها قصرا خاصا واسكنها فيه .

وبعد ذلك بأيام قال فى نفسه ها أنا قد أحرزت ثلاثا من البنات اللاتى رمين على جمرة الحب وقدت لامرى ملكين عظيمين وأخذت منهما الجزية وأصبح من الواجب عليّ لاتمام عملى أن أسعى فى الوصول الى البنات الاربع الباقيات ويلزم الآن أن أحصل على بنت ملك الهند لكن السفر الى تلك البلاد صعب على الفرسان والاجناد لبعد الطريق وصعوبة الوصول لكثرة الجبال والمرتفعات ولا سيما أن عند ملك الهند كثيرا من الاجناد والابطال والعيارين وركبة الافيال ومروضي الاسود والسحرة المهرة فاذا سرت بجيش فقد عرضته الى الاخطار فيهلك منه قسم عظيم بدون جدوى ولا منفعة تعود على البلاد .

وبما أن النفع لي والربح العظيم لنفسي فان من الواجب على أن أسير بنفسى بصفة رسول عن بهرام مادام لا أحد يعرفنى فى أرض ملك الهند وربما إذا أرسلت رسولا يعود بالخيبة فأضطر الى الحرب والقتال بالرغم منى لكن اذا سرت بنفسى لا أرجع ان شاء الله الا وهى فى قبضة يدي وصمم النية على ذلك وكتب رسالة مستوفية ألى ملك الهند وأمضاها ثم غير زيه واختار بعضا من القواد وخرج من ايران قاصدا بهم بلاد الهند وتلك الاوطان ولم يزال يجد فى مسيره حتي وصل الى عاصمة الهند فأرسل الي ملك الهند يخبره بانه سفير من قبل بهرام شاه فى حاجة مهمة وكان الملك قد اتصل به قبل ذلك شيء من أخبار بهرام وشجاعته لكنه كان مطبوعا علي الكبر والغطرسة فلم يرسل أحدا لملاقاته بل قال ان الابواب مفتوحة فليدخل .

ولما بلغ الخبر بهرام شاه تكدر لكنه اخفي ماعنده من الغيظ والحنق ودخل المدينة بطنطنة عظيمة وجلبة وضجة محاطا برجال معيته فرأي المدينة معمورة للغاية ومتقنة البناء وأسواقها مزخرفة ومزينة وكان يرى في كل طريق يمر منه العساكر والفرسان والبهلوانية يطوفون بكمال العظمة والشجاعة .

فلما رأى ذلك تعجب وغاص فى بحر من الافكار وهو يقول في نفسه هل يا ترى اقدر ان اجعل هذه المدينة تحت سلطتى واصرف نفوذى فيها إن ذلك من الصعب لكن كل ذلك يهون بارادة الله .

وبقي فى مسيره حتى وصل من قصر الملك وقد كدره عدم احتفاء الملك به

وعدم ارسال أحد لاستقباله ولما وصل إلى باب القصر ترجل عن جواده وهناك لم يستقبله غير الحجاب فأدخلوه القصر ودلوه على الحجرة التي خصصت له والحجرات التي خصصت لجماعته وهناك أكرموه غاية الاكرام وترحبوا به للغاية وقاموا بخدمته كأشرف ضيف . فبات تلك الليلة مستريحا من مشقة السفر وفي صباح اليوم التالي خرج إلى الديوان واستأذن الملك في الدخول فأذن له فدخل حتي قرب من عرش الملك فحياه وأدى له الاحترام اللائق والواجب وهو بصفة رسول شاه الفرس ثم وقف في الوسط وقلبه مملوء من الغيظ والحنق وقد خطر له أن يستل سيفه ويقطع رؤوس جميع من في الديوان من السيد إلى الحاجب لكنه ضبط نفسه وخاف العاقبة وقال الصبر أفضل وأولى والتريث والحكمة أحسن وأحلى . وحينئذ أمره بالجلوس فجلس . وبعد أن أمر له بالمرطبات فشرب وقدم له العوائد الجارية عندهم وقف بهرام وقال لا يخفاك أيها الملك العظيم والسيد الكريم صاحب البلاد والأقاليم . أني مرسل إليك من قبل سيدي بهرام شاه ملك ايران ومذل الانس والجان قاهر الأسود ومبيد الجنود من شاع صيته في كل مكان وأمرني أن أسلمك هذه الرسالة وأسأل من فضلك الجواب . فوقع هذا الكلام ثقيلا على ملك الهند لكنه تناول الرسالة وسلمها لوزيره فقرأها بصوت عال حتي سمعها الجميع ولما وعى الملك معناها وعرف أن كل غاية بهرام شاه الاقتران من بنته وأنه يتهدده بأنه إذا امتنع فانه يأخذها جبرا ويأمره بأن يرسل مع بنته الجزية والهدايا زاد لذلك حنقه والتفت إلى بهرام شاه وقال له يظهر أن سيدك مجنون أبله أو أن الغرور قد لعب به حتى ضيع رشده أما قرأ في التواريخ وراجع الكتب القديمة ليعرف منها ما عليه مملكة الهند من القوة والسطوة وأنها لا تطيع أحدا ولا تخاف أحدا ولا تدفع الجزيه لاحد .

نعم إن سيدك مجنون أو جاهل أو مغتر بنفسه يظن أن الهند كغيرها من البلاد واني لولم يكن من العار قتل الرسول لكنت قطعت رأسك الآن وأرسلته له تحقيرا لشأنه واهانة له عله يرجع عن غروره وكبريائه .

فحينئذ وقف بهرام شاه وانطلق لسانه بفصاحة غريبة أسكرت كل من حضر وقال أيها السيد العظيم ان مولاي بهرام شاه هو أشد رجال الحرب واعظم من

جال فى مجال وهو يعرف عظم ملككم وقدرة فرسانكم ولا يجهل أن عدد جنودكم لا يحصى لكن يترجح عنده أنه قادر على سحق الهند والاستيلاء عليها ولكنه حبا فى السلام قدم اليكم رسالة من باب المخابرة والطلب ولكي يعطيكم برهانا على صدق ذلك أرسلني أنا احقر عبيده ولا قدرة لى أن أفتل عنانا بين يديه وارسل معى مائة فارس وأمرنى ان اعرض لديكم شفاها امرا واحداً وهو انه بعث لكم مائة فارس من فرسانه ويطلب اليكم أن تبارزوهم فاذا تغلبتم على المائة فارس يقف عند حده وإذا عجزتم عن التغلب عليهم فتتأكدون انه اذا جاء بنفسه وجر من خلفه جيوش الفرس يخرب بلاد الهند عن بكرة أبيها . فزاد غيظ الملك وقال ويلك ان هذا عين الجنون الا نقدر أن نتغلب على مائة فارس ولدى من الفرسان من إذا ضغط برجليه على الفيل قطعه . قال مهلا لا تعجل ايها الملك العظيم فى حكمك بل احلم واسلك معنا مسلك الانصاف والعدل فها انا بين يديك وهاك الميدان فمن شئت من فرسانك ان يبارزنى واجمع الشجعان من سائر البلدان فانى وحدي ابارز فرسانك فان لم اتغلب عليهم فيكون دمى مباحا لك وان تغلبت عليهم وقهرتهم يكون ما تكلمته هو الصدق الذى لامراء فيه وانى لا اطلب اليك ان أبارز واحداً واحدا بل مئة مئة وذلك اقوى دليل على الاختبار .

فلما سمع ملك الهند هذا الكلام وافق عليه وقال فى نفسه يلزم ان ارى رجال ايران فرسان الهند وشجاعتهم لينزعوا الطمع والعجب من رؤوسهم ولا يعودوا فيخبروا ملكهم بما رأوا لان لابد ان يكون بهرام شاه قد ارسل لى اعظم فرسانه وابطاله وفى اليوم التالى خرج الملك الى ميدان المدينة يحيط به الوزراء والاعيان وكبار الدولة وقد أمر بجمع الابطال والشجعان وفرسان القتال .

وجاء بهرام شاه محاطا بفرسانه وهو كالأسد الكاسر ولما وصل الى الميدان اومأ بيده للسلام وخرج الى الوسط على جواده وهو مدجج بالسلاح يطلب البراز والكفاح . وحينئذ امر الملك احد ابطاله ان يبرز اليه ويقطع رأسه ويحضرها بين يديه وكان اوائل فرسان الهند وشجعانها المشهورين الا ان بهرام شاه لم يتركه يفتل العنان بل صاح به فخبله ومد يده الى وسطه بأسرع من لمح البصر واقتلعه من على سرجه إلى فوق رأسه وجاء ورماه بين يدي الملك ورجاله وحينئذ اندهش الملك وتعجب وكذلك الوزراء والاعيان وقالوا لا ريب أن هذا السفير

هو أخو بهرام شاه لان دلائل الكبرياء والعظمة تبدو عليه فهو أمير دون شك وحينئذ صاح بهرام شاه هلموا أيها الفرسان والابطال فاني في الانتظار فأشار له الملك أن يقرب منه فقرب فقال لا تتعب نفسك فقد ثبت عندي ماقلت فان كنت قد فعلت مع أعظم فرساني مافعلت فلا ريب أنك تفضح الجميع .

ثم ان الملك نهض وركب جواده وعاد إلى المدينة وبهرام شاه الى جانبه وهو مسرور به متعجب منه وقد مال اليه وأحبه ، ولما وصلوا الي دار الاحكام انفصل بهرام بجماعته ودخل الملك واجتمع بوزرائه على خلوة وأخذوا يتباحثون فى شأن السفير وشجاعته فقال لهم الملك ان قلبي قد مال الى هذا السفير ولذلك أري من الواجب أن استميله الي وأزوجه من بنتى واجعله وليا للعهد من بعدى اذلا ولد ذكرلى ومثل هذا البطل يفدي بالارواح فأجابه الجميع حسنا تفعل لانه نادر المثال بين الرجال ، وحينئذ عين الملك أحد الوزراء أن يذهب الي رسول بهرام شاه ويخبره بقصد الملك ويشرط عليه ان لا يرجع الى ايران قط بل يبقى فى الهند وتكون مملكة الهند له من بعد الملك .

وفى المساء ذهب الوزير الى بهرام شاه وعرض عليه غاية الملك وما تم غليه القرار وان الملك لا يريد أن يزوج بنته من بهرام شاه لانه لا يطيق فراقها فهي وحيدة له وهو لا يسمح بأن يزفها عليه بشرط ان لا يرجع الي ايران وان يكون الوارث لمملكة الهند بعد الملك .

فلما سمع بهرام شاه هذا الكلام أطرق الى الارض متفكرا وقال فى نفسه لا بأس من القبول وبعد الزواج اظهر نفسي وقد حصلت على ثلاث زوجات تمنتهن نفسى وهذه الرابعة وكان امر الوصول اليها اصعب الجميع فأصبح هينا بقدرة الله وقد رضى الملك فيجب ان اوافقه فى الحال وما ذلك الا من تدبير العزيز المتعال .

ومن ثم رفع رأسه وقال للوزير لقد انعم على الملك فلا ارد له طلبا فانى اقبل بنته لنفسي واما من جهة رجوعى الي ايران فأراه لازما لان لبلاد الفرس اعداء كثيرين ولا بد لبهرام شاه ان يحتاجني فاذا سرت أسير بارادة الملك واما ولاية العهد فهذه لا بد منها لان حق الميراث لبنته وانا وابنته واحد فهولى ولا ريب فيه .

فسر الوزير من جواب السفير وعاد إلى الملك وأخبره بما سمع فزاد فرح الملك واهتم بقيام الأفراح والاحتفالات وفي ثاني الأيام دخل بهرام شاه الحمام فاغتسل وجيء إليه بالملابس النفيسة الثمينة فلبسها وقد تعطر وتطيب حتى صار بهجة للناظرين وصار كل من رآه لا يطاوعه قلبه على فراقه وقد أخذ بمجامع القلوب وكانت الجنود ورجال الحكومة قد أحبته كثيرا لما رأوه من شجاعته وما شاهدوه فيه من الهيبة والوقار والجمال الفتان وفي المساء عقدوا له على بنت الملك وكانت المدينة ترقص من الزين الباهرة التي قام بها الأهالي حبا بملكهم وبسفير بهرام شاه ملكهم الجديد وبعد أن انصرف الجميع دخل على عروسه وهو متعجب من حاله وجلس إلى جانبها بكمال الحشمة والوقار لا يطيق النظر إلى وجهها تحت النقاب وكأنه البدر خلف السحاب وقد كان بهرام شاه فرحا مسرورا لأنه حصل بدون تعب ولا شقاء على هذه الدرة الثمينة التي كان يتمنى وصالها هذا من ناحية أما من ناحية أخرى فقد كان مشتغلا دائم الفكر كيف يبقى في بلاد الهند ولا يذهب إلى إيران ويترك ملكه وزوجاته الثلاث ويبقي عند هذه مع أن في عزمه أن يسعى خلف الزوجات الثلاث الاخريات وبقي صامتا لا يفوه بحرف ولا ينطق بكلمة ولكنه كان ينظر إليها قلقا وأفكاره تروح وتجيء في هذه الناحية وهو نادم على تعهده لابيها بالبقاء في الهند كما كانت هي تطيل النظر إليه وشاهدت ما هو عليه من الحسن والجمال والبهاء والكمال والقد الاسيل والخد الاصيل والطرف الكحيل فحلت بمفاصلها ووقعت محبته في قلبها موقعا عظيما وتبين لها أنه أول رجل بديع الصفات وقعت عينها عليه .

وطال وقت انتظارها وهو كما هو صامت لا يكلمها بلسانه ولا يمد إليها يده وهي في أثناء ذلك تراقب حركاته إلى أن رأته قد وقف ثم نزع ثيابه فأملت الخير ولكن سرعان ما خاب ظنها فانه بعد أن خلع ثيابه دخل في سريره وأدار ظهره ثم نام فلما رأت منه ذلك زاد خفقان قلبها وعظم عليها الامر وأخذت في البكاء والنحيب وقالت ماذا رأى مني ياترى هل لم أعجبه أو بدا مني قصور في حقه أو اعتز بنفسه لما رأى أن أبي قد سمح له بزواجي عن حب وهل هذه هي المكافأة . وبقيت مدة على هذه الحالة ولكن قلبها لم يطعها على أن تفعل مثل فعله وتنام غاضبة منه بل تقدمت نحو سريره ووضعت رأسها فوق رأسه وأحدقت في وجهه بقلب خافق وهي تتحرق من عمله وتتشوق الى قبلة تطبعها على خده

أو قبلة منه يطبعها على فمها ليبردنار حبها وهو مغمض العينين وما كأنه الا ميت لايحس ولا يتحرك وفيما هي تتأمل فيه وتتحسر على سوء حظها معه اذ فاض الدمع من عينيها فوقع على وجه بهرام شاه فشعر كأن ماء ساخنا يحرق خده ففتح حينئذ عينيه ونظر الى ماهي عليه من الحزن والكآبة فعلم أن قلبها قدتولع به وحالما أمعن النظر في حسنها وجمالها لم يعد يطيق صبراً على جفائها ولم يطعه قلبه على تركها فأخذها وأجلسها الى جانبه على السرير وقبلها فى خدها وسألها عن علة هذا البكاء فقالت له ياقرة العين كيف لا أبكى من جفاء مليكي ومعبودى وكيف لا أشكو من ظلم جورك وطول صدك لقد رآك قلبى فانعطف اليك دفعة واحدة ومال بكليته اليك وأري قلبك على قاسيا كالحجر فكيف لا أبكى وقد عاملتنى بظلم وقلة انصاف ولم تراع السنة المألوفة بين الناس وأنا لم أعرف لذلك من سبب ولم أرتكب معك ذنبا ولا جريرة وكذلك أبي فانه أعطاك ملكا وجمالا حتى صرت أعظم من سيدك بهرام شاه فأنا زوجتك وبين يديك وأعاهدك على الطاعة والخضوع فى كل أمر تأمرنى به فلا يكن قلبك قاسيا على ولا تظلمنى .

فلما سمع بهرام شاه كلامها أثر فيه ولم يتمالك نفسه وتحركت كل احساساته وجوارحه وقام فعانقها وقبلها فى خدها مرارا ثم مسح عينيها وقال لها لا تبكى يابدر المشرق وياحياتى العزيزة فقلبي يحبك أكثر مما يحبنى قلبك وانى أريدك وأفضلك على عينى وحياتي لكن مارأيته منى كان لشغل عظيم عندى التزمت أن أفكر فيه فعظم علي ولم أر له بابا أصرفه اليه .

فلما رأت بنت الملك ميل بهرام شاه اليها وتأكدت محبته ضمته الى صدرها وقبلته كما قبلها وقالت له فى ماذا تفكر وماالذى يشغلك عمن تضحى حياتها لأجلك وأجل راحتك فأخبرني ولا تخف عني أمراً . قال لها هل يليق بالمرء أن يفشي سره لكل انسان ؟ قالت كلا لايليق بالمرء أن يفشى أسراره لكن يمكنه أن يبوح بأسراره لمن يكون صادقا أمينا على صوالحه محبا له يشاركه فى السراء والضراء ويقاسمه الهناء والعناء . فقال لها وهل ياترى أرى فيك الصدق والامانة والمحبة التي تزعمينها فأسلمك سرى وأكشف لك مافى صدرى لأري فرجا لى ومخرجا مما أنا فيه . فتبسمت حينئذ ومالت بكليتها اليه وقالت له كيف لاأكون أنا صديقتك وأمينتك على أسرارك وشريكتك فى نعيمك وبؤسك ؟ ألست زوجي وقد أخذتني

حلالا وفوق كل ذلك فان قلبي في يديك وأمري مفوض اليك فأنت حبيبي وبك راحتي وبكدرك موتي وعذابي فكن أمينا من جهتي واعلم انك إذا أمرتني أن اترك أبي وملكه والدنيا بأجمعها لأعيش معك في البرية كالبهائم فلن أتأخر بشرط ان أكون جنبك وبقربك تراك عيني وقلبي وما ذلك إلا لأني رأيت شخصك في المنام من قبل أن تأتي هذه البلاد قال وكيف ذلك ؟ قالت منذ سنتين كنت نائمة فرأيت في منامي ان رجلا عظيما جاء الى أبي وتزوجني فسألته عن اسمه فقال لي بهرام شاه ملك الفرس وسيد ايران ولما رأيت طلعته وشاهدت جماله تعلق قلبي به ولما استيقظت من نومي بقي أثر تلك الطلعة البهية منطبعا في ذاكرتي وفي قلبي وفي نظري ولم يغب عن ذهني نورها يوما واحدا ولما أتيت أنت وسألت ابي عن لسان سيدك تأكدت صحة تلك الرؤيا وتمنيت ان أكون زوجة لبهرام شاه ولما علمت أن ابي زوجني منك تكدرت لان عقلي وقلبي عند بهرام شاه غير انك لما دخلت علي وشاهدتك وجدت انك الشخص الذي رأيته في حلمي وأن وجهك هو الذي شغلني كل هذه المدة ونور هذه الطلعة لم يفارقني لحظة ولذلك تأكدت إن حلمي ما كان الا كناية والحقيقة هو انت وهذا بتدبير الآلهة فاتخذني لك عونا وكن أمينا مني وهلم إلي فلي دهر طويل وانا أتعذب بحبك واسأل آلهتي ومعبودتي أن تقربك مني ولما وقعت عندي تريد الجفاء يا قاسي القلب ثم لا تركن إلي .

فحينئذ تأكد صدق محبتها وقال لها لقد صدق حلمك بأجمعه فما أنا بالسفير بل أنا نفسي بهرام شاه وقد جئت من بلادي لاجلك ولاجل حبك ضحيت حياتي وعرضت نفسي للخطر وحيث إن أباك اشترط علي ان أبقي هنا صعب علي الامر لان بلادي في حاجة الي وملكي أوسع من ملك أبيك وليس ورائي من يدبره ولا نفسي تطيعني علي التخلي عنه ولو بملك الدنيا لانه ملك أبي وأجدادي وهو مقدس عندي ولهذا كنت أفكر في وسيلة للخروج من المدينة وها انا قد بحت لك بسري فانظري فيه بعين الحكمة والتدبير

فلما سمعت منه أنه بهرام شاه زاد قلبها فرحا وكادت نفسها تطير شعاعا ومن عظم السرور عادت فطوقت عنقه بمعصميها وقبلته في جبينه وقالت له أتكون أنت ملك اللطف والظرف وتخلي نفسك عن زوجتك ومحبتك وما هذا الذي تفكر فيه الاسهل التدبير فاني اطيعك واذهب وإياك الى آخر العالم فكن براحة

والتدبير عندى فى الخروج من هذه المدينة سهل لان بعد أسبوع يبتدىء العيد فيخرج أبى برجاله العظام وتتبعه كل المدينة الي الهيكل الاكبر لقضاء يوم العيد هناك والاقبال فيه علي العبادة وتقدمة الضحايا وحينئذ يخلو لنا الجو فنخرج من المدينة ونسير نحو بلادك وأوطانك ويكون برفقتنا رجالك وفرسانك ولا يرجع أبى من العيد حتي نكون قد بعدنا أياما .

قال لها ان فى الهرب العار والشنار على قالت ليس فى ذلك عار أبدا لانك لاتقدر أن تقاوم جيوش الهند وحدك ولا يمكن لابى ان يتخلى عنى ويبعدنى عن عينيه لانه يحبنى كثيرا وقد طلبنى كثير من الملوك فردهم بالخيبة لانه يريد أن ابقي عنده وما زوجك الا علي هذا الشرط لعلمه انك لا بلاد لك ولا ملك فاكراما لى اراد أن يترك لك عرشه فما من وسيلة قط الا الهرب فى هذه الايام .

فلما سمع بهرام شاه هذا الكلام رآه عين الصواب وقد عرف أنه إذا عاند فربما خسر زوجته الجديدة فيخفيها ابوها عنه وهو وحيد فى تلك البلاد وبلاده بعيدة عنه وحينئذ وافقها على رأيها فسرت منه ، ومن بعد ذلك تعانقا وكان الامر كما قال الشاعر :

فكان ماكان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وما زالا طول ليلتهما منهمكين فى المسرات والاقبال على الشهوات والانتقام من الدهر الطويل الذى فات وقلباهما فى شتات إلي الصباح وقد طاب له الوقت وصفا له العيش وصرف ذاك الاسبوع على الهناء والانشراح غارقاً مع زوجته بالملذات والافراح لا يخرج إلا نادراً إكراماً لخاطر أبى زوجته وتطمينا له وكان عمه مسرورا به وبابنته وقد تصور أنه وحيده الوارث للمملكة الذى يليق بها وتسر منه الرعية .

ولما انقضى الاسبوع وجاء يوم العيد أصبح الملك وحاشيته ورجال دولته وأكابر المدينة وأعيانها يتهيؤن للذهاب إلى عمل العبادة كجارى عادتهم فى كل سنة . ولم تمض ساعة حتى خرج الجميع ولم يبق فى المدينة إلا الخدم والحشم والغرباء وحينئذ نهضت نور بنت الملك وقالت لبهرام شاه هلم يا سيدي لا تضيع هذه الفرصة فان الوقت لا يسمح لنا وهذا وقت الهرب ثم غيرت ثيابها ولبست ثياب الرجال وقد تدججت بالسلاح إلى حد أسنانها وخرجت إلى الاصطبل

فاختارت جوادا من أحسن جياد أبيها فركبته وركب بهرام جواده وأمر جماعته أن يسبقوه إلى خارج المدينة وقد استصحبت نور متاعها وحليها معها وكلما تحتاج اليه في الطريق ولم يكن إلا القليل حتى خرجوا من المدينة وساروا فى الطريق إلى إيران وجدوا فى السير طول ذاك النهار لا يأخذهم هدوء ولا قرار ولا يفكرون فى الاستراحة أو الانتظار حتى أقبل المساء وكان بهرام شاه غير مسرور من هذا الامر ولا يريد أن تتكبد زوجته كل هذا التعب والعناء لكنها كانت لا ترضى إلا بذلك مظهرة له سرورها واقتدارها على تحمل المشاق

ولما كان المساء نزل بهرام شاه بزوجته عند ذيل جبل هناك وأمر بأن يقدم اليهما الاكل فأكلا وحمدا الله على انعامه ومن ثم مال إلى زوجته وانفرد بها فى صيوانه وأخذا يتعاطيان كؤوس المسرات ويصرفان الليل على الصفاء والأنس إلى الصباح وأما ملك الهند فانه رجع فى المساء إلى المدينة ودخل قصره وفي الحال افتقد بنته وصهره فما وجدهما فطار صوابه وسأل عنهما بعض خدم القصر فأخبروه بما كان منهما وكيف ركبا وخرجا من المدينة ولكنهم لا يعلمون إلى أى جهه سارا سيرهما .

وفي الحال أدرك الملك أن صهره أغرى ابنته وهرب بها راجعا إلى بلاده وقد اغتنم فرصة غيابه عن المدينة ولذلك طار صوابه ولم يعد يعي على شيء وقال فى نفسه لا بد لي من اللحاق به والسير فى هذا الليل حتى أدركه عند الصباح لأنه لابد أن يكون قد سار كل النهار وفى المساء نزل للراحه إذ لا يمكن أن يسير بزوجته ليلا ونهارا ، وفى الحال ركب بنفسه وأخذ معه فرقة من العساكر والأبطال المعدودين المتمرنين على الحرب والقتال وسار تحت ظلام الاعتكار لا يأخذه هدوء ولا قرار ولم يصبح عليه الصباح إلا بالقرب من المحل النازل فيه بهرام شاه ، وكان بهرام قد نهض عند الصباح وخرج من صيوانه ونظر الي البر الفسيح فشاهد الغبار مرتفعا الى العنان فتبسم تبسم الازدراء والاحتقار وقال لزوجته هاهو أبوك قد أدركنا بالرجال والفرسان وانى بانتظار مثل هذا الشان لأريك كيف تفعل الاسد بالخرفان ، فقالت له دع عنك هذا الامر وهلم بنا نتسلق هذا الجبل ونداوم المسير فانه لا يزال بيننا وبينهم مسافة نقدر بها على التخلص من أيديهم .

فقال لها ولماذا أتخلص منهم وأنا قادر أن أقاتل جيوش الهند دون أن أكل أو أمل وسأطلب البراز فان أنصفونى كان والا فيحملوا على برمتهم والله نصيري فلا أخاف منهم ولا من سيوفهم وحرابهم ثم أسرع الى سلاحه فنقله والى جواده فركبه وركبت نور وصعدت على رابية عالية ترى منها القتال وهى تدعو الله أن يصطلحا وأن يصان زوجها من غدرات الزمان ، ولم تكن الا ساعات قليلة حتى قرب الملك بجماعته من ذاك المكان فوجد بهرام شاه فى انتظاره ومن خلفه فرسانه الذين جاء بهم من ايران وهو يستعد لحربه وقتاله ، فطار صوابه من هذا الامر وتقدم فى الحال وهو يزبد ويرغى كفحول الجمال حتى وقف أمام صهره وجها لوجه وصاح به ويحك أيها الغدار أتظن أنك تنجو من بين يدي وتهرب بابنتى وتحرمنى النظر اليها وقد جازيتني على فعل الجميل معك بالغدر والخيانة ولكن الحق على لأنى زوجتك بنتى وقد تحسر عليها ملوك الزمان واخترتك على سيدك بهرام وأعطيتك تخت الهند هبة منى فرفعتك من الحضيض الى الاعلى وفى ظنى أن الجميل يثمر معك وتشعر بنعمتي لكنك مبني على الغدر والخيانة وقد فضلت خدمة سيدك على مملكة الهند وما ذاك الا نوع من الجنون والحمق .

فلما سمع بهرام هذا الكلام طار من عينيه الشرار وعزم على أن يسرع الى عمه بضربة حسام يقطعه نصفين لكنه افتكر بزوجته وماذا يصير بها الحال اذا قتل أباها ولذلك كظم غيظه وأجاب عمه بهدوء لا تطل الكلام والجدال فما أنا بمجنون ولا خوان بل أحسن منك عقلا وأشد وفاء ولكي تعلم بذلك أعلمك بنفسي من أنا لتعلم أنى لا أقدر أن أبقى فى بلادك أنا هو بهرام شاه ملك ايران ومذل الجبابرة والفرسان ومالك الاقاليم والبلدان وقد جعلت نفسي سفيرا وأتيت اليك أطلب بنتك فساعدنى الحظ وحصلت عليها وكنت أود أن أطلعك على أمرى وأنا فى المدينة فمانعت نور فى ذلك خوفا من أن تمانع فى اخراجها من المدينة فأتيت بها الى هذا المكان وبت أنتظر اتيانك الي لتأكدى أن لا بد لك من المسير خلفى وحاشاى أن أهرب ولو قصدت الهرب لكنت بعيدا الآن عشرات الاميال من هذا المكان ، وها قد أطلعتك على جلية الامر وكشفت لك عن باطن الخبر فاذا رغبت فى الصلح والوفاق فأهلا ومرحبا واذا بقيت مصرا على الحرب والقتال فمر جندك وعساكرك بالهجوم على لترى بعينك فعل من أذل الاسود

وأملك الابطال وملك الاقاليم وانى لا أرغب فى الصلح الا اكراما لخاطر ابنتك نور الصباح وزينة الملاح لانى اعلم الآن أنها فى بكاء ونواح وقد أوصتني أن لا أمد اليك يدا ولو قطعتنى اربا اربا فوعدتها انى أبيد حيوشك وأقتلهم عن آخرهم ولو كانوا بعدد الرمل والحصى أما أنت فلا أرفع عليك يدا وحاشاي من ذلك .

وكان ملك الهند يسمع وهو مطرق الى الارض وقد مال قلبه كل الميل الى بهرام شاه وزاد فرحه لما عرف انه هو سيد ايران وملكها وافتكر انه لو حارب بهرام وظفر به لا يقتله حبا فى ابنته لانه اذا قتل تموت ابنته لا محالة فضلا عن أنه كان يسمع ان بهرام شاه أشد فرسان العالم بسالة واقداما وانه دوخ ملك الصين وأخذ التاج من بين الاسدين وقهر ملك الرومان واذاقه الذل والهوان فرجح عنده الصلح والوفاق وفى الحال نزل عن جواده وفعل صهره كفعله وتقدما فاعتنقا بعضهما البعض ولما رات نور هذا الامر طارت من الفرح فأسرعت و نزلت عن الرابية الي اسفل وتقدمت الي ابيها ورمت بنفسها عليه وقالت سامحنى يا ابى فانى خالفت السنة والعدل ولو لم يكن زوجي سيدا كريما وملكا عظيما وملكه أعظم من ملك الهند لما طاوعته على السفر لكن بلاده بغير ملك الآن ويخاف عليها من الأعداء ومن ظلم الحكام إذا علموا بتخليه عنها فتنقسم وتخرب ويكون ذلك مخالفا للانسانية والعدل .

ثم أخبرته بأمر الرؤيا التى رأتها فتعجب وضمها الي صدره وقال لها انى أعذرك يا ابنتى ولم أمل الي صلح زوجك إلا بعد أن عرفت أنه هو بهرام شاه وهو معذور بحبه لملكه ورعيته فكونى معه بهناء وسعادة وانى أتمنى لكما التوفيق فى كل مكان وزمان .

ثم ان ملك الهند طلب الى صهره أن يرجع معه لصرف بضعة أيام اخر في المدينة فامتنع وأبان له صعوبة الامر وشدة اضطراره إلى الرجوع وحينئذ نزلوا فى تلك الأرض وصرفوا يومهم هناك على السرور والافراح ثم ودع بعضهم البعض فى صباح اليوم الثانى ثم ركب بهرام بجماعته وأركب زوجته بعد أن ودعت أباها وقبلت يديه وقبلها وبكى لفراقها . ومن بعد الوداع رجع الملك وسار بهرام شاه يقصد ايران ولا زال يطوى المراحل حتى قرب من عاصمته وبلغ الخبر وزراءه ورجال دولته فخرجوا لملاقاته وكان يوما عظيما لم يسمع بمثله قبل ذلك اليوم في

إيرا . فقد فرح الكبير والصغير وزينت المدينة وقامت الزينات ورفعت الأعلام والرايات وتوالت المسرات احتفالا ببهرام شاه المحبوب من الكبير والصغير ودخل المدينة بذلك المشهد العظيم وذهب توا إلى عرشه وقد أرسل زوجته الجديدة الى قصره وبقى يلاقي الناس ويسلم عليهم حتي المساء وفي المساء ذهب فتفقد زوجاته الثلاث وظل في الصفاء والحبور عدة أيام الى أن خلا بنفسه فجلس يفكر في الصورة التى رآها في قصر الخورنق فقال لقد قسم لي ربى الزواج بالسبع بنات وأن أستولى على أربع ممالك وها أنا الآن حصلت على أربع منهن فمن الواجب على ان أرسل الرسل والسفراء في طلب الزوجات الثلاث الباقيات فاستحضرهن إلي ويوفق لي الزمان وتتم نعم العزيز الرحمن وفي الحال كتب ثلاثة كتب وأرسل واحدا منها الى سلطان المغرب والثاني بعثه الى حاكم خوارزم والثالث أرسله الى ملك الصقالبة يطلب الى كل واحد منهم أن يرسل اليه ابنته مع الجزية والخراج وقد لين لهم الكلام وحسن لهم الامتثال والطاعة ومزية مصاهرته فسارت الرسل بالكتب ولم تكن الا مدة يسيرة حتى وصل السفراء الى الجهات التي قصدوها وقابلهم الملوك بالترحيب والاكرام لأن كل ملك من الملوك المذكورين كان قد سمع بصيت بهرام شاه وفعاله وكيف أذل الأسود وقهر الملوك ودانت له رقابهم وتزوج بناتهم فلم يسعهم الا مرضاته فجهزوا بناتهم في الحال وأرسلوا معهن التحف الثمينة والهدايا العظيمة والأموال الوفيرة فلما وصل الجميع اليه وحصلوا بين يديه فرح لذلك بهرام شاه فرحا لا مزيد عليه وشكر الله على تمام مراده وجعل ذلك اليوم عيدا يقتصر فيه هو ورعيته على الصلاة وترتفع فيه الأصوات الي الله بالشكر والحمد والتسبيح لأنه أعطي مملكة ايران في ذلك الآن مالم يعطها في سالف الازمان .

ثم أولم الولائم وأقام الأفراح مدة عشرين يوما على التمام وفي نهايتها دخل على زوجاته كل واحدة في ليلة وقد حظي بحسنهن وجمالهن وبلغ منهن ما كان يتمناه ومضت الشهور والايام وهو على ذلك الشان . ثم صار يخرج كجاري عادته وينظر في مصالح الشعب وينصف المظلوم من الظالم وفي تلك الاثناء أرسل فاستدعى البنائين والمهندسين وأهل الخبرة وأمرهم أن يبنوا القصور لباقي نسائه وأن يكون كل قصر أعظم من الخورنق وأبهى ويكون فرشه وأثاثه من الصين والهند وبلاد اليونان وفي مدة ثلاث سنين انتهى كل ما طلبه الملك ودبره

الوزراء وكان الفرش على حسب مشتهى نسائه وكذلك لون البناء لأن كل واحدة كانت ترغب فى لون خاص وزخرفة وهو لا يخالفهن فى كل ما يطلبن ويكرمهن غاية الاكرام وبعد أن تم البناء والفرش عين لكل قصر جماعة من الخدم والحشم والحراسة والطباخين والمغنيات والموسيقين حتى كان كل قصر جنة فيحاء حاوية لكل أسباب الحظ والانشراح والصفاء والهناء وقد دعى القصور السبعة على أسماء الكواكب السبعة السيارة المشهورة فدعى القصر الاسود باسم كيوان وكانت أعمدته من العود والقوقلى حتى أن روائحه العطرية كانت تشم على بعد ساعة منه والثانى كان بلون الصندل وقد سماه المشترى وكذلك كانت روائح ذاك الخشب القائم عليها تعطر الارجاء . والثالث كان أحمر اللون وقد سماه المريخ وكانت تنبعث منه روائح الورد الزكى مما يسكر النفوس . والرابع كان أصفر الشكل وقد سماه الشمس . والخامس أبيض اللون وقد سماه الزهرة والسادس أزرق اللون من حجر الفيروز وسماه عطارد . والسابع أخضر اللون وقد دعاه القمر وهكذا كانت السبعة قصور بهجة للناظرين وفتنة لعيون المتفرجين لم يبن مثلها قط على وجه البسيطة وقد تعين لكل واحدة من زوجات بهرامشاه ملابس على لون القصر الموجودة فيه أى على اللون الذى أحبته .

وبعد أن تم كل عمل وتفرجت الناس على القصور وكمل ما كان يقصده بهرام شاه وغاية مراده نقل زوجاته إلى القصور ونقل جواريهن وقهرماناتهن وكل ما يتعلق بهن معهن وكان يحبهن بنسبة واحدة لا يميل لواحدة أكثر من الثانية ولا يرفع قدر واحدة على الاخرى وقد جعل لهن الحظ كاملا والسعادة تامة والهناء متواصلا فكن يسررن به ويفرحن به أكثر من سروره هو بهن وفرحه لهن وكن يتعشقنه كاله معبود وكلما طالت الايام زدن فى الحب والتعشق له وزاد هو فى الاكرام والاهتمام بشؤنهن .

وبعد أن استقرت كل واحدة منهن فى قصرها اعتاد بهرامشاه أن يزور كل ليلة واحدة فى القصور الجديدة وقد فرض على كل واحدة منهن أن تقص عليه فى اليوم الأول الذى يدخل فيه قصرها حكاية غريبة .

فلما كان اليوم الأول ذهب بالأبهة والاجلال إلى القصر الاول وهو (كيوان) قصر نور بنت ملك الهند وكان قصرها أسود اللون وأثاثه من الحرير الاسود وكل مافيه أسود لانها كانت تحب ذاك اللون . وقد لبست الملابس السوداء

فاشدة بياضها كانت كالبدر تحت ستار الاعتكار يجلو الدياجى ببهاء الاشعة والانوار وما دخل بهرام شاه فناء القصر حتى تقدمت تميل كغصن البان هزته ريح الصبا يحيط بها جواريها من كل فتاكة فتانة وبين يديها المغنيات والمنشدات ينشدن نشيد التأهيل والاستقبال وكلهن بالملابس السوداء على ماتقدم وحينئذ وقفت الملكة أمام بهرام شاه ورحبت به وأنشدته :

ولم أقصد سواد الدار إلا لعهدى أن ببيضها بهاكا
وهان إن الديار وما عليها أضاءت شيدى ببها سناكا

ثم أخذته من يده وأدخلته غرفة الاستراحة وبين أيديهما الشموع الكافورية تضىء وتنبعث منها الروائح العطرية يحملها الجوارى والولدان كأنهم من حور الجنان . وبعد أن استراح دخلت به غرفة المدام وكانت قد صفت فيها القنانى والاقداح ووضعت الرياحين وأنواع النقول والمكسرات وجلس المطربات فى مجالسهن ووقفت الولدان يحملن الكؤوس الذهبية المرصعة بأثمن الجواهر والاحجار الكريمة وبعد أن غرقا فى بحر من السرور والافراح وشربا ماطاب لهما من الشراب حتى انتشيا استأذنت نور من بهرام شاه أن يسمح لها بأن تقص عليه حكاية عجيبة غريبة فسر لذلك وقال هات قصتك وتمتى أنسى بعذوبة لفظك المطربة وحديثك العذب فأجابت بالسمع والطاعة فقالت .

الحكاية الأولى

ان هذه الحكاية التى أرويها لك الآن قد سمعتها من والدتى ولم تزل راسخة فى فكري عالقة فى ذهنى منذ صغري حتى الآن قالت والدتى إنه فيما مضى كانت امرأة ضعيفة البنية زاهدة عابدة تكثر من المجىء إلى بيتنا وكانت تلبس على الدوام من رأسها إلى قدمها ثيابا سوداء ولم يكن عليها قطلون آخر ماعداه على جسمها ومع أننا كنا ننصح لها كثيرا بترك هذا اللون القاتم فى الثياب فانها لم تكن تصغى أو تنقاد لكلامنا ولذلك تاقت أنفسنا إلى الوقوف على الحقيقة فقلنا لابد لذلك اللباس من سبب فالتمسنا منها مرات عديدة أن تطلعنا على السبب فامتنعت فى الاول كثيرا ولكن لما رأت أخيراً شدة الحاحنا عليها أخبرتنا بسبب لبسها السواد فقالت .

انى كنت من جوارى أحد الملوك وكنت أحبه حبا مبرحا وكان كثير الانصاف والعدل يحب الغريب ويكرم الضيف فاذا سمع بغريب جاء إلى المدينة استدعاه إلي قصره وهش فى وجهه وبش وأظهر له من الاكرام والعناية مالا مزيد عليه ويقضى حوائجه مهما كانت ويستطلع منه الحوادث العجيبة والغريبة التى رآها وكان يصرف أوقاته على مثل ذلك .

فى ذات يوم حكم القضاء بغياب السلطان ولم يقدر أحد أن يعرف أين ذهب وتحت أى سماء اختفى وفتشوا عليه كثيرا وطافوا الجهات والمدن فلم يقفوا له على أثر وحينئذ تولى أكبر الوزراء الوكالة عنه إدارة الملك وأخذ فى تعاطى الاحكام والاهتمام بأمر العباد . ولم يمر على ذلك سنتان حتي رجع الملك من بعد غيبته الي تخت سلطنته ولكنه كان يلبس السواد من رأسه إلى قدمه ولم يعد يعلو جسمه قط لون آخر ولم يقدر أحد أن يسأله عن سبب ذلك وكان دائما يحب اللون الاسود وينعطف إليه بكليته ولكن وجهه كانت تعلوه دائما علائم الحزن والملل وتبدو عليه آثار الغم والسقم والتفكير مع أنه كان قبل غيابه عاكفا على الانس والصفاء ميالا للسرور والفساء بشوشا ضحوكا فأصبح من بعد رجوعه مغموما مكدرا عبوسا حتى أنه كان لا يبتسم إلا نادرا وأحيانا كان يتأوه ويتحسر ويذرف من عينيه الدموع كالمطر المدرار ومرت عليه مدة مديدة وهو على هذا الحال وكنت أنا مختصة بخدمته وكان هو يحبني للغاية لانني كنت أسليه فى كل وقت وكان يسر من كلامى سرورا لا مزيد عليه و ... لى معه نوع من الحرية أكثر من الجميع

في ذات يوم اغتنمت الفرصة فى وقت خلوته وانفردت به ولم يكن معنا أحد مطلقا من الرعية والحاشية ، في الحال رميت بنفسي على قدميه أقبلهما وتجاسرت وسألته في تضرع واستكانة أرجوه أن يتفضل على ويخبرنى عن المكان الذي كان غائبا فيه وعن السبب الذى حمله على لبس السواد ولما رأى ذلى وتضرعى أظهر فى أول الأمر حدة وقال لى ماذا يهمك لا شيء يوجب السؤال قد انقضى الامر وفات . أما أنا فلم أعدل عن السؤال بل رفعت ذيله إلى رأسي وقلت له اما أن تقتلنى واما أن تخلصني من الهوس الذى بي والافكار السوداوية التى انتابتني بسبب غيبتك وحزنك ولبسك السواد وعند ذلك دب العطف والحنان في قلب الملك فلم يقدر أن يخفي ما استكن في قلبه من الحب لى

بل قال لي وإن كانت حكايتي مما لا يحكي لكن سأخبرك بها لتعلمي ماهو السبب في اختياري اللون الاسود ولماذا أنا في حزن وكدر وأخذ يقص على أمره فقال .

إنك تعلمين أنى كنت محبا للغرباء والضيوف ميالا الى الوقوف على غرائب الدنيا راغبا إلى استطلاع عجائبها فكلما أضفت مسافرا أو غريبا سألته عما يعلم من الحوادث فيقص على ما رآه ومر عليه ففي ذات يوم بينما كنت جالسا فى أحد شبابيك القصر أنظر فى الذاهب والآيب وقعت عيني على درويش يلبس ثيابا سوداء ويغطي نفسه بكساء أسود من رأسه الى قدمه فاهتممت لذلك وتأثرت كثيرا وقلت فى نفسي عجبا لماذا هو متستر بالسواد الى هذه الدرجة .

وفى الحال أمرت باحضاره فاقتادوه إلى وأحضروه بين يدى فهششت فى وجهه وأظهرت له الاعتناء والالتفات ومن بعد اكرامه والانعام عليه سألته عن سبب لبسه السواد فلما سمع كلامى علاه الحزن والاسف وارتمى الى الارض وقال لي ياسيدى إذا قتلتنى الآن فلا يمكن أن أخبرك بالسبب ولو أنك قطعتنى اربا اربا وألقيت جسمي فى النار الملتهبة فلا يمكن لى أن أبوح بهذا السر لكن لاجل انعامك علي واكرامك لى والتفاتك الزائد الذى أظهرته نحوي أظهر لك اشارة طفيفة فى هذا المعني هذا اذا بقيت مصرا على الاطلاع على سبب لبسى هذه الثياب السوداء

ولما رأيت الدرويش مصرا على انكار سبب لبسه السواد وشاهدت حرصه على الكتمان وحذره واجتنابه الاباحة بالسر زادني الشوق الى الوقوف على الحقيقة فقلت له هات ما تقدر أن تقوله ولو كان طفيفا عسى يبرد غلتي أو يشفي مرامى فلما رأى الدرويش الحاحى عليه واصرارى على معرفة السر أخذ يتبسط فى الكلام ويقول بكل حشمة وأدب :

لايخفي على جلالتكم أنه يوجد فى بلاد الصين مدينة جميلة معمورة مزينة بانواع البنايات الشاهقة والحدائق الزاهرة وتسمى هذه المدينة باسم (مدينة العجائب) وجميع أهلها رجالا ونساء يلبسون السواد كما ألبس لا فرق بين طفل رضيع أو شيخ هرم أو طفلة شابة أو عجوز مسنة اذا دخل غريب الى تلك المدينة يخرج منها بالرداء الاسود واذا دخل مسرورا خرج حزينا .

وحتي القمر إذا اشرق فى هذه المدينة غشيته سحب سوداء داكنة فحجبت

ضياءه فيها عن الناظرين فان ارغمتني على ان اخبرك بتفصيل عن ذلك فان لساني لايطيعني وقلبي لايطيق البوح بذلك السر العجيب وها عنقي ان شئت ضربه بسيفك فاقتلني وان شئت فأعفني عن هذا السؤال يا ملك الزمان

ولما وصل الدرويش في كلامه الى هذا الحد اشتعلت بي نار الرغبة للاطلاع على سر هذا الامر وبعد أن أطرقت الي الارض مقدار ساعة وأنا أفكر قائلا في نفسي ياللعجب ما الذي أصنعه للوقوف علي حقيقة السر .

ثم عدت الى الدرويش فقلت له يا هذا لقد أشغلت بالي وحرمتني الراحة والهدوء فلا تبخل بالاجابة على طلبي ومهما شئت مني فاني أعطيك فاذا سألتني أن أستوزرك فعلت أو شئت ولاية العهد فهي لك ولا أكذب في ذلك وأقسم لك به وكل ما أريده منك هو بيان السبب في لبسك السواد .

فقال الدرويش انني يامولاي لا حاجه بي الى سلطانك وان الدروشة في نظري أفضل من الملك وهذا الستار الاسود الذي تراه علي هو نعمة عظمى ومنة كبري في عيني .

ثم ان الدرويش نهض في الحال ثم أثنى علي ودعا لي وخرج يهرول طالبا عرض الطريق غير ملتفت الى ما وراءه ، وأما أنا فكنت غارقا في بحار الافكار ولم أنتبه إلى خروجه بل كنت أفكر في وسيلة أجبره بها على البوح بسر مدينة العجائب التي حدثني عنها وقد اعتراني ذهول عجيب إذا ذاك فلم أكد أنتبه إلى نفسي وأعود إلى صوابي حتي رأيت الدرويش قد غاب عني وبحثت عنه في كل مكان فلم أعلم له خبرا ولم أقف له على أثر فزاد هيامي وتبلبلت أفكاري واشتد تعلقي بتلك المدينة والوقوف علي أسرارها وأصبحت كالمجنون لا أعرف ماذا أقول ولا ماذا أعمل فأخذت في تسلية نفسي بالابتعاد عن التفكير وطرد الاوهام عنها فلم أقدر بل كان الأمر يعظم علي ويكبر وسألت الشيوخ من وزرائي عن اسم تلك المدينة فلم يفدني عنها أحد ومرت على عدة أيام وأنا على مثل تلك الحال حتي اسودت الدنيا في عيني وهان لدى كل صعب فلم أر دواء لمصابي ولا شفاء لما لحق بي إلا ترك سلطاني وملكي والسياحة في الاقطار والسفر إلى بلاد الصين عساي أن أصل إلي تلك المدينة أو أقف فيها علي ما يشفي به ألمي وتبرد به غلتي .

ففي ذات يوم غيرت ملابسي وتزييت بزي التجار وأخذت ما يزيد عن كفايتي من المال والجواهر وأخذت خمسة من خدمي الامناء وخرجت من المدينة تحت أستار الظلام وجعلت بلاد الصين وجهتي فهي محط آمالي وجعلت أطوف المدن والقرى وكلما دخلت مدينة سألت أهلها ممن يعول عليه في حوادث الايام عن اسم تلك المدينة ومحل وجودها فكانوا يجيبونني بأنهم ما رأوا تلك المدينة ولا سمعوا باسمها ولذلك كنت أفارق هذه وأقصد غيرها فأصادف نفس ما صادفته فيها حتى طفت مدنا كثيرة ومع ذلك لم أكل ولم أمل بل بقيت مصرا على عزمي لكني كنت أندم أحيانا على تصرفي وذلك بسبب ما نالني من التعب والمشقة وطورا أرى نفسي كأنني غائب عن الوجود أو كأنني في رؤيا منامية لأن تعبي وحزني كان بالغا بحيث لا يتصوره عقل انسان وقد بقيت ملازما التنقل وأنا أصادف أشد أنواع المحن وأقع في كارثة تتلوها كارثة ومحنة تتلوها محنة حتى صرت قريبا من بلاد الصين وكنت في كل بلد دخلته أظهر بهيئة التجار العظام فأصادف من الاكرام والاحترام الشيء الكثير إلى أن دخلت أرض الصين فلم يكن لي شيء أسأل عنه وأبدي اهتمامي به إلا سؤالي عن مدينة العجائب التي يلبس أهلها السواد فكان البعض يجيب بأني لا أعلمه والبعض يقول لي هي في الناحية الفلانية وعند ذلك عادت الى نفسي بعض الطمأنينة وتوقعت خيرا وترجح لدي أنني سأصل الى طلبي وأنال غرضي وبقيت أتقدم في سفري الى الجهة التي أشير علي بها وأنا لا أنقطع عن السؤال والاستفسار عن تلك الديار حتى مضى على نحو من ستة أشهر وصلت في منتهاها الى مدينة العجائب فدخلتها بفرح عظيم ونشاط وابتهاج وفي الحقيقة أني وجدتها كما أشار الدرويش مزخرفة البنيان جميلة الدور عامرة القصور وسيعة الميادين كثيرة البساتين كأنها قطعة من جنة عدن أو من مدائن ارم ذات العماد التي بناها شداد بن عاد غير انني شاهدت جميع أهاليها بالثياب السوداء لا لون عليهم غير السواد فتجدد في عند ذلك الشوق والهيام واشتاقت نفسي الى معرفة السر في ذلك وجعلت أطوف في شوارعها بقصد الفرجة وبقصد الوقوف على غايتي فانتهيت الى فندق معد للمسافرين فأدخلت اليه أمتعتي وأحمالي وخدمي وبقيت فيه تلك الليلة لم أخرج منه حبا في الراحة مما نالني من التعب العظيم والضرر الجسيم .

وفي اليوم الثاني خرجت من الفندق وطفت في الاسواق وما زلت أنتقل من

جهة الى أخرى حتى وافى المساء ولم أوفق للعثور على من يدلنى على طلبي وعند المساء عدت الى الفندق وأنا تائه العقل فاقد الشعور والحس أقول لنفسى ما العمل يا ترى ومن أسأل عن هذا الحال وبعد التفكر لم أر أوفق من أن أقيم فى تلك المدينة وأجعل نفسى تاجرا وأدوام البحث ولا بد أن يرزقنى الله بمن يكشف لى عن سر هذه المدينة الغامضة .

وفى صباح اليوم التالى نزلت الى السوق فاستأجرت مخزنا نقلت اليه مايلزم للتجارة ولبثت فى مهنة التجارة مقدار شهرين تقريبا وأنا أسأل واستقصي عن السواد وسبب لبسه فكان كل من أسأله يجيبني بقوله لا أعلم وقد زاد لهذا الامر قلقي وهوسي وخلق في رغبة شديدة للاطلاع على ما أتيت من أجله وهل يمكن بعد أن وصلت المدينة وعانيت من أصناف التعب والعناء ما عانيت ولاسيما وقد أوشكت آمالى أن تتحقق ان أرجع بالخيبة وكنت متيقنا أنه اذا لم أدرك السر الذى أطلبه فاننى أموت لا محالة ومع ذلك فانني لازمت البحث لعلمى أن فرج الله قريب وأن عاقبة الصبر الظفر بالمأمول وبقيت نحو ستة أشهر أخرى أخرج فى الصباح وأقول فى نفسى عساى اليوم أقف على ما أتيت من أجله فلا يأتى المساء حتى أعود بخفي حنين حتى ضاق صدري وبلغت روحى التراق . وكنت فى هذه المدة قد اصطحبت مع رجل جزار وجعلت أزيد له فى الاكرام والمؤانسة من يوم الى يوم ، وكان هذا الجزار فهيما عاقلا للغاية .

فلما رأى اكرامي والتفاتي الزائد نحوه رغب فى محبتي ومودتى ومرت على صداقتنا هذه مدة أربعة أشهر أيضا وأنا مع احترامي له ورغبتى فيه أبذل له فى كل يوم الدرهم والدينار ومع ذلك تجلدت ولم أسأله حرصا من أن يمتنع على قبل أن استأثره بالانعام وأغرقه فى العطايا مؤملا أن يسألنى هو عما اذا كان من حاجة لى فيقضيها مقابلة لجميلى واذ ذاك آخذ عليه العهد والميثاق وأسأله عما أريد وأستخدمه فى قضاء هذا الامر وكنت حسبما رأيت منه أراه محتفظا بمعروفى مراعيا لودى وقد مال الى وتمكن حبى من قلبه لأنه أصبح صاحب ثروة وافرة ونعمة جسيمة وكل ذلك من مالي الذى كنت أعطيه له .

ففي ذات يوم وبينما أنا غارق فى بحار الافكار أرجع بذاكرتى الى المصاعب والحوادث التى مرت بى منذ التقيت بذلك الدرويش وأقول يا ألله لقد سد باب الأمل فى وجهى فيارب العالمين لقد أخفيت حكمتك عن عبدك ولكن عبدك

لا يقنط من رحمتك فقد نزلت عن ملكي وتركت عرشي وعظمتي ولاقيت المصائب والمصاعب حتى وصلت هذه المدينة كل ذلك بارادتك وعنايتك فقدني الى معرفة ما أنا راغب فيه فأنت الحكيم العليم .

وفيما أنا على ذلك واذا بالجزار يظهر لى من بعيد ، وكنت وأنا مقيم فى مخزنى كالجاسوس أراقب الذاهب والآيب من بعيد .

فلما رأيته التي فى روعى انه آت ليسألنى عن هذا الامر الذى جئت لأجله وما لبث ان قرب مني فقمت من مكانى وقلت له خيرا ان شاء الله فلابد من سبب لمجيئك فى مثل هذه الاوقات . فقال لى عفوا ياسيدي انى على الدوام كثير الخجل منكم لأنى قد صرت بعنايتكم وكرمكم غنيا مكرما وانه ليسرنى ان اقدم لكم بعض خدماتى التي مهما كثرت فانها قليلة بالنسبة لما غمرتمونى به من انعامكم وقد اتيت ايضا لأقدم لكم شكرى وامتنانى من ذلك . فقلت له عفوا انى حتى الساعة لم اقم بحق ما تطلبه واجبات الصداقة والاخاء وأرى نفسى مقصرا فى حقك وعاجزا عما أريد ان أخصك به فزاد فى الشكر ثم قال لى اذا أردت ان تشرفنى فى هذا المساء فى بيتى تكون قد غمرتنى بلطف اراه أعظم منة تقدم منك الى .

وحالما سمعت كلامه سررت فى نفسى ولم أنس ان الله سبحانه وتعالي قدرحم ذلي وقبل دعائي وحرك قلبه نحوى لهذه المصادفة وترود فى خاطرى أنى متى وجدت فى بيته ودار بيننا الحديث سألته عن غايتى ومن المقرر أنه لا يرد لى طلبي فاما ان يخبرنى به واما ان يهدينى الى من يخبرنى به ولذلك قلت له لا بأس من ذلك فاذا لم يكن كلفة عليك اغتنمت فرصة الاجتماع فى الوقت الذى تأمر به

فقال أستغفر الله ياسيدى ان محل عبدكم أقيم من بعض أنعامكم فاذا شئت أن تشرف محلك فاسمح به بأقرب وقت واذا تلطفت وتكرمت فليكن الآن

وفى الحال نهضت فأقفلت باب المخزن وعزمت على المسير مع الجزار الى بيته ولكى أقدم له هدية مرضية فى بيته وضعت بعض أقمشة من الحرير العالى وبعض جواهر ذات قيمة ومقدار من الذهب ووضعت ذلك فى صرة من الديباج حملها أحد خدمي وسار خلفي حتي وصلنا بيت الجزار وكان بيتا لطيفا معدا للصفاء والأنس وحالما رآنى خدمه وجواريه خفوا لاستقبالي من قبل الدخول الى الباب وأكثروا من الترحاب والشكر والخدمة وهم يرددون كلمة يا ولى نعمتنا . وكنت أجيب أستغفر الله أستغفر الله مظهرا لهم الالتفات والعناية .

ولما دخلنا الباب صعدنا سلما عاليا وانتهينا عند رأس السلم الى فناء واسع ومنه الى غرفة مزخرفة منقوشة بالنقوش البهية . وقد ألح على الجزار فى الجلوس على سرير قائم فى وسط الغرفة فتقدمت وجلست فوقه أما الجزار فوقف فى خدمتى بين يدي فألححت عليه كثيرا ليجلس فامتنع فما كان مني الا أن أخذت بيده وأجلسته الى جانبي وكان الخدم أيضا يطوفون حوالينا بكل حشمة وأدب وقد ملت بكليتى لسماع كل كلمة تصدر من الجزار مؤملا أن الحديث يجر الى أن يخبرنى من تلقاء نفسه عن سر لبسهم السواد .

وفى تلك الأثناء حضر الطعام فقمنا إليه وأكلت وهو إلى جانبي وبعد أن فرغنا من الطعام عدنا إلي مجاذبة الكلام والسمر ومطارحة الأحاديث والتفكه بالأخبار والنوادر وأنا أقول في نفسي أأسأله أم لا فاذا سألته فهل يصدقني أم يخفى على الحقيقة وحينئذ قدمت له البقجة التى سبق أن أعددتها معى وقدمت إليه مافيها من الأقمشة النفيسة والجواهر بعد أن اعتذرت إليه واعترفت لديه بتقصيرى فى حقه ورجوته قبولها وإذذاك قال لى ياسيدى بما أن الألفة والصداقة قد تمكنت بيننا وقد نالنى كثير من إنعامك وإكرامك من دون أن أعرف داعيا لذلك وانه لا يمكن للانسان أن يسمح لآخر بمثل هذه المقادير العظيمة من الأموال بدون سبب الآن فليس لى بد من أن أعيد اليك جميع الأشياء التى قدمتها الى وأنعمت بها على إذلم تخبرنى بحاجتك واذا كان لك حاجة أو مصلحة فأنا مستعد لقضائها لك .

وعندما سمعت كلام الجزار قلت له ان ماقدمته لك هو شيء قليل جدا بالنسبة لما أريد أن أقدمه لك وانى ماقدمت اليك ذلك الا لما رأيته فيك من الاخلاص وتوسمته من الوقار وهو لايذكر فى جنب ما أعطانيه الله من المال والتحف فان أموالي كثيرة لا يخاف عليها من الضياع أو النقصان أوما أنا ممن اذا وهب يسترجع الشيء الذى أريده منك هو أن تخلصني من الأرق الحاصل لى فاذا فعلت ضاعفت امتنانى منك وأصبح لك على الجميل الذي لا يكافأ وبذلك تزيد محبتك فى قلبى الى مائة ضعف

ولما سمع كلامى قال لى مر ياسيدى بماتهوى وأخبرنى عن سبب أرقك فسأبذل المستطاع فى خلاصك منه وعندمارأيت من الجزار الاهتمام بأمرى والتهيؤ لقضاء مصلحتى مع مارأيته فيه من الاخلاص والوفاء والمحبة لم أستطع أن أخفى عنه شيئا وقلت له اعلم ياهذا أنى ملك بلاد الهند وقد نشأت على حب الفقراء والغرباء

فكنت على الدوام أعتبر الغرباء الذين يأتون بلادي وأكرمهم بما يزيد عن الحد ففي ذات يوم جاء إلى بلدى درويش يرتدي ثيابا سوداء فتعجبت منه . وبعد أن قدمت له من الانعام والاكرام ما يكفيه سألته عن سبب لبسه ذاك الرداء الأسود فلم يجبني وبعد الرجاء والالحاح قدرت أن أحصل منه على أن سبب ذلك هو زيارته لمدينتكم المسماة مدينة العجائب ثم تركني وانصرف فزاد هيامى وأرقي للوقوف على الحقيقة ومنذ تلك الساعة لم تعد لى راحة فى الأكل والشرب والنوم ولم أر وسيلة للتخلص من الهم والوسواس الذي أنا فيه الا ترك مملكتي والتخلى عن عرش سلطنتى والمسير بنفسي للتفتيش على ما يطيب به خاطرى فأخذت فى الطواف فى المدن والبلدان وأكثرت من البحث والتنقيب حتى وصلت الى هذا المكان . وقد مكثت فى هذه المدينة مدة طويلة وأنا أبحث وأنقب وأسأل من أصادفه من الناس دون أن أحصل على نتيجة يشفي بها مرضى أو أقضي بها غرضى ولما كانت الالفة بيننا قد تمكنت الى هذا الحد قلت فى نفسى لابد أن أعرف ما أنا في أرق لأجله وكل ما أريده منك هو أن تخبرني عن السبب الذى حمل أهل مدينتكم جميعا على أن يرتدوا بالسواد ويفضلوه على غيره من الألوان فلابد لهذا الامر العجيب من سبب .

فلما سمع كلامى أخذته فى الاول رعدة ثم أطرق برهة يفكر وأنا أنظر اليه وقد أخذ اليأس والقنوط يدب فى نفسى وترجح عندى الفشل والخيبة وبعد أن اطرق نحو ساعة تقريبا رفع رأسه وقال لى ان ما تسألنيه امر لا يمكننى التكلم فيه ولكن حيث قد ألقيت اتكالك على وغمرتنى بكرمك ونعمك وصار لك على حقوق وود ووفاء فالذى ترغب الوقوف عليه اعدك بصدق ان اطلعك عليه فى مساء الغد .

فلما سمعت كلمة مساء الغد زاد هيامى ورغبتى وغرقت فى لجج الافكار وبحار الظنون وقلت فى نفسى ما معنى قوله مساء الغد أتراه يريد أن يغشنى ويتخلص من سؤالي . ولكنه لما رآني على تلك الحالة أدرك بقوة ذكائه ما يخطر فى ذهنى فقال لى تظن أنى أغشك أو أقصد إبعادك لأتخلص مما ترغبه مني فانى اعاهدك عهد الامين الصادق انى فى مساء الغد اطلعك على الخبر اليقين .

اما انا فلم ار اوفق من التأنى والموافقة اذ لا وسيلة للاستطلاع منه على حقيقة ما أنا في طلبه الا بالرجاء والاكرام وقد لاح لى من كلامه وجه الصدق فانتقلنا

الى حديث آخر ومنه الى آخر حتى تنصف الليل فخرجت من بيت القصاب وجئت الخان وانطرحت على فراشى والارق يقعدنى ويقيمنى وجعلت أتقلب والافكار تتوارد علي والاوهام تعظم فى عيني فانقضي الليل ولم يأخذنى نوم كأنى ارى دقائقه اياما وساعاته اشهرا ولما لاح الصباح نهضت من فراشي واتيت مخزنى وجلست فى مكانى ارقا متفكرا فى هل يأتى مساء ذاك اليوم وانا حي ام انه ان يأتى لطول ما لحقنى من الفكر والارق والتعب النفسانى والجسمانى وقلت هل يصدق القصاب في قوله الغد ويأتيني ام يكون قد تخلص مني ودفعنى عنه بالتي هي احسن وما برحت أتقلب على جمر الافكار حتي ارسل الليل طلائعه واخذ يسود شيئا فشيئا الى ان نشر رواقه على البسيطة ولم يأتني القصاب فزاد حزنى فأقفلت مخزنى واتيت الخان وانا فى غاية اليأس والكدر وقد ثبت عندى انه غشنى وكذب علي والا لكان اتانى فى آخر النهار وذهب بى ورافقني الى الخان واطلعنى على صحة قوله كما وعد وتعهد ولم اذق طعاما فى ذاك المساء ولا قر لى قرار ولا هدا لى بال .

وفيما انا علي ذلك وقد مر نحو ســاعتين من الليل واذا بالباب يفتح والقصاب يدخل منه وما وقعت عينى عليه حتى قفزت من مكانى واستقبلته بكمال الفرح وأريته مكانا اعددته ليجلس فيه الى جانبى . فقال كلا لا اجلس بل تفضل لنذهب فأوقفك على حقيقة ما انت طالب واظهر لك جلية الامر فقمت من مكانى وخرجت من الخان وسار امامى وانا فى اثره حتى خرجنا من المدينة وسرنا فى الصحراء كل هذا وانا متحير من ذلك لااعلم الى اين يصير بى وقد يئست من الحياة وقلت فى نفسي مهما جرى يجري فاما ان اموت اوافرج ضيق صدرى وازيل ما لحق بى من الهم والغم وكان يتوارد على فى لحظة واحدة مئات من الافكار المقلقة المزعجة وبعد ان سرنا قليلا وصلنا الي دكة قائمة فى الوسط فوقف القصاب عند الدكة والتفت الي وقال لى هلم فأسرعت واذا بصندوق معلق من اعلاه لكن كيف تعلق وبماذا لا اعلم فقال لى القصاب ادخل حالا فى هذا الصندوق فلم اخالفه ودخلت لارى النتيجة فجلست فيه واذا به خف بالصعود واخذ يرتفع بخفة الريح وانا فيه وقد اندهشت جدا وغبت عن الوجود من عظم مالحق بي من الخوف ولبثت مدة ساعة ثم فتحت عينى واذا بالنهار قداقبل ولم يزل الصندوق محمولا على اجنحة الهواء مسرعا بالصعود الي فوق وحينئذ نظرت

إلى وجه البسيطة لأرى مقدار ارتفاعى عنها فلم أر منها شيئا بل رأيتها أشبه شيء بالدخان الكثيف ، وقد تألمت كثيرا من شدة حرارة الشمس وأخذ رأسى يلتهب كلما ارتفعت الى فوق واخذت ألوم نفسى وأقول العفو يا ربي ما هذه الحال وما هذا البلاء الذي وقع على رأسي فياليتنى لم آت تلك الديار . ترى هل القصاب غشنى وقصد هلاكي فلعن الله ذلك الدرويش ولعن الساعة التي رأيته فيها أما الآن فكيف العمل ولم يعد فى اليد حيلة ولم أعلم الى اين ينتهى الصعود بى ولم أر من وسيلة الا التوكل على الله والالتجاء اليه وهذا اوجدفى بعضا من الراحة والرجاء .

ولم يزل الصندوق على حاله من الصعود حتى تنصف النهار ومن ثم أخذ يهوى نازلا إلى الاسفل وإن كنت قدلاقيت فى ذلك العذاب الشديد من الفزع والخوف الذى ما عليه من مزيد لكنى تأكدت أن لا بد من وصوله واستقراره على اليابسة ولذلك تهيأت وتحفزت حتى إذا قربت من الارض خرجت بأسرع ما يمكننى لأتخلص من الخطر المحيق بى وقد تيقنت أنه مهما كانت حالتي على وجه الارض خطرة فهى أخف بكثير من الحالة التي أنا فيها الآن طائرا فى الفضاء بين الارض والسماء فوق ذلك الصندوق المسحور . ولم يمر على الصندوق فى نزوله أكثر من ساعتين حتى قرب من منارة كبيرة واسعة كأنها جبل عال متسع ولعظم ارتفاعها لم تظهر الارض منها تماما بل كانت كدخان أبيض وحالما قرب الصندوق من تلك المنارة قفزت منه وارتميت بسرعة عليها ظنا منى أنى تخلصت من البلاء وما استقرت رجلاى عليها حتى غاب الصندوق عن نظرى . وأما أنا فبقيت على المنارة وكان قد مرَّ علىَّ ليل ونهار لم أذق فيهما طعاما ولا شرابا وقد لحق بى كثير من العذاب والخوف واليأس وقطعت الرجاء من نفسى وشعرت بكل ذلك فى تلك الساعة .

وبعد أن مر على ساعة هدأ فيها بالي نوعا ما وأخذ الصمم الذى عم أذنى ينفرج شيئا فشيئا وإذ ذاك جعلت أفكر فى النزول عن تلك المنارة العالية ولكن بعد البحث والتأمل وجدت أن ذلك مستحيل لعدم وجود طريق يوصلنى إلى الاسفل مع ارتفاعها الغريب العجيب وإذا خاطرت بنفسي وقصدت الزحف عليها وقعت بلا شك ومزقتنى الرياح قبل أن أصل إلى الارض وقد أعاد هذا

التفكير الخوف والرعب الى نفسى فعلمت أني وقعت فى بلاء جديد أعظم من البلاء الأول . ولم أعد أتجاسر على النظر إلى أسفل وقد تحقق لدى أن لا خلاص لى من هذه المنارة وعظم على الامر واشتد الجوع والعطش ولم أكن أعلم أين كان هذا العذاب مخبأ لي ولماذا بلانى الله به ورماني فيه مع أنى كنت براحة وهناء فى بلادى وعلى عرش ملكي وحينئذ لم أتمالك نفسي فأخذت فى البكاء وانسكب الدمع من عينى كالغدران ، وأخيراً ركعت وصليت لله وسألته أن يفرج عنى هـذا الكرب إذا كان في الاجل تأخير وبقيت مدة اذكر اسم الله ولا أفتر عن التسبيح وطلب المعونة منه

وفيما أنا على ذلك وأنا أسمع صوتا كصوت الرعد القاصف وقد أخذ يشتد ويعظم كلما دنا مني فعرانى من الخوف والرعب أمر عظيم واستهدفت لوقوع كارثة جديدة وكاد يغمى علي من شدة ما لحق بى من الاضطراب مع ما انا فيه من الجوع والعطش واليأس وبقيت نحو ساعة زمانية وأنا كالغائب عن الوجود ثم وعيت إلي نفسي وإذا بطائر عظيم ما رأيت ولا سمعت بمثله كأنه المركب فوق المنارة جعل يرفرف بأجنحته على المنارة ثم ما لبث أن وقف فى الناحية التى أنا فيها وشعرت بالمنارة قد اهتزت من ثقله فان كلا من جناحيه يشبه شراع المركب الكبيرة ورجلاه أكبر من صوارى المركب ولما رأيته زاد بي الخوف والرعب وأخذت اهتز كاهتزاز اوراق الاشجار عند اشتداد الرياح وخطر لى أنه سيلتهمنى اول ما تستقر قدماه وإن كنت لا أكفى لقمة فى ركن من فمه الكبير وايقنت انه على كل حال لا يتخلى عنى وأنا غنيمة باردة بين يديه . ولم أر سبيلا للخلاص الا بعنايته تعالى فرجعت الى الصلاة والعبادة طالبا منه أن يخلصنى من هذه النكبة الجديدة التي توهمت فيها القضاء على وجعلت أشتم القصاب وألومه على خيانته لى وقد ظننت انه ساحر ماكر فعل ذلك طمعا فى مالى ومتاعى ولبثت مدة على ذلك والطير ينظر الى ويعرض عني كأنى لم أخطر له ببال وهذا جعلنى اطمئن على حياتى ولو قليلا من جهة الطائر ولكن كيف يطمئن بالي والجوع والعطش قد انتابانى وكدت أهلك ولا أمل لى بالخلاص

وفيما أنا على ذلك قلت فى نفسى ماذا يانرى لو تعلقت برجلى هـذا الطائر فحملنى الى ارض او برية او جبل مرتفع اذ لابد له من الطيران ومن الوقوف

فى مكان آخر ولكنى ترددت وقلت فى نفسى كلا كلا فانى اذا فعلت ذلك فانه سيلتهمنى فى الحال فكأنى أقدم نفسي ضحية له .

ثم فكرت فى أنى اذا بقيت هنا فسأهلك لا محالة فان عاقبة الموت بالجوع والعطش وهذا أقبح الميتات وأخيراً صممت على أن اتعلق برجلى الطائر فاذا كان فى الاجل تأخير سلمت ووصلت الى العمار واذا كان الاجل قد دنا فخير لي ان يأكلنى الطير واموت بسرعة البرق من ان اموت معذبا بالجوع والعطش . فصليت لله وطلبت منه المعونة والمساعدة ووقفت بين رجلي الطير أنتظر الدقيقة التي يتحرك فيها فأقبض عليهما بيدى الاثنين واترك نفسي لمشيئة الرحمن فيفعل الله أمرا كان مقدورا .

ومرت على ليلة وأنا يقظان خائف وحالما بزغ الصبح تحرك الطير وخرج منه صوت أشبه شيء بالرعد فكادت آذانى ان تصم من شدته ثم تهيأ للطيران وفى الحال سألت الله المعونة والنصرة والتصقت برجليه قابضا على كل واحدة منهما بيد فكأنه لم يعبأ بى ولا شعر بتعلقي به بل نشر جناحيه فى الهواء وقصد الجو الاعلى وأنا فى حالة خوف ورعب ولكنى تجلدت وصبرت وساعدتنى يد العناية على الثبات فى مركزي الى وقت الظهر فبعد ان كان آخذا في الصعود عاد الى الهبوط شيئا فشيئا وبعد ساعات قليلة قرب من الارض ففي الحال تركت رجليه ورميت نفسى عليها وقد غبت عن الوجود برهة ثم فتحت عيني واذا بى كأنى فى جنة النعيم إذ رأيت موضعا واسعا جدا مزينا بالرياض والنباتات وكل أنواع الصفاء فشكرت الله تعالى على منته . ولبثت نحو ساعتين وأنا متحير مبهوت .

ثم نهضت من مكانى واقتطفت الأثمار الناضجة عن أشجارها فأكلت حتي اكتفيت ولم أذق فى طول عمرى فاكهة منتهية لذيذة مثل تلك وهذا أيضا استوجب الشكر والثناء للخالق جل جلاله وفكرت فى كل مامضى على من العقاب والتعب فقلت فى نفسى يا للعجب ما هذا أسحر أم حلم قد مر على مخيلتي وقد شربت من نهر ماء صاف كان يمر بجانب المكان الذى وقعت فيه فكأن مياهه من العسل الشهد . ولبثت جالسا فى مكانى لأنى من التعب لم أقدر على التجول والتوغل فى تلك النواحى حتي أقبل الليل وانتشر الظلام فنمت في ظل شجرة ثم استيقظت ظنا منى انه وقع على بلاء جديد فرأيت نفسي كما نمت وصرفت

ليلتى على تلك الحالة . ولما لاح الصباح شكرت الله تعالى وأخذت فى التجول والطواف فى تلك الاطراف . وفى الحقيقة أن تلك الارض كانت تشبه الجنة فكانت مغطاة بالاشجار والازهار المتنوعة التى تجلو الهم وتجلب الصفاء والسرور وجميع تلك الجهات مخضرة بالنباتات ومبيضة بالزهور حتى أنه يصعب على الانسان المشى فوقها لئلا يشوه جمال مناظرها بأقدامه وكان بها طيور متنوعة تقف على أغصان الاشجار وكل واحد منها يرنم بصوت رخيم يشجى المسامع ويشنف الآذان . وفي كل طرف من ذاك المكان كانت عيون الماء تجرى صافية كالفضة البيضاء أو البلور الشفاف وفى داخلها أنواع النقوش المبهجة منقوشة بيد ذى القدرة والجلال . والاسماك فيها ما بين ذاهب وآت صفوفا صفوفا بترتيب ونظام أشبه شيء بالجيش ولا ريب أن الانسان كلما نظر اليها بامعان فيها زاد اندهاشه وحظه منها وعلى الخصوص أن النسيم كان يهب لطيفا فيحمل من أعطار تلك الازهار ما يجلى به الصدر وتنعم به الافكار فكنت بعد أن لاقيت مالاقيت من المحن والشقاء وابتليت به من الجوع والعطش أرى نفسى بوقوعى على تلك الارض فى سعادة عظمى أشكر عليها الله العلى العظيم ومع اننى قد تخلصت من التعب صادفت الراحة ودفعت ألم الجوع بتلك الأثمار الشهية وشرحت صدرى بالطواف في تلك الجنة الارضية فما كنت أخلو من التفكر والهم بل كنت أقول فى نفسي عجباً ماذا يصيبني بعد . نعم انى تركت سلطنتى ومملكتى ولحق بى مالم يلحق بغيرى من المحن المتواترة ثم وقعت فى هذا المكان الجميل البديع فمن أين للدهر أن يبقى على حالة وهو أبو العجائب فلا بد له من العقاب ولا بد انه يحسدنى على هنائى فيبدله بعناء ولعظم فرحي كنت لا أصدق أن مدة الصفاء والانس تدوم

فطفت فى أطراف ذاك المكان متنقلا من محل آخر وأنا كمن يتوقع مصابا جديدا حتى أقبل المساء فأكلت من لذيذ الثمر وشربت من صافى الماء وشكرت الله تعالى لحسن الحظ . كان القمر فى ليلة تمامه فبزغ فى مبتدإ الافق وأنار على تلك الخميلة الواسعة بنور محياه البديع وهذه الحالة زادت فى سرورى وأنسي فان تلك المناظر كانت تلوح لعينى تحت نور القمر الوضاء مبهجة مدهشة والنسيم اللطيف يحمل من أطيب الروائح وقد تلطف بنور القمر عما كان عليه فى حرارة الشمس فجلست أتأمل فى عجائب الطبيعة وأفكر فى بدائع الخالق حتى مر على وأنا على ذلك مقدار ساعتين تقريبا وإذ ذاك هب على النسيم يحمل روائح

أطياب جديدة تحيي العليل وتشفي المصدور ثم ظهرت فى الافق غيمة بيضاء كالثلج ومع أنها مرت تحت القمر لم تحجبه لعظم بياضها وهي تقرب شيئا فشيئا ثم أخذت تتقطع قطعا صغيرة جدا و تتساقط إلى الارض شيئا فشيئا كالمطر المتساقط كل هذا وأنا متحير من ذلك محدق بناظرى الى الافق حتى انجلت الغيمة ولم يبق لها أثر . وفيما أنا غارق فى حيرتى وذهولي وقد مر على بعد تساقط قطع الغيمة عشر دقائق تقريبا رأيت ألافا من الانوار مقبلة من مسافة غير بعيدة كأنها نجوم السماء أبت أن تبقى فى مراكزها فاختارت تلك الروضة الغناء سكناً لها فتساقطت متسابقة اليها .

أما أنا فقد عرانى الخوف والارتباك عندما رأيت ذلك وقلت فى نفسي عجبا ما هذه الانوار وجعلت أدقق فيها جيدا حتى قربت مني ففي الحال أسرعت الى دوحة عظيمة اختفيت بين أغصانها أتوقع البلاء الجديد الذى يساق الى . ولما دنت الانوار وصارت ظاهرة للعيان أجلت نظرى فيما بينها فرأيت نحوا من أربعمائة أو خمسمائة فتاة لا نظير لهن في الحسن والجمال وفى أيديهن شمعدانات من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر وقد تقدمن بترتيب وتدبير صفا صفاً الى أن وصلن إلى منتصف ذلك المكان . ولا تسل عن حالتى فى ذاك الوقت فقد تصورت أنى كنت أقول الجنة فى هذا المكان وأن هؤلاء الحسان هن الحور وحينئذ أخذن يضحكن ويمزحن وهن يطفن فى تلك الساعة وكن قد أحضرن على اكتافهن الفرش الفاخرة فأخذن أوسع بقعة فى تلك الخميلة وبسطوه على اختلاف أنواعه فيها ثم وضعن سريرا كان محمولا على أكتاف ثمانية منهن مجوهر القوائم منقوشا بأبدع نقش وأعجبه ثم وقفن بترتيب وفى أيديهن شموع من الكافور موقدة كأنهن ينتظرن أحداً . وقد أنستنى هذه الحالة النزهة وانشراح الصدر الذي لاقيته فى أول يومى وذهلت وتحيرت مما أرى وأسمع ومن موقع المكان ومن هاته البدور وكيف وصلت اليه بعد الشقاء والضني والتعب وفيما أنا مشغول بالتفكير فى كل ذلك وإذا بأنوار عظيمة قد ظهرت من الجهة التي أقبل الجواري منها وكانت الانوار مقبلة لجهتى ، وحالما شاهدت هذه الحالة زاد بى الخوف فقصدت الاختفاء وفى الحال صعدت على الشجرة واختفيت بين أغصانها وأرسلت بنظرى الى الامام واذا بى أرى فتيات على نفس الهيئة الاولى غير أن البنات الآتيات كن أبهى حسنا وجمالا وأكثر اشراقا من الاوائل وفى وسطهن فتاة

بديعة الجمال باهرة المحاسن لم تر عيني أجمل ولا أبهى منها وكانت كلما قربت مني يزيد وجهها بهاء واشراقا وتؤثر محاسنها فى قلبي حتي أنى لم أعد قادراً على الثبات فى مكانى وكدت أقع من الشجرة إلى الارض من عظم ما وقع بى من تأثير ذاك المحيا الوضاح ، ولما شاهدت الخطر المحدق بى أمسكت جيداً بأغصان الشجرة خوفا من الوقوع بينما تقدمت الفتاة يحيط بها الجوارى حتى قربت من المكان الموجود فيه فلاقتها الجوارى الاوائل ومشى الجميع بين أيديها وخلفها ومن جانبيها فكانت كالبدر التمام محاطا بالنجوم المشرقة .

ولما قربت من السرير المنصوب تقدم نحوها أربع من الجوارى الباهرات الحسن فرفعنها من تحت إبطيها الى السرير فجلست عليه وجلس بعض الجوارى عن جانبيها وأدركت أنهن المقدمات عندها ووقفت بقية الجوارى بين يديها صفوفا وأعينهن محدقة بها كأنهن ينتظرن أوامرها ، وبعد أن أطرقت إلى الارض بضعة دقائق مفكرة رفعت رأسها وقالت لواحدة من الجوارى أسمع صوتا فوقي وأشعر بأنه يوجد هنا شخص غريب فاذهبي وفتشي جيداً ومتى وجدته فأتنى به حالا ، فلما سمعت كلامها ارتجفت بشدة وقلت فى نفسي سبحان الله من أين علمت انى موجود هنا وإذا كنت موجودا هنا فماذا تقصد أن تفعل بى لا ريب انها تقصد بى شراً لاطلاعى على حالهن وكلهن فتيات وليس بينهم ذكر وجعلت أذم الزمان وألومه على غدره وقلة وفائه .

وبينما أنا أفكر وأخاف كانت تلك الجارية تبحث من شجرة الى ثانية حتي وقفت تحت الشجرة التي أنا فيها فجعلت تطوف من حولها حتى وقعت عينها على فقالت لى أى ضيفنا العزيز تكرم بالنزول الينا فهذا المحل غير لائق بك لا تخف أبدا فأنت ضيف والضيف عندنا عزيز مكرم . فلما سمعت منها هذا الكلام اللطيف والعبارات اللطيفة المؤنسة اطمأن بالى وهدأ روعي وقلت فى نفسى هل زمان الانس قد دنا أو أن هذا حلم وفى الحال نزلت من الشجرة وتقدمت الى الجارية وحييتها بكمال الوفاء والاحترام وأنا أرتجف من القلق والوهم فأخذتني من يدى وقالت لى لماذا ياضيفي العزيز أنت فى اضطراب وخوف هلم فاجلس معنا وقاسمنا الحظ ولا تخف قط ، فقلت لها كلا ياسيدتى فانى لا أرتجف من الخوف بل أرى نفسي غير لأهل ان اقترب من تخت بلقيس اللائق بسليمان

وحده فكيف لى أن أثبت فى مكان سليمان عليه السلام ، فقالت أنت مخطىء ياسيدى فى ظنك ثم أخذت بيدى الى جهة تلك السيدة الفتانة فلم ادرى ماذاأقول وكدت اغيب عن صوابى وتوهمت كأنى أحلم حلما وأنا محاط بهالة من الحسان اللاتي كأنهن حور الجنان ولما صرت تجاه ذلك العرش الجالس عليه ملاك الجمال والكمال رفعت بنفسى على ارجل السرير فصرت أقبله وأدعو للسيدة بطول العمر والبقاء ثم وقفت فى أدنى محل . فلما رات الفتاة منى هذه الحالة تبسمت تبسم الدلال وفتحت فاها وتكلمت بلفظ لم اسمع اعذب منه فى طول حياتى وقالت لى اهلا وسهلا ومرحبا بك ياضيفى العزيز وحبيبى الفريد لماذا أراك مترددا ومتنكرا هل ياترى لم أعجبك فأخبرنى ولا تخف عنى .

اما أنا فقد احمر وجهي من الخوف والخجل وشعرت كأن عيناى تلتهب واخذ العرق يتصبب من جبهتى وبدات اوصالى ترتجف فلم اقدر على الوقوف فقبلت ثانيـة اذيال السرير الجالسه عليه وعدت فوقفت فى مكانى وقلت لها ياسيدتى انى غير قادر على الكلام من الاضطراب والخجل وانى ارى نفسى غير اهل لان اقف بين يديك واوجد كعبـد فى مجلسك ، فأجابتني برقة مسكرة لا تخجل ولا تضطرب فليس من مقامك ان تقف على الارض فتكرم بالجلوس على السرير معى لنصرف ليلنا بالانس والصفاء فكل مافى المكان هولك وتحت امرك . لقد وقفت علي اسواري واستجليت النظر الى وجهى فاذا كنت لا تريد ان نصرف الوقت علي الانس والحظ والعيش والعشرة كأحباب فكن كأخ لى .

وفى الحقيقة كان مثلى وقد رأى ما رأى من العذاب والمشاق وجد فى تلك الجنة وسمع تلك الحورية تتحبب اليه وتسمعه من الكلام الرقيق ما تضيع به الخواطر وتطلب اليه أن يصافيها وتصافيه وينادمها وتنادمه فلا شك يعتقد أنه قد حصل على أعظم نعمة وانتقل إلى أرفع سعادة لكن مع ذلك بقيت مصرا على امتناعي وقلت لها حاشا يا سيدتى لمن كان مثلى ضعيفا غريبا أن يدنو منك وأنت ملكة الحسن والجمال وبدر اللطف والظرف نعم ان نور بهاك وسناء جبينك لا يقاس بهما نور بدر ولا ضياء شمس ومن أين لى الدنو من البدر وهو فى قبة فلك الاشراق فضحكت الفتاة من كلامى وشكرتني وأبدت سرورها منى وقالت لى هلم اجلس إلى جانبي لنتحادث . فامتنعت أيضا وقلت لها كلا كلا ليس

هذا مقامي يا سيدة الملاح وكوكب الصباح . وإذ ذاك أشارت الى إحدى الجوارى فأخذتنى من يدى ورفعتني إلى السرير وأجلستنى الى جانب الصبية وعادت ووقفت فى مكانها . أما الصبية فنهضت واقفه وقبضت على يدي وتبسمت بثغر وضاح وجبين مشرق وقالت لى بلسان يذهل العقول لا تضطرب ولا تقلق ياضيفي الكريم ان هذه فرصة سمح بها الزمان فهى غنيمة نغتنمها الآن فلنتحادث ونتنادم ونقطف ثمرات الصفاء والسرو . أما أنا فقد أصبحت فى تلك الحال كالصنم الجامد وأردت ان أتكلم فعقد لسانى ما انا فيه من الحيرة والاضطراب بل كنت ارتجف كقصبة تحركها الريح حتى انى لم اشعر بشيء من نفسي لشدة الخجل والعرق يتصبب مني .

فلما رأتنى الفتاة على تلك الحالة قالت يظهر لى الآن أنك غير مسرور مني ولم تستحسن مصاحبتي فهاك الجوارى والبنات فاختر لنفسك من شئت منهن والتى تنال الحظوى فى عينيك مباركة عليك فدعها تجلس وإياك واغتنم فرصة الحظ بالتقرب منها . فجرح قلبي كلام الصبية وقلت لها كلا يا سيدتى يا أجمل من رأت عيني وأرفع من فى العالم من انس وجن هل بلغ من قدرى انني لا اسر منك ولا استحسن ان اكون بين يديك وقد مننت علي بهذه السعادة فلو دخلت الجنة لما حصلت على اعظم مما انا فيه الآن لكنني ياسيدتى غير مصدق من نفسى حصولى على هذه النعمة وانا افكر فى سوء الطالع الذي يترجح لى منه أنني في حلم الآن لا فى يقظة . فأجابتنى الصبية لماذا تفكر بأحوالك ومن اين جاءك سوء الطالع هل تحسب ان حصولك على جارية مثلى نوع من سوء الطالع . فقاطعتها وقلت لها معاذ الله يا سيدتى ان سوء الطالع الذى لحق بى والذي افكر فيه قد مر وانقضي فقد لاقيت فى اليومين الماضيين من العذاب والجوع والعطش واليأس ما لا يقدر ان يقوم بوصفه قلم فأنا افكر ان كل ذاك العذاب كان مقدمة لهذه النعمة التي لا اعرف كيف يجب ان اتنعم بها واقتطف ثمرات الصفا والانس من رياضها وهاانا يا سيدتى بين يديك وطوع امرك . وبعد ان اثنت على وطيبت خاطرى امرت جواريها فجلسن وحينئذ أخذت اتمالك نفسى واسترد بعض الهدوء والقوة وقلت فى نفسي اغتنم هذه الفرصة فأسرح وامرح فى ذلك النعيم بين هؤلاء الحور ومهماصار فليصر ورفعت عينى وصرت انظر فى وجه الصبية سيدة الكل لكن من من العالم يقدر ان يثبت النظر فى وجهها ولا يخسر عقله وقلبه فى الحال .

(ولما وصل الملك فى حكايته إلى هذا الحد أخذ يتكلم ويبكى ويتأوه ويتحسر) وقد حكت نور بنت ملك الهند لبهرام لهذا الحد من حكايتها وقالت له انى سمعت من والدتى أن صاحبة الثوب الأسود حكت لها أن الملك لما وصل إلى هنا جعل يبكي فبكت هى أيضا .

وكان بهرام شاه مسرورا من هذه الحكاية فأمرها أن تداوم في حكايتها إلى اتمامها . فدعت له وأثنت علي عنايته ثم عادت الى تمام الحديث قالت)

ولما وصل الملك فى حكايته لجاريته الي هذا الحد بكى وتنهد وتأوه ومع ذلك لم يتوقف كثيرا عن الرجوع الى حديثه فقال نعم عند ما أفتكر بهاء وجمال هذه الفتاة أغيب عن الوجود وأكاد أخسر عقلي وتنمو في جرائم العشق والغرام التى دخلت فؤادي وقد أخذنا فى المنادمة والمحادثة وعيني لا تنفك عن النظر فى وجهها ولا ترتفع عنها لحظة واحدة وهي مع محادثتها ومؤانستها كانت تظهر لى الحب والالتفات وأنا أقول في نفسى يا للعجب أصحيح ما أراه هل أنال وصال هذا الملاك فاذا نلته فكم أكون سعيدا لكنى لا أقدر أن أصدق من أين لي أن تدخل فى يدى مثل هكذا حورية ومن أين لحظى الاسود أن يشرق بنور هذا الاقبال العظيم فما ذلك اليك من جملة عناد الدهر لى فقد أراد أن يشعل فى فؤادى جذوة الغرام ويزيد فى عذابى فألاقي فى هذه المرة أضعاف الاضعاف مما لاقيت أو أنه يريد أن يصفولي كعادته فانه يمرد ويحلو فقد رمانى بمحن لم يبق من بعدها الا الموت والآن أراد التعويض علي بهذه النعمة التي لا تعادل كل نعم العالم دقيقة واحدة من هنائها .

وخلاصة الامر أنى كنت أفكر بخلاف ما أشاهد فكان الصبية قد علمت بما يتردد فى فكرى فأخذت فى المداعبة والملاعبة معى وهى تزيد من دقيقة الى ثانية بهاء وجمالا فى عينى وينمو ويعظم حبها في فؤادى وتتعزز وتثبت آمالى بالحصول علي المأمول من وصالها ولم يمر علينا ساعتان على تلك الحالة حتى أمرت جواريها باحضار الطعام وفى الحال نهض الجورى من أماكنهن وقد احضرن الطعام بسرعة لا يمكن أن يصفها قلم وأتين بسفرة عليها اطباق من الذهب المرصع بالاحجار الكريمة وفى داخلها من الاطعمة اشكال والوان وكانت روائح العطر والعنبر المنبعثة من الأطعمة تشرح الصدور وتجلب السرور وكذلك الاقداح المصفوفة على المائدة كان بعضها من حجر الفيروز وبعضها من

الياقوت الاحمر وبعضها صاف كالبلور الخالص اللون . ومما زاد تعجبي حضور مثل هذه الاطعمة الكثيرة المتنوعة على تلك السفرة البديعة الثمينة بأسرع من صدور الامر يعني أن الجوارى مالبثن أن سمعن الامر حتى أحضرنها في الحال وقد جال في فكرى أن البنات لسن من الانس فان أعمالهن لاتشبه أعمال البشر ولا سيما وأن الجمال الموجود فيهن لا يمكن أن يكون موجودا في البشر مع أن تركيب أجسامهن كتركيب أجسام بنى الانسان ولاسيما السيدة الكبيرة فانها خلقت زينة للناظرين وفتنة للعابدين فيتبارك الله أحسن الخالقين

وبعد أن أحضر البنات السفرة وعليها الطعام المتقدم ذكره أخذت كل واحدة واحدة منهن شمعدانا من الذهب في يدها وفيها الشموع موقدة تسطع بالند والكافور ووقفن ينتظرن حول المائدة .

أما تلك المحبوبة التي لانظير لها في مخلوقات الله فانها لما رأت أن سفرة الطعام قد أعدت أخذتني من يدي وقادتني الى المائدة وأمرتني أن أجلس وانناول الطعام معها وكنت في حيرة ودهشة فرأيت من الواجب التردد عن الجلوس معها لكن كنت قد ألفت مصاحبتها وعشرتها فضلا عن أني كنت متشوقا للطعام حيث لم أذوقه منذ أيام بل أكلت بعضا من الثمار لسد رمقي فجلست في الحال اذ أن معاملتها لي وتلطفها معي لم يبقيا في مجالا للخجل فأقبلت على الطعام وأنا اظن نفسي كاني مالك هذا العالم بأسره ولي الحق في ذلك وكيف لا يتصور من كان جالسا على مثل تلك السفرة محاطا ببنات من الجوار اللواتى كأنهن الأقمار بعضهن قائم في خدمته وبعضهن وقوف بين يديه وبأيديهن الشموع والكاسات وهو جالس إلي جانب ملكة الحسن وآلهة الجمال أنه ملك العالم . بل أن من المحال ان تكون لذة ملك العالم معادلة للذة ذاك الاجتماع .

ولما فرغنا من تناول الطعام بكمال المسرة والصفاء ، أمرت رفيقتي باحضار الأباريق لغسل أيدينا فجاءت بها الجوارى في الحال فأمرتهن أن يغسلن يدي في الاول فامتنعت وقلت لها معاذ الله أن أتقدم عليك في مثل هذا الامر وأنت سيدتى ومالكتى فأجابتني بكلام أرق من النسيم اغسل ياحبيبي فهذه ارادتى ومن المحال أن أغسل قبلك .

ولما رأيت اصرارها مددت يدى إلى الجواري فغسلنها بماء زكي الرائحة ثم نشفنها بمنشفات من الحرير البديع اللون المتقن الصنع وغسلت هي أيضا بعدي

ثم عادت فوضعت يدها فى يدى وذهبت بى إلى السرير فجلسنا عليه وإذ ذاك جلس الجوارى بدورهن على المائدة وأخذن يتناولن الطعام وهن على غاية من المزاح واللعب والانبساط إلى ان فرغن من الطعام ورفعن الاوانى فى الحال ولم يكن لى شغل يشغلنى الا التفكر بنفسي وبتلك السعادة التى وجدت بها ، ثم حضر بعض من البنات وجلسن على كراسى من الذهب حول السرير ومن ثم أحضرت سفرة الشراب وتقدم نحو من خمسة عشر صبية لخدمة الشراب وقد كشفن عن زنودهن الى حد أكتافهن فكانت تضىء وتلمع كالبلور وحملن الاقداح بأيديهن وهن يتمايلن وينعطفن ويبتسمن ويظهرن من أنواع الدلال واللطف ما لا يحصره وصف واصف ثم ملان الاقداح فناولنني فى الاول فشربت ثم ناولن سيدتهن فشربت أيضا ثم عاطين باقي البنات وفيما الشراب دائر علينا أحضرت آلات الطرب من العود والقانون والناى والجنك والدف فتناولت كل واحدة من البنات الجالسات حولنا ما تحسن استعماله من آلات الطرب وجعلن يضربن عليها بفن غريب ثم رفعن أصواتهن بغناء مطرب وأصوات مشجية لم أسمع مثلها طول حياتى ولا أظن أن غيرى من العالم سمع مثل ما سمعت حتي تاه عقلي ولم أعد أعرف ماذا أصنع وصرت أقول هل الملائكة تسبح الخالق بأصوات التهاليل أم أن الله سبحانه وتعالى أودع في صدورهن من النغمات الرقيقة والاصوات المطربة ما حاكين به صوت نبيه داوود عليه السلام ووالله انى لعاجز عن وصف تلك الاصوات الجميلة التى سمعتها من هؤلاء المغنيات الحسان فى تلك الخميلة الكثيرة العجائب وخيلت أنها نغمات موسيقية ملائكية وكنت شديد التأثر من سماع الالحان والاناشيد التى كانت تخرج من أفواه تلك الملائكة وقد هاج بها هيامى وغرامى وظهرت على وجهى علائم الفرح الزائد والانبساط العظيم . ولما رأت فتاتى ما انا فيه من السرور تبسمت وقالت لى بلسان عذب ان شاء الله يكون قد زال عنك العناد ولم يبق عندك شيء من الخوف والخجل .

فأجبتها نعم يا سلوتي وغاية مناى ومؤنستى انى بعنايتك قد حصلت على الراحة والعادة وارى نفسى في جنة الاقبال وارى حظى تحسن وحياتي ان يتيسر فاسأل الله سبحانه وتعالى ماره دوام السرور والابتهاج فسرت من كلامى واظهرت لى من دلائل الحب والاكرام ما ارادنى جراءة اذ طوقت عنقي بيديها الناعمتين وكنت لكثرة ما ناولتني البنات من الشراب العتيق ، واسكرنى وافقدنى

صوابي وحدث في حالة الجنون من تأثير الخمر ومن تلك الاصوات البديعة ومن رقص البنات الجميلات ذوات القدود المائسة والعيون الناعسة وهي كالبدور الساطعة كن ينهضن عشرات عشرات ويرقصن رقصاً عجيباً وفوق كل ذلك فان وجنتي رفيقتي قد التهبتا بالاحمرار حتى فاقا الورد لوناً ورأيت شفتيها محمرتين في لون القرمز وعينيها الواسعتين وأهدابهـا التي كالسهم الصائب ومهما بالغت في وصفها فأنا عاجز ولاسيما واني في تلك الساعة لم أكن مالـكاً عقلي ولا مستطيعاً ضبط نفسي فدفعني العشق الفاضح الذي ألم بي الى تقبيـل فتاتي وتطويق عنقها فقبلتها في خدها فلما سكتت ولم تبد ممانعة لاح لي أنها مسرورة مني وذلك لم يبق حداً لجرأتي وحريتي فلم أقنع بقبـلة واحدة ولا باثنتين ولا بعشرة ولا بمائة بل قبلتها في خديها وشفتيها أكثر من ألف قبـلة وربما أكثر من ألفين ولا أنكر اني في كل قبلة كنت أشعر بلذة غريبة لا أنساها مدى العمر .

ولما رأيت ان أمدي مع الفتاة وصل الى هذا الحد غبت عن رشدي وفقدت صبري ولم أعد أعرف كيف اتصرف فمددت يدي الى صدرها وأتوقع أن ألمس نهدين كأنهما رمانتين ناهدتين أو حقين من عاج أو لجين فغبت عن وعي لأنني شعرت أن يدي لمست جسماً ناعماً إلى حد أن لا يوجد ما هو في نعومتها فيـا لله ... ... ويا للفتاه .... نعم أتأسف .... ماذا أقول .... وصلت لأرفع حال من السعادة والحظ عندما لعبت يدي بنهديها وعندما قدمت شفتي منهما وأخذت أقبلهما واستنشق ما ينبعث عنهما من عبير الروائح العطرية الزكية التي تنعش الصدور وتبعث الموتى من القبور . وكنت في المرة بعد الثانية أضع شفتي على حلمة الثدي فأمتصه مصاً لطيفاً حلواً ثم رفعت عيني وأنا في تلك الحالة الى وجه الصبية فوجدتهـا تحدق في بثغر باسم يفتر عن الدر المنضود وشاهدت احمرار تلك الخدود التي وصفتها سابقاً فتركت النهود وعدت الى تقبيل الخدود حتى وصل بي العشق الى الدرجة الاخيرة وحملتني القمة إلى ما وراء ذلك لأني كنت أرى منها قبولاً وسروراً في كل ما فعلته وأري كأن سرورها ناتج عن لذة تعادل اللذة التي كنت أشعر بها وقلت في نفسي لقد كان من الصعب أول الأمر أن اقرب منها واما الآن وقد تجاوزت الحد في كل شيء فلم يبق من الصعب أن تمنع عني ما أطلبه وأريده لاطفاء تلك النار الملتهبة بين جوانحي ولعلها هي ترغب في ذلك ولما قوى على العشق واشتد بي الوله تطرفت شيئاً فشيئاً فابتدأت بتقبيل خديها

ثم شفتيها ثم قبلت عنقها ومرغت وجهي على صدرها ثم اخفيت رأسي بين نهديها وأرسلت يدي الى المكان المطلوب مندفعا بتلك الشهوة الحيوانية ولم أع عماذا كنت أشعر باعضاء بشرية أم ببقجة من الديباج محشوة بالقطن المندوف فحينئذ دفعتني الصبية بلطف وتبسمت تبسم الكرامة واللطف وقالت مهلا ياضيفي العزيز وأنيسي المحبوب فكن قانعا بالمداعبة والملاعبه والضم والتقبيل ففي هذه الليلة لا يمكن لي أن أسمح لك بنوال الوصال . فاذا كنت تحبني وترغب في أن تكون مصاحبا ومرافقا لي على الدوام لاتكن قليل الوفاء ولاتخالف كلامي فاذا كنت ذا صبر وقادر علي التحمل والتأني فستنال وصالي وتحصل علي ما خطر لك واذا كنت قد وصلت الي حالة لا تقدر فيها على الصبر والتحمل فهاك البنات فكلهن في درجة علياء من الحسن والجمال فاختر لنفسك من تحلو في عينيك واصرف ليلك معها وأنا أبيح لك الى حين حلول الوقت الذى فيه أبيحك وصالي أن تختار من شيت من البنات فهن بين يديك وطوع أمرك ثم انها التفتت الى احدى البنات وكانت أبهى من الشمس والقمر واشارت اليها برأسها فدنت مني تتمايل كغصن البان وتبسم عن ثغر كالأقحوان اما انا فلم أعد قادرا علي الكلام عندما رأيت امتناعها وسمعت منها هذا الكلام وقد لصق لساني بفمي وجمدت كالصنم الي أن دنت الصبية التي اختارتها لي واخذتني من يدي فلم امتنع فنزلت عن السرير وقد شعرت كأني اخرجت من الجنة وسأذهب الى الجحيم وسرت خلف الفتاة تقودني وقد نظرت اليها إذ ذاك فوجدتها لاتنقطع عن التبسم والغنج وهي تنعطف علي وتداعبني وكان قد احتاط بنا بعض البنات ومشوا أمامنا وفي اثناء الطريق كن يجتهدن لاستجلاب خاطري ورضاي حيث كان عقلي وفكري وروحي وكلي بأجمعي عند سيدتهن .

وما زلنا نتقدم حتي وصلنا من صيوان منصوب في تلك الجهة وكان الصيوان بديعا منقوشا بأنواع النقوش التي لم ار في حياتي مثلها وقد جلس حول جهاته الاربع مئات من الجواري الحسان يمزحن ويلعبن فلما رأينني نهضن جميعهن وقوفا على اقدامهن وتقدمن لاستقبالي وفي الاول صف منهن يحملن على ايديهن شمعدانات من الذهب المرصع بأفخر حجارة كريمة وفيها الشموع موقدة ولما وصلن إلي سلمن على أما انا فتعجبت من هذه الحال وقد رأيت البنات يلبسن افخر الثياب وانفسها وعليهن من الحلي والجواهر ما يبهر الناظر وقلت في نفسي أليس كل

هؤلاء أتباع الصبية التي كنت عندها وكم يا ترى من الجوارى فى خدمتها وبين يديها مع أن كل واحدة من تلك الألوف من البنات كانت كافية لأن تسبى عقل أعظم عابد وأفضل زاهد وفى الحقيقة فقد كن برتبتهن نخبة ممتازة من الجمال والكمال وهذا كان يزيد فى حيرتى وقد اختلط بينهن البنات اللاتي أتين بى ولما دخلت الصيوان انبهر عقلى وزاد اندهاشى من حسن ما رأيت فيه من الفرش الفاخر الذى لا نظير له ومن الاوانى الذهبية المرصعة وعلى الاخص من السرير وما عليه الجواهر والحجارة الكريمة وكنت حين دخلت من الباب تقدمت منى البنت التى جاءت بى إلى السرير وأنا على تلك الحيرة فجلست عليه وجلست الى جانبى ووقفت الجوارى صفوفا حولنا ينتظرن الامر منا وحينئذ كنت أعجب من أمري ومن الحالة التى أنا فيها ومن تعجبي هذا كنت متحيرا ومع تحيرى كنت تائها وفى حالة جنونية وعلى الخصوص لما أمعنت النظر فى الصبية التي الى جانبي وتأملت محاسنها وأوصافها وهى لا تختلف فى شيء عن محاسن وأوصاف الصبية التى كنت أجالسها وأداعبها وحرت فى نفسى بالعجب هل أن فتاتى التى أحببتها هي هذه وقد غيرت ثيابها لتمتحنني وجعلت أدقق النظر في وجهها وأمعن فيه لأحقق الخبر اليقين مع أنى كنت كمن ينظر الى القمر بعد نظره فى الشمس والذى لاح لى أخيرا أن هذه الصبية فتانة بديعة المحاسن ليس لجمالها مثال لكن لم تكن فى درجة تعادل فتاتى التى أحببتها . ومع أن قلبي كان مولعا بتلك وعقلى مشتغلا بها لم أجد بدا من الانعطاف اليها فكنت ألاعبها وأداعبها وأبتسم لها فكانت أيضا تحادثنى بلطيف كلامها وما أظهرته لى من الحب والعشق فكانت تعانقنى المرة بعد الثانية فأقبلها وتقبلنى حتى ملت اليها كل الميل واشتد بى الوله والوجد فأشرت الى البنات أن يخرجن جميعا فخرجن فى الحال ولم يبق داخل الصيوان الا أنا والصبية واذ ذاك نهضت الصبية فأحضرت الشراب وناولتني من يدها فشربت وشربت وعانقتنى وعانقتها ثم نزعت عنها ثيابها وجلست الى جانبي ووضعت الشراب أمامها وصرت أشرب وأعانق وأقبل وأرشف وأمتص حتى بلغ السيل الزبى ودارت الخمرة في رأسي من جديد وغبت عن الوجود وفى الحال نزعت ثيابى وضممتها الى والتصقت بها التصاق اللام بالالف وأزلت بكارتها وصرفت باقى ليلي معها بلذة لم أذق مثلها طول عمرى وحاصل الامر أنى نمت مع الصبية حتى الصباح وكان جسمها أطرى وأنعم من الحرير

ورائحتها أزكى من الند والعنبر وقد ذممت الليل على سرعة رحيله وتمنيت لو أنه دام وعند انبثاق الفجر نهضت الفتاة قبلى فجعلت تفرك يدى ورجلى وتروح لى ونهضت أنا أيضا ولما رأتني جالسا عادت فعانقتنى وعانقتها وأخذنا بالمداعبة والملاعبة كالسابق ولما بان نور النهار جيدا أخذتنى من يدي فأوقفتني وألبستنى ثيابى بيديها وقادتنى الى خارج الصيوان واذا بصيوان آخر محاذى للذى كنا فيه فدخلناه وقد تهيأ فيه الحمام بتمامه أى الماء الحامي والطاسات المرصعة بالماس وكل الاوانى من الذهب المرصع والصابون الذكي الرائحة فنزعت عنى ثيابى وأخذت الصابون والماء وبدأت تغسل فى جسمى وأنا فى نعيم زائد حتى فرغت وبعد ذلك أحضرت لى ثوبا ملوكيا فألبستنيه ولبست ثيابها ووضعت يدي فى يدها وخرجنا من الحمام الى الصيوان الذى كنا فيه أولا فأجلستنى فيه وسقتنى كأسا من الشراب المنعش ثم تركتنى وذهبت لتغتسل بدورها .

وأما أنا فبعد أن جلست وحدى قليلا نهضت وقصدت الخروج من الصيوان وذهبت الى تلك الحدائق والخمائل القريبة مني وأنا أفتكر فى نفسى وأقول عجبا يا ربى ماهذه الاحوال اذا كانت رؤيا فأنا لست نائما واذا كانت سحرا فما من دليل على ذلك فامنن على يا رب بأن أبقى طول العمر فى هذا المكان على هذه الحالة ولكن سهل لى الوصول الى نول المراد من تلك الصبية ملكة البنات وزينتهن .

وبعد أن طفت نحوا من عشرة دقائق عدت الى الصيوان وفى ظنى أن الفتاة تكون قد فرغت من الاستحمام وعادت اليه ولكن واأسفاه فانى لم أر صيوانا ولا فتاة ولا أثرا لكل ما هناك فخففت الى الجهة الثانية حيث كنت فى أول الليل فلم أر أحدا ولا رأيت بناتا ولا سريرا ولا فتاة ولم أر غير الاشجار والأثمار التى كنت رأيتها أول وقوعى فى تلك الارض فلحق بى اليأس والحزن وجعلت أبكي كما تبكي الاطفال وقد مر على ساعات وأنا على تلك الحالة .

ثم قمت من مكانى وأخذت أطوف فى تلك الارض كالمجانين وأناجى نفسي قائلا أين يا ترى أجدهن والى أى مكان ذهبن وهل يا ترى يسمح الزمان فأشاهد تلك الصبية التى أحبها قلبي وأسرت لبي وتركتنى صريعا لا حراك لى وكلما لاح شخصها أمامي بكيت وذرفت الدمع مرارا ومضي أكثر النهار ولم أذق طعاما ولا مددت يدى الى ثمرة وأخيرا انتهيت الى شجرة كبيرة ممتدة الأغصان

فجلست تحتها وكان التعب قد أوهنني والنعاس تغلب على لأني لم أنم فى الليل الماضي فارتميت فى الارض حزينا كئيبا عاشقا مؤلعا تعبا جائعا وفى الحال علا غطيطي ولم أعد أعي على شيء ولا أرى شيئا ولكنى كنت أحلم بمن أحببتها وقد زارني شخصها فانعطفت عليه وأخذت أقبلها وأنا غارق فى بحر طام من اللذة والفرح .

ولما استيقظت وجدت نفسى منفرداً فتكدرت وحزنت وكانت الشمس قد قاربت الغروب فقمت من مكانى وقلت فى نفسى ربما كانت عادة البنات أن يذهبن فى الصباح ويأتين في المساء فمن اللازم أن أرجع إلى مكاني الأول قبل أن يقبل الظلام فأسرعت العودة حتي وصلت إلى مكان الماء فغسلت يدى ووجهي ورأسى ورجلى فشعرت ببعض الراحة وشكرت الله تعالي وجلست أنتظر الوقت الذى كانوا قد جاءوا به فى الليلة الماضية وكانت الدقائق تمر على أطول من السنين والأعوام ولما كان الوقت شعرت كاليوم السابق بنسيم خفيف لطيف ثم رأيت غيمة بيضاء فى الأفق وقد أخذت تقترب وتمتد وتنبعث عنها الروائح العطرية . وحينئذ تيقنت من إتيانهن فصفقت من الفرح وكدت أطير وتصورت فى ذهنى للحال ماسيكون لى من الحظ والانشراح فى هذه الليلة فحسبت نفسى كأنى قد ملكت الدنيا برمتها .

وأما البنات فبدأن بالورود أفواجا أفواجا كما فعلن فى اليوم السابق وأخذن فى الفرش والبسط وتهيئة المكان وبعد أن فرغن من عملهن هذا نصبن السرير فى الوسط ووقفن ينتظرن سيدتهن وإذا بالمشاعل قد ظهرت من بعيد وسطعت أنوارها فى تلك الضواحى فبدأ قلبى يخفق وأملى بالسعادة يتحقق واصطف البنات على الجانبين ثم وصلت سيدتهن وجلست على السرير وأخذت كل واحدة من البنات مكانها كاليوم السابق وأخذ بعضهن فى الجلوس حول السرير والبعض فى الخدمة والبعض يحملن الشموع ولما انتظم مجلسهن اقتربت من السرير غير هائب ولا خائف لأن اقبال الصبية على ومؤانستها لى فى الليلة الماضية قوى قلبى وجرأنى على ذلك . وما رآنى البنات حتي نهضن جميعهن وقوفا وتقدمن لاستقبالى وكذلك السيدة الباهرة فانها نزلت عن سريرها وأخذتنى من يدي ورفعتني إلى جانبها . وكنت أشعر من نفسى مع ما أنا حاصل عليه من الاكرام والاحتفال بى بضيق صدر وانقباض نفس لسبب انفصالها عنى فى اليوم الأول

وبعدها عنى مدة ساعات مع انها عاملتني فى هذه الليلة بأكثر مما عاملتنى به فى الليلة الماضية من اللطف والمؤانسة والتحبب . وقالت ان شاء الله تكونين قد سررت فى ليلتك الماضية ثم دعت البنت التي قضيت ليلتي معها وقالت لها انظرى ان ضيفي الكريم لم يكن مسرورا من مبيته معك أمس فما هو السبب ؟ .

فلما سمعت البنت كلامها بهتت وتغيرت حالتها واصفر وجهها من الخوف ثم احمر من الخجل وكادت تختنق وأخذت ترتعد وترتعش . فلما رأيت ماحل بها من الخوف والرعب تأثرت كثيراً فقد أدركت الأمر فقلت للسيدة كلا يا سيدتى ومالكتي فقد سررت جدا منها وبت فى حظ وانشراح صدر عظيمين ولذا تريننى ممنونا للغاية .

فلما سمعت كلامى قهقهت ضحكا وقالت لى مادمت تشكر لها وتظهر الامتنان منها فقد عفوت عنها ثم ضحكت أيضا وكل منا ناظر في وجه الآخر وكانت وهي تضحك من شفتين رقيقتين مرجانيتين بهما صفان محبوكان بانتظام وترتيب كاللؤلؤ فى أسلاك من الفضة وأخذ عقلى فى الضياع والانشغال وقد فهمت أن ضحكها من الفتاة كان لسبب ما وقع بيننا فى الليل الفائت ، وقد عادت بحالة الخجل والحياء الى مكانها أما أنا فلم أعبأ بذلك بل كان همى وشغلى معشوقتي والنظر اليها والاهتمام بما أناله من السرور والحظ بها ومعها وقد عدمت الصبر وخانني الجلد فكدت أقع من مكانى ، وفى تلك الأثناء أحضر الطعام فأخذتنى من يدي وأجلستنى على المائدة الى جانبها وبعد أن فرغنا من الطعام وعدنا الى السرير بدأنا بالمصاحبة والمداعبة .

وأما البنات فبعضهن أخذن آلات الغناء فضربن عليها وهن يغنين بالأصوات الرخيمة التى تفتن العباد فى المحاريب وبعضهن قمن للرقص وهن كاشفات عن سيقان كأغصان البان الى حد أكعابهن وكاشفات أيضا صدورهن إلى تحت نهودهن فكانت الأنوار تنبعث عما بان من أجسامهن الصافية الشفافة وبعضهن كاشفات أيضا عن زنودهن البلورية وبأيديهن الشراب يطفن به وما زلت فى عالم التيوهان وأنا على تلك الحالة الى أن تنصف الليل فوضع المغنيات من أيديهن الآلات وكذلك الراقصات جلسن للراحة بعد أن أبدين من أنواع الرقص العجيب المبدع .

وفى الحال أبدت لهن الصبية اشارة فقمن جميعا وابتعدن عنا وصرن يتمشين

فى ناحية اخرى ، فكدت أطير من الفرح والسرور لظني أن الفتاة أبعدت البنات لتخلو بى ويصفو لى بها الزمان وما ظننت فقط بل تأكدت لأنى اغتنمت فرصة تلك الخلوة فضممتها فى الحال وأخذت أقبلها وأضع فمي على شفتيها الورديتين فأمتص منهما أشهى من العسل وألذ من جني النحل فلا أعلم أعسلا كنت أمتص أم سكرا حلوا لذيذا أم شيئا آخر لا أدري كنهه ولا أعرف وصفه إذ لم يكن قد جاد على الزمان بما يشبهه أو يقرب منه وكنت أعيـــد الكرة بعد الكرة والمرة بعد المرة ثم أقبلها فى كل أقسام وجهها فى عيونها وجبينها وأنفها وحاجبيها وخديها وشفتيها وفمها وعنقها وصدرها ... ولا أعلم أين ... وقد عدمت الصبر والجلد و ..... لم يبق لى صبر ... وان كان أحد يدعى الصبر فليجرب فقد وجدت معها على خلوة وتركت لي نفسها ولم تمانع فى العناق أو التقبيل وكل أنواع الدغدعة والمداعبة ... فهل ياترى لا تطلب نفسى الغاية التى بعد ذلك ولا تطمع فى النهاية . ومن يلمنى ويقول لى اصبر أوتأن فهو عدوى أو متعصب على . أو يكون قلبه قد قد من صخر أصم أو هو جاهل لا يعرف العشق ولا حالاته .

وأما الرجل الذى يشـــفق على ويعذرنى فيكون منصفا عالما بحال الحب واجتماع الأحباء ، ومع ذلك فأيا ما كان حجرا أو صخرا أو حديدا فلن يقدر أن يصبر أكثر مما صبرت ولو اجتمع بتلك الفتاة الباهرة الأوصاف أزهد الزاهدين وخلا بها أعظم العابدين لافتتن بجمالها ووقع أسيرا في شباكها ولم يتحمل الصبر عن وصالها كما صبرت ولكن أخيرا عجزت عن الصبر ولم يعد فى قوتي احتمال ولا جلد فملت الى ما يميل اليه كل بشر بعد أن سكرت من خمرة الحب وحركتنى كثرة الضم والتقبيل الى أن أمد يدى الى ما تحت السراويل .

إنما الوصـــل للمحبة شاف مثل ماء يصب فوق الحريق

ولما رأت الفتاة أننى عدمت الصبر ووصلت الى الدرجة الأخيرة من المداعبة والهيمان تبسمت في وجهي بعد أن أمسكت يدى وقالت صبرا يا حبيبي لا تكن عجولا بهذا المقدار فاذا كنت لا تصبر تندم فيما بعد فالتأنى لازم فى كل شيء أما أنا فلم ألتفت الى كلامها بل قلت لها أواه ياعيونى وحياتى ونور قلبي هيهات أن أقدر على الصبر لا والله .

كيف اصطبارى والهوى فى أضلعى يسرى فما منـــه مكان قد خلا

مع أن من أحببته أحظي به فمشاهدا ومعانقا ومقبلا

أواه يا حبيبتي كيف العمل ليس الأمر في يدي فانك بدر ساطع وغصن يانع بل ملاك لامع وأطوارك وأخلاقك ألذ من المن والسلوى فتداعبيني وتلاعبيني وتخلين لي المكان ولا تمنعيني من الضم والتقبيل والعناق والارتشاف ولو طال بي المدى وامتد بي الأمد ولما تلتهب نار فؤادي ويشتد بي الوجد تمانعين وتطلبين إلى الصبر .

لو قلت للقلب صبرا في محبتها لما أطاع فان الصبر يضنيني

ويلي إذا لم أنل ممن سحرت بها وصلا من السقم يشفيني ويحييني

فاكراما لمجد الله ارحميني أشفقي على لا تظلميني فاني في حالة يأس فخلصيني برقة قلبك من هذا العذاب الذي وقعت فيه فلم يبق لي صبر ولا جلد أو فاقتليني الآن لأن روحي في يديك وماذا يجري لو سمحت لي بوصلك يا روحي ومنيتي فلماذا هذا التمنع وهذا الظلم .

فلم تتأثر الفتاة أصلا بل تبسمت في وجهي تبسم الدلال والفتنة كعادتها وقالت لي كلا .. كلا .. لقد أفهمتك من الليلة الاولى . بلزوم الصبر والتأني فلا تتخل عن العين العذبة وتطمع بنقطة من الماء ولا تضع خزينة من الجواهر وتسعى خلف دينار زائف . فقلت ماهذا الكلام لقد أشعلت نار الحب في فؤادي وأحرقت بالهوى حبة قلبي .

ثم تقولين لي تصبر وتحمل . وهل يمكنني الصبر أو التحمل هلمي أنصفيني ولا تلقيني في وهدة الهلال . فلم تجب الا بالممانعة والمدافعة وهي تقول لي ياعيوني اصبر تحمل لقد قلت لك مرة إذا كنت لا تصبر تندم فيما بعد وإذا صبرت نلت ما أنت طالب ولا تظن اني أغشك أو أخدعك لأدفعك عني فليس من طبعي الكذب والخداع .

فلما سمعت كلامها صممت عن الجواب وبقيت محدقا فيها ثم مر علينا قسم من الليل وقد أعيد لنا الشرب والغناء ودارت الأقداح واتسع نطاق الملاعبة والمداعبة كما كنا قبلا حتى حمى الهجير وبلغ بي الحد الدرجة القصوى فعدت الى الالتماس والرجاء بالسماح لي بوصلها . وإذ ذاك أشارت الى احدى جواريها بالدنو مني فدنت وأمسكت بيدي وأخذتني معها الى صيوان كالصيوان الأول كامل النقش والتزيين وبه كل أسباب الحظ يقوم بخدمته مئات من البنات عليهن من الجواهر

مالا يحصى قدره ولا يقدر ثمنه وأخذت الجارية تداعبني وتضمني وتسقيني
تميل فكري اليها وأنا غائب الحس فاقد الرشد وأخيرا أجبتها إلى طلبها ممتثلا
لقضاء الله ومن بعد المداعبة دخلت سرير النوم وباشرت معها مايباشره كل رجل
لو وجد على فراش واحد مع فتاة تسلب القلوب وتسبي الألباب . وهذه أيضا
وجدتها بنتا بكرا فأزلت بكارتها وبقينا نتقلب على بعضنا إلى أن لاح الصباح
فقادتني الى الاستحمام . فغسلتني بيديها وطيبتني بأزكي الطيوب رائحة وألبستني
ثيابا أبهى وأجمل مما قد لبسته في اليوم السابق وقادتني إلى الصيوان وعادت
لتستحم وفي هذه المرة لم أطلب الخروج إلى خارج الصيوان وقلت في نفسي أمس
خرجت من الصيوان فأختفي فاليوم لا أفارقه لأرى ماذا يصير واتكأت على السرير
فأخذتني سنة من النوم على غير علم مني فغرقت في سبات عظيم ولم يمر على ساعة
حتى فتحت عيني ونظرت إلى ما حولي وأمامي فلم أر لا صيوانا ولا بناتا ولا
شيئا مما كان قبلا بل رأيت نفسي فريدا وحيدا على الارض فاغتظت من نفسي
وتكدرت من عمل البنات معي وعلى الخصوص عندما تذكرت الصبية حبيبتي
ومانلته منها من ضم وشم وعناق ورشف فتساقط الدمع من عيني مدرارا دون
إرادتي ومع انني كنت على يقين من أنها ستأتي مع جواريها في المساء لكن كنت
في حالة يأس وحزن وكانت الدقائق تمر على أطول من السنين ولذلك كان فراقها
النهار بطوله كمائة سنه في تقديري وصرفت النهار على ماتقدم في اليوم الاول وعند
المساء أقبل البنات كالعادة وبينهن محبوبتي البدر الفاضح والغصن المائل وحالما
رأيتها في حالة العز والسلطة وقد انبعثت أنوار جمالها على تلك الضواحي غاب
عقلي فوقعت إلى الارض لاأعي شيئا ولما فتحت عيني وجدت نفسي على السرير
وبجانبي تلك التي لم يعد يطيب لي عيش إلا بقربها وقد مدت يدها تحسس بها
على وجهي ولما شعرت بنعومة يدها وطراوتها قبلت يدها ونهضت من مكاني
مخجولا فقالت لي ماذا جرى عليك ياروحي وما هذه الحال التي أنت فيها
فأجبتها بأن صبري قد فرغ وضاقت بي الدنيا لطول الفراق فبقيت أنتظر بفروغ
صبر حتي رأيتك وأنا غير مصدق فحملني الفرح على أن أغشى على فأسعدتني
بلطفك وأعدت الي الحياة فارفقي بي واشفقي على ولا تكوني سببا لموتي وإذا
كنت لاتشفقي علي وترحميني فاتقي الله وراقبيه في .
فلما سمعت الفتاة كلامي قبضت على يدي في الحال وقبلتني في وجهي وجعلت

تقول لى ياحبيبى لاتتكدر فانى أحافظ على راحتك وأحب أن لا تكون فيما بعد نادما وأنظر كم أنت تحبنى الآن فانى أحبك بأكثر مما تحبني فلا تتوهم أنى أغشك أو لا أحبك كلا لكن فى ذلك سر وحكمة فاذن لا فائدة بغير الصبر والتأنى ويمكنك أن تصرف وقتك معى على الحب والعشرة والضم والعناق والتقبيل إلى حين حلول الوقت وإذ ذاك لا أمنع عنك ما أنت طالبه ثم انها اعتنت بتسليتى وتصبرى ومر الليل على كما مر فى الليلتان الماضيتان وقد أنهيت ليلى بوصال بنت بكر من هاتيك البنات وقد تنعمت والتذذت كثيرا ومع كل ذلك فان كل قلبي وفكرى مازال معلقا بصبيتى ومالكتي وكانت كلما مانعت فى وصالها كلما زاد قلبي تعلقا بها حتي أصبح خيالها نصب عينى لا يفارقنى فى طول غيابها دقيقة واحدة . فوالهف قلباه على تلك الشمائل وذاك الجمال الباهر .

(وحينما بلغت الجارية ذات الثوب الأسود التى كانت تتردد علي والدتى حين صباى إلى هذا الحد من الحكاية التى كانت تنقلها لى قالت لوالدتى وحينئذ أغمي على الملك عندما انتهى به التذكر إلى حده الأخير ووقع الى الأرض والجارية أيضا بكت وأنت بينما كانت والدتى مصغيه اليها متعجبة من هذه الحكاية ولذلك سألتها برجاء أن لا تقطع حديثها :

ولما وصلت نور بنت ملك الهند صاحب الاقليم الأول الي هذا الحد من الحكاية سكتت وكان بهرامشاه وهو يسمع من زوجته الأول حكايتها متعجبا للغاية وحيث إن الحكاية أثرت فيه جدا فقد ازداد مقام نور فى عينيه وتضاعف حبها فى قلبه فضمها اليه وقبلها ثم أمرها باتمام الحديث . وبعد أن دعت له بدوام العز وطول العمر قالت :

نعم يا ملكي ويا بهرامى المحبوب ان والدتى أيضا لما وصلت الي هذا الحد من الحكاية رأت الدموع تتساقط من عينيها كالمطر فتعجبت وسألتها عن ذلك فقالت لى اني أبكى لأمرين .

الاول : من حيث أن تلك الجارية ذات الثوب الأسود كانت صاحبة وفاء عظيم وتحب الملك كثيرا ولذلك كلما خطرت فى خاطرها حكاية الملك تتأثر من حاله ودائما تبكي ولأجل تأثيرها هذا أبكي أنا .

و الثانى : عندما أفتكر أن ذاك الملك من بعد أن لاقي ما لاقي من المحن والمشقات توهم صفاء الزمن وفيما كان على وشك الحصول على وصل الفتاة لم يساعده الدهر

بل إنهما بعد أن ابتليا بالحب وتعشق كل منهما الآخر وأصبح الملك عاشقا مولها الى درجة لا يصعب عليه فيها ضياع روحه فى سبيل رضى محبوبته رمى بالهجر والفراق دون أن يحصل على غرض أو يشفى له مرض من وصل تلك الفتاة فبقى على الدوام محزون الفؤاد وهذا أيضا يبكيني .

فرجوت والدتى ان تتم الحكاية لأنى عندما سمعت منها هذا الكلام تاقت نفسى لأعلم كيف انفصل عن الفتاة دون أن ينال منها وصلا .

فعادت والدتى لاتمام الحكاية فقالت لى ولما انتهت صاحبة الثوب الأسود الى هذا الحد اختنق صوتها من كثرة البكاء فسكتت وبعد سكوت نصف ساعة من الزمان أخذت فى أن أرجوها باتمام القصة مسلية اياها على مصابها وحينئذ عادت فقالت بصوتها الضعيف .

أواه مما أصاب ذلك الملك الحزين فانه عندما وصل هذا الحد من الحكاية وقع الى الارض مغشيا عليه ففي الحال أخذته بين يدى ووضعت رأسه على ركبتي وجعلت أصب فى فمه المنعشات وأفرك يديه وبطون رجليه حتى فتح عينيه وقال لى .. آه — إنك أنت التي أهجت حزنى فهل ظننت أن مابى أمر سهل ففي الحال رميت بنفسي على رجليه أقبلهما وأجتهد فى تسليته وتعزيته وكنت فى شوق زائد لاتمام الحكاية وبعد أن هدأ باله واستجمع حواسه عاد إلى حديثه فقال :

نعم الى هذا الحد انتهى بي العشق والوله بفتاتى الملكة المحبوبة وانقضت معي الليالى الثلاث على ما تقدم كما انقضت الليالى الثلاث فكذلك انقضت الليلة الرابعة وعندما استيقظت فى الصباح لم أر أثرا للبنات ولا للصواوين ولا لكل ما كان مشهودا ومنظورا لى فى الليل . ومع أنى كنت أجتهد فى الوقوف على حقيقة هذا لكن عبثا كان كل اجتهادى .

ولما نهضت فى اليوم الرابع ولم أجد أثرا للبنات أخذت فى التطواف فى تلك الأطراف وأنا فى حالة حزن وملل ثم جلست تحت شجرة عظيمة هناك وأخذت أستعرض حالى ولم أذق فى ذلك اليوم شيئا لأن نفسي عافت الأكل ولما رأيت انحطاط نفسي الى هذه الدرجة قلت ماهذا يارب أسألك الرحمة فلا تتركنى بعد أن وصلت إلى هذه الدرجة من اليأس . . . فلأي شيء تعاملني هذه الفتاة بقسوة وتنسحب ولماذا تشوقنى وترغبنى فيها ثم تحافظ على الاحترام والاعتبار ومن

أى شيء أيضا يخيفنى وما الذى يمنعها من السماح لى بالوصال بل كلما سألتها فيه تطلب إلى الصبر والا أندم فيما بعد هى تعدنى ولا أظن فيها الكذب فلا بد من الوفاء واذا كان لا بد من الوصال إيفاء بالوعد فلماذا التأخير وبعد الفكر والتأمل فى ذلك قت إذا كان الدهر الغدار يرى أن هذا غير موافق لى فكيف يمكن له أن يساعدنى .

أواه منك أيها الدهر الغادر الظالم لقد ضيعتنى ولا ذنب لى وعاندتنى وأنا أطوع من بنانك ولكن لا لوم عليك فهذا فعلك وصفتك أيوجد فى الكون واحد قد سره الدهر ولم يعضه بنابه ولكن :

هي الأمور كما شاهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان

أواه منك يا دهر فالخيانة صفتك والظلم طبيعتك وأنت عديم الرحمة ، ما هو المصاب الجديد الذي تهيئه لى فى الغد لتصب جامه على رأسي أما كفي ما جرى وما أوصلته الى من الأحزان .

وبقيت جالسا تحت الشجرة حتى المساء أندب حظى وأخاف من مستقبلى المظلم وقد مر نحو ساعة من الليل وأنا أنا لم أشعر بذلك لضياع فكرى وانشغال بالى وقد جاءت البنات كالعادة واشتغلت كل واحدة بعملها ولما لم ترنى الصبية أرسلت احدى جواريها تفتش على فطافت تلك الجارية من مكان الى مكان حتى وجدتنى فى مكانى وتقول لى لقد دنا الليل وجاءت البنات وأنت تضيع الفرص ولا تحاول اغتنامها والواقع ان الحب شيء عجيب والقلب اذا ربط بشيء رباطا حقيقيا لا يحول من ذلك الشيء ولو ضربت الدنيا وعلى ما أظن لا يقدر أحد أن ينكر ذلك على العاشق لان العزل والعتاب واللوم يزيده تولها بالمحبوب وتعلقا فيه

واذا تألفت القلوب على الهوى   فالعزل ضربك فى حديد بارد

وأخيرا فان البنت التي كانت تفتش على وجدتنى ولما رأتنى على تلك الحالة دنت منى وأنهضتنى وأخذت بيدى وقالت لي ماذا دهاك يا حبيبى فاذا كنت ونحن حولك وفي خدمتك نأتيك في المساء ونبيح لك نفوسنا كل الليلة وأنت على هذه الحال فماذا يجرى عليك لو انقطعنا عنك فانهض وشد عزمك واغتنم فرصة الملذات ولا تتظاهر بالضجر والملل أو تبدي اشارات عدم الصبر والقلق فأنت فى نعمة لا تعرف مقدارها إلا إذا فقدتها .

فلما سمعت كلامها مشيت معها حزينا حتى وصلت إلى الصبية مالكة قلبي

ولي فلما رأتني هذه نهضت من مكانها وتبسمت لي ودعتني اليها وقالت اقترب مني ياضيفي العزيز لاتكن حزينا هذه الليلة الخامسة ولم يبق الا القليل ولا بد أن أنتشلك من وهدة أحزانك وأكدارك . فدنوت منها وجلست الي جانبها فضمتني الى صدرها وأبدت لى من الالتفات والاعتناء كسابق عاداتها ما أنساني همومي وغمومي وعدت الي البسط والانشراح ثم أمرت بأن يقدم لي كأس من المنعشات فشربتها وهي تزيد فى اكرامي وانبساطى حتى تهيأت مائدة الطعام فجلسنا حولها والبنات فى خدمتها وفتاتى البديعة تطعمنى اللقمة بعد اللقمة وهى لا تنفك عن إبداء كل ما يسرنى حتي انتهينا من الطعام ورجعنا الي سريرنا وطافت بنا جيوش الحظ والمسرات من كل الجهات وإذ ذاك أخذنا فى المداعبة والمصاحبة والمعانقة والتقبيل وقد انفرج عن قلبي كل ما لحق بى من الحزن واليأس في نهارى حتى ولو كانت أضعاف ماهى بألف مرة لذهبت من قبلة واحدة أو نظرة فى وجهها الجميل فكم بالحرى وقد حصلت على مائة صنف وصنف من القبلات والضمات والعناق والدغدغة والتمرغ والمص والرشف والاستنشاق الى غير ذلك مما أبيح لى اغتنامه وهي لاتبدي ممانعة ولا مدافعة فى أمر من الأمور فكنت كأنى موجود فى قلب السرور محافظ على بحرص زائد حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد تركنى فى هذه الدنيا بغير غم ولا هم كيف لا وأنا محاط ببدور من الجواري تفوح منهن الروائح الذكية وكلهن فى خدمتى بعضهن يعاطينى المدام وبعضهن يغني لى وبعضهن يرقص وبعضهن يضرب على آلات الطرب وأمامي وإلى جنبي سيدة الجواري وملكة الجمال قد طرحت ثيابها ولم يبق عليها الاقميص ناعم من الاطلس البديع وقد ظهر لعينى جسمها الناعم بهيئة غريبة ولا أعلم بماذا أشبهه لأن لا شيء فى الدنيا من الموجودات يشبهه فكنت أقبلها فى عيونها وجبينها وخدودها وفمها وعنقها وأمرغ وجهى بين نهديها وأمتص المرة بعد الثانية من فم القمقم كل ماوقع فمى عليها كل هذا ويدى تجول من مكان الى مكان وتنتقل من المصاطب الي الأركان .... وهى لا تبدى ممانعة أو مدافعة تاركة نفسها بين يدى وبدورها كانت تقبلنى وتضمنى الي صدرها وتعانقنى مظهرة نحوى كل شغف ووله فماذا ياترى تطلب النفس وقد حصلت علي مثل هذه الأمنية العظمى نعم انها كانت تطلب الوصال ونيل المنى ولكن هكذا كانت الحال ولما كنت أصل الي هذا الحد من الحظ والحرية أري نفسي قد بلغت المرام ولم يبق بيني

وبينه الا حل تلك العقدة فواحسرتاه فانها عقدة لا تحل . فكذلك قد ختمت ليالي هذه كغيرها من الليالى التى مرت لى معها فانى عندما بلغ الغرام منتهاه ولم تعد تصبر نفسى عن زيارة الامام سلمتنى الى احدى البنات البديعات فقادتنى الي السرير المعتاد وصرفت الليل معها أتلذذ بوصالها عند الصباح دخلت الحمام واغتسلت ولبست أفخر الثياب وكنت فى كل صباح ألبس ثوبا أفخر من الثوب السابق ويختلف عنه فى كل أنواعه وكذلك بعد أن غاب عنى كل شيء كنت أتمشى فى الحديقة على ماسبق وصفه وكان كل يوم يمر على من الايام الخمسة أحسبه أطول من سنة .... ولى الحق فى ذلك .... وأقسم بالله العظيم أن لي الحق فى ذلك وأيضا جاءت الليلة السادسة وتهيأ لى ذلك الحظ. وكان زائدا عن كل ليلة مرت فتوغلت بالمسرة وقد رميت بنفسى على الصبية وسألتها الوصال وقلت لها ارحمينى يرحمك الله اشفقي على رقى لمصابى فقد زاد بى الوجد عن الحد حتى لم أعد قادرا على التحمل وربما أقع مائتا من التمنع والمطاولة والمماطلة فلا تظلمينى وعامليني بكرمك ولطفك فكان جوابها كالسابق أى أن ضمتنى إلي صدرها وجعلت تقبلنى وتلاعبنى وتقول لى صبرا ياحبيبي فمن الواجب عليك أن تتحمل وتصبر والا فانك تندم فيما بعد حيث لاينفع الندم فتسل الآن بما لديك من أسباب الحظ فها أنا بين يديك فضمنى وشمنى وقبلنى مهما شئت وهاك البنات بين يديك وفى خدمتك وتحت أمرك فاشغل نفسك بالرقص واستماع الأغانى وشرب المدام ولا تكن لجوجا فان اللجاجة عاقبتها الخسران والنهاية فانى عدت الى ما كنت عليه فى الليلة السابقة حتي تنتصف الليل واشتد بى الوجد فدعت فتاة بكرا وأمرتها أن تسوقنى الى الصيوان فأظهرت فى الأول ممانعة وقلت لها لا أذهب الا معك فهشت وتبسمت ورجتنى أن أجيب طلبها فانقدت صاغرا وأتيت الصيوان مع الفتاة الجديدة وكنت غائبا عن الصواب من شدة هيامى وغرامي بالصبية وان كنت أتلذذ بالبنات لكن عن غير رغبة ولا ميل ولهذا كان يقل نومى وتكثر أفكارى وأقول الى متى تحيط بي السعادة التامة فيضمنى السرير ومن أحببتها وتنطفي النار المتأججة في الضلوع وكان باقى ذلك الليل أطول من الليالى الست الماضيات

ولما جاء النهار وغاب البنات وكل مافى ذاك المكان جعلت كعادتى أتمشى كالمجانين من هنا الى هناك ومن هناك الى هنا لا أعلم ماذا أعمل وأخذت أخاطب

والشمس وأسألها سرعة المسير والعجلة ليقبل المساء وارتميت أخيراً تحت شجرة أنام في ظلها ولكن أين النوم وأين الراحة فاني لا ألبث أن أغمض عيني حتى يفاجئني شخص الحبيب فأنهض مرتاعا وأري نفسي منفردا على بساط الارض فتتراكم على الهموم ويزيد بي الوجد المبرح فأجلس أناجي نفسي وأندب حظي .

ولما قرب المساء نهضت من مكاني وذهبت في الطريق الذى يأتي البنات منه أنتظر ورودهن ، وعندما حان الوقت المعين ظهرت المشاعل بأيديهن فأسرعت لملاقاتهن وأخذت احدى الجوارى احدى قوائم السرير التي كانت تجلس عليه معشوقتي البديعة ومشيت مع الجوارى وأنا في نهاية الحظ والانشراح حتى وصلنا الي المكان الذى نجلس فيه فمددنا البسط وهيأنا السرير وباقي المفروشات ولما رأى البنات عملي واهتمامي ضحكن ضحكا عاليا واستحسن عملي وأحببنه ومن ثم لاحت لنا المشاعل أيضا مقبلة نحونا فطرت لاستقبال من خلفها

ولما رأتني الفتاة على تلك الحالة أظهرت المسرة والانشراح وأخذت بيدى ومشت وأنا إلى جانبها والبنات يسرن خلفنا جماعات حتي وصلنا من السرير فجلسنا عليه وبعد بث لواعج الغرام وإبداء ما لحق بي من الوجد والهيام واجراء السلام بالتقبيل والعناق أمرت باحضار الطعام فنهضت اليه وأكلنا كسابق عادتنا ثم عدنا إلى مراكزنا وابتدأت الملاعبة والمداعبة وما لبثت أن بدأت نار الوجد تشتعل بي فمالت الى الصبية وقالت لي حذار لا تدن مما لا أسمح لك به وإلا ندمت غاية الندم وخسرت الخسارة العظمى .

فقلت لها يا حياتي وروحي ومنتهى أملي إني لم أدن مما لم تسمحي لي به من قبل والآن أرجو كي أن تسمحي وتتكرمي فقد نفذ صبرى ولم يبق لي طاقة على التحمل فهل لا تزالين تقولين لا أسمح . وفي الحال أخذ جسمي يضطرب من رأسي إلي قدمي وتحيرت ماذا أعمل من الحسرة واليأس وتبدل لوني فصرت أصفر كالزعفران ودخلت في مصاف الأموات . ولما رأتني الحبيبة على هذه الحالة أخذت تلاطفني وتؤانسني وقد ضمتني إلي صدرها وقالت لي لقد صبرت يا حبيبي ستة ليالي فماذا يجرى عليك لو صبرت هذه الليلة أيضا . فقد قيل ان في التأني السلامة وفي العجلة الندامة .

فقلت لها إني لأعجب من حالتي معك أنظرى نشاطى في الليلة الماضية وقابلية

بحزنى فى هذه الليلة . ففى الأول تريننى أضحك قليلا ثم لا ألبث أن يتبدل ضحكى بالبكاء أرى نفسي فى حظ ومسرة لكن ذلك الحظ وتلك المسرة ينتهيان باليأس والكآبة والحزن فكأنك تدفعين بى إلى الموت ثم تنتشلينى منه مع أنى أرى نفسى سائرا اليه بسرعة البرق فارحمينى تنالين الثواب من الله تعالى فقالت لى قلت لك يا حبيبى صبرا وأنت قليل الصبر مع أن لا بد لك منه . فقلت صبرت حتى فرغ الصبر وأضرم بى الصبر نارا لا تطفى الا برضاك وقبولك صبرت ستة أيام فافتكرى كيف كانت حالتى فيها أتظنين أن الصبر وأنا فى هذه الحالة أمر سهل فياليتنى أنا مكانك وأنت مكانى لتعرفى صعوبة الحالة التى أنا فيها الآن فما هي الوسيلة إلى رضاك على لا أعلم

فلما سمعت منى هذا الكلام أطرقت رأسها إلى الارض مفتكرة فكنت أمعن النظر فى وجهها ، وما كنت أميل بنظري لحظة عن ذاك الوجه البديع فكان لونها يحمر شيئا فشيئا ثم أخذ العرق يتجدول فوق محياها الباهر ، أواه يا ربي فما أجمل احمرار خدها وما أبدع تصبب العرق فوق وجهها فكأن ندى الصباح قد تجمع فوق أوراق الورد

فلما رأيت حبيبتى على هذه الحالة لم أطق الاحتمال ففي الحال طوقت عنقها بذراعى وفيما أنا أقبلها دخل فى فمى عدة نقط من عرق وجهها المعطر وأنا أقسم يمينا أنا فيه صادق انى لم أذق فى حياتى عسلا أو سكرا لذيذا أو حلوا كهذا العرق الشهى وقلت لها وأنا أذرف الدمع من عيني بماذا تفتكرين ياحبيبتي ومالكتى ولماذا يحمر وجهك فانك تزيدين بهاء وجمالا حتى زاد اشتعال فؤادى ، الرحمة الرحمة فقد كفي ما أنا فيه ارحميني إكراما لله فقالت لى انى أفكر فيك أتوجع لأجلك فظننت أن الرحمة وقعت فى قلبها وأنها تريد الرحمة بى فقلت لها إذا كنت تتوجعين لي فارحمى ضعفي واجبرى انكسار قلبي ... فقالت لى كلا كلا إن توجعى لك هو لكوني سأفقدك قطعيا .

ولما سمعت من فمها كلمة سأفقدك طار عقلي من رأسى وقلت لها لماذا ستفقدينى إنى لا أريد أن أنفصل عنك أبدا واذا كنت تتركيننى فاننى لا أريد أن أتركك إن روحى وقلبي وكلي بأجمعى فداء لك فلماذا تكلميننى بمثل هذا الكلام القاسي قالت القصد انى لا أريد أن تبعد عنى بل أري من اللازم أن تصبر هذه الليلة عن وصالى وأن تأخذ لك احدى جواري ضجيعة فقلت لها وان كنت

لا أقدر على الصبر فسأصبر هذه الليلة أيضا ولكنني لا أريد لا جارية ولا مارية ولا عاد قلبي يطاوعني أن أنظر الي سواك

فلما سمعت مني هذا الكلام الصادر عن الحزن واليأس تبسمت وقالت اذا كان الامر كما تقول فسأعطيك هذه الليلة ما يسليك ويرضيك ومن ثم أشارت الي واحدة من الجوارى وأمرتها أن تأتيها بشيء لا أعلم ما هو وفي الحال ذهبت تلك الفتاة وعادت وبيدها صندوق وضعته أمامي فأخرجت الصبية من جيبها مفتاحا فتحت به الصندوق وأخرجت منه كتابا دفعته الى وقالت لى خذ هذا الكتاب فانه يسليك باقى ليلتك فشغل بالى لذلك وقلت فى نفسي ماذا ياتري في هذا الكتاب ومع ذلك لم ينفصل خاطرى عنها ولا مالت أنظارى عن النظر اليها بل أخذت الكتاب من يدها وأنا محدق بوجهها شاعر بلذة غريبة تتضاعف الدقيقة بعد الثانية حتى أصبحت فى حالة تصعب على أفصح فصحاء العالم أن يصف بعضها ومع ما كنت فيه من اللذة فقد كان فؤادى يضطرم بنار الوجد ويتحرق على نوال ما منع عني ولا عجب فى ذلك فان النظر لحظة واحدة فى وجه تلك الحورية السماوية يحسب سعادة كبري لكن لا ريب إذا توصل المرء للحصول على سعادة النظر المتواصل لا يعود يرى السعادة لا بنوال قبلة واستماع كلمة من فيها أو لمس يد أو ضم عنق أو خصر على انى لما كنت حاصلا من هذا القبيل على مالا حد له ولا منتهى له كنت لا اري نفسي فى سعادة ونعيم بل كنت أرى السعادة كل السعادة فى الوصال فقط

وإنى بناء على اشارتها فتحت الكتاب واذا بى ارى فى الصحيفة الاولي منه رسم حديقة بديعة مكسوة بالأشجار المتنوعة وعليها الأثمار مدلاة فوق أغصانها وجداول المياه تتجدول فى ساحتها ولما امعنت النظر فى صورة تلك الحديقة وجدتها طبق الحديقة التى نحن موجودين فيها حتى الآن بلا زيادة ولا نقصان ، وقد رسم فيها أيضا كل أنواع الأشجار والأزهار والأثمار والمياه المتجدولة بينها كله باتقان وصنعة عجيبة حتى يخال للرائي أنه لا يمكن أن تكون قد خطت تلك الصورة يد بشرية لعظم مابها من الاتقان ولما نظرت فى الصفحة الثانية وجدت صورة من يا تري وجدت صورة قمرى الساطع وبدري الطالع وغزالى الشارد صورة مالكة فؤادى وغاية قصدى ومرادى وجدتها واقفة فى تلك الروضة الغناء وعليها قميص ناعم يكاد لا يحجب شيئا من جسدها البلورى

وقد زينت عنقها وزندها ورأسها ورجليها بكل أنواع الجواهر المختلفة الأنواع حتى كانت تضيء فوقها كالكوكب الساطع وهي ما بين أبيض براق وأحمر متلالى، وأخضر ياقوتي وأزرق فيروزي متموج .

ولم تكن هذه الصورة لتخفف من وطأة غرامي او تطفيء من نار هيامي لأني عندما رأيت صورتها على تلك الحالة وشاهدت صفاء جسمها ونقاء يديها هاج بي غرامي ولم أعد قادرا على امتلاك نفسي وعلى الخصوص عند ما رفعت عيني لأقابل بين جمال الصورة وبين جمالها فرأيت كأنها قد خرجت من ذلك الكتاب بالحالة نفسها وتجسمت بصورة بشرية وصار لون الملابس التي عليها كما في الصورة فيالله ويالشجاعة من يقدر أن يثبت في مثل هذا الميدان نعم لم أعد قادرا على الثبات فشعرت باضطراب ثم وقعت الى الارض غائبا عن الوجود

(ولما انتهت بنت ملك الهند من سرد قصتها لبهرام شاه إلى هذا الحد توقفت عن الكلام بعد أن قالت له أن الجارية ذات الثوب الاسود قالت لوالدتي أن سيدها الملك عند ما وصل في حكايته لها الى هذه النقطة شعر بانقباض صدر ثم أغمي عليه :

الا أن بهرام شاه كان قد شغل فكره في هذه الحكاية فلما رأى زوجته توقفت عن الكلام تاقت نفسه بشدة لاستماع نهاية القصة فضمها الى صدره وقبلها في خدها ونحرها وقال لها إنها لحكاية عجيبة فأرجوكي أن تتمى حديثك لأني مشغول الخاطر على ذاك الملك المسكين بأكثر مما أنا متعجب منها وأريد أن أصل الى نهاية ما وصل اليه :

فلما سمعت بنت الملك رجاء زوجها عادت الى الحديث فقالت ان والدتي لما رأت من صاحبة الثوب الاسود الاسف والحزن علي ما لحق بسيدها رثت لحالها وأخذت في أن تعزيها وتسليها حتى هدأ روعها فسألتها الى أتمام القصة فأجابت بعد أن كفكفت دموعها ومسحت أعينها فقالت .

ان سيدي الملك لما وصل في حكايته الى هذا الحد وقع الى الارض مغشيا عليه فأسرعت الى نجدته ورششت الماء على وجهه حتى فتح عينيه وعاد الى نفسه وجعل يبكى والدموع تسيل من عينيه كالامطار الغزيرة ولاريب ان الانسان الذى لقي مثل مالقي الملك لا يمكن أن يكون أكثرمنه صبرا . واخذ يقول يارب هل مارأيته حلم أم سحر ما هذا)

عفوا يا ربى فانى بينما كنت انظر فى صورة المحبوب الموجوده فى ذلك الكتاب وأنظر اليها نفسها ضاع صوابى رأيت أن لا فرق بينهما مطلقا حتى بالملابس مع أنى لما كنت أداعب وألاعب الفتاة كانت تلبس غير الملابس التى فى الصورة فكيف قلب حالا طبقا لحالة الصورة ... آه يا حبيبتي كم انت جميلة وبهية كم وجسمك لطيف أواه .. واحسرتاه يا ليت روحي فارقت جسمى في ذاك الوقت ولا فارقت هذا الملاك العجيب الاطوار الغريب الاوصاف البديع المحاسن فان الفتاة لما رأتنى على تلك الحالة وقدغبت عن الصواب واخذت ترش الماء على وجهى حتى عادت الى روحى نوعاما لكن عادت النوبة بأكثر من الاول عندما فتحت عيني ورأيت ذاك البدر الساطع منعكفا فوقي ولما اعياها امرى صاحت ببعض الجوارى وامرتهن ان يحملننى الى الصيوان ويعتنين بي فرفعنى على السرير فى آخر صيوان واخذن بالاعتناء بي الى ان اصبح الصباح دون جدوى ولا فائدة فانى لم ازل غائبا عن الوجود وحيث لم يعد في وسعهم البقاء فى تلك الجنة غبن وانا على حالى الى ان تنصف النهار وانا اغط فى نوم عميق انتهي بى الي الراحة والانتباه ففتحت حينئذ عينى فرأيت نفسى بين تلك الاشجار الخضراء كسابق العادة .

وحقا فقد كانت حالتي تستحق الفرجة بأكثر مما تستحق الرحمة ففي الأول نظرت الى ماحوالى باضطراب كأنى موجود في عالم جديد أو كمن خرج من حالة قلق آلى حالة سكينة وهدوء ثم عاودتنى القوة شيئا فشيئا فاطمأننت نوعا ماوارتاح بالي ولا سيما وقد رأيت الكتاب إلي جانبي وفيه صورة قمرى البديع فان ذلك الحسن والجمال والقد والكمال واللطف والدلال لم يغب عن عيني قط فكانت كلها موجودة أمامى كما فى الليل وعقب ذلك تساقطت الدموع من عينى بغزارة وبعد أن بكيت نحوا من ساعتين أو ثلاث ساعات سكن جأشي ومسحت دموعى وأنا أقول يا إلهى أى نوع هذا إذا كانت رؤيا فها أنا أرى بعيني كل شيء وإن كان سحراً فانى لا أرى علامة أو إشارة سحر فما ذلك يارب العالمين وماهو الخير والثواب الذى كنت فيه أولا حتى أفرحتنى بالأمل بوصال من ألقيت حبها فى قلبى وبعدماهو الخطأ والجرم اللذين ارتكبتهما حتي أحرمتني من صحبتها ومعاشرتها ومن بعد أن رددت هذه الأفكار فى نفسى طويلا وأنا تارة أحدث نفسي وطورا أحدث خالقى وأخيرا اضطرمت فى نيران الغضب والحدة وقلت انى عجزت وضاق بى الأمر وتحقق لدي أنى لا أقدر على الارتواء من وصال هذه الظالمة لأنه أمر ظاهر فهى تغشنى ولم لا ترغب فى عن صفاء قلب حيث مرست ليال وهي تقول اليوم غدا فهل في الامكان الصبر على وصالها ليلة واحدة فاتعجب كيف صبرت ست ليال وأنا بقربها ملتصق بها حاصل على كل ما يسر منها غير الوصل وأحيانا كنت لا أصدق نفسي بأنى صبرت هذه المدة الطويلة

وكان ما يزيد افتكاري وشغل بالي ويحيرني ويقلقني هو ما كنت أتعجب منه دائما وهي أنها كانت تشوقني وتهيج في مكنونات الطبيعة حتي إذا بلغ بي المجاز حده امتنعت علي وحذرتني ... فما السبب يا ترى وعلى الخصوص فانها أعطتني الكتاب المحتوى على رسمها بهيئة غريبة فكان يزيد هيامي ويضرم النار في فؤادي زيادة عما هو عليه ... وكنت أفتكر بأني أصبحت عديم التدبير أبحث عن وسيلة أنال بها المراد . فلم أهتد إلى وسيلة مفيدة وقد لاح لي أن من العبث أن أتحمل أكثر مما احتملت ولا طريق للتوصل من الغاية إلا بالرغم عنها واجبارها على الاصغاء إلى طلبي أى أني عند اشتداد الوله والوجد وميل النفس لركوب الهول أرجوها وأتوسل اليها أن ترحمني وتشفق علىّ وتجيب طلبي بفك العقدة الصعبة الحائلة دون مرادي فاذا أنعمت وأجابت تم الغرض والا هجمت عليها واقتنصتها قوة واقتدارا ... وما كاد يتقرر هذا الخاطر في ذهني حتي وجدت من غرامي زاجرا فصحت كلا . كلا فما فتاتى مما تعامل هذه المعاملة فهذا غير ممكن إن القلوب القاسية الصخرية لا تجسر على أن تمد يدا إلى ذاك الجسم اللطيف بعد أن قيل فيه :

خطرات النسيم تجرح خديـه ولمس الحرير يدمي بنانه

فحاشا لي أن أفعل ذلك أو أقدم على أن أغيظها وأفعل ما يفعله البرابرة مع نسائهم أو ما تفعله القبائل المتوحشة بنساء أعدائهم عند انتصارهم عليهم انما الأمر الوحيد الذى أقدر عليه هو أن أتوقع عليها وأستعطفها وأسألها الرحمة والرفق وأصرف الجهد فلا بد من أن ترق وتلين وتجيب طلبي في النهايه وعلى الخصوص إذا رأتني مصرا على نيل وصالها ملازما على الالتماس والرجاء خاضعا لارادتها متذللا بين يديها فلا بد لحالي معها من نهاية ولا أحرم في النهاية من حصولي على مرادي ، وكنت وأنا على هذه الأفكار أقف مرة وأقعد أخرى وأتمشى مرة لا أعي على نفسي ولا أفرق بين السماء والأرض ... أسأل الله أن لا يبلي أحدا بمثل هذه المحبة ، فهي ليست محبة بل محنة ، فكنت وأنا أفتكر في الفتاة وأشاهد صورتها أصل الي حالة اليأس حتى أرى نفسي قربت من الموت وعلى الخصوص عندما أتصور الحالة التي أكون فيها بين يديها وأنا أضمها فتضمني وأعانقها فتعانقني وتترك لي الحرية التامة في أن أتصرف كيف شئت وأسير على السهل أينما أردت ولكنها تمنعني عند عزمي على الدخول بين الجبلين

كنت ملكا عائشا بالعظمة والمجد أملك العالم وأحكم فى الناس ولأجل هوسى تركت المجد والعظمة وطفت الدنيا وتوغلت بالاتعاب والمصائب ، ومع ذلك لم يخطر مثل هذه الأمور فى خاطرى هذا ولا فكرت بغير خيال محبوبتي ولا حلا لعيني غير صورتها وكنت أقول يا ربي ماذا أعمل وإذا بقيت كذلك فالي أى حال تنتهى بى محنتى هذه

ولبثت على هذه الحالة وانا كالمجنون تارة أبكى وأندب حظي وطورا اطرق مفكرا غائبا عن الصواب فلما اقبل المساء جلست حزينا تحت إحدى الشجرات على الحالة التي انا فيها ابحث الساعة بعد الثانية عن الواسطة المفيدة لنيل وصال ذاك القمر البعيد المنال

(تنبيه) لا ريب اننا نعذر الملك اذا هو لم يقدر ان يثبت أمام سلطان جمال معشوقته وليس من المنتظر ذلك فلا قوة فى الدنيا تعادل قوة الجمال ولا سلطان اعظم من سلطانه وقد اخبرنى احد اصحابى عن حدوث امر وقع له نسرده هنا بالاختصار قال :

وجدت فى محل فيه نحو من خمس او ست بنات وفيه كثير من الناس لأجل الفرجه والتسلى لأن المحل المذكور كان من المحلات العامة وكان به رجل فى سن الثمانين او الخامسة والثمانين اراد ان يحضر اليه ابهى واجمل البنات فأشار اليها بعينيه ان تدنو منه فنهضت الفتاة وتقدمت منه وجلست الي جانبه ولا اعلم اكان منها ذلك جبرا لخاطره او لأمر آخر ، والحاصل ابتدأت الفتاة مضاحكته والمصاحبة والملاعبة ، واما الرجل الشيخ فقد ظهرت عليه علائم السرور والنشاط وصار يتحبب اليها ويتقرب منها كأنه في ريعان الشباب ويزيد بالفرح والانبساط كلما رأي من الصبية التفاتا وقد احضر المشروبات الكثيرة وصرف مالا غير قليل (وكنت انظر اليهما بعين الاستطلاع متعجبا من هذه المناقضة) فمر عليهما نحو نصف ساعة وهما على تلك الحالة ، ومن المؤكد ان فتاة فى سن الخامسة عشرة لا يمكن ان تحب شيخا فى الخامسة والثمانين وتعطيه قلبها عن خلوص ووفاء ثم رأيت الفتاة وقد نهضت واسرعت الى مكانها وجلست وعليها علائم الضجر ولا اعلم ان كان الشيخ كلمها كلاما مغيظا او اغتاظت من شيء آخر ، اما الشيخ فسرعان ما اضطرب وظهرت عليه علائم الحزن والكآبة وقد حاول كثيرا ان يخفى امره عن الحضور ولكن عبثا فقد لاحظ الجميع حركاته وحالته وهو

يحاول أن يحول نظره عن الفتاة ولكن عبثا لأنه كان يشير اليها بعينيه وبديه ورأسه دون انتباه ولما أعياه الأمر أخذ الدمع يتساقط من عينيه كالمطر وقد افتضح أمره ولما رأى بقية البنات حالته أشفقن عليه وألزمن الفتاة محبوبته أن تعود اليه فعادت فانقلب من الحزن إلى الفرح ومن الانكسار إلى العظمة وعاد إلى المداعبة والملاعبة والشيخ كأنه ملك الدنيا برمتها غير ملتفت إلى أحد وقد نسي نفسه وأنه محاط بالناس وأن العيون تحدق فيه ... أما أنا فكنت أتعجب من العشق وحالاته وكيف يفعل بنفوس البشر حتى الشيوخ فان هذا الشيخ قد لعب به الغرام إلى درجة جنونية وتجدد فيه الشباب والنشاط وغاب عنه الصبر والحياء فاذا كانت هذه حالة شيخ مسن مع فتاة من بنات الهوى فماذا ياترى تكون حالة الملك الشاب مع معشوقته التي هي من آلهة الجمال والمحاسن فاننا نعذره على حاله وعلى مالاقاه من الهيام وقلة الصبر من نيل المرام .

وأما الملك فانه صرف ذلك النهار مهموما مغموما وعند المساء عادت البنات على حسب العادة . ومن بعد أن زين الوسط بالمفروشات هيأن السرير ووقفن ينتظرن السيدة بالمشاعل أقبلت الملكة مع حاشيتها وظهرت بكمال البهاء والوقار ومازالت تتقدم حتي دنت من السرير فارتفعت عليه وجلست فوقه . أما أنا فلم أقدر أن أحتمل لحظة واحدة ومع ذلك قلت فى نفسي لأذهب اليها الآن لأرى ماذا تقول فأتيت وجلست في مكان قريب أقدر أن أسمع منه الكلام وأصغت آذانى للسمع ومن بعد أن جلست الصبية على السرير صاحت بالجارية التى كانت سلمتني اليها في الليلة الماضية وسألتها عني

فأجابتها الجارية بعد أن دعت لها وأثنت عليها نعم يا سيدتى لقد أخذت الضيف وأتيت به إلى الصيوان وصرفت غاية جهدى لانبساطه وسروره ولما لم أقدر أن أزيح عن صدره الكدر المتسلط عليه تكدرت أيضا وعظم عليه أمره وما زلت فى السعى بخدمته والاهتمام بانشراح صدره حتى الصباح وفي الصباح رششت الماء علي وجهه ولا أعلم ماذا عمل هو ولا ماذا جرى له إذ ذاك وبعد ان وضح النهار تركته وانصرفت عنه .

ولما سمعت السيدة من الجارية هذا الكلام تغيرت أحوالها وجعلت توبخها وتعنفها قائلة لها لاي شيء تركته وحده ولماذا لم تبقي معه فاسرعى الآن وفتشى عليه وأين وجدتيه فادعيه الي".

وأما أنا فقد شاهدت من المكان المختفي فيه حالة معشوقتي واضطرابها وسمعت ما قالته للجارية فقلت فى نفسى انها ولا ريب تحبنى فكانى الآن أملك الدنيا وما فيها . ولم يبق لى صبر على الاختفاء فنهضت فى الحال . وأتيت اليها .

فلما رأتنى فرحت جدا واستقبلتني بالأنس والبشر . ثم ضمتنى إلى صدرها وقالت لي أى ضيفي العزيز إن شاء الله تكون غير متكدر فاصبر ولا تسلم نفسك لتيار الأحزان فقريبا تنل مرامك وتطفيء غرامك وتقطف وردة حظك من روض وصالى .

ولما سمعت من قمرى الساطع هذا الكلام وعلى الأخص قولها . . . قريبا . . . ظننت أنى فى تلك الليلة أنال مرامى وأحظى بوصلها لكن عدت فاشتبهت وقلت فى نفسي لو كانت تقصد هذه الليلة لما قالت قريبا بل لقالت الآن فمن المحال أن يضمن معني كلامها هذه الليلة حتي لو كان فى الليلة الآتية لما قالت قريبا بل قالت غدا وفيما أنا أفكر فى ذلك جلست على السرير فى موضعها فقادتني إلى جانبها وتبسمت في وجهى بعد أن قبلتني مرارا بين عينى وفوق جبينى وقالت لى ياضيفي العزيز ماالذى عرض لك فى هذه الليلة . فأجبتها يالالعجب تعلمين بحالى وتتغاضين فأنت أدري بحالى منى بل أنت أشد حبا لى من لك فلماذا تتجلدين وتجفى عنى مابقلبك ولماذا لاترحميني قبل أن تترحمى على ولماذا لا ترفقين بأحوالى وتنتشليني من وهدة العذاب المحيق بى أما كفي مافرغت من جعبة وعودك وكثرة صدك واعراضك عني . آه ياجوهرتى الثمينة ويابدرى العديم المثال إلي أى وقت أصبر وإلى متى أتحمل هلمى أنصفيني ارحمينى الطفي بى تكرمي على بقربك أعيرينى عنايتك واهتمامك .

فلما سمعت كلامي تبسمت تبسم الوقار وأحدقت فى وجهى احداق المشفق على وقالت لى . لا يليق بك أن تكون عديم الصبر . مامعني هذا الكلام وأنت ضيفي العزيز وأعز من روحى فقلت لها ابعدى هذا من خاطرك فأنا الآن لست ضيفك ولا أريد أن أتركك وفى الوقت الذى أودعك فيه تودعنى روحى وأذهب عن الدنيا بالاسم والرسم فارفعي من فيك لفظة ياضيفى العزيز فكفانى همى فلما سمعت الفتاة كلامى انبسطت وقالت إذا كان الأمر كذلك فلنلتفت إلى ماهو أهم فأمرت فأحضر الطعام وكان طرز المائدة جديداً مثل كل ليلة وعند تناول الطعام على الطريقة المعتادة جلس البنات فى أماكنهن وأخذت المطربة العود وغنت الفتاة

ذات الصوت الرخيم وطافت الساقية بأقداح الشراب وقد أخذنا في الحظ والانبساط وبدأنا في اللعب والمزاح وأدركت محبوبتي ما يخطر بفكري وقد تقرر في خاطري أني سأفتضها بالقوة في تلك الليلة ولذلك أشارت إلى البنات فأكثرن على من الشراب ومن ثم سلمتني إلى احداهن فأخذتني الى الصيوان لأجل الراحة . وأما أنا فحيث قد شربت كثيرا أصبحت في حالة سكر وضياع وانما بعد قليل من الوقت عاد عقلي الى رأسي لكن لم يبق في اليد حيلة وبعد ذلك لم يبق على الا أن أسكت وأشير بعيني فقط .

وقد صرفنا تلك الليلة على هذه الحالة حتى أصبح الصباح وفي الصباح غاب البنات ولم يبق أحد في تلك الجهة سواي ولما كنت قد شربت كثيرا في تلك الليلة بقيت في حالة الخدر حتى نصف النهار ومن ثم نهضت وابتدأت في الطواف في تلك الارض فأكلت شيئا من الفاكهة وشربت بعضا من الماء وحينئذ عدت الى الافتكار قائلا في نفسي عجبا كيف ينتهي معي الحال وهل أنال وصل الغزال وأطفىء ما بقلبي من نار الاشتعال . وقد صرفت النهار على مثل هذه الأفكار حتي أقبل المساء ولكن يمر النهار والليل كما قد أصبح معلوما . . . وهو أنه بناء علي الخطة السابقة جاءت البنات وزين الوسط وجلسن ينتظرن مجيء سيدتهن حتي ظهرت من بعيد ، وكانت حالتي معهاحرية بالتعجب وكنت أقول في نفسي وأنا قاطع الامل اني سأبقى محروما من وصالها وأنا محقق أنها تغشني وتلعب بعقلي فكيف اصبر لا أعلم مع أنها اذا لم ترض لا اقدر ان أمسها أو أجوارعليها . وما لبثت ان وصلت الى تلك المعشوقة السحرية . فهل بقي لى عقل . . . هيهات . . . هل عدت املك شيئا من الحواس . . . حاشا . . . هل لبثت على قطع الأمل . . . كلا . . . فعن غير اختيار رأيت نفسى مجبوراً لملاقاتهامساقا بحبال حسنها وجمالها ونظرت اليها واستقبلتها وأبديت لها واجب الدعاء والثناء بكمال التعظيم والتكريم فتبسمت فى وجهى وقالت ان شاء الله تكون رجعت الي نفسك وعدت الى التأنى والصبر فقلت . كلا . كلا . ياسالبة رشدى ومضيعة حياتى هل هل يمكن للانسان أن يرى وجهك البديع ويقدر على التحمل والصبر . فقالت لا بأس اذا صرفنا أيضا هذا الليل بالصفاء والانس ثم جلسنا أعلى السرير وتحضر مجلس الطرب وبدأنا بالمداعبة والحظ ، ولما كانت تلك الليلة تتظاهر بانحراف الصحة فمن بعد مناولة الطعام واستماع شيء من الغناء والانغام قالت لى ألك رغبة بالفرجة والتنزه

وأت الامر اليك فى ذلك ففي الحال امرت الجواري ان يفرشن المفروشات ويمدون البسط عند مجرى عين من الماء الرائق الصافى وان يزين ارضها بالزينات والزخارف ثم وضعت يدها بيدى وقادتني الي تلك العين فطفنا حولها مدة ثم جلست الجواري حول الماء بترتيب صفاصفا ... نعم إن هذه لذة العمر ... لكن ماالفائدة فاني كنت حزينا لا أفوه بكلمة غير قانع بالحظ والمداعبة والمعاشرة والشم والضم ولا تطمع نفسى إلا إلى شيء واحد ... والحاصل أن الملكة أو بالحرى السيدة فى ذلك المقام نظرت إلي وجهى وعلمت ما أنا فيه من الحزن والهم فأخذت في تسليتي وتفريجى والتزلف الي . ثم نهضت ولفت يدها على يدي وأخذنا نتمشي فى فسحات تلك الرياض وكانت تلك الليلة الثالثة والعشرين من القمر ولذلك صادف بزوغه فى تلك الساعة فبسط أشعة نوره الضعيف على تلك الخمائل فأنارها ولكنه لم يتمكن من انارة قلبي المسود المظلم مع أنه لولم تكن أفكارى موجهة الى غايتى التى كنت أرى كل شيء دونها عبثا لعلمت مقدار ماأنا عليه من السعادة وأدركت ماهنالك من الحظ الوافر والمناظر البديعة فان نور القمر كان يتخلل أوراق الأشجار فتظهر من فوق الأثمار كأنها أغطية فوق قموع من فضة وكان وجه الماء يتموج تموجات لطيفة بتلاعب النسيم يتنقل فوقها بخفة روحه وتتلاعب تحتها الأسماك المختلفة الالوان كأنها تقوم بمناورات حربية وأبدع من كل ذلك كان محبوبتي البديعة الفاتنة كانت تبذل كل مافى وسعها لاجل غبطتي وسعادتى ولم تترك بابا لتفريجى وتسليتي فكنت أتظاهر بمسايرتها المرة بعد الثانية ثم أعود فأنقبض مفكرا فى ممانعتها ومطاولتها لى . وأخيرا أخذت قطعا من الخبز وقالت لى هلم فليرم كل واحد منا قطعة فى الماء لنرى أية قطعة يجتمع عليها السمك أكثر ففي الحال أخذت قطعة وألقيتها في الماء اجابة لامرها وانفاذا لارادتها وما استقرت في الماء حتى اجتمع حولها السمك فرمت قطعة فأسرع السمك من قطعتي الى قطعتها ثم رميت أنا قطعة فجاء جهتي وهكذا بقي السمك يأتى ويذهب وأخيرا ألقيت ثلاث قطعات فتزاحم حولها السمك فألقت هي قطعة فلم يذهب السمك اليها كالاول فأبدت التعجب وسألتنى عن السبب فقلت لها ان السمك يحسن الوفاء فقد ألفني ورعي حق صحبتي فلم يرض أن يتحول عنى . فنظرت الى وتبسمت وقالت لى

ستبدى لك الايام ما أنت جاهل ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وبعد أن صرفنا مقدار ساعة على ماتقدم عدنا الى موضعنا وجلسنا على السرير

ولم يمر على يوم من الحظ والسرور كذلك اليوم لأننا عندما طافت كؤوس التهاني ودارت الراح بالأقداح لفتنى الصبية بين ذراعيها وقالت لى كن طيب الخاطر والقلب فانى أبشرك بقرب نوال المراد قريبا فاذهب فى هذه الليلة ونم قريراً مع احدى الجوارى ومن ثأنى نال ماتمني .

فأصبحت ممنونا منها وقلت فى نفسي ربما لم تعد قادرة على التحمل والصبر لكنها تريد أن تمتحنى لتعلم ان كنت أفكر بأخذها جبرا أو أصبر عليها ولأجل ذلك قطعت على الطريق فمن الواجب أن أصبر وأتحمل فوق طاقتي لأرى النهاية فنهضت وسرت مع تلك الفتاة إلى المحل المعهود وأخذنا معا فى المداعبة والملاعبة والتقبيل والعناق الى أن قرب وقت الصباح فنمنا سواء ونحن على ما نحن عليه ولما كانت اللذة التى ألاقيها كل ليلة من البنات ليست كاللذة مع البنات الآدميات كنت اتعجب من ذلك وأشغل أفكارى قائلا فى نفسي أحياناً ياللعجب ألسن من بنى آدم وأحيانا أقول كلا لسن من بني آدم ولو كن من بني آدم لما كانت حالتى معهن على ماتقدم لا أرى أثرا لانسان ثم يخطر لى أنهن ربما يذهبن فى الصباح إلى بلد قريب من هناك لطوائف من الانس فيذهبن في الصباح ويأتين فى المساء لأجل التسلية والفسحة . وكانت الأفكار تتلاعب بى فى كل ساعة على معنى جديد وقد خطر لى أن أتملق الجارية وأسألها عن أحوال معشوقتى ومن هى ولماذا تشوقنى وترغبنى ومن ثم تمانع وتدافع عن طلب الوصال وقد أملت الحصول على جواب منها . في البداية عانقت الفتاة وأظهرت لها التعجب ومن بعد أن قبلتها فى عنقها وخدها وعينيها قلت لها لي اليك سؤال ياروحى العزيزة فهل تجيبينني عليه بصدق . فقالت لى تفضل فاسأل ما انت سائل فانى أجيبك إلى حدما أنا مأمورة أن أجيبك عنه وأما منعت عنه فلا أقدر على التلفظ به . ففهمت أنا أيضاما هو محظور على الجارية التلفظ به وعرفت أنها لا تقدر أن تتكلم بالحقيقة . فقلت لها انى لم أعد أرغب فى سؤالك قط لأنى على يقين من عدم جوابك لى كما اريد فقالت حيث انك تعلم فلا تسأل .

وقد صرفنا الليلة على هذا الحال وفى السحر أيقظتنى الجارية وذهبت بى إلى الصيوان وذهبت لتغتسل ومع انى قصدت ان لا أنام بعد الاستحمام لكن النوم قوى على فنمت برهة ثم استيقظت فرأيت البنات قد ذهبن وبقيت لوحدي في تلك الرياض فنهضت وأتيت رأس عين الماء فغسلت وجهى ويدى وقد تذكرت لعبه

السمك مع ملاكي الفردوسي عند راس الماء فى الليلة الماضية وكنت اقول فى نفسى ياليتنا نبقى متحدين مع بعضنا ليلا ونهارا على مثل ما كنا فى الليلة الماضية رباه ماهذه الحالة وكيف هذا العمل وجعلت افتكر متحيرا فى قدرة الله سبحانه وتعالى ومن ثم نهضت عن الماء واخذت اتمشى بين الأشجار حتى أقبل الليل فلبثت منتظرا عودة روحى إلى جسمى . وحينئذ كسابق العادة ظهرت غيمة بيضاء اولا ثم اخذت تتقدم نحوى وتنتشر حتى لاحت المشاعل والبنات كأنهن زهر البنات ولما توسطن المكان اخذت فى اعداد الفرش والبسطة ثم نصبن فى وسط الاسرة سرير محبوبتى البديعة ووقفن ينتظرن قدومها . ولم يكن الا القليل حتى اقبلت محاطة بجواريها تتمايل كأنها قضيب بان هزه ريح الصبا وبين أيديها المشاعل تضيء كأنها الكواكب في افق السماء .

وما زالت تتقدم بالدلال والتيه إلى ان قربت من السرير وجلست فوقه . وكنت لا أزال عند الماء افكر فيما هو اهم من كل امر لدى ألا وهو الحصول على المأمول أي نيل وصال محبوبتى واطفاء نار لوعتي . ولكن لما حضرت البنات واصبح كل شيء حاضرا فارقت الماء وتقدمت بكمال الفرح والنشاط حتى دنوت منها .

فلما رأتني صفقت من السرور ونهضت وقبضت على يدى واجلستنى الى جانبها ثم سألتني عن حالي ومايشغل بالي فقلت ألا تعلمين ياسيدتى وما لكتى فلماذا تتغافلين عنى فتبسمت وقالت لى ان شاء الله يزول همك وتنال غايتك فأجبتها الى متي وكيف ارفع الهم وأنال المرام بعد مفارقة الروح وشرب كأس الحمام فلا زلت تقولين لى حتى تدنو الفرصة حتى تغتنم الفرصة ايوجد فرصه احسن من هذه فهيا بنا .

لأقول للعذال موتوا حسرة هذا الحبيب وها انا اتمتع

ثم تقولين لي ان لم تصبر تندم أهل بعد إتمام العمل واطفاء لوعة الوجد بنوال الوصل من نظم او حسرة

اذا العشق أحنق القلب واللب فالدوا

هو الوصل من ليلي وليس من السوى

فأنت اليوم المقصود من عشقى وبك قلبي قد ابتلى وبغير وصالك لااجد لي

من دواء فاذا منعت الدواء طالت العلة وقادتني الى الفناءفهل من ندم على زوال العنا وزوال المنـــا .

فلما سمعت الصبية كلامي قالت انى اعلم مالا تعلمه ولذلك اقول لك لا تعجل فتندم وانى لا امنع عنك الدواء عندما يكون به الشفاء واما الآن فاعرف ان هذا الدواء لا ينجع في علتك بل يزيد بلواك ويكثر أوجاعك ومتي آن وقت الوصال دعوتك اليه بغير مطال ألا تعلم ذلك . قلت كلا ياروحى الساكنة بين ضلوعي لا أعلم إلا انك تكثرين من الوعود وتطيلين فى عذابى حتي تبلغ الروح التراقي فتبسمت وضمتني وقبلتنى وقالت جرب الصبر تر حلاوته .

ثم بعد المعاتبة والمداعبة نهضنا الى سفرة الطعام وأخذنا فى تناوله وكان بقية الجوارى يطفن من حولنا كالهالة حول القمر يخدمننا ويقدمن لنا الطعام . ومن بعد أن تناولنا الطعام نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا ثانية للجلوس على السرير وعاودنا المداعبة والملاعبة . ثم خطر للصبية مالقيته من المسرة على الماء فى الليـلة الماضية فأمرت أن تنار العين بالأنوار وتفرش حولها المفروشات وبأسرع من لمح البصر تهيأ كل شيء فأتينا الماء وجلسنا على حافة العين وابتدأنا بملاعبة الأسماك غير أن عقلى وفكرى كانا عند معشوقتي أراقب حركاتها وأحدق فى وجهها وأنتظر منها إشارة تبشرنى بزوال العنا ولما تنصف الليل دعت جارية فسلمتني لها فذهبت معها ونمت إلي اليوم الثـانى فذهبت البنات وأصبحت وحيدا فريدا فأخذت فى في التمشى والانتقال كسابق عادتى وقد صرفت على هذا الوجه ٣٧ ليلة لاقيت فيها من الهناء أعظمه ومن العناء وتبريح الهوى أشدة وقد أصبحت حالتى معلومة فلا لزوم للاعادة ... وقد قلت فى نفسى لقدقطع الأمل من وصال محبوبتى ومن اللازم أن آخذها جبراوغصبا لان التضرع والالتماس لم يجديانى نفعا فماذا يجدي اذا أجريت اقتناصها بالرغم منهاو لما كانت الليلة الثامنة والثلاثين جاءت على حسب عادتها وجلست على سريرها وأنا الى جانبها ومن بعد المعاشرة وتناول الأطعمة النفيسة ضربت الآلات وغنت المغنيات وشربن الخمور ودارت برأسنا مفاعيلها وكانت الصبية قد أدركت من سرورى الغير معتاد أن قصدي غير حميد فعمدت الى الحيلة وقالت لى هلم لنصرف هذه الليلة فى الحديقة ثم أمرت بتعليق المصابيح فوق الأشجار وفرشت المفروشات تحتها وعنيت بأن يجلس تحت كل شجرة خمس منهن ويبدين لى تلك الليـلة كل طرق التسلى والانبساط فأجيز أمرها ونهضن

بعضهن حاملات آلات الطرب وبعضهن أقداح المدام وبعضهن اهتممن باتقان المقام . وقد نصبن في وسط الحديقة سرير سيدتهن فوضعت يدها في يدي وأتقيا السرير فجلسنا عليه وطافت من حولنا الجواري كالهالة كأننا في كرسي الملك نأمر وننهى بما نريد فأخذت أفكر في نفسي عن هذه الحال وأقول عجبا هل حان الوقت ثم بعد التفكر والتأمل أردت التقرب منها واجبارها على ما أريد ففتحت فاها وخاطبتني .. ماشاء الله فلله درك من عاشق غير قادر على الصبر والتأني لقد قرب وقت احتضاني فاذا كنت تصبر يوما فأنا من نفسي أدعوك لنوال المراد وبلوغ المرام كي لا تبقي حسرة في قلبك فلا تخف من ضياع الوقت ... فقلت نعم أخاف ... فكم من مرة غششت حتي صرت لا أصدق بكلمة في هذا المعنى ولكني عند النظر في وجهها لم أعد أتمالك نفسي فتاه عقلي وغاب رشدي ولم أعد أدرك شيئا مما حولي

وقد صرفنا تلك الليلة على البسط والانشراح فما رجوتها ولا التمست منها السماح بالوصال ولا جبرتها عليه . وبعد أن صرفنا الليلة الثامنة والثلاثين على ألف نوع من أنواع التسلي والحظ . وأصبحت في اليوم التالي وحيدا فريدا شعرت من نفسي بعدم الصبر في الدرجة الأخيرة فلم أعد قادرا علي أن أتصبر ولم يبق لي طاقة علي التحمل فقررت في نفسي ووطدت العزم على أن لا أتوقف في هذه الليلة عن أخذها جبرا نعم اني لا أرى نفسي جسورا إلى حد أن أرغمها على التسليم معي بما أريد منها لكن ما العمل وقد فقدت اصطباري ولم تعد لي قوة على الاحتمال فيلزم لي شجاعة فوق العادة لأباشر هذا الأمر نعم سأتخذ هذه الشجاعة واترك كل حياء وخجل وخوف . والا لو صبرت عليها وهي تعدني وتقول لي كل ليلة غدا ولمرت الأيام والسنون وأنا أتقلب على جمر التحرق والهوى وقد ثبت لدى أن هذه الصبية لا تؤخذ الا جبرا وهي ربما كانت لا تسلم لي الا بهذه الطريقه ولا تلين وتجيب الا متى رأت مني الاصرار والحدة وقوة العزم شأن كثيرات من النساء مثالها فيما نعن في بادىء الأمر تظاهرا بالتعفف ثم يجبن عند الارغام والحدة وفي عقولهن أن الرجال يقنعن انهن سلمن اليهم جبرا لا طوعا وعلى هذا الوجه قطعت وحتمت ووطدت العزم ونويت كل النية بأن لا أصبر علي وصلها تلك الليلة مهما جرى فاما أن اموت واما ان اعيش .

ولما أقبل المساء وردالبنات أيضا وبسطن المفروشات واحضرن السرير ووقفن

فى انتظار مولاتى ولم يمر على ذلك الا دقائق قليلة حتي ظهرت من بعيد ظهور البدر من وراء حجاب الظلام فأخذ قلبي يدق واعضائى ترتجف عند اول لحظة بانت فيها وكانت تتقدم متمايلة تمايل الغصن فوق الكثيب وكلما دنت منى كلما زادت نورا واشراقا حتي وصلت الى سريرها فجلست عليه أما أنا فقد صممت العزم وأكدت النية على الثبات على عزيمتي فاما أن أضحى بحياتي في تلك الليلة أو انى أحتضنها وأنال منيتى وبغيتى منها وكذلك قد عزمت أن لا أكثر من شرب المدام ولا من أكل الطعام كي لا أسكر وأغيب عن الهدى كالعادة ونطاب نفسي المنام بل أبقى منتبها لنفسى ساهرا على انفاذ مرامى فلا أغش ولا أقاد كالطفل الصغير .

ولما دخلت على مجلس البنات نهضن الي كالعادة ولاقيتنى باحتفاء واحتفال وبعد أن جلست الي جانب الصبية بدأت بمداعبتى وملاعبتى وأنا أرتجف وأضطرب من تأثير إصرارى على إنفاذ أفكارى .

ثم أحضر الطعام فأكلت ماسددت به رمقي وبعد أن رفع الطعام احضرت سفرة المدام وعليها من كل فاكهة زوجان وأخذ البعض من البنات آلات الطرب فهذه حملت عودا وتلك طنبورا وهاتيك شغلت بربط الاوتار وأخذن بالغناء والضرب على الآلات وأما أنا فبقيت مصرا على انمام ماعزمت عليه أردد فى نفسى ما تقدم بيانه اي كنت أقول بروحى وأما بالوصال

اذا كنتم تبغون روحى بوصلكم خذوها فروحى فى الوصال قليل

وعلى هذه الحال تعانقنا وبعد أن أكثرت من تقبيلها فى خديها وعينيها وفمها ومسست شفتيها أخذت بالرجاء والالتماس وفتحت باب الطلب وأنا أمر بيدى على جسمها الناعم الطري فيزيد بى الهيام والميل الوحشى فسحبتها الى وقلت لها آه يامليكتي ومالكتى ولم يبق لي احتمال ولا صبر ولا عدت أرى فائدة فى حياتى فأسعديني بوصلك وارحمينى تكسبي أجرى فماذا يضرك لو قلت لى هلم فاقض غرضك واشف مرضك ونل مشتهاك . فلماسمعت كلامى تبسمت وقالت لي أنت محق ياحبيبي لكن أقول لك الصحيح وأبشرك أن مرامك ينتهى عندما تكمل الاربعين ليلة فهذه الليلة هى التاسعه والثلاثون ولم يبق عليك إلا ان تصبر هذه الليلة فقط وفى الليلة الآتية ستنال غرضك قطعا وبدون شك

فماذا ياترى هل أصدق وعدها وقد سمعت مثل هذا الكلام كثيراً فصبرت

ولذلك قلت لها كلا لا يمكن لانك أيضا تقصدين غشي وخداعي ففي هذه الليلة أريد قضاء حاجتي ولا أصبر قط فاما أن أحصل عيها واما أن أبيع حياتي وأضحي ذاتي فزاد تبسمها وانعطفت علي وقالت لي اصبر هذه الليلة فقط فاني أعاهدك صدقا ولا أخلف وعدي معك ففي غد تنال مرامك وتطفيء جمر هيامك فالصبر لك أفضل فالمال مالك وليس اسواك وصول اليه فلا تضيع مالك ولا تعجل فتندم فاشرب المدام وكل الطعام واطرب وافرح وقبلني ما شئت وضمني ما قدرت وافعل كل ما يحلو لك غير الوصل فالي غد وما هي الا ليلة تنقضي فقلت لها كلا كلا لايمكن فهل بعدمرور مقدار ماسمعت منك من كثرة الوعود والعهود أصدق ولاسيما هذه الكلمه (ستندم) فقد سمعتها كثيرا فما عدت أخدع ثانيه وعبثا تمانعيني وتدافعيني لان هذه الليله هي الاخيرة فالذي ينظر هذا الوجه البديع ويشاهد هذا الجمال الباهر لا يصبر عليه لحظه واحدة ولا يقعد دقيقه واحدة عن المخاطرة بالحياة في سبيل نوال المراد فكيف صبرت ثمان وثلاثين ليله مع أن تشويقك وترغيبك ودلك وغنجك تزيد في الرغبه والتهالك في طلب الوصال انك تمنعين عن ظمآن ملتهب الفؤاد مثلي ماء زلالا وتقولين صبرا لاتشرب أأصغي بعد الى مواعيدك أأتخلى عن فتاة بديعه مثلك وهي في قبضة يدي فاذا كنت آدمية فأنا آدمي فاذا كنت جنية فأنا ايضا عاشق مجنون سكن فؤادي عفريت غرامك وهواك ولهذا تريني واقعا عليك مصرا على نوال المراد لا أنفك عنه ولا أتركه ولا أصبر دقيقة بعد ولا أرجع إلا فائزا منصورا فهلم ارحميني أنصفيني فقد بلغ الصبر حدة ومن جهة ثانية أراك تقولين لي اصبر لاتحزن ولاتتكدر فأنا ملكك وفي يدك لكن هل أغفل عن حكم القدر فاذا انفصلت عني وغبت ولم أعد أراك فماذا يجري في وماذا يصيبني مع أني لا أقدر أن أغيب عنك لحظة ولا أريد أن تبعدي عني دقيقة والآن لم أعد أرى أن الحياة لازمة لي فاذا كنت لا أنال مرامي في هذه الليلة مطلقا أصير مجنونا .

فلما سمعت الفتاة كلامي ورأت اصراري أخذت في ملاطفتي وجبر خاطري وقالت لي انك مصيب ومحق وان المملوكه ملزومة بالطاعة لمالكها فها أنا حاضرة مستعدة لانفاذ أمرك وقضاء غرضك انما عليك أن تصبر هذه الليلة فقط لأن من الصعب أن تنال مرادك في هذه الليلة فاذا شممت من شجر السنديان رائحة العود والعنبر فاعلم أن غرضك قضي وأنك نائل وصالي وفي اليوم الذي تري فيه أن القمر

وقع فى حضن الشمس اعلم أنى أقع فى حضنك تلك الليلة فتفض الختام وتزيل الغشاء العام ولم يبق لذلك إلا ليـلة واحدة فاصبر فهلم الآن وكن قانعا بالبوس والعناق والضم والشم والا أضعتنى فتندم ولا يعود ثم ينفعك الندم .

فلما سمعت كلام محبوبتى تفكرت قليلا وأردت الانسحاب غير أن الشوق والرغبة وسوء الحظ حملنى على العناد فقلت لها كلا ان الصبر مستحيل على فانى نائل غرضي منك هذه الليلة قبلتي أو لم تقبلى لأنى سمعت منك كثيرا مثل هذا الكلام ثم عمدت الى الرجاء والالتماس فرميت حالي بين يديها وقلت لها الرحمة يا ملاكي الشفقة يا معبودتى فجودى به ولا تمنعينى عنه فانى لا أقدر أن أعيش بعد بدونه فقد أصبحت كالسمك المخرج من الماء تتردد فيه النسمة الأخيرة من الحياة فاذا أعيد إلى الماء عاش واذا ترك لحظة أخرى فقد الحركة فها أنا فى الدرجة الأخيرة من الحياة فاذا قلت لى اصبر ساعة لا أضمن نفسي الى ساعة ولهـذا أرى نفسي نائلا وصلا أو مائتا والسلام فاما أن تسمحي لي بنيل وصلك فأهدم الابراج وأنال المراد وأسعد أو تقطعى جسدي بيديك قطعا قطعا فقد سامحتك فى حياتى وهدرت لك دمي بشرط ان لا تقولين لى اصبر ساعة فمن فى الدنيا من الانس والجن يراك ويرى منك هـذا الترغيب والتشويق ويشاهد بديع جمالك الفتان ويسمع رقة لفظك المسكر ويضم خصرك النحيف ويشم نكهة خديك الموردين ويلف عنقك الابيض الجميل ويقبل فسيح صدرك المرمرى ويلمس أعكان بطنك الناعمة ثم يقف عند هذا الحد ويصبر عن نوال المراد ويرضى بالوعد والتأجيل .

ولما رأتنى فى هذه الحالة وأنا أتكلم وأضطرب وقد اشتد بى الحال وهجت كما تهيج فحول الجمال احمر وجهها من الخجل حتى أصبح في حمرة الورد وبعد ثوان قليلة عادت فتبسمت وقالت لى يا حبيبى وضيفى العزيز اصغ إلي هـذه المرة فقط ولا تلح فتندم ولا تمهلنى زيادة عن هذه الليلة مطلقا ولا تصبر أكثر من ليلة واحدة وفى الغد لا تعد تسمع لى قولا ولا وعدا وانى أعاهدك وأصدقك الكلام ولا أكذب عليك قط وقد جربت سابقا فجرب هذه الليلة فقط ففي مساء الغد افعل ما أنت فاعل ولا تعد تسمع كلمة إلى الغد واذا رأيتني امتنعت عليك أو حاولت التأجيل والتأخير فاعمد الى الجبر والاكراه وأعاهدك أن لا الومك

على فعلك وإلحاحك وإنما إكراما لخاطري دع هذه الليلة تمر وأجب رجائي والتماسي فكن صاحب مروءة وتلطف واعذر وكيف يصعب عليك الصبر وقد صبرت ثماني وثلاثين ليلة فاصبر هذه الليلة فقط وفي ليلة غد تتم الأربعون ويتم صبرك فتنال غرضك وتقضي مرادك ثم لا تعد تنفصل عني طول العمر ولا أنفصل عنك فيما بعد ثم انعطفت علي وقبلتني ولفت زنودها على عنقي وأكثرت من تقبيلي وأمرت جواريها أن تناولني المدام .

فلما سمعت منها ذلك كدت أنقاد اليها وأطيع طلبها وأصبر ليلة ثانية إلا أن شيطان الطمع أغراني فعدت الى سابق اصراري وقلت : كلا كلا كفي الوعود والتغرير واني على يقين أنك لا في الغد ولا بعده تجيبين طلبي ولا بد أنك بعد أن رأيت مني الاصرار والالحاح علي اقتناصك جبرا اذا لم يكن طوعا تنوين التخلص مني الآن وفي الغد لا تعودين ولا تريني وجهك فيما بعد . آه يا حياتي ونعمتي اني أرى فيك السعادة والحياة فها أنت في حوزتي ولم يكن بيني وبين نيل مرادي الا مد يدي فكيف أصبر الى الغد ان الغد بعيد على جدا فلا تطمعين بالمحال ولا تتوهمين أني أرجع عن عزمي أو أصبر ساعة أو بالحرى نصف ساعة هيا أسرعي أسرعي فقد ضاق بي وجدي وعيل صبري . هيا . هيا . فالوصل لا بد منه الآن وهذا آخر الكلام وقد سددت آذاني عند سماع جوابك واعتذارتك فلا تعودي تجيبيني الا بالرضي والقبول .

وحينئذ وقفت الفتاة في حيرة واضطراب بعد أن رأت أن رجاءها والتماسها وتذللها ذهب سدى وسمعت مني مالم تكن تظنه بعد ذلك الصبر الطويل ومع ذلك فقد قالت بعد أن تنهدت وأخذ الدمع يترقرق من عينيها انك الآن لا تريد أن تعدو عن فكرك أليس كذلك ولا ترغب أن تكبح جواد شهوتك فتقبل رجائي والتماسي وتذللي بين يديك وقد رجوتك كثيرا وأرجوك أخيرا حبا فيك ولصالحك أن تصبر هذه الليلة فقط.

فلم أصغ لها ولا وعيت كلامها وكنت متيقنا أن ممانعتها ومدافعتها هذه لأجل التخلص مني في تلك الليلة ثم لا تعود الي فأبقى بحسرة وصالها طول عمري وربما أجن أو أموت ولذلك قلت لها نعم لا أصبر ولا أعدل عن طلبي مطلقا فان لم تقبلي طوعا فكرها ولا يمكن أن تتخلصين مني هذه الليلة ومهما يجري يجري

ثم قبضت على خصرها وسحبتها الى وعاودنا الكرة وألححت عليها بوجوب قبولها والسماح بوصلها الذي لا بد منه ففهمت الصبية اني لا أمتنع وان لا فائدة من توسلاتها فظهرت على وجهها علامات اليأس والقنوط وتدحرج من عينيها على خديها بعض نقط الدموع وقالت لى مادمت لا تنفك عن طلبك ولا ترجع عن اصرارك ولا تريد ان تصبر ليلة واحدة فها أنا بين يديك فقط. در بوجهك الى الوراء دقيقة بينما أستعد لك ثم افعل ما أنت فاعل وسترى عاقبة الحاحك

فلما سمعت منها هذه البشارة كدت أطير من الفرح وقد ظننت أن الدنيا لم تعد تسعنى فدرت بوجهي فى الحال لتسرع بتدبير نفسها فأنال وصلها ولو قبل بدقيقة ولم يمر على الادقائق قليلة حتي قالت لى هلم در بوجهك الي ونل غرضك واشف مرضك فدرت بوجهى وأنا فى ارفع فرح وأعظم مسرة ولكن ماذا رأيت (والله لا يُرى احدا) رأيت نفسى فى الخرابة التى احضرنى اليها الجزار جالسا في الصندوق الذى رفعت فيه كما تبين فى بداية القصة وقد التصقت يداى الاثنتان فى اطراف الصندوق والظلام قد غطى الخرابة ولم اعد اسمع صوتا ولا حركة ولبثت مدة فى عالم الذهول والحيرة ولما انتهيت من غفلتي حدقت فيما حولى متحيرا لأتأكد اين انا وهل انا فى يقظه أو فى منام واذا بى ارى شخصا يتقدم الى تحت جنح الظلام ولما اقترب مني تبينته واذا هو الجزار وما كدت أتأكده حتى غبت عن الوجود ووقعت مغشيا على فاهتم الجزار باخراجى من الصندوق ثم جعل يرش الماء على وجهى حتى انتبهت ولما سمعت صوته عدت وأغمى على وهو يهتم بى وبقيت اغمى وافيق عدة مرات واخيرا فتحت عينى وجلست

ثم وقفت وأخذت فى البكاء على غير اختيار منى وبعد ان مر على نحو ثلاث ساعات تقريبا وأنا فى حالة يرثى لها اخذ الجزار يسليني ويعزيني وقد قال لى ارفق بنفسك ياسيدى الملك لو كنت اخبرتك عن الحالة التي رأيتها بعينك وبينتها لك بالتفصيل حالة حالة وكل ماشاهدته ورأيته ولمسته واقسمت لك الف يمين لما كنت صدقتني ولو كنت انت تحكي هذه القصة لأحد هل يصدقك كلا ولذلك قصدت ان ارسلك الى هناك كي ترى بعينيك وتلمس بيديك وتسمع بأذنيك فتتأكد هذا البلاء الذي وقع علينا كلنا فألبسنا السواد والآن لم يبق قط من فائدة فقد مضي مامضى ولم يبق فى اليد حيلة فقط عليك ان لا تخبر احدا بذلك فاكتم امرك واصبر على ما بليت به فلك اسوة بنا .

فلما سمعت كلام الجزار شعرت بأن الدنيا قد سقطت على رأسي فاحمرت عيناي حتى لم أعد أرى بهما ما لدى فعمدت إلى إهلاك نفسي فمنعني الجزار وقبض على يدي وإذ ذاك تساقطت الدموع من عيني كالأمطار وما زلت أذرف الدموع حتى شعرت ببعض الراحة وعاد إلى عقلي كل هذا والقصاب يهتم بي وقد قال لي أخيراً ارفق بنفسك ياسيدى وفكر أن ما مر عليك كان فى الحلم لا فى اليقظة فما أنت أحسن من أهالى هذه المدينة فالصبر والاتكال على الله أفضل الأشياء فما الذى رأيته بكاف ليغير من اعتقادك بالله وايمانك به فاعمد الى طلب الصبر منه ترى العزاء والسلوى وإذ ذاك اتكلت على الله فعدت الى الصبر متكلا عليه تعالى لكن خطر لى أن أساوى أهل المدينة فألبس السواد وأصرف باقي عمرى فى الحداد على ما أصابنى وفقدته فوجدت أن الجزار قد هيأ لى الثياب السود فأحضرها معه فأفرغها على وقادنى بيدى تحت ذلك الظلام حتى دخلت بيته فجلسنا دون أن أفوه بكلمة وأنا غارق فى بحر من الافكار أقول فى نفسى أين كنت وماذا رأيت وأين الصبية حبيبتي وجواريها وكيف خسرت ذاك النعيم وتلك السعادة لسبب الحاحى وتعدى على سلطان الجمال واصرارى على جبرها واغتصابها دون حق مع انى ضيفها وربما كانت صادقة فى قولها أنها فى ليلة الاربعين تسمح لى بدوام السعادة فجعلت أعض على اصابعى ندما لكونى لم اسمع منها وقد نبهتني وحذرتني وقالت لى انك ستندم حيث لا ينفع الندم وفيما أنا على ذلك رفع الجزار يده وقال لى ياسيدي الملك ان الندم على ما فات من أشد الحسرات والبكاء والنواح من مجلبات الانزاح والأنين والتنهد مما يزيد المصاب ويعظم العذاب وقد أصبح من المستحيل أن ترى وجه تلك الصبية التي فقدتها وقد مر علينا أكثر مما مر عليك من الحزن والأسف فبعضنا مات وبعضنا جن والباقى كما ترى وما من واحد الى نتيجة وذلك كله من أيدينا لأنه ما من واحد قدر أن يصبر أربعين ليلة على نوال غرضه فحمله الالحاح والاصرار على الانفصال بالرغم عنه عن آلهة الجمال التي كنت عندها وقد جرب الكثير الرجوع ثانية فعادوا إلى الصندوق ونزلوا فيه فلم يتحرك ولا انتقل من مكانه وناموا فيه ليالى وسنين دون فائدة وقد كسروه ليمحوا الناس منه فبعد أن يكسرونه وينشرون قطعه فى الفضاء يرونه فى مكانه كما هو ولما أعيتهم الحيل تركوه صاغرين وصار كل واحد منهم يندب حظه بنفسه ومن العجائب أن ما من واحد نوي وأصر على الصبر أربعين ليلة صبر

أ كثر من الليلة التاسعة والثلاثين . وأنا كنت أحسب الليالي على ذهابك من عندى فلما وصلت إلى الليلة التاسعة والثلاثين تأكدت رجوعك فسرت اليك لآتى بك إلي هنا وأخفف عنك بعض العذاب خوفا على حياتك وعقلك لعلمى انك ملك عظيم وأن الرجوع الي ملكك خير لك من التحسر والتأوه فقد سلمك الله عباده لتحكم فيهم وتعدل بينهم وتصرف باقى عمرك فى النظر الي مصالحهم ولذلك فأنت فى حاجة إلي الحكمة والدراية والتأنى والصبر بعد أن علمت سر مامضى وشاهدته وثبت لديك أن لا أمل بالرجوع الى ماكنت فيه فاتكل على الله ولا تفكر بتلك الحوادث التي مرت عليك كالرؤيا وافتكر بنعمة الله فيهون عليك الأمر ويسهل المصاب .

فتعزيت بعض العزاء بكلام الجزار وملت بأفكارى الى الله ورعيتى وخطرت على بالى مملكتى وبلادى فصرفت باقي ليلتي عنده وفي الصباح ودعته وخرجت من بيته فبعت كل أمتعتى وما لدى حتى خف على الرحيل وخرجت من المدينة حزينا يائسا أقول أواه ياليتنى لم آت إلى هذه المدينة ولم أشاهد ما شاهدت فماذا يانرى كان يضرنى لو كنت صبرت ليلة أخرى ولا خسرت ذلك النعيم كل هذا كنت أفكر به وأنا فى الطريق وقد صممت على ترك الملذات والافراح ونويت أن اصرف باقى عمرى بعيدا عن كل حظ ومسرة عاكفا على عمل الخير والاحسان وبعد أيام دخلت عاصمة مملكتى ومنذ ذلك اليوم وأنا بعيد عن كل مسرة وحظ كما تريننى فهذا هو السبب فى حزنى ولبسى السواد

ثم قالت الجارية لوالدتى انه ما انتهى الملك من كلامه إلى هذا الحد حتى تأوه وتنهد وصاح من الألم ووقع إلى الارض مغمى عليه فاضطربت وتأثرت لمصابه تأثرا عظيما ولذلك لم أعد قادرة على أن أتمالك نفسى فوقعت فوقه غائبة عن الوجود ولم أفق إلا والخدم والجوارى حولى يرشون الماء على وجهى فلما تمالكت نفسى لم أر الملك ثم سمعت أصوات البكاء والعويل فنهضت مذعورة وسرت بعض خطوات وسألت الجوارى عن الملك وعن هذا العويل فقلن لى ان الملك قضي نحبه فما طرقت أذنى هذه الكلمة حتى عدت إلى الاغماء ثانية ولبثت على ذلك عدة ساعات ثم حضر إلى بعض الوزراء فسألونى كيف قضى الملك نحبه مع أنه كان بالامس بصحة جيدة فقلت لهم كنت وإياه على خلوة ونحن فى حديث فطلبت اليه أن يخبرنى عن السبب الذى أوجب لبسه السواد وتركه الحظ والفرح .

فلما سمع كلامي أخذ يبكي ويذرف الدموع السخينة وبدون أن يفوه بكلمة صاح صيحة عظيمة ووقع على الارض مغشيا عليه فارتعدت وتأثرت ورميت نفسي فوقه دون وعى ولا إدراك ولم أفق إلا والبكاء والنواح قائم فى القصر فصدقوا كلامي وقد امتلأ القصر برجال الدولة وأعيان المدينة كلهم ينوحون على الملك ويندبونه ثم واروه التراب أما أنا فمن حينئذ تأثرت كثيرا على الملك وعلى ما أصابه فى القصة التى رواها لى وقد رأيت نفسي بعد الملك مهملة متروكة زهدت الدنيا وسكانها فلبست السواد وعاهدت نفسي أني لا أتركه طول عمري وقد مرت على السنون وتغيرت الأحوال وتقلبت على حوادث كثيرة وأنا كما ترين . فهذا سبب لبسي السواد وقد أخبرتك به . وما انتهت من حديثها حتي تحسرت وتنهدت ووقعت الى الارض مغشيا عليها .

وأما والدتي فانها عندما سمعت من الجارية هذه القصة تأثرت منها كثيرا وأذرفت دموعها على خديها لما لحق بها من الشفقة عليها ثم مالت اليها وأمرت باحضار الماء والروائح الزكية فصبتها على وجهها ولكن بدون جدوى لأن الفتاة كانت قد قضت نحبها ولحقت بمولاها الملك . فزاد لذلك غم والدتي وعظم عليها الأمر وفى الحال أمرت بدفنها على الاعزاز والاكرام فدفنت .

ولما وصلت بنت ملك الهند من حكايتها الي هذا الحد سكتت وأما بهرام شاه فقد تأثر تأثرا عظيما من هذه الحكاية وغاص فى الافكار مظهرا غاية التعجب مما سمع وإذ ذاك أطلقت فصيح لسانها بالدعاء للملك وقالت له . أجل يا حبيبي وفخرى فانى سمعت هذه الحكاية من أمي وأنها بعد أن دفنت تلك الجارية ذات الثوب الاسود كان حظ أمي أن لبست الثوب الاسود وهي تتعجب كلما خطرت هذه الحكاية على بالها وتتأثر منها وصارت شغلها الشاغل ولم تعد قادرة أن ترفعها من خاطرها ولأجل ذلك اختارت جاريكم لبس الاسود لأبقى متذكرة هذه الحكاية فلا أنساها مع أن اللون الاسود مقبول ومرغوب وهو أليق من غيره مع أنه مبارك وذو قيمة . وهم يقولون ان ماء الحياة فى داخل بحر الظلمات وان اللون الاسود على الابيض من أبدع الزينات ألم يكن انسان العين أسود وهو أفضل ما فى الانسان وكذلك الليل أسود ولسبب سواده يرتاح الانسان تحته من الاتعاب ويكون أمينا من الهموم مغمورا بالحظ والفرح والمداعبات والملاعبات مع حريمه اللاتى وجدن لبسطه وأنسه

ولما انتهت بنت ملك الهند من حديثها كان الليل قد أقبل فقالت له وهاك يا سيدى أثبت لك ما قلته وأقدم لك دليلا واضحا فالليل قد أقبل وجاء زمن الانبساط والانشراح . فسر بهرام لكلامها وضمها اليه فقبلها فى عينيها وأمر باحضار موائد الصفاء لانه قد سر منها سرورا لا مزيد عليه وقد عدجيئه للقصر الاسود فأل خير بناه على هذا البرهان الذى سمعه من زوجته فحمله على أن تزيد محبتها فى قلبه وتتضاعف وأقبلا معا على الحظ والانبساط

ولما جاء وقت الطعام هيأت سفرة عليها من كل أنواع الطعام الفاخر الزكي فجلس عليها الاثنان وبعد تناوله الطعام دخلا الى غرفة خاصة كانت مزينة بجميع أشكال الزينة فرآها مناسبة للراحة وصرف السهرة فيها علي ما يرغب وبعد أن أقام فيها مع زوجته على المداعبة واللعب والعناق والتقبيل جاء وقت النوم فدخلا السرير بكمال السرور والنشاط فصرفا عليه ساعتين لا ألذ ولا أشهى منهما على قلب العاشق الولهان ثم خضعا لحكم سلطان النوم فناما حتى الصباح .

وفى الصباح نهضت الفتاة قبل بهرام شاه فهيأت معدات الحمام وعادت فوقفت عند رأسه حتي استيقظ فرآها تنتظره فمد يده وسحبها اليه ثانية وعانقها ورفعها إلى السرير وداعبها ولاعبها ريثما هدأ شوقه وسكن بلباله ثم دخلا الحمام واغتسلا وهما على ما هما عليه من الانبساط والانشراح وكانت قد سألته بعد أن يخرج من عندها إلى أى قصر يريد أن يذهب اليه فقال لها إلى قصر هماي بنت ملك الروم ولذلك أحضرت اليه ثوبا ملوكيا أصفر اللون فأفرغته عليه بيدها وهى ترشه بالروائح العطرية وتقبله وتضمه . وقد تعجب بهرام من عملها ومن تهيئتها الثوب الأصفر موافقة لضرتها التي سيذهب اليها فسألها قائلا لا يمكن للمرأتين المتزوجتين برجل واحد أن تحب احداهما الأخري أو تميل اليها فلماذا هيأت لى الثياب التى ألبسها عند ضرتك المزمع أن أبيت عندها في الليلة الآتية فأجابته بعد أن دعت له بدوام العز وطول البقاء اعلم يا سيدى ومحبوبي أنك تكلمت بالحق وأتيت بما عليه أكثر العالم لكن العاقل من النساء والرجال لا يترك مجالا لايجاد القيل والقال ولا يأتى سببا يكون وراءه الهم والغم والنزاع ولا يفكر لحظة واحدة بالمشكلات والمجادلات العديمة الفائدة فلو فرضنا الآن أن اهتم الانسان بالمحال أو صرف أيامه بالهم والكدر أيجد من ذلك فائدة فهل لو كنت أصر الآن وأرجوك قائلة

اكراما لى ولأجل خاطرى اترك نساءك الست واصرف أيامك عندي أيمكن لك
أن تتركهن وأنت على ما أنت عليه من العقل والحكمة والانصاف والميل إلى المساواة
بين الرعية فكم بالحرى بين أهل بيتك وحريمك . فأجابها بهرام شاه لقد أحسنت
لأنك لو سألتني هجر غيرك والبقاء معك لجلبت لى الهم والكدر دون فائدة وربما
نفر قلبي منك غير أنك حملتنى على الامتنان منك بالمحافظة على راحتي وهنائى وعدم
تكدير صفو حياتي بالقيل والقال والتشكى ولا أرى بداً من مكافأتك برفع
مكانك فى فؤادى لأن الزوجة العاقلة هي التى لا ترى إلا راحة زوجها وابعاد
الأضرار والأكدار عنه والاهتمام بكل مايرضيه ويسره وبذلك تستعبده وتعيش
معه العمر مكرمة سعيدة . ثم إن بهرام بعد أن خرج من الحمام وارتاح قليلا
وشرب ما كان قد هيىء له من الشرابات اللوزية وماء الورد الممزوج بالسكر قام
لوداع زوجته نور فقبلها وقبلته وسارت برفقته حتى منتهي السلم وهناك أعاد
التوديع ثانية ثم ركب وسار بالعز والاجلال لابسا الثياب الصفراء

﴿ بهرام شاه فى قصر هماى ﴾

ولما ودع بهرام شاه بنت ملك الهند صاحبة القصر الأسود كما تقدم وخرج
من عندها فى صباح يوم الاحد محفوفاً بالخدم والحشم قاصدا القصر الاصفر
حيث تقيم الملكة هماى بنت ملك الروم فلما قرب من القصر ترجل عن جواده
ودخل بها إلى الحديقة وكان فى وسط الحديقة بركة من الماء مزينة بالنقوش
ومحاطة بالكراسى والاسرة الذهبية الصفراء فجلس واياها على سرير واحد
مفروش بالحرير والاطالس الصفراء وبدأ بالانبساط والانشراح واللعب والمزاح
وقام بين يديهما الجوارى والخدم يتلقون الاوامر ويتسابقون الى مايطلبه مولاهم
ومولاتهم وبعد أن استقر ببهرام شاه الجلوس ورأي نفسه بغاية البسط والانشراح
وفى يده والى جانبه زوجته هماي وهى من أبدع خلق الله صورة قام فصلى صلاة
الشكر لمولاه وشكره على نعمه وكرمه حيث ملكه ملكا واسعا وأوصل الى
يده سبع بنات من بنات أعظم ملوك العالم وأجمل فتيات الدنيا ثم عاد فجلس واذذاك
قامت بنت ملك الروم فوقفت بين يديه ودعت له بالبقاء وطول العمر وسألته
اذا كان يتنازل ويسمح لها أن تحكى له حكاية من حكايات الزمان العجيبة ويمن
عليها بالاصغاء الى كلامها . فسر لذلك وأبان لها رغبته الى سماع حديثها فأعادت

الثناء عليه والدعاء له وجلست فى مكانها الى جانبه وأخذت فى الكلام فقالت :

حكاية ملك العراق

يحكي أنه كان فى بلاد العراق ملك حكيم عاقل عادل منصف صغير السن لا يتجاوز الثلاثين من العمر وكان علي جانب عظيم من العلوم والمعارف لانه كان قد درس كل فن من فنون الآداب حتي حساب النجوم والافلاك وغير ذلك من العلوم والفنون ففي ذات يوم رأى أن يعمل لنفسه طالعا يعرف ما يكون له من نحوس الزمان وسعوده فتبين له أنه فضلا عن أنه لا يكون له حظ من النساء فقد رأى أيضا أنه سيناله ضرر بسببهن ولذلك تكدر فى نفسه وصمم على أن يصرف العمر دون زواج فيبقي بكرا الي أن يقضى الله أمرا كان مفعولا وينتهى عمره ولم يعد يريد أن يسمع باسم النساء وبناء علي ذلك صرف مدة طويلة لا يخطر بفكره جنس النساء قط الى أن غلب عليه حكم القضاء وأخذت أفكاره تتغير شيئا فشيئا ونفسه تطلب معاشرة الغادات ومبارزة ذوات القدود ومناهدة ذوات النهود فقال ذات يوم فى نفسه لو بقيت أنا بكرا ولم أتزوج وأقرب من النساء فمن المقرر أنى لا أترك وريثا للسلطنة فالاحسن أن لا أستمر على البكارة ولكن ما الوسيلة والهم كل الهم فى وجه النساء وكان كلما انفرد فى خلوة تلاعبت به هذه الخواطر والهواجس وحمله تيار الافكار على تسهيل المصاعب واحتقار المتاعب مع التوغل فى الحزن والملل مشتكيا من طالعه وسوء حظه الذى كتب له مع النساء حيث أن كثيراً من الناس من يكون له حظ وافر ونجم زاهر فى سماء القلوب اللطيفة فيصادف مشتهاه ويلاقي فوق ما يتمناه دون تعب ولا مشقة وربما كان غير حسن الصورة وغير حائز لاى فن من فنون الآداب فان كثيرا من الناس ممن كتب له عدم التوفيق فى معاشرة الجنس الرقيق وان يكون مقبولا محبوبا فانه يكون أديبا وما ذلك الا بحكم الاقدار فضلا عن أن الكثير من الرجال ذوي الآداب والنفوس الكريمة والاخلاق الوديعة والصفات والمزايا النادرة تكون همومهم ومصائبهم وبلاويهم ناتجة عن اتصالهم للنساء وميلهم لهن وتعلقهم بهن

ومالبثت من الأفكار موضوع اهتمام الملك ومازالت تقوى من يوم إلى يوم وتنمو من ساعة إلى ساعة حتى أملمه الفكر وأضناه الهم وأخيرا قال من الموافق

أن أجرب طالعى دون أن أمتزج بالنساء امتزاجا حبيا وأختلط بهن اختلاطا أبديا وعلى ما أري أن من كان مثلى سلطانا عظيما وملكا قويا لا تجسر النساء على الحاق الضرر به أو أذيته بل بالعكس يكون مبجلا معظما مكرما محترما فى غبطة ونعمة فمن المناسب أن أرى طالعى دون الامتزاج بهن والوقوع تحت طائلة حبهن حتى اذا تبينت الضرر فى عشرتهن انسحبت وتركتهن ولما قر رأيه على ماتقدم حضر اليه وزيره الأول ومستشاره وأطلعه على ماتقرر فى ذهنه ومانوى عليه فاستحسن الوزير هذا الأمر ووافقه عليه وقال له أن ما أراه مناسبا ومستحسنا أن تأخذلك عدة من النساء فاذا كن على ما تحب أبقيتهن وإذا وجدت فيهن من لاتوافقك أخرجها وابدلها بغيرها حتي ترى أنهن قد أصبحن على حسب مشتهاك .

فوافق الملك على ذلك واشترى نحو عشرة جوارى ووضعهن فى قصر مخصوص كان قد أمر بتهيئته وإعداده لهن وفى ظنه أنه يعيش معهن على المسرة والحظ ولما كان يعلم أن للعجائز من النساء الدهاء والفطانة ماليس لغيرهن عين عجوزا شمطاء داهية دهياء لكي تراقب الجوارى وتفحصهن وترى من منهن تليق ومن لا تليق وتكون مديرة عليهن وسيدة فوقهن (ومن المقرر أن حال العجائز معلوم) وان قلنا أن حال العجائز معلوم فاننا لانقصد الكل منهن بل اكثرهن . والنتيجة أن تلك العجوز أمرت بتربية وتعليم الجواري مع أنهـا كانت إلى حد أسبوع تكتشف حالة الجارية وتستخرج من رأسها خبايا مزاياها . وذلك أنها عندما كانت تقرب الجارية إلى الملك كانت تعظمها وتفخمها وتدعوهـا باسم ملكة وتبين لهـا أنها أصبحت زوجة الملك المقدمة فتصدق تلك المسكينة وتقول فى نفسها مادمت أنا الملكة وحرم الملك الخاص فلماذا أتملق باقي الجوارى وأشاديهن فى المقام والعمل فتأخذ فى أن تنهى وتأمر وفى مدة أسبوع تخرج كل مافى جعبتها فتكدر هذه وتوبخ تلك وتشتم هاتيك الى غير ذلك من شروط الامرة والعظمة وحين تراها العجوز على هذه الأطوار تقول فى نفسها ياخائنة ياخبيثة إن تركتك على غيك أوصلت لى اذاك وألحقت بى شرك وربما تسببت فى طردى من بيت الملك فتأخذ فى أن تعائدها وتلومها على عملها مع الجوارى فتقابلها بالاهانة وتقول لها ماشأنك ودخلك فى ما لا يعنيك فأنا أدرى بحالى وبعملي فتذهب العجوز الى

الملك شاكيـة نائحة وتخبره بسوء أخلاق الفتاة ومعاملتها أياها بالقوة والعنف وأنها غير موافقة له . فيغضب على الجارية ويقول للعجوز معاذ الله أن أرضى بغضبك أو أقبل اهانتك فالجارية التى لا ترضيك ولا تسر بطاعتك ولا ترين فيها السكينة والحكمة والتعقل والكمال لا تبقيها فى القصر لأنى لهذه الغاية أتيت بك ومنـذ تلك الساعة ينفر الملك من الجاريه ولا يعود يقبل أن يراها . فتقدم له العجوز غيرها وتدخل معها فى طرق الخداع والدسيسة وعدم التكليف مدة يومين أو ثلاثة والملك يقربها ويدنيها منه ويبين لها حبه واخلاصه ويقدمها حتى ترى فى نفسها أنها صارت صاحبه المقام والملك واذ ذاك تغير العجوز مشربها ومعاملتها للفتـاة فيصيبها ما أصـاب غيرها وهكذا حتى طردوا كل الجواري اللاتى أتوا بهن أولا ثم يأمر الملك بشراء غـيرهن كل ذلك والملك لا يعلم خيانة العجوز ودهاءها ومكرها وانها هى المسببة فى طرد الجواري بمعاملتها الظالمـه وأنه لو كان فى الجوارى دهاء ومكر لأدركن دسائس العجوز وقابلنها بالمثل وحاربنها بسلاح المكر وتلقين هجومها بمجن الخداع والحيل بل كن جميعهن من البساطه بحيث لا يعرفن النميمة ولا يسعين فى ضرر لتلك العجوز التي تضع فى طرقهن العقبات وتحفر لهن الحفائر لترميهن على أم رأسهن .

وبناء على أمر الملك ذهب الوزير الى السوق فاشترى غـيرهن . وجاء بهن الى الملك وفى مدة شهرين أصابهن ما أصاب غيرهن مع أنهن كن يقمن بالواجب اللائق ويبذلن جل ما فى وسعهن لرضائه وخدمته ومع ذلك لم يصادفن منه الا النفور والجفاء ومن أين يطيب لهن أو للملك الزمان والعجوز أم الخبائث والدسائس قائمة لهن بالمرصاد ولا تترك للملك مجالا للتمكن من مقابلتهن بالمثـل ولا تدعه يرضى عن واحدة لأكثر من يومين او ثلاثة ايام او اسبوع على الـكثير ريثما يكون قد نال منها غرضه من المؤكد ان الملك فى هذه المدة القصيرة يكون مهتما بنوال مراده وقطف زهرة غرضه فحالما يأتى الوقت الذى يفكر الملك بأن يعلق نفسه بالفتاة تأتيه العجوز بغيرها وتبين له انها اوفق وأصلح من تلك وانها ذات حسن باهر وجمـال زاهر وانها لا تزال بكرا عذراء فيميل اليها حتى صار ذلك عادة فيه فأكثر من شراء الجواري وامر بالبحث عن كل فتاة جميلة بديعة في كل انحاء مملكته حتى شاع امره بين الرعيـه واشتهر ذكره بحب النساء وسموه

بدلال النساء .... وقد مر عليه مدة على هذه الحال وصارت ترد عليه تجار الجوارى من سائر الجهات طمعا بالأرباح والمكاسب الى أن كان ذات يوم وهو فى قصره دخل عليه كبير الدلالين فوقف بين يديه وأكثر من الدعاء والثناء ثم قال له لايخفي على مولاى أنه حضر فى هذا اليوم نخاس من الصين ومعه عدة من الجوارى كأنهن الأقمار وبينهن جارية لا أظن يوجد مثلها فى جميع الأمصار لا أقدر أنا ولا غيري أن يصفها حق الوصف وليس النظر كالعيان فاذا شئت فاصدر أمرك باحضار التاجر المذكور ودعه يأتيك بالجوارى اللاتى معه لترى هذه الجاريه .

فلما سمع الملك هذا الكلام فرح غاية الفرح وأمر فى الحال بعض حاشيته ان يذهب مع الدلال ويأتيه بالتاجر ويأمره بأن يستصحب معه البنات ليختار مايحلو له منهن فسار ولم يكن الا القليل حتى عاد مصحوبا بالتاجر والجوارى الصينيات ولما مثلن بين يدى الملك نظر اليهن ورأي فيهن من الحسن ما اعجبه لكنه لم يقدر ان يعرف الفتاة التى أشار اليها الدلال لأنهن كن فى الحسن متقاربات ولذلك سأل الدلال أن يدله على التى وصفها فقال اطال الله عمر سيدى الملك ان الجارية التى رأيتها وعرضت صفتها لعظمتك هى ليست هنا فلم يحضرها مع البنات فزاد عجب الملك وسأل التاجر هل لايزال عندك غير هذه الجوارى واين الفتاة التى يشير اليها الدلال فأجاب بعد الدعاء نعم ياسيد البلاد وولى نعمة العباد لايزال موجودا عندي جارية من احسن الجوارى لااظن لها ثان بين بنات حواء لكن لما كنت أعلم أن بها صفة لاترضي سيدى الملك لم أحضرها مع بقية الجوارى لتأكدى أنها لاتليق بعظمتكم خوفا من أن يهيج عليها غضبكم أو تكون سببا لتكدير خاطركم .

فزاد تعجب الملك من التاجر وقال له ماهي الخصله الرديئة التي توجب تهييج غضبي قال أطال الله عمر سيدى الملك ان لهذه الفتاة مدة سنتين عندى وقد بعتها ست مرات والذي يأخذها فى المساء يعيدها الى في اليوم الثاني أو الثالث وذلك لأنها تكره الرجال ولا تحب مايحبه غيرها من النساء فلا تمكن أحدا منها ولو قطعوا رأسها مع أنها كاملة الأوصاف باهرة الجمال زاهرة الخصال فصيحة اللسان خفيفة الروح لذيذة المعاشرة يسر منها جليسها ويثمل بخمر حديثها سامعها ولولا هذه العلة لكانت أليق فتاة بمعالى عظمتك .

فلما سمع الملك هذا الكلام زاد به العجب والرغبة الى مرأى الجارية فأمر التاجر باحضار الفتاة بالسرعة فرجع التاجر الى مكانه وعاد ومعه الجارية فقدمها للملك فلما رأى الملك حسنها وجمالها وشاهد رقتها ودلالها مال اليها قلبه كل الميل وأصبح فى الحال مغرما بها ولهانا واكتوي قلبه بنار الحب وقد أعجبته كثيرا وعلى الخصوص بعد أن سألها بعض أسئلة أجابت عليها برقة وأدب وحكمة غريبة وقد تعجب من سعة علمها واطلاعها وقد فكر فى نفسه قائلا أنا آخذ هذه الجارية فلعها ترضى وتمكنني منها فألتذ بمعاشرتها ووصالها ثم افهم منها ما هو السبب الذى حملها علي كره الجماع فلا يمكن أحدا منها اذ لابد لذلك من سبب وفي الحال اشتراها من التاجر ونقده الثمن وأرسلها الي قصر الحرم .
ولما كان المساء دخل الملك الحرم فرأي أن الفتاة قد أحضرت كل أسباب الحظ وهيأت معدات الملك فوق ما يجب وزينت غرفة جلوسه ورتبتها ترتيبا موافقا فى خدمته فسر من ذلك غاية السرور وزادت محبتها فى قلبه أضعاف الاضعاف وبعد أن استقر فى مكانه دعاها اليه وأمرها بالجلوس فأبت وقالت له ان قدرى لم يبلغ إلي هذا الحد فهل يليق بى وأنا جارية حقيرة خلقت للخدمة أن أجلس فى حضرة سيدى ومولاى الملك العظيم صاحب القدر والشأن والملك والسلطان فأطرق الملك لهذا الكلام ولم يفه ببنت شفة وقد قال فى سره فلندعها بضعة أيام وبعد ذلك نري كيف تصير .

ومن ثم تبسم لها وعاد مشغولا عنها وقد دعا العجوز فأخذتها لتعتني بها وتهتم بشأنها ولما رأت أن الملك يرغب فيها ويهتم بها ويميل اليها انفطرت مرارتها وقالت لا نفع فى حياتى اذا كنت أترك الملك على هواه .

وفي اليوم الثانى خرج الملك الي دار الأحكام كسابق عادته فأرادت العجوز أن تمتحن الفتاة وأخذت فى ذم السلطان وشتمه أمامها ففي الحال احمرت وجناتها وهاج غضبها وأخذت تلتهب ككانون من نار ودنت من العجوز فلطمتها على وجهها عدة لطمات وقالت لها ألا تستحين منى وتراعين جانبي ياخائنه وناكرة الجميل فانك تأكلين خير الملك وترتعين فى نعمه وتشتمينه دون حياء وخجل هل أن ذلك منك عن قلة وفاء أو أنك تجربينني وتقصدين الضرر بى ثم أعادت الضرب عليها وطردتها خارج الغرفة وأوصدت الباب من خلفها فعظم الامر على

العجوز وكبر عليها المصاب كيف أنها تعاملها بالشتم والضرب بخلاف بقية الجوارى التى كن يخفن منها ولا يتطاولن عليها وقد أقامها الملك عليهن مراقبة .

ولكنها صبرت حتى المساء فدخل الملك دار الحريم فأسرعت الجارية فى الحال لاستقباله من بعيد وقبلت ذيله داعية له بكمال الاعتبار والاحترام فأخذها الملك من يدها وقبلها فى وجهها وسار بها الى الغرفة المخصصة لجلوسه وجلس فى مكانه ووقفت الفتاة بين يديه منتظرة خدمة أو أمرا فطلب إليها أن تجلس فأبت وامتنعت وأبدت لديه معذرة لطيفة مقبولة فسكت وقد اشتد به الحب المقرون بالاعتبار والوقار حتي أصبح كالمخجول أن يطلب اليها أن تجلس بالرغم عليها وأن يمد يده اليها ويلاعبها ويداعبها وينال غرضا منها بل بقى جالسا ينظر فى جمالها ويتأمل فى معني كمالها وهى واقفة بين يديه تنتظر أمره بما يريد من الخدم وفيما هما على ذلك دخلت العجوز بغتة وألقت بنفسها على أقدام الملك

فلما رآها على هذه الحالة تعجب وعلي الخصوص لما رآها تكثر من البكاء والنحيب فسألها عما أوجب لها ذلك فزادت فى التشكى والأنين وقالت له أيليق بمقامك العالى أن خادمتك الأمينة علي أغراضك وعلى صالحك التى ربتك وأنت صغير وكانت لك فى مقام الأم الحنون أن تهان وتضرب وتحتقر من الجارية التى أتيت بها الأمس وهى مجهولة النسب لا أصل لها ولا حسب .

فتأثر الملك من كلام العجوز كسابق عادته وعلى الخصوص من كثرة شكواها وأنينها واحتيالها وتلونها فى التذلل والخضوع ونظر إلى وجه الصبية فرآها لم تتأثر ولا تغيرت قط وقد احمرت وجنتاها ووجهها وبان عليها أنها لولا الحياء منه لكانت هجمت عليها وضربتها في الحال وبعد أن أمعن النظر فيها وتفكر فى حالتها ورأى أن خديها قد توردا من الغضب بلون الجلنار وسال العرق فوقهما كنقاط من اللؤلؤ فزادها بهاء وجمالا أصبح فى حالة العدم وكاد يغيب عنه صوابه ثم افتكر فى هذه المحاكمة الواقعة بين يديه فقال في نفسه نعم من العبث والعار أن تضرب أمينة الملك في بيته وعلى الخصوص إذا كانت مربيته وفى مقام أمه . ولكن هل يتصور العقل أن فتاة كاملة الاوصاف بديعة المعانى تتعدى عليها وتضربها بلا ذنب ولا سبب عظيم فلا بد أنها تطاولت عليها أو شتمتها وأهانتها ولذلك استحقت الضرب نعم ليس فقط مربيتى أو أمي بل كانت إهانتنى نفسي لو عاملتها بالقسوة والعنف . وكان يفكر بمثل هذه الافكار وهو

محدق بالفتاة وأنوار جمالها تتدفق من ينابيع المحاسن التي خصها الله بهـا وميزها بأدبها وكمالها عن سواها وحينئذ رفع الملك رأسه وقال للعجوز انى على يقين أنها ما ضربتك إلا لتعديك عليها وإطالة لسانك انك امامي وفى حضرتى تقصدين إهانتها وغضبها بقولك عنها لا أصل لها ولا حسب فهذا الـــكلام وحده كاف لمجازاتك وقصاصك ألا تعلمين أن شرف الملك يشرف كل من فى حوزته فيجعلهم ذات أصل وحسب ويرفعهم عن باقي رعيته خصوصا حرمه الخاص فأنت ليس فقط تقصدين تحقير الفتاة بل تقصدين تحقيرى أيضا

ثم أمر فى الحال باحضار عدة جوارى من الجوارى السود وقال لهن اليكن هذه العجوز الشمطاء فاحبسنها في غرفة مخصوصة وليقم على حراستها أربع منكن ولا تدعنها تخرج خارج الغرفة إلا لقضاء حاجة ضرورية واذا بلغنى أنها ملـكت حريتها ساعة واحدة أو كلمت أحداً أو خرجت بلا داع موجب أعدمتكن الحياة فأطاع الجوارى الأمر وسجن العجوز وفعلن بها كما أمر الملك وشددن عليها كل التشديد لأنها كانت تعذب الجميع

وأما الفتاة فانها لمـا رأت أن الملك جازى العجوز من نفسه دون أن يسألها عن السبب بل قرأ ذلك فى وجهها طاب خاطرها وانصرف عنها الغيظ ورأى الملك منها ذلك فسر وقال في نفسه لا بد أن معاملتى هـــذه ترضيها فتلين وتخضع فأتلذذ بوصالها وأتمتع بجمالها وأتغلب على عنادها كل هذا والفتاة قائمة بين يديه تخدمه وتجتهد فى انفاذ أوامره حتى انقضى الوقت فانصرفت الى سريرها ونامت الى الصباح

ومضى على الملك خمسة أو ستة أيام صابرا متأنيا لا يفاتحها بأمر حتى اشتد به الوجد وهاج الغرام ولم يعد فى امكانه الصبر والاحتمال ففي ذات ليلة أمرها بالجلوس فأبت فأكثر من الالحاح والتشديد

ولمـا رأت أن لا مندوحة من الجلوس وأن عدم جلوسها ربما يغيظ الملك ويكون عناداً لاصراره وأمره جلست وهى تقول كيف العمل (الأمر فوق الأدب) وحالما رأى الملك أن الفتاة أطاعت أمره وجلست كاد يطير من المسرة والفرح وقد استدل من ذلك على أن الامر قد هان وأنها أصبحت راضية بتسليم نفسها اليه وتقربها منه وأخذ في ملاعبتها ومداعبتها ويقول فى نفسه انه ربما تكون نفرتها ليس من كل الذكور بل من اناس عرفتهم أو اشتروها ولم يرضوها

وعلى الخصوص أن الفتاة لم تمانع فى مد عنقها اليــه ليقبلها والقاء نفسها عليه ليضمها ولا فترت عن التبسم والدعاء ولا أبدت ممانعة أو مخالفة لأمر الملك ودام الحال على هـذا المنوال حتى انقضى الليل وطلب اليها الملك أن تصحبه إلى السرير فأبت واعتذرت وأبانت له عدم رغبتها فى ذلك واستمالته بألفاظ رقيقة مشهية اقتنع منها الملك ورضى بها وسمح لها بالذهاب لغرفتها وفى قلبه غصة تكاد تذهب بصوابه وهو لا يعرف كيف يتصرف معها فانها متسلطة على عقله وقلبه تسحره بكلامها وتأسره برقة حديثها وسحر بيانها حتى يتغلب على هواه ويقهر نفسه عن طلب مشتهاها ولا يقوى على اجبار الفتاة ومخالفتها

وفى الصباح نهض من سريره فوجدها بانتظاره لاداء واجب الخدمة فضمها اليه وقبلها ومن ثم خرج من القصر الى ديوان الحكم وعاد فى المساء وقلبه يطير أمامه فوجدها فى انتظاره فلاقته بالتأهيل والترحيب ومشت فى خدمته الى مكان جلوسه وهي على الخدمة والادب وبعـد أن خدمته بنفسها الخدمة اللازمة أمرها فجلست بقربه ومدت له عنقها فقبلها ومرت عليه هذه الليلة كالليلة الماضية وكذلك الليـلة الثالثة حتي مرت عدة ليال وهو مكتف منها بالضم والعناق والتقبيل فقط كل هـذا والعجوز محبوسة تحت تضييق الجواري والعبيد وقد سلكت كل طرق الحيل والخداع والمكر والتذلل للخلاص فلم تنج ولا أمكن الافراج عنها بل بقيت الصبية مصرة على التشديد عليها خائفة من شرها ومكرها أهلكها الله وأهلك كل عجوز محتالة وأهلك كل من لا يقول آمين .

آمين آمين لا أرضي بواحدة   حتى أبلغها ألفين آمينا

ومرت عدة أيام والملك علي حاله مع الصبية وقد رفع الخجل والحيـاء من بينهما وصارا على حرية تامة بين بعضهما البعض ولم يكن ممنوعا بينهما الا الوصال مع أنها جارية الملك وهو مالك لها متسلط عليها وله القدرة على الذى يرغبه والذى لايرغبـه فاذا رضيت كانت تفعل ماهو واجب عليها واذا امتنعت نفي وسعه أعدامها أو بيعها أو حبسها لـكن بالنظر لدلالها ورقة معانيها وعذوبة ألفاظها وترفع آدابها وشرف خصالهـا أصبح الملك أسيرا يسير بارادتها كالريشة فى مهب الريح ولا يفعل إلا ماتأمره به ولا يسمع إلا ماتقوله وانها وان كانت لاتقول من له شيئا بصفة الأمر بل بالالتماس والرجاء لـكنه كان يرى فى كل كلمـة

كلامها الفرض الواجب عليه ويرى نفسه مسرورا عند ما كان يفعل ماتقول أو ماتريد ويحسب نفسه سعيدا وكان كل هذه المدة يبحث فى داخله عن الوسيلة التي يقدربها أن يتمكن منها وينال غرضه دون أن يكدرها أو يخالف أرادتها والأهم من ذلك انه كان يحب أن يعرف السبب الذى بغض اليها الرجال . ففي ذات ليلة بينما كانا على الحظ والانشراح والمداعبة والملاعبة والبوس والعناقه قال لها الملك . أي محبوبتى الحسناء ومالكة قلبي وفؤادى لو كنت اتخذتك جارية لى كغيرك لكنت براحة تامة وكنت خففت عن نفسى الآلام والعذاب ومنعت عن عينى كثرة سكب الدموع وما كل هذا وانا أخفى أمرى وأتجلد وأتصبر وأتحمل عذاب غرامك حتى طفح الكيل ولم أعد قادرا على الصبر . والآن أريد أن أسألك سؤالا واحدا وأؤمل منك أن تصدقيني الجواب وتطلعيني على الحقيقة لأن فى الحقيقة السلامة ولابد أنك تعلميني قصة سليمان عليه السلام وماذا كان من نتيجة الصدق وعدم المين والتلاعب وقد أشفي الله ابنه من المرض الذى لحق به وكان يورده موارد الحمام والهلاك .

فلما سمعت الجاريه كلام الملك تقدمت منه وقبلت ذيله بكمال الحشمة والأدب ودعت له بدوام العز ورفعة الملك والسلطان ثم قالت له إن جاريتكم يا مولاى بانتظار أمركم فى كل آن وزمان وليس من قدرى وانا جارية لعظمتكم وخادمة امنية مطيعة لاشارتكم ان اتكلم فى حضرتكم غير الصدق والصحيح وتراني ياسيدى ومالك رقى مستعدة لأن اجيبكم على ماتأمرونى به بكل صدق وأمانة لكن أتجاسر أنا الحقيرة المشرفة بالتفاتكم وعنايتكم أن تتكرموا على رقة وكرما بقصة سليمان الحكيم لأبي أجهلها فسر الملك من كلام الجارية سروراً عظيما وفى الحال قبض عليها من يدها وأدناها منه فقبلها بين عينيها ثم أجلسها الى جانبه وقال لها هاك قصة سليمان عليه السلام فاسمعيها .

حكاية سليمان عليه السلام

كان سليمان نبي الله ذات يوم جالسا مع زوجته بلقيس وأمامهما ولد لهما ولد ويداه ورجلاه ملتصقان بعضهما بالبعض وكل منهما ينظر اليه آسفا على حالته منفطر الفؤاد لأجله تسيل الدموع من عينيه حزنا وكدرا على تلك الخلقة التى

خلقه الله بها وبعد مرور ساعات على تلك الحالة قالت بلقيس لسليمان انى أتأثر جداً كلما رأيت يدي ولدي ملتصقتين ببعضهما البعض ورجليه كذلك فهل ياترى من وسيلة لجعله مثل غيره من بني الانسان فمثلك نبي عظيم يغيب عنه ذلك فهل ياتري إذا صلينا لله تعالى عز شأنه وتضرعنا اليه أن يخلصه مما هو به ألا تستجاب صلاتنا .

فرأي سليمان أن ذلك مناسبا فانسحب واياها الى خلوة وصحبا الولد معهما وأخذا بالصلاة والتضرع إلى الله أن يرحم ولدهما وفيماهما على ذلك أوحى الله اليهما قائلا لهما ان صلاتكما وصلت الى وأدعيتكما مستجابة لدي ولكن شفاء ولدكما متوقف على أمر واحد فاذا فعلتماه انفكت يديا الولد ورجلاه عن بعضهما البعض وذلك أن يعترف أحدكما للآخر بالذى يضمره ويكشف له خفايا قلبه ومكنوناته .

فلما عرفا ذلك أخذهما الحياء والخجل وغاصا بالأفكار والتأمل برهة . ثم دار حضرة النبي سليمان وجهه من بلقيس وقال لها من العيب والعار أن أخبرك بخفايا قلبي لكن ما الفائدة وقد أمر الله سبحانه وتعالى وصار من اللازم أن أخبرك بالصحيح دون زيادة ولا نقصان (انى مع ما أنا عليه من الجاه وعلو المقام وسعة الملك حتى أنى أعطيت النبوة من الله وملكت على الجن والانس وأطاعت لى الطيور والسباع وسائر الوحوش لم أكن قانعا فأوصلنى الطمع الى أنه اذا جاءني اثنان يتقاضيان عندى أرغب فى أن يكونا قد أحضرا الى هدية وليس فقط ذلك بل أن نفسي تميل الي أن من يأتيني منهما بهدية فأقدمه على الآخر وأقربه مني وأعتني بدعواه أكثر من رفيقه) . وما انتهى سليمان من كلامه حتى انطلقت يدا الولد وانفكتا من الالتصاق بقدرة الله فاذذاك قال سليمان لبلقيس ها انى قد اعترفت بذنبي وماهو مخفي في قلبي فأطلق الله يدى الولد فأصبحتا سالمتين لا عيب بهما مطلقا فاعترفى أنت بما فى ضميرك فيفك الله رجليه فاحمر وجه بلقيس من الخجل واضطربت من الحياء ولكنها وجدت أن لابد لها من الاقرار والاعتراف أمام زوجها وأمام الله العارف بما فى قلبها وما يستكن عليه ضميرها وحينئذ قالت نعم انى أفكر وأميل الى ماهو أعظم مما قلت وبه العيب والعار ولست مسرورة من الاعتراف به ولكن ما الفائدة وقد أجبرت على الاعتراف والاقرار بالصدق (فانك مع أنك نبي عظيم وملك فوق ملوك العالم أجمع ولا يقارنك فه

سلطانك ورفعة جاهك سلطان وقد اتخذتني زوجة أولى بين حرمك وجعلتنى فوقهن جميعا وشاركتنى فى ملكك وخيراتك فكل هذا لا أراه يرضيني بل كل ما رأت نفسي شابا جميلاأميل اليه وأقول ليت هذا كان زوجى فهاك ما أضمره وأخفيه والسلام) وفى الحال انفكت رجلاالولد وقام ووقف وصار سليماصحيحا بقوة الله .

فبعد أن حكى الملك لجاريته هـذه الحكاية قال لها ان قصدي من سرد هذه الحادثة أن نتمثل بها فاذا كنت تخبريني بالحقيقة عن السبب الذى حملك على كره الجماع وبغضه ربما تتخلصين أنت وأتخلص أنا من العذاب الداخلي الواقع فيه أما الجارية فانها بعد التفكر والاطراق برهة أخذ العرق يتصبب فوق جبينها من الحياء والخجل .

ثم ثبتت جأشها وتبسمت وقالت له حيث أمرت أن أصدقك الصحيح فهاك السبب فانى أعرضه لأعتابكم كما هو . انى لا اكره الجماع ولا أنفر من الرجال وانى أحب الذكور وأسر منهم كغيرى من بنات جنسي وانى أعلم أن لا راحة للنساء ولا حياة لهن بغير الرجال لكنما المانع من ذلك هو أنه يوجد في كل بنت من بنات عائلتنا خصلة غير حميدة سيئة العاقبة وهذه الخصلة متلبسة لنا لم تنفك ولن تنفك ولا أعلم هل هي ناتجة عن اللطافة والرقة أو أنها تنتقل بالارث من الام إلى ابنتها . . .

ولما انتهت الجارية إلى هذا الحد تنهدت وتأوهت ثم سكتت مطرقة الى الارض فقال لها الملك انى لم أفهم شيئا بل زاد بى الامر واشتد بى الهوس الي معرفة الحقيقة فلا أعلم يا روحى ممن تخشين ولماذا لا تتكلمين أنهى كلامك أمن اللطافة لم أفهم ما معنى قولك من اللطافه والرقة أو بالارث . وبعد أن أكثر الملك من الالحاح والالتماس . قالت الفتاة : نعم يامليكي ... ان ذلك ... آه ... الحاصل ... ماذا اقول ... نعم ... انه من زمن أجدادنا الى الوقت الحاضر ان كل واحدة من بنات عائلتنا عندما تصل الى سن الزواج وتضم الي الرجال اما بالزواج واما بالتملك فحالما تفض بكارتها تموت فاذا صودف لاحداهن ولم تمت فلا يكن الا وتموت عندما يأتي الولادة واخراج المولود عالم الوجود ولا تقدر أن تتحمل الاوجاع والآلام فتموت وقدجربن في ذلك وسائط كثيرة وراجعن الاطباء والفلاسفة والمنجمين والعارفين فلم يستفدن

شيئا فضلا عن أن البعض أيضا من بنات عائلتنا لا يقدرن على تحمل الجماع فيمتن تحت الرجال وبما أنى أحب ذاتى أخاف أن شهوتى تضيع جمالي وحالى فأموت وأنا محققه أنه سيصيبنى ما أصاب المئات من بنات عائلتى ولأجل ذلك لا أحب أن أمكن أحدا من الرجال مني نعم انى أخدم من يكن مالكا لى خدمة لا يمكن أن يراها من غيرى وأجتهد فى أن أرضيه حتى يرانى فوق مايؤمل ولكن لا أوافقه على الجماع .

فلما سمع الملك من جاريته هذا الكلام تعجب كثيرا وقال لها لماذا يا روحى ومن هى أعز من حياتى تتكلمين كلاما غير موافق . هل الانسان يعلم فى أى وقت يموت أم هل إن الممات والحياة بيد الانسان . وهل أن الانسان بغير حكم الله وارادته يموت فهذا وهم منك باطل ورأى فاسد فما أحد من المخلوقات من الملوك والأمراء والسلاطين والشرفاء يقدر أن يزيد أو ينقص ساعة واحدة في حياته حتي أنه لا يعلم بقرب الأجل ولا يعرف ساعة الموت ولو كان فيها . فأجابته الفتاة بتأدب نعم يا مولاى أن الحق بيدك وأنك مصيب فى قولك لكن اعتقاد جاريتكم هكذا ففكر يا سيدى وتأمل فى حال العالم وفى طرق جريانه ترى أن الموت لا بد منه ولكن لا يكون بلا سبب وأن فى التحوط تأخيرا فى الأجل لأن الله عرف بسابق علمه زمن موت الانسان والسبب الذى يتسلط عليه ليميته ولكنه لم يحدده له ويحتم به عليه ظلما . ومع ذلك فان العالم جميعا يعلمون أن الله قادر على كل شيء وأن بيده الأعمار والأرزاق ولكن من عادتهم التحوط والمداواة واليه ترتاح نفوسهم فهم عند الشدائد يصومون ويصلون فتصرف عنهم وإذا انهمكوا بالمعاصي والفجور قوبلوا بالامراض والاوجاع ان الله على كل شيء قدير فالانسان ليس بأكرم منه فهو يفسح بالاجل وهو يعجله وعلى الانسان أن لا يقصر فى المحافظة على حياته التى أمنه عليها الله سبحانه وتعالى فاذا قصر انتزعها منه وإذا اهتم بها وعرف نعمتها تركها فى يده زمنا غير قصير .

فلما رأي الملك منها شدة اقتناعها بذلك ورغبتها فى المحافظة على حياتها وخوفها من الموت اقتنع ببراهينها ودلائلها وعرف أن المرء مجبول على الآمال مفطور على الرجاء ولهذا لا يؤاخذ بضد اعتقاداته فقال اني أسلم معك بما تقولين وأنك من الواجب أن لا تمكنى أحدا من الرجال منك وأن تكرهي الجماع لكن لو تعرفى

أنى أجبرتك عليه ماذا تعملين وماذا يخرج من يدك وكيف تقدرين على الممانعة فقالت يامولاي الحق معك فى ذلك لكن لا أظن أن عظمتكم تقدمون على مثل هذا العمل واذا فرض المحال وفكرتم فى اجبارى فحالما أرى علامة الاكراه والاجبار أعلم أنى هالكة لا محالة فلا أقصر فى إهلاك نفسي بيدى وإلقاء تبعة ذلك على ظالمى ومكرهي .

فأجابها آه يانور عيني لقد فهمت غير المقصود لانك فتاة شابة ، لا تزالين فى بداية عمرك لاتبلغين الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر وأنك أجمل فتاة رأتها عيني وأعقل أبناء جنسك وأكثرهن تأدبا ورقة وقبولا فى قلب مالكك فاذا حرمت نفسك من لذات هذه الدنيا ونعيمها تكونين فى خطاء مبين وأنت تعلمين أنى مغرم بك تائه العقل بجمالك وأخاف ذات يوم أن يحملنى العشق والهيام إلى درجة الجنون فأفقد صبرى وأقتنصك جبرا عنك فيكون ذلك على غير ما ترتضين وربما قادك الى الهلاك ولذلك أرى من الصواب ترك هذا الوهم المتسلط عليك فتكونين كغيرك من بنات جنسك تتنعمين وتتلذذين ولا تحرمين نفسك من نعيم هذا العالم فاذا دنا الاجل لا تكونين قد ضيعت صباك محرومة وحرمت غيرك منك لان أمر الوفاة بدون شك مجهول غير معلوم ولو تقرر فى عقلك وثبت فى ذهنك فلا يعلمه غير الله ولبثت الجارية سامعة لكلام الملك حتى انتهى من كلامه فأجابته نعم ياسيدى إن كل ما أشرت اليه وأمرت به حق وواجب غير أن جاريتكم تلتمس اليكم أن تسمحوا لها بالاصغاء كرما ومروءة وأن تتنازلوا بدقة النظر فيما تطرحه لدى أعتابكم العلية إذ من الواجب على الانسان أن يتحرز ويتجنب الامور المخيفة التى يتصور أنها ترعبه وتضر به ويعتقد بتأكد أنها لا بد أنها تقع على رأسه وذلك (أولا) لقد تفضلتم بأنه لا يناسب للفتاة الشابة الحسناء أن تحرم من لذة الدنيا ونعيمها فهل ياترى الشيخ البالغ المائة سنة من العمر بعد أن رأى العالم وذاق حلوه ومره يقف عند حده من لذات هذه الدنيا ومسراتها لاسيما اذا كان قد صرف اكثر اوقاته الماضية منغمسا فيها متعودا عليها مع انك بالعكس تراه إذا صرف هذا اليوم متنعما مسرورا يأمل فى اليوم التالى بمثله إذا لم يكن بأعظم وهكذا مهما مرت عليه الايام والسنون فآماله بالملذات لا تنقص وتعلقه بأفراح هذه الدنيا يزيد بأكثر مما فى الشاب وقد يظهر أن الشيوخ يرتاحون الى التنعم والتلذذ أكثر من الفتيان والفتيات (ثانيا) لقد بينتم أيضا بأني اذا كنت

أقتل نفسى يكون ذلك جريمة وخطيئة وأخسر الأبدية أى يعتبر ذلك عصيانا على ارادة الله . مع أنى لست مجنونة لأفعل ذلك بارادتى ورضائى فاذا كنت أفعل اختيارا فلا ريب يكون ذلك مخالفا لارادة الله جل شأنه ولكن اذا كنت أنت الباعث الى قتلى أي إذا أرغمتنى واغتصبتنى وأكرهتنى على قتل نفسي فتكون عاقبة الخطيئة عليك . فاذا كنت لاتفتض بكارتي رغما وتأخذنى قنصا فلماذا أقتل نفسى ولكن اذا فعلت ذلك اضطر لقتل نفسي ويكون ذلك فى عنقك فى يوم القيامة ستكون أنت المؤاخذ والمسئول وأنا لا يكون على ذنب فهاك ياسيدى وسلطانى ومالك رقاب العالم أمري ففكر فيه وافعل مايعن لك أن تراه الصواب

فلما سمع الملك كلام الجارية وقد رآه عين الصواب وشاهد فيها صدق اللهجة المقرونة باللطف والانكسار أصبح فى حيرة عظيمة وغاص في بحار الافكار وبعد أن فكر برهة رأى أن لا فائدة إذ ذاك فى نوال المراد وغابت عنه طرق التدبير وجعل يقول في نفسه ياللعجب ماذا أعمل بهذه الفتاة وفى أى يوم تصغى لارادتى فهى ممانعة حتي أصبحت بالرغم عنى وبغير إرادتي كالمجنون تائه العقل غائب عن الصواب .

وبعد أن تراكمت عليه الأفكار الكثيرة ولم يجد طريقة لنوال غرضه عزم أن يصرف تلك الليلة مع جاريته كالليالى التي قبلها وعليه بدأ بالملاعبة والمداعبة والتقبيل والعناق والمسامرة والمباسطة حتي مضى الوقت فنام الى الصباح وفى الصباح خرج من الحريم وسار إلى دار الأحكام وانهمك فى أمور السلطنة حتى المساء فعاد الي قصر الحريم فلاقته الجارية بالبشاشة والترحاب وسارت فى ركابه إلي مقعده وهي تخدمه بنفسها وتزيد له فى الاكرام والتعظيم وقد صرف أيضا ليلته علي مثل ماتقدم وفى الصباح خرج إلى ديوانه ومر عليه وهو على مثل تلك الحال سبعة أيام لا يفكر بأمر من الامور بأكثر مما يفكر فى طريقة تمكنه من نوال غايته منها وهو يناجى نفسه على الدوام بهذه الجملة (ماذا يا ترى أعمل لأحمل هذه الفتاة لتمكننى من نفسها لنوال غرضي اذ لا يمكن لى أن أجبرها عليه) وفيما هو على مثل تلك الأفكار خطرت فى خاطره العجوز وكانت لاتزال محبوسة تحت التشديد والتضييق فخطر فى باله بأن يأمر باطلاق سراحها غير أنه توقف وقال ربما إن خلاصها يغيظ الفتاة ويكدرها فأكون عوضا عن استجلاب خاطرها قد زدتها بغضا فى ونفورا مني وبهذا أهدم ماأنا آخذ ببنائه ثم فكر أنه فى المساء

يرجو حبيبته بأن تسمح له باطلاق سراحها إذ أن من العدل أن لا يزيد عليها لأكثر من ذلك وتعذيبها فوق هذه المدة لا يرضي الله

وفي المساء دخل الحريم فلاقته الفتاة كجاري عادتها وسارت به الى غرفة الجلوس فجلس وأخذت فى خدمته وهو ينظر اليها ويحدق نظره في وجهها ونار الغرام تلتهب فى فؤاده وتزيد اضطراما كلما خطرت أو مالت أو دنت منه لتأدية واجب الخدمة وهي مع كل ذلك تكثر له من الدعاء والثناء والشكر على عنايته بها والتفاته اليها ثم أنها وقفت بين يديه وانتظرت أمره فلم يسعه إلا أن وقف على رجليه وتقدم منها وأخذها من يدها وأدناها منه فقبلها وجاء بها فأجلسها إلي جانبه فملا وجهها الاحمرار والخجل والحياء فزاد فى اكرامها وامتداحها وبعد أن صرفا الوقت بالحظ والسمر سألها أن تسمح له بتخلية سبيل العجوز فقد كفاها قصاصا مامر عليها من عذاب الوحدة والسجن . فاضطربت من ذلك وأخذلونها يتغير من الأحمر إلي الاصفر ومن الأصفر إلي الاخضر وكادت تغيب عن صوابها ثم قالت للملك بعد أن ملكت صوابها ودعت له بدوام الملك والسعادة كيف أيها الملك السعيد يمكنك أن تكون أمينا من خيانة هذه العجوز وحيلها وبأي وجه تركن اليها . وانى أرجوك لكي تكون أمينا من غدرها وايقاعها بى أن تطلقها من سجنها وتأمر بحبسي عوضا عنها وبذلك لاتقدر أن تغدر بجاريتك الامينة . فأرجوك أن تبقيها في سجنها ولا تطلقها أبداً .

فتبسم الملك من كلامها وأجابها لاتضطربى ولا تغضبي ياعيونى فمن هى هذه العجوز الضعيفة العديمة الناصر التي تغدر بك وتوصل شرها اليك وأنت صاحبة الامر والنهي عليها وعلىَّ وعلى مملكتي ومع ذلك فانى أدعوها وأحذرها من التعرض لك وأتهددها بالموت إذا صدر منها مخالفة لك أو لفظت كلمة ضد إرادتك . فسكتت الفتاة عندما رأت أن الملك يريد ذلك وهى على يقين أنها لاتخلص من كيد العجوز وشرها وأنها ستضطر لمحاربتها ثم قالت للملك إنى لاأرغب فى أن أرى وجهها مطلقا ولذلك لا أرغب فى اطلاق سراحها ولكن من حيث أن عظمتكم ترغبون ذلك فأنا أقبله على رأسى فقط أتجاسر على الرجاء من عظمتك أن لاتدعني أرى وجهها ولاترى وجهى أبدا (من هنا يفهم درجة الغرام كم هى عالية فالملك المالك البلاد والمتسلط على العباد أصبح مغلوبا لسلطان الهوى مطيعا كالعبد منتظرا أمر وارادة محبوبته التى بعد أن كانت رقيقة مملوكة لديه أصبح

هو المملوك وهى المالكة ... نعم إن الغرام يصير الوضيع ملكا والملك وضيعا)
وحينئذ أمر الملك باخراج العجوز بعد أن شرط على نفسه ان لا يدعها ترى وجهها
للجارية ولا تكلمها كلمة واحدة قط ... خرجت العجوز من السجن ولكن
كيف خرجت منتفخة من القهر والغضب مستوية من الغم والكدر . ولو أنها
كانت فى الاول لا تريد أن تخرج من السجن لكنها كانت تعلم أنها لو بقيت
محجورا عليها لا تقدر على الانتقام ولا تتمكن من الاحتيال للايقاع بعدوها وتبقى
يداها مقيدتين عن ادراك ما تروم فعله فى بنى آدم وبالاخص فى الجوارى اللاتى
يقدمن الى الملك وفي مقدمتهن هذه الجارية التى كانت سبب سجنها فأضمرت لها
الكيد والانتقام (حماها الله منها وحمى كل انسان من غدر العجائز المحتالات).
وبقيت العجوز تضمر الشر للجارية ولا تتظاهر الا بالعبادة والصوم والدعاء
للملك ولا تجسر أن تقف أمام الجارية ولا تدخل غرفة هى فيها وتتجنب كل
التجنب أن تظهر أمامها أو تريها وجهها خوفا من غضب الملك وانما لخدعتها
وحيلتها وكان جل ما يحلو لها أن تميت الفتاة وأن السلطان يقطعها قطعا قطعا وتدوس
بأرجلها فوقها وكانت تعرف أنها لا تقدر على ذلك الا اذا تمكنت من الدخول
والخروج كسابق عاداتها وصبرت على نفسها وهى تراقب الفرص لتتمكن من
الدخول عليه دون أن تكون الجارية عنده اذ كانت لا تجسر على الدخول وهى
لديه بعد تأكدها أنه مغرم بها وأنها أي الجارية ذكية فطنة لا يمكن صيدها
بسهولة وبعد أن مر عليها عدة أيام صابرة على حكم القضاء والقدر سهرانة على
اتمام رغائبها وقد اغرت بعض الخدم أن يراقب لها انفراد الملك فيخبرها بذلك
وجاءها الخادم وأخبرها بأن الملك منفرد بنفسه وأن الفتاة استأذنت الملك بالدخول
إلى غرفتها لانحراف قليل فى صحتها وقد دخلت غرفتها وأوصدت الباب فكادت
تطير من الفرح وأسرعت فى الحال ودخلت على الملك وألقت بنفسها على
رجليه وهى تطلب من الله أن يطيل عمره ويديم صولته ويوسع مملكته وينصره
على أعدائه . ومع أن السلطان كان يتمني أن لا يجيبها بكلمة ولا يسمع لها قولا
خوفا من خاطر حبيبته غير أنه رأى من الضرورة مراعاة لشيخوختها جبر خاطرها
ولو بكلمتين فقال لها لقد عفوت عنك انما الذى أريد منك أن لا تذهبى بعد الآن
نحو الجارية كي لا تغضب منك وتتكدر عليك . فتظاهرت العجوز عند سماعها
كلام الملك بكل تذلل وخضوع واستعملت أبرع طريقة لاستجلاب قلب الملك

وشفقته عليها وبكت وأنت . وقالت أطال الله عمر سيدى وولي نعمتى أن حبسك لي وهجرك فخر وشرف لى وما ذلك إلا منة منذت بها علي أو خلعة أوصلتها إلى حتى لو أنك أمرت بقتلى وإعدامى ورفع وجودى من هذا العالم لحق لك ذلك لكن على ما أرى أنك لا تعرف صالح نفسك لأنى أري أن حبسي غير لائق منك لأني فى الابتداء لم أكلم الجارية قط ولا كدرتها ولا أتيت عملا يضيق به صدرها منى حتي أنك حبستنى وحرمتنى من تقبيل أذيالك وأقدامك كل وقت على ما عودتنى عليه ومع ذلك فيكفانى انك فى صحة جيدة وسلامة وهذه غايتى . وجل ما أتمناه لأنى حبست بأمرك وتخلصت بأمرك وأنا على يقين أنى بعد قليل من الوقت سأرجع إلى أعظم مما كنت فيه وتتأكد صداقتي وخلوصى فتشملني برضاك زيادة عما أؤمل خصوصا بعد أن يثبت لديك أنى ساهرة علي راحتك أريد خلاصك من كل ملمة وبالأخص من كيد النساء لأنى أخبر بهن وبأحوالهن وأعرف دواء ما يصدر عنهن من الادواء ولذلك ما أتيت الا لأعلمك أنك لو أمرت بعذابى وقتلى لوجدتنى وأنا تحت يد الجلاد أشكرك وأتمنى لك السعادة وأدعو الله أن يقيك كيد النساء ولاسيما الشابات الجميلات اللاتى يلعبن بالعقول ويتسلطن على القلوب ليفتكن بمن يقع فى حبالتهن ويقتلن من يقع فى شراكهن ولا ينلن عاشقا مراما مالم تبلغ روحه التراقي .

فلما سمع الملك كلام العجوز تذكر فعل الجارية معه وحبه لها وخطر له أن يستشيرها علها تعرف دواء مرضه أو تهديه طريقا يتوصل منه الى ساحة نيل المقصود فقام علي رجليه ودنا من العجوز واعتذر اليها وقبل يدها وقال لها الرحمة ياوالدة المعونة يامربيتي انى أصبحت في حالة يرثى لها وقد ضاقت بى الدنيا مع سعتها ولم أعرف الوسيلة التى أتخلص بها مما أنا مصاب به . إن هذه الفتاة عجيبة فى أحوالها وأطوارها فهى تكره الرجال ولا يمكن أن تمكن ذكرا منها وقد أعيتنى الحيل فارحميني .

فعندما رأت العجوز أن الملك رجع اليها وغمرها بالتفاته وعنايته كادت تطير من الفرح فاغتنمت هذه الفرصة للانتقام وتقدمت من الملك فقبلت أذياله ودعت له ولدولته بالبقاء ثم قالت له لابد الآن أن ترى فعل جاريتكم المسكينة العجوز المخلصة فى خدمتكم المتهالكة فى قضاء غرضكم ومتى رأيت أنه لا يمر هذا الأسبوع

إلا وقد نلت غرضك وشفيت مرضك وترامت هذه الفتاة على قدميك تطلب اليك أن تأتيها ولا تمنع عنك أمرا يتأكد لك صدق أمانتي وما أقوله بحق وصدق عن محبتي لكم ورغبتي في راحتكم ولو أنك أخبرتني منذ الأول بذلك لدللتك على الطريق الموصل إلى الغاية بسهولة دون تعب ولا شقاء ولكن واحسرتاه ياسيدي الملك أنك قد تكون تعذبت وقاسيت من حر الغرام ووطأة الجفاء ولذعة الصد والامتناع ما انفطرت له مرارتك وذابت له مهجتك وقاتل الله الحب وقاتل المحبين الظالمين الذين لا يرثون لحال عاشق ولا يرحمون قلب مغرم ولا يرغبون إلا باذلال من يعلق بهم مهما كان عزيزا وإني أشكر الله الذي دخلت عليك فى هذه الساعة لأفرج همك وأزيل غمك .

فلما سمع الملك من العجوز هذه البشارة لم تعد الدنيا تسعه من الفرح فقبل يد العجوز ثانية وجعل يرجوها ويلتمس منها وقال لها العفو ياوالدتي لقد قصرت فى حقك ولم أعرف قيمة فضلك وحبك فلا تفكرى فى الماضى بل اهديني إلى الطريقة التي أنال فيها وصال جاريتي باللطف لا بالجبر وتحملها على القبول بقضاء مصلحتى بالاختيار والرضي لا بالقوة والعنف . فأجابته لا تهتم ياسيدى ولا تعذب قلبك بأمر هو أسهل عليك من شرب الماء وقد قلت لك انك ستنال منها الوصال بالرضي والاختيار دون عناء ولا عذاب فقط أريد منك أن تصغى الي وتسمع مني وتفعل كل ما أطرحه بين يديك وأشور به عليك . فقال أقسم لك بالله العظيم أني أفعل ما تقولين ولا أحيد عن رأيك قط الا إذا كان فيه استعمال القوة والجبر .

وعلى هذا الوجه تهيئت العجوز لكيد الفتاة عدوها الألد فقالت للملك يلزمك أن تتخذ لك جارية جميلة لطيفة وتتظاهر بحبها والميل اليها وتداعبها وتلاعبها وتضمها وتعانقها أمام هذه الفتاة وفي النهاية على مرأى منها تدخلها غرفة النوم وتنام معها والحاصل اصرف وقتك كله بالحظ والسرور ولا تترك أمرا من أمور الحب والتلذذ الا وتستعمله مع الجارية الجديدة أمام الجارية القديمة وأنا الكفيلة لك أنها لا تقدر أن تتحمل ذلك أكثر من أسبوع بل تطلب اليك أن تواصلها وترجوك بذلك ولا يبقى لها صبر على مثل هذه الحالة .

فلما سمع الملك من العجوز هذا الكلام اطرق برهة متفكرا وقد رأى هذا الرأى من أنفع التدابير لاستجلاب خاطر الفتاة وتسليمها نفسها اليه وحينئذ أمر

باحضار جارية بديعة الصفات جميلة المنظر وأخذني ملاعبتها ومداعبتها أمام الصبية على حسب ما أشارت اليه العجوز وعلمته إياه وعلى مقتضي الطريقة التى خطتها له ومن الجهة الثانية كان عشقه للصبية ينمو ويزيد بدون حد .

أما الصبية فقد فهمت لدى مشاهدتها الجارية الجديدة مع السلطان سر المسألة وأدركت أنه من دسائس العجوز الشيطان الرجيم وقد أشارت به عليه لتحرك الغيرة فى قلبها فتجلدت وصبرت واجتهدت بالتظاهر بخدمة الملك أكثر من الأول كي لا يظهر عليها أثر الغيرة مع أنها أصبحت كالجليد من جراء الغيرة ومن قهرها من العجوز بنت الحرام التى قصدت كيدها واغاظتها ولكنها أرادت أن تبين للملك أنها غير متأثرة من ذلك فصبرت دون جدوى ولم تعد قادرة على الثبات فى وجه هذه الصدمة القوية . نعم ان الحق بيدها اذ كيف تقدر أن تصبر على هذه الحالة وترى الملك الذي كان يثبت لها أنه آتخذها كملكة وجعلها صاحبة أمره ومالكة قياده وربة بيته يداعب جارية أخرى هى دونها فى الجمال والآداب وفي الآخر يضمها اليه ويحملها أمام عينيها إلى السرير لينال منها غرضه فانفطرت مرارتها لذلك واشتعلت نار الغيرة والحسد وهى تثبت وتتظاهر بالعزيمة والصبر حتى مر عليها خمسة أوستة أيام ففرغ الصبر وانتهى بها الحد ووصلت الى الدرجة الأخيرة من الثبات ورأت أن ضياع حياتها أسهل عليها مما شاهدت وما تشاهده فى كل ليلة واحتمال تلك السهام الحادة سهام الغيرة التى كانت تمزق احشاءها ففي ذات ليلة كان الملك جالسا بمفرده فى غرفته فدخلت عليه ووقفت أمامه كأنها تنتظر أمرا منه لقضاء خدمة وهى فى حالة صعبة الاحتمال تكاد تختنق من شدة عذابها فأدرك الملك منها ذلك وخاف ان يلحق بها ضرر ولم يعد قادرا أن يتحمل أو يصبر على تعذيبها أكثر مما فعل فنهض اليها وأخذها من يدها وأجلسها الى جانبه فتركت نفسها ولم تمانعه وتظاهرت بالطاعة له بأنها لا تمانعه في أمر وقد لحظ منها قبولا بقضاء غرضه فكاد يطير من الفرح ولم يعد عارفا ماذا يعمل فضمها اليه وقبلها فى وجهها وعينيها وأخذ معها فى المداعبة والملاعبة .

أما الفتاة فانها قبلت الملك ثم قبلت ذيله فطلبت اليه أن يسمح لها بأن تسأله سؤالا ترجوه الافادة عليه فأذن لها وهو بكمال السرور والفرح . فقالت وهى مظهرة العزيمة والثبات أطال الله عمر سيدى الملك انك منذ بضعة أيام شملت جاريتك الحقيرة بالالتفات فحكيت لى قصة سليمان عليه السلام وطلبت الى أن

أحكى لك بالصدق سبب كرهى للذكور فأصدقتك الخبر وبقيت أنت المدين لي حيث أني كما تنازلت وحكيت ان كلا من بلقيس وسليمان عليه السلام أباح مافى ضميره أى ليس بلقيس وحدها التى اصدقت زوجها الخبر وحكت مافى ضميرها بل هو أيضا أصدقها وصرح لها بكل ما يستكن فى داخله فأنا يامولاى قد طرحت لديكم حكايتي ولم أكذب عليك وأجبت أمرك طاعة لك والله الذى يكره الكذب ولا يرضيه غير الصدق لا سيما بين الزوجين وبقى على عظمتكم أن تعترفوا لجاريتكم بالصحيح ليكون ذلك متبادلا ومرضيا لله كما سبق فأمرتم لأن الله لا يرضيه غير الصدق فاصدقني من هداك الى هذه الطريق ومن علمك اتخاذ هذا التدبير ويغلب على ظنى أن الذى علمك ذلك هو امرأة لأنه لا يعرف شدة غيرة النساء الا النساء .

فلما سمع الملك كلامها رآه عين الصواب وأنها محقة فى طلبها وأن الكذب عليها واخفاء الحقيقة عنها ضرب من الخيانة والمكر اللذين يتجنبهما ولا سيما فى مثل هذا المقام فلم ير وسيلة للكتمان فقال لها . نعم إن الذى دلني على اتخاذ هذه الحيلة هى العجوز التي أطلقناها من سجنها وذلك لأنه لم يبق لي طاقة على الصبر وقد أصبحت فى حالة اليأس وهان على ترك الحياة ولا آخذك جبراً ولا أقدر على الاحتمال وعشقي بك يتزايد اليوم بعد اليوم حتي كدت أصير الى الفناء فارحميني الآن وأرثى لحالى ولا تزيدى فى عذابى وما كانت الحالة التي تحدث لنساء عائلتك الا وسيلة لعذابى وقهرى وعندي أن الله سيشفق علي ويصون حياتك لى ويخلصك مما تخافين فأطرقت الفتاة الي الأرض متفكرة برهة ثم قالت للملك مادام الأمر قد بلغ هذا الحد والعجوز المحتالة تطلب هلاكي وتطوف باجتهاد حولى لتميتنى متمسكة بحبال الدسائس . أما أنا فلا أمانع قط ولا أصر بعد الآن على عنادى مادمت أنت ترغب فى ذلك وقد دبرت العجوز على كيدى وهلاكى ليسر خاطرها ويفرح قلبها . ولكنى أرجوك أن تمهلنى فقط أربعة أيام ربما أرى فى شأن نفسى وارتاح من اضطراب الفكر الذى أعانيه . فوافقها الملك على طلبها وسمح لها بمهلة أربعة أيام .

وفى اليوم التالى أحضر اليه العجوز بدون علم الصبية وحكي لها كل ماجرى له معها وكيف حملتها الغيرة على الانقياد وكيف أنها طلبت اليه مهلة لمدة أربعة أيام فمنحها المهلة المذكورة .

فلما سمعت العجوز هـذا الـكلام طار صوابها وأصبح لونها أصفر كلون الأموات وأطرقت الى الأرض متفـكرة ثم رفعت رأسها وقالت لماذا سمحت لها بمهلة ياسيدى ولماذا لم تستشرنى فى ذلك فقد قصدت التخلص منك وأبانت لك ان وصلها صعب جدا وربما كانت تقصد الفرار . فغاب عقل الملك من كلام العجوز واضطرب فى داخله وقال لماذا تقصد غشي ولأى سبب تعمل على كيدى وتكذب فى وعدها . قالت انها لم تسألك المهلة إلا اسوء قصد تريد اجراءه فى نفسها لانها على جانب عظيم من العناد وقد يهون عليها قتل نفسها بيدها ولا تسلم لأمرك بالرغم عنها هذا إذا لم يتسهل لها طريق الهرب . والآن إذا كنت تتغافل عنها أو تصبر عليها ولم تتخذ الاحتياطات اللازمة خسرتها لامحالة أما بقتل نفسها وأما بالفرار .

فزاد هذا الـكلام فى اضطراب الملك ورأى من المناسب أن يبقي مدة المهلة أى أربعة أيام فى دار الحريم وحالما دخل أسرعت الفتاة لاستقباله ودخلت به الى غرفة الجلوس وسألته عن سبب عودته حالا على غير عادة . فأجابها إنى أرى نفسي منحرف المزاج قليلا ففضلت البقاء فى البيت طلبا للراحة فلم تتغير قط ولاقصرت فى خدمته بل زادت فيها عن الحد المعتاد حتي مرت الأربعة أيام والملك مقيم فى القصر لايخرج منه وقد سلم أمر تدبير المملـكة لوزيره الأول وفى اليوم الرابع كان الملك والصبية معا وقد أخذ بالمداعبة والملاعبة حتى أظلم الليل فذكر الملك الفتاة بوعدها فأجابته بمنتهي اللطف والتأدب والخجل . نعم يامولاى هذاهو اليوم الرابع وفيه وفاء الوعد لـكن أريد أعرض لمعاليكم أمرا لتكونوا مطمئنين فتعجب الملك فى نفسه وقال ماذا نريد هل تبحث عن طريقة أخرى للتخلص ثم سألها ماذا تريد وهو مصغ لها .

فقالت أنت تعلم ياسيدى وولى نعمتي أن العجوز تقصد بي شرا وتتمنى هلاكي فهى فى عيني عدو الد تترقب الفرص للايقاع بى واهراق دمى وتبذل كل مافى وسعها لنوال منيتها بالانتقام منى ولهذا ترانى مضطرة على الدوام للتيقظ والتحفظ منها والتحذر والسهر حرصا على حياتى وأنتم تعلمون ذلك وهذا صعب على وثقيل على حياتى ولذلك طلبت مهلة أربعة أيام لأجد وسيلة نافعة لراحتى فتفكرت فى هذا المعنى وقلت فى نفسى إن بقيت على هذه الحالة فحياتى تعب وشقاء أبات بالخوف وأصبح بالترقب وربما كان ذلك مضرا بصحتى فأموت رغما وإذا سعيت بقتلها

للتخلص منها وهذه أعظم طريقة لراحتي وارتياح بالي أفكر أيضا أن الله سبحانه وتعالى لا يرضي بذلك وقد حرم قتل النفوس فيكون ذلك على بلاء أشد من بلاء الخوف منها والتحذر من مكائدها وأخيرا لم أر أوفق من أن يأمر سيدى الملك بارسالها الى بلاد بعيدة بأطراف المملكة تقيم فيها باقي حياتها فلا أري وجهها ولا تراه أنت فيما بعد وبهذه الطريقة أتخلص أنا من نتائج شرها وعداوتها المستمرة وأصبح أمينة على روحي ولا يبقى لدى شيء أخافه وأنت أيضا تنال ما أنت طالبه مني وفقا لما وعدت عظمتكم به .

فلما سمع الملك من الصبية هذا الكلام كاد يطير من الفرح والاستبشار وفى الحال استدعي بعضا من الفرسان وأمرهم أن يصحبوا معهم العجوز ويسيروا بها إلى أطراف الهند ويتركونها هناك فى أحد البلاد وبعد أن وهبها شيئا من المال أخذوها وساروا بها الى حيث أمر الملك . ومن بعد أن اشتفت الصبية ببعد عدوتها وأمنت من كيدها دنت من الملك فشكرته وقبلته وأخذت تداعبه وتلاعبه وتصرف كل جهدها فى إنماء حظه وازدياد سروره حتى طار به الوجد واشتعلت فيه نار الغرام ولم يعد قادرا علي التصبر والتحمل سيما بعد أن وعدته وعداً صحيحا وسلمت اليه نفسها فرأى الدقيقة سنة والساعة دهراً ولهذا أسرع فحملها الى سريره وافتض بكارتها وشعر من نفسها بلذة غريبة لم ير مثلها فى طول زمانه وقد انشرح صدره وسر سرورا لا مزيد عليه لكنه ما لبث أن نظر الى الفتاة حتي رآها قد غابت عن الوجود واصفر لونها اصفرارا غريبا ولا إصفرار الأموات فطار قلب الملك خوفا وجزعا وأمر فى الحال باستدعاء أمهر الاطباء والقوابل وأحضر الجواري لخدمتها ولم يكن الا أقل من القليل حتي حضر الأطباء وباشروا الاعتناء بها واستنشاقها الروائح القوية ودلك جسمها بالأدوية الحارة وكلهم يتعجبون من شدة الاصفرار المستولى علي ذاك الجسم البديع الجمال ولم يمر على ذلك أكثر من نصف ساعة حتى عادت اليها الروح وجلست فى سريرها وتبدل اصفرار وجهها بالاحمرار .

وبعد أن كانت الصبية قد قطعت الأمل من الحياة رأت نفسها قد عادت إلى الوجود ثانية فتأكدت كأنها قد ولدت من جديد وأن الخطر الذى كانت تخافه قد زال وأخذت تصلي وتشكر الله على عنايته بها وتثني علي الملك لاهتمامه والتفاته اليها حتي زال خوفها على يده وقالت له بأى لسان أثني على سيدى الملك فما

من فتاة فى عائلتى قدرت أن تعيش بعد افتضاض بكارتها واذا صادف وتخلصت فلابد أن تموت فى وقت الولادة وها أنا قد سررت من عنايتك ولى ثقة أن أتخلص اذا قدر الله بالولادة فقال لها إن كل شيء بأمر الله وإرادته فهو رحيم كريم وهكذا كان أيضا فقد أصابها فى وقت الولادة كما أصابها فى الأول ولكنها تخلصت بعناية الله وسر الملك بها سرورا عظيما وصرف باقي عمره معها على الحظ والسرور لم يلتفت إلى سواها ولا مال إلى غيرها .

ولما انتهت هماى بنت قيصر الروم صاحب الأقليم الثاني من حكايتها قالت له ومما تقدم يعلم أن الاصفرار الذى وقعت فيه الفتاة كان سببا لخلاصها وهذا ماجعلنى أحب اللون الأصفر لأنه من أرفع الالوان قيمة ومقدارا ومحبة من الناس أكثر من كل الالوان فالنار التي هي من المنافع العمومية للانسان صفراء اللون أيضا ومما يجعل الاصفر مفضلا على كل الالوان هو كون الذهب منه فهو الذى يجعل الانسان عزيزا كريما واليه يتسابق الناس من الحقير الى الملك فكل منهم يحبه ويفديه بروحه ولا أظن أن أحدا فى العالم لا يتهالك فى حب هذا الاصفر الرنان ولهذا ترانى قد اخترته وفضلته على سائر الألوان واقتداء بباقى الناس وإذا لم يكن من أفضل الالوان وأسماها لما اتفق الناس على حبه .

فلما سمع بهرام شاه من زوجته هذه الحكاية سر منها جدا ووقعت فى قلبه موقعا رفيعا وزادت رفعة فى عينيه فضمها إلى صدره وقبلها وأظهر سروره منها وشكرها وكان الغروب إذ ذاك قد دنا وعزمت الشمس على الاحتجاب فصار الأفق أصفر فقالت له انظر يا مولاى ما أجمل لون الافق فانه يصفر شوقا لمفارقة الشمس رفيقته ولا يحب أن تفارقه برهة من الزمان فزاد سرور الملك من قولها وعاد فعانقها ثانية وشكرها ومدح ذكاءها وعلمها وآدابها وكانت حكايتها موضوعا كافيا لتحريك احساسه وأشواقه نحوها فأخذ فى مداعبتها وملاعبتها مداعبة العاشق المشتاق ولما دنا وقت الطعام دعت الملك فنهض وإياها الى مائدة الطعام فاذا هى صفراء وكل ماعليها من الاوانى من الذهب الاصفر حتى أن الطعام جميعه كان مرشوشا بالزعفران فسر أيضا لذلك وشكر الله على ما أعطاه من العظمة والمجد ولاسيما وأن الجوارى والخدم المحيطين بالمائدة للخدمة كانوا لابسين الملابس الصفراء البهية .

وبعد أن نهض عن الطعام ودخل غرفة الحظ والانشراح وجد معدات المدام

والنقولات والازهار والأثمار مهيأة وكلها صفراء بلون واحد فالطاسات والاقداح من الذهب الخالص والشربيات والفاكهة والأثمار منتخبة جميعها من الاصفر وكذلك لون الغرفة ومفروشاتها وكذلك البابوج الذى لبسه فى رجله كان لونه اصفر وبعد أن صرف الملك السهرة على الحظ والانشراح مع زوجته أخذها من يدها ودخل بها غرفة النوم وقد رسخت فى عقله الحكاية له فتذكر أنها هى أيضا لطيفة المزاج رقيقة الحركة أشبه شىء بالفتاة الصينية صاحبة الحكاية التي حكتها له فنام معها الى الصباح وقد سر منها سرورا لا مزيد عليه ولاقى من اعتنائها به وغنجها ودلالها وخضوعها ما أنساه الدنيا وملكه وكل شىء عزيز عنده ولما قرب وقت السحر غرق بالنوم طلبا للراحة من عناء الاخذ والرد .

وبعد أن نام عدة ساعات نهض من النوم فوجدها قائمة عند رأسه في انتظاره فقام اليها ولفها بين يديه وقبلها فى عنقها وخدها وهى تاركة رأسها على كتفه يميله كيف أراد ولما انتهى من استصباحه بها سارت به الى الحمام فنزعت عنه ثيابه بيديها وأدخلته الى الداخل وأخذت تغسله بيديها وترش عليه العطورات الزكية والمياه المقطرة من أزكي الازهار وكانت قد سألته عن القصر الذى يقصده فى اليوم الثاني فأجابها انه عازم على صرف اليوم الثانى عند السيدة برى بنت الملك خوارزم صاحب الاقليم الثالث وهى ساكنة القصر الاخضر ولذلك هيأت له ثوبا أخضر بلون الزمرد وأخذت تفرغه عليه وهى تمازحه وتقبله وتباسطه وكان بهرام شاه مسرورا جدا من نسائه فانه لم ير فى قلبهما من الغيرة والحسد مايوجد عند سائر النساء بل ان الواحدة منهن كانت تهيئه وتلبسه وفقا لذوق ضرتها وكان الملك يعلم أن ذلك ناتج عن حسن تربيتهن وآدابهن وعظم محبتهن واحترامهن لشخصه فشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك وبعد اذ فرغ من كل عمل هناك ودع زوجته وخرج من القصر الاصفر بفرح وغبطة أكثر مما دخل .

وفى اليوم التالى سار بهرام الى القصر الأخضر محفوفا بالاتباع والخدم ولما وصل اليه ترجل عن جواده فدخله ولم يجتز العتبة حتي استقبلته السيدة برى بنت ملك خوارزم سيدة القصر المذكور محاطة بجواريها وخدمها وفى أيديهم المباخر والقماقم الذهبية فرحبت به وقبلت يديه فقبلها فى خدها الايمن ثم أخذته من أبطه وتقدمت به الى حوض بداخل القصر حيث أعدت له من أسباب الراحة

والزينات ما يناسب عظمته ومشي الجواري بين أيديهما وكان بهرام على غاية في المسرة والنشاط لما رأى السيدة برى وقد كانت على جانب عظيم من الحسن والجمال النادر المثال فهي بالحقيقة مـلاك معبود في صورة انسان وكانت قد أفرغت عليها الملابس الخضراء المموجة بلون الزمرد وزينت القصر وأطرافه بالنباتات الخضراء والازهار البديعة العطرية الروائح فكان يرى من نفسه كأنه في الجنان محاطا بالحور الحسان ولذلك لم يفتر عن شكر العناية الالهية التي منحته هذه السعادة .

ولما وصل قريبا من الحوض وجلس عنده للراحة بقي مبهوتا من تدبير زوجته وحسن اتقانها فان كل مايراه كان يدهش القلوب ويحير الابصار ولاسيما تلك الرياحين الزاهرة الزاهية التي كانت جميعها بلون المكان ولون ملابس زوجته .

ولم يستقر به الجلوس حتى أخذت بنت ملك خوارزم في مباسطته وممازحته وملاعبته والجوارى وقوف حولهما وقد ظلل الحوض المذكور رواق من العرائش والاشجار المخضرة الأوراق وكان الماء يسيل فيـه مجدولا بين النبات البديع المصنوع والمقطوع بمقـدار واحد ولون واحد وكذلك كانت الأواني جميعها من الزمرد الأخضر موضوعة على خوان من جنسها ولونها محاطا بالنباتات على شكل غريب . وبعد مدة قليلة نهضت برى وقبلت أيادي بهرام شاه ودعت له بالبقاء بطول العمر وقالت له أجل يا سيدي ويا سلطاني ومالك رقي إني أراك تحدق في كل ماتراه وأشاهد على وجهك علامات التعجب والاستحسان ولا ريب أنه يتردد في فكرك أن تسألني لماذا اخترت اللون الاخضر وفضلته على باقي الألوان ولهذا فاني أريد أن أبين لك السبب اذ أن لـكل شيء سببا فاذا تنازلت وأمرتني نقلت لك حكاية غريبـة في هذا المعنى تسر لها وتتأكد منها تفضيل هذا اللون على سواه .

فشرح صدر بهرام شاه لذلك وأظهر اشتياقه واستعداده لاستماع حكايتها وأمرها أن تبتدئها . فدعت له وأثنت عليه مرة ثانية وابتدأت في سرد حكايتها فقالت .

قصــــة بشر العابد

يحكي أنه كان رجل عابد في احدى مدن بلاد الروم اسمه بشر فلما بلغ الخامسة والعشرين من عمره وصل إلى أرفع درجة من العلوم والمعارف والذكاء المفرط فزهد في الدنيا وانصرف عنها وتبرع بكل ماتركه له والده من المال والجواهر على الفقراء والمعوزين وكان مكتفيا لنفسه بالخبز اليابس والماء فقط وعكف على الدرس والمطالعات والصلوات ارضاء لله جل جلاله وما بلغ عمره الثلاثين الا وقد أتقن علوم الكلام بأجمعها وبالأخص العلوم الدينية فأصبح معروفا محبوبا من خاص الأهالي وعامتهم كلهم يحترمونه ويجلون قدره حتى الحاكم ورجال الدولة فانهم كثيرا ما كانوا يأتون اليه ويتبركون به لما يرونه عليه من التقوى والعبادة ومداومة الصلوات ليلا ونهارا واقباله على فعل الخيرات والمبرات فكان اذا قدم اليـه أحد من الموسرين مالاقبله وفرقه على الفقراء والمحتاجين فاتخذ لنفسه صومعة في سفح جبل وأعد فيها لوازمه وجعلها محلا لاقامته ومقرا لعبادته وصار لا يدخل المدينة إلا في الاسبوع مرة أوفي الشهر مرة وبعد أن يطوف فيها ساعات معدودة لشراء بعض الضروريات لطعامه أو شرابه أو لبسه ويعتكف فيها للصلاة والعبادة .

ففي ذات يوم خرج هذا الحبيس العـابد من محل عبادته وجاء الي أطراف المدينة وفيما هو سائر رأي امرأة تسير أمامه وحالما أصبح تجاهها وجها لوجه اشتدت الريح فأطارت غطاء رأسها وظهر من تحته وجه صبيح جميل أشرق كالبدر المنير انقشعت عنه السحب وارتفعت عنه الحجب والغيوم أو كالشمس المنيرة بددت أستار الظلام .

ولـما وقع نظره عليها وشاهد معني حسنها وجمالها كاد يطير صوابه وأراد أن يحول وجهه عنها أو يغمض عينيه عن مشاهدة أنوار ذلك المحيا البهيج فلم يقدر وبالرغم منه صادف الحب قلبه فارغا فتمكن منه وانجرح قلبـه وطار صوابه ووقع عن غير اختيار إلى الارض مغشيا عليه .

وأما الفتاة فقد استولى عليها الخوف والهلع فلم تقف وخشيت أن يقول المارة إن ما أصاب الرجل هو منها فأسرعت إلى غطائها فرفعته عن الارض وأعادته

إلى رأسها وأسرعت المسير وبقى الرجل العابد مطروحا فى مكانه لايعى شيئا مما حوله مقدار دقيقتين حتى اجتمع حوله الذاهب والآيب من الناس وبالطبع فان حادثا كهذا الحادث يحدث لرجل مثل بشر يعرفه الناس جميعا حادث ينبغى أن أن تقوم له قيامة الناس فاجتمع حوله الجماهير الكثيرة وحملوه على أيديهم الى معبده ورشوا الماء على وجهه واعتنوا بأمره حتي فتح عينيه وعاد إلى وعيه ولما رأى القوم محيطين به وأدرك الحالة التي هو فيها انفعل فى نفسه ثم جلس متسائلا منهم عن السبب الذى أغابه عن الوجود وأضاع رشده فقالوا له لا نعلم بل رأيناك ملقي على الارض غائباً عن الوعى فحملناك وذلك في المحل الفلانى فى الطريق الفلانى من المدينة وحينئذ عاد اليه خيال الفتاة التي رآها وكانت السبب في تلك المصيبة وأدرك السر فى كل ما جرى له فوقف فى الحال وأخذ فى الصلاة والاستغفار إلى الله والتوبة من ذنبه الذى ارتكبه برؤيته الفتاة وعشقه لها . وعندما رأى الجماعة حالة العابد أخذوا بجملتهم يقبلون أذياله وأياديه ويسألونه الدعاء ثم انصرف كل منهم الى حاله .

وما انصرف القوم إلا وقد عاودت الأوهام بشر العابد وأخذ قلبه يضطرب شوقا الى جمال تلك الفتاة التي أخذت بمجامع قلبه واطارت عقله من نظرة واحدة عن غير قصد ولا تعمد ولكنه علم أن أول الحب نظرة ثم جعل يناجى ربه قائلا أسألك العفو يارب وأسألك الأمان ياليتنى ما خرجت من صومعتى فى هذا اليوم أو ليت الغطاء لم يقع عن رأس تلك الفتاة الفاتنة فماذا أعمل الآن نظرة واحدة أضاعت صوابى وأفقدتنى رشدى وأضحت معارفى وعلومي وعبادتى وصيامى ضحية لتلك النظرة . وأخذ يجتهد ليبعد عنه هذا الفكر ويطردن من خاطره صورة تلك المخلوقة البديعة ويشغل قلبه عن حبها بالصلاة والعبادة ولكن هيهات هيهات فقد قضى الأمر وشغل الفكر وسرى الحب فى كل عروقه ورأى الغرام مكانا خاليا فى قلبه فتمكن وما كان يعلم ما الحب وما قدرة سلطانه حتى وقع فيه فكان تارة يقول ان ذلك تقدير من الرحمن وتارة يقول إن ذلك طغيان من الشيطان . والغاية ان الغرام لعب بعقل العابد واستبد به العشق والهيام وأخذ يزيد من ساعة عن أخرى ومن يوم إلى آخر وكلما مر عليه يوم ازدادت بلابله وهاجت وساوسه وتعلق قلبه بتلك الفتاة وأصبح لا هم له إلا استعراض صورتها البديعة فى مخيلته التى كانت لاتفارقه طرفة عين وظل يبحث عن طريق

يخلصه مما هو فيه ولكن بدون جدى فكان كلما وقف الى الصلاة رأي محبوبته واقفة أمامه بكمالها وجمالها ورأى الغطاء طائرا عن رأسها وهى تنظر اليه فى حياء وخجل ومر عليه أسبوعان وهو على ماهو عليه ولم ير وسيلة لخلاصه من غرامه ولا نفعه علمه وآدابه وتقواه وورعه لدى قوة سلطان الحب القادر الجائر . وأخيراً لما رأى أن لا وسيلة إلى التسلي وعز عليه السلوان أدرك عجزه وأن هذا الحب كان أمراً مقدورا عليه من الأزل فلجأ إلى التضرع الى الله تعالى كثيرا ليبعده عنه ويخلصه من مصيبة الحب والورطة التى وقع فيها فلما لم يستجب الله منه بالرغم من الدعوات اشتعلت نيران الحب فى قلبه بأ كثر من الحالة الاولى عاد فسلم أمره للمقادير وصار يسأل الله تعالى ويتوسل اليه أن يريه تلك الفتاة ثانية عسى أن يجد فى ذلك سلوى أو تعزية وعند ذلك فقط اطمأن قلبه واستراح نوعا ما إذ اعتقد فى ضميره أن الله سيمن عليه يوما ما برؤيتها وأصبح ذلك فى نفسه كالعقيدة الثابتة . فصار يقصد المكان الذى رآها فيه فى كل يوم مرتين أو ثلاث مرات يطوف فيه ويتعمد الوقوف والتلفت الى الجهة التي واجهته الفتاة فيها ولكن محاولاته ذهبت عبثا أدراج الرياح فانه لم يرها ولم يستفد من ذهابه وزيارته وطوافه غير التعب واشتداد الحب والضنك وعذاب القلب حتى رق وضعف وأصبح كالخيال نحولا وسقما . وعندما رأى العابد أن حاله قد وصل الى هذه الدرجة غرق فى بحار من الهموم والافكار وجعل يقول فى نفسه أين العفة أين الطهارة أين العبادة التي صرفت زمانى عليها وعاهدت الله أن لا أنفك عنها ماذا جرى لى ومن أين جاءتني هذه المصيبة وما المقصود بهذا الحب هل أن الله لا يرضى لى بحالة التعبد منفرداً عن الناس بل يريد أن يجربنى فأرسل لى الشيطان فألقى فى رأسى هذا الوسواس ولكن محال أن يكون ذلك من الشيطان ولو كان من الشيطان لتغلبت على طرده باسم الرحمن مع انى طالما صليت وسألت الله أن يخلصنى من هذا الحب الجارف فلم أزدد الا تعلقا واشتدت بى نيران الغرام والهيام نعم ان لله فى ذلك سرا عجيبا ولكن ماذا يا ترى هذا السرور وماذا أعمل وكيف السبيل الي الوقوف علي حال تلك الفتاة ومن هي يا ترى وهل هى متزوجة أو بكر واذا كانت متزوجة فان النظر الى وجهها حرام علي ولا أرضي به بل ويستحيل زواجي بها .

ولم يكن لبشر العابد شاغل ولا اهتمام بغير هذه الافكار التي شغلته عن العبادة غير أن كان وكلما قصد التخلص من أفكاره عمد إلى الصلاة فصلى وسأل الله أن يبعد عنه خيال تلك الفتاة وينزع حبها من قلبه ولكن دون جدوى فأصبح يرى أن من المستحيل البقاء على تلك الحال وقد يستحيل عليه أن يترك صومعته ويسكن فى المدينة ويبحث على تلك الفتاة التي لا بد أن تكون محجبة فى بيتها لا يراها أحد واذا رآها فتكون مستترة فى أثوابها فلا يعرفها وليس فى قلبها من حبه شىء فمن أين يتوصل اليها هذا فضلا عن أنه يصبح مضغة فى أفواه الناس فبعد ذلك التعظيم والاعتبار وتلك العفة والطهارة وذلك العلم والتقوى يصبح عاشقا مغرما بفتاة لا يعرف طريق الوصول اليها والحصول عليها ولما زاد به الحد وخرج عن قاعدة القياس لاح له أن يترك تلك المدينة ويقصد بيت المقدس ويقدم العبادة هناك لله عسى أن يفرج عنه وقد ترجح لديه أن هذه الفكرة هى الواسطة الوحيدة لسلوان من أحبها فأولا هو سيبتعد عن المدينة فيقل طمعه فى رؤيتها وربما زالت من خياله صورتها فينساها . وثانيا زيارة الأماكن المقدسة . وفعلا فانه بأسرع زمن وأقصر مدة أى في الساعات القليلة التي كانت باقية من ذلك النهار هيأ ما يحتاجه فى سفره وما وصلت اليه يده من الهدايا لبيت المقدس وفى الصباح ركب جواده وصار قاصدا مدينة القدس الشريف ولم يكن له شغل إلا ذكر الله والعبادة ومع ذلك فقد اجتاز الطريق كله فى عدة أيام وشخص فتاته لا يفارقه وحبها يعظم فى قلبه وكلما رام بعدا زاده قربا .

ولما صار قريبا من بيت المقدس نزل عن جواده ومشى باحترام بقية الطريق وفرسه بجانبه وعليه الأحمال وما زال على تلك حتى دخل المدينة فبدأ بزيارة الاماكن المقدسة ثم سأل الله أن يفرج عنه غمه ويذهب كربه ويطفئ نيران الحب المشتعلة فى قلبه وأن يجرى ارادته فيه بلطف واحسان وبدون عذاب وضنا فاذا كان ذلك بأمره تعالى فليقرب زمن رؤيته ووصاله عن جعلها موضوع أفكاره حتى شغلته عبادته وإن كان من الشيطان لينزع حبها من قلبه ويخلصه مما هو فيه وليطرد عنه الشيطان ووساوس الشيطان .

ولما فرغ من وقت الزيارة رأى نفسه مضطرا للعودة ودع بيت الله بالدعاء والصلاة وخرج من المدينة وفيما هو سائر فى طريقه صادف رجلا فحياه وسلم كل منهما على الآخر ثم سأله من أين هو آت وإلى أين يذهب فقال له انه

عائد من المدينه الفلانية الى مدينته . فلما سمع العابد بشر أن الرجل من مدينته وأنه سيرافقه المدة الباقية من الطريق فرح جداً وقال له وأنا أيضا ذاهب الى المدينة المذكورة وسنترافق الطريق بطوله . فقال له الرجل حبا وكرامة وقد ظنه أحد مواطنيه الأعيان .

ولما قطعا جانبا من الطريق سأل الرجل بشراً عن اسمه ومن أين هو آت : فأجابه اسمى بشر وقد ذهبت الى بيت المقدس لأداء الزيارة وأنا الآن عائد الى بلدى . فقال له الرجل . الآن تبين لي مما ذكرته أنك رجل جاهل عديم المعرفة لا تعلم شيئا عن حالة هذه الدنيا وأحوالها .

فلما سمع بشر من الرجل هذا الكلام تعجب منه جدا وسكت متفكرا قائلا تري من يكون هذا الرجل وما معني توبيخه لي وتعبيره لي بالجهل وقلة المعرفة وماهو علمه وفضله ثم صمم النية على سؤاله واستخلاص مافي خاطره فقال له لقد عرفت اسمى ومن أنا وأين كنت وإلى أين أقصد فاخبرنى الآن من أنت وما اسمك وما معنى الكلام الذى قلته ففتح الرجل فمه وأطلق لسانه بالكلام دون تردد ولا انقطاع وقال .

نعم يا بشر الحق أنك رجل جاهل وبسيط لا تعقل ولا تدرك ما الفرق بين الناس أنا الذي يقال له مليخا إمام الأئمة وفيلسوف العالم ورب من اشتهر بالعلم والفضل وتفرد فيهما بين الانس والجن . وليكن مؤكدا لديك أنه لم يأت الى هذه الدنيا رجل عاقل كامل فاضل مثلي ولا يمكن أن يأتى والآن اعلم الحقيقة أنه لا يوجد شخص يضاهيني تحت قبة الفلك فاصغ الآن واعلم مقدار علمى وفضلى وكمال اطلاعى على أسرار الدنيا وخفاياها فكل ماهو على الارض وفى البحر بل كلما يخطر للانسان ويلوح له موجود علمه عندى وظاهر لدى وهذا الذي يجعلنى فريد الدهر وحيده نعم نعم لا يوجد مثلى فى العالم مطلقا فأنا نادرة الزمان ودرته الفريدة أنا العالم الذي لم تفتح الشمس عينها على رجل عالم فى درجتي يقاربها أو يدانيها . وقد عقم الزمان عن أن يوجد مثالى فقد أوصلني العلم إلى درجة أعلم منها ماهو أصل تكون الجبال ومقدارها وارتفاع كل واحد منها وكذا السهول والانهار وكيف تجرى وإلى أين تنتهى وأجناس النباتات والحيوانات بأنواعها وماهو جميل وماهو قبيح وما هو محبوب وماهو مكروه منها وأعلم أصل منشأ كل شىء وأعلم الابراج الفلكية ومكان الشمس والقمر

والـكواكب والملائـكة وكيف صارت وما هو عملها وكلما يخطر فى أذهان المخلوقات من أولها وأعظمها حتى النملة على صغرها وضعفها فانى أعلم ماهى عليه وما يخطر فى بالها وكذلك أعلم زمن تسلط كل ملك وزمن سقوطه أو انقراضه وأخبر به قبل ألف سنـة وأيضا أعلم الطب علما لم يسبقنى اليه أحد حتى أننى أقدر أن أدفع كل مرض يقع فيه الانسان وأرد عنه الموت إذا أردت . نعم مهما قلت فأنا فوق ما أقول أنا لست حيوانا مثلك وانمـا أنا انسان ، انسان كامل لا يدانيني فى الفضل أرسطو ولا أفلاطون ولا فيثاغورث وكل فلاسفة العـالم وحكمائه أطفال صغار بالنسبه إلى أقول وأنا أعنى ما أقول انى انسان وأنك حيوان فالانسان الذى يقال عنه انسان هو من كان مثلى ومن كان دوني فى الفضائل والمعارف فهو حيوان مثـلك . الانسان من يعلم كم حبة تراب فى الارض ويعرف مافيها من الجواهر والخزائن والخفايا التى دفنت فيها فاعلم يابشر أنك الآن أسعد حيوان على وجه الارض لأنك الآن فى صحبة الرجل الذي لا يوجد له نظير ولا فى هذه الدنيا حتى ولا فى الفلك والسلام .

فلما سمع العابد من رفيقه هذا الكلام بقي مقدار نصف ساعة محدقا فى وجهه بكمال الحيرة والتعجب ولم يجسر أن يفتح فمه وكان يفكر فى نفسه قائلا من هذا الرجل وما هو هذا الهذيان الذى يقوله أهل أحد غير الله سبحانه وتعالى يقدر على مثل ادعاءاته فكل ماذكره إنما هو من العلوم التي اختص الله بعلمها وفيماهو يفكر إذ ظهرت فى ناحية من الأفق غيمة سوداء وفى ناحية أخرى غيمة بيضاء ولما رأى مليخا هاتين الغيمتين التفت الي بشر وقال : أى بشر الاحمق هل تقدر أن تعرف لماذا إحدى هاتين الغيمتين بيضاء والثانية سوداء ؟ فضاق صدر بشر العابد من كلامه القبيح وادعاءاته العريضة ولـكنه تصبر وتحمل وقال لنفسه صبرا إلى النهاية وحينئذ فتح فاه وقال . نعم يا مليخا إن حكمة الله سبحانه وتعالى قد قضت بذلك فالسوداء هى متراكمة بالمياه التى رفعتها حرارة الشمس متكاثفة من ثقلها بالامطار بعضها فوق البعض سوف تسوقها الرياح الى الاراضى الميتة التى لا مياه فيها حيث تسقط أمطارا تملؤ الانهار وتسقى الارض وتنبت الزروع والاعناب أما البيضاء فهى غيمة رقيقة خالية من المياه ولا مطر فيها لضعف اجتماعها ورقتها وعدم تكاثفها .

فقال مليخا كلا وهذا الذى يبرهن لى عن جهلك وعدم معرفتك أأدركت

العلم كم هو عظيم إن هذا الذي تراه ليس غيما كما ترى بل هو دخان محترق ولا يقدر أن ينكر ذلك انسان في رأسه عقـل . وأما البيضاء فهى رطوبة خفيفة متصاعدة من الارض أعلمت أيها الجاهل فى أي درجة أنا من العلم والمعرفة فسكت بشر أيضا وتحمل وصبر ولم يجبه بكلمة واحدة وبعد لحظة واحدة هبت ريح شديدة فعاد مليخا الى الـكلام فقال لبشر أتعـلم هذه الريح من أين مصدرها إذ يلزم أن تكون عارفا كل شيء ولا تكون عائشا كالبقر والحمير لا تعلم شيئا . فأجابه بشر سبحان الله لقد تماديت يامليخا فى سوء أدبك وتجرأت علي وعلى كل حال فهي بأمر الله سبحانه وتعالى فتقع عندما يريد ولاتظهر عندما لا تكون له إرادة فى ظهورها .

إن الرياح تيارات هوائية تنشأ عن الاعاصير الواقعة فى البحار العظيمة من الانطلانطيقي والأطلسي والباسفيكى والهندى حيث تقع أعظم حرارة شمسية فى هذه المناطق فتتأثر بها المياه فى أعماق البحار . فاحمر وجه مليخا وغضب وقال له يالك من سفيه قليل العقل أتيت أيضا بدليل ضعيف فالى أى وقت تعتقد أنت بهذه الاعتقادات الباطلة والى متى تتمسك بالخرافات العجائزية لماذا تجتهد دون أن تدرك وتدعى العلم وأنت جاهل ألا تعلم مافى الدنيا فى الحقيقة إنك لم تحصل علما واحدا وإن دماغك على كبره وضخامته لم يسع واحدة ان ماتقوله هو من الأوهام الفاسدة والاباطيل الزائدة ان أصل هذه الريح من الخلاء يحركه بخار الارض ويهزه

فلما سمع بشر كلامه ضاق عليه رحب الارض وكاد لا يصبر عليه لولا أن عقله حمله على السكوت والتأنى منتظرا النهاية وهو يقول فى قلبـه رحماك يارب أية بلية جلبت على نفسي ياليتنى مارأيت وجه هذا الرجل ولارافقته فى طريقى وفيما هو يفكر فى ذلك صادف مرورهما على جبل عال فالتفت مليخا إلي بشر وقال له الآن أسألك سؤالا تعلمه الاطفال وتجيب عليه بصواب فاذا زغت عن الحقيقة ضاق صدرى وأحوجتنى إلى الغيظ والـكدر .

أسألك لماذا هذه القمة من الجبل أعلى من باقي القمم ولما هذه القمم أصغر من تلك القمه أجب حالا . فأخذ بشر يهتز من سؤاله اهتزاز الأغصان عند هبوب الرياح وعزم أن لايجيبه لـكنه فكر أن يصبر أيضا ويطيعه ليرى النهاية فقال له ان ماتسأله فهو واضح فان الرياح وعمل الانسان من القدم وتأثير البراكين

والزلازل ومياه الامطار هو أسباب ذلك وهذا أيضا راجع الى أن الحكمة الالهية قد قضت بمثل هذا التفاوت بين القمم كما قضت بالتفاوت بين أجناس الانسان والحيوان والنباتات وكل المخلوقات سواء كانت فى الارض أو فى السماء . فأظهر مليخا الغضب والحدة الى منتهاهما وقال يالك من بليد أحمق جاهل هل تظن بنفسك العلم والمعرفة وأنت حيوان أعجم لاتعي ولا تفرق بين النور والظلام ألا تعلم عندما تمطر السماء ويسير المطر على الارض لا يلحق بالمحلات المرتفعة فتبقى على حالها والمحلات التي تسيل عليها مياه المطر تنقص وتنخفض بما تجرفه المياه منها وكلما اشتد المطر فى ناحية زادت انخفاضا هذا هو السبب فى ارتفاع الجبل وانخفاض السهول وتفاوت الآكام عن بعضها البعض بالارتفاع والانخفاض هل علمت .

ففي هذه المرة ضاق صدر بشر العابد ولم يعد قادرا على التحمل والصبر فقال له والغضب يقيمه ويقعده ان كل هذا الهذيان الذى تكلمت به هو كفر صريح واثم وصار من الواجب قتلك ومحوك من مملكة يحكمها الله ويدبرها بعنايته فياويح لنفسك أيها الخبيث استجمع عقلك وافتكر فيما تقوله فانك تقاوم الله وتخالفه فاذا كنت لا تعلم شيئا فلماذا تدعى العلم أعوذ بالله هل أنت شريك الله فى عمله ومعرفته حتي تأتى بالادعاءات الفارغة ماهو حدك لتتكلم مثل هذا الكلام ومن أنت لقدصبرت عليك واحتملت منك الاهانة والتحقير ولم أفه ببنت شفة حتي زاد بك الكفر والطغيان فلو بلغ الانسان بعلمه أعلى درجات المعرفة لايحسب ذرة بالنسبة لعلم وعمل واجد الوجود نحن لانقدر على عمل شيء والانسان الحقيقي الكامل من يعلم من نفسه بأنه مخلوق مصنوع بيد خالق عظيم وصانع عجيب فكيف يتساوي الخالق بالمخلوق ان ذلك الا عصيان وكفر واذا كنا نعلم ما يعلمه فكيف لا ندفع الموت عن أنفسنا ونتغلب كما هو متغلب عليه فنحن نموت وهو لا يموت ففي الحق ان فخر الانسان بعلمه ومعرفته جهل فاضح فما علم الانسان في حالة الوجود إلا كعلم الجنين وهو فى الرحم فأقصر الآن عن غيك ولا تدعى معرفة ماتجهله .

فلما انتهى بشر من كلامه قال له مليخا الآن تأكد لى جهلك وحمقك وقلة فهمك .... ثم هز رأسه وسكت عن الكلام . فقال له بشر لقد أحسنت فاني أريدك أن تسكت وقل عنى جاهلا . أو قل عنى حيوانا ومهما قلت فقل ولكن

اصمت عن كل كفر . ولكن هل يصمت مليخا كلا فانه كان كلما صادف شيئا اعترض عليه وطلب من بشر الايضاح عنه وعارضه فيه بالادعاءات الباطلة الفارغة وبشر يتململ ويتضجر ويتمنى أن لو لم يكن التقى بهذا الرجل الكافر

وبعد أن سارا على مثل ذلك عدة أيام وصلا إلى بر مقفر وصحراء محرقة معطشة واشتد بهما الظمأ وكان لشدة حرارة الهواء يتضايقان من شدة العطش حتى أصبحا في حالة يرثى لها وقد تدلى لسانهما من حلقيهما ونشف ريقهما وكان كل واحد منهما يبحث عن الماء من جهة وبشر يقول في نفسه من أين جاءتني هذه البلوى كل ذلك من كفر هذا الرفيق الخبيث ولم ينقض النهار حتى رأيا عن بعد شجرة اجتمعت عليها الطيور وحامت حولها فقالوا لا بد أن يكون تحت هذه الشجرة ماء فأسرعا اليها فوجدا عند أسفلها ماء صافيا رائقا ووجدا في الأرض حفرة كبيرة كأنها فم كوب والماء داخلها فلما رأيا الماء فرحا وكان أشدهما فرحا مليخا وقال لرفيقه أنظر كيف وجدت لك الماء أعلمت مقدار عقلي وعلمي فلا تعد تنكر على بعد الآن ما أقوله لك فقال له بشر أخذ الله روحك وأراحني من كفرك هل أنت الذي أوجدت الماء ثم انهما جلسا حول الماء وشربا منه فوجداه لذيذا صافيا شهيا فاستنسبا أن يقيما ساعة هناك للراحة . ومع ذلك فان مليخا لم يكف عن الكفر وكثرة الكلام فقال أي بشر أريد أن أسألك سؤالا لأرى هل تقدر أن تجيبني عليه تماما من الذى أدخل هذا الكوب في الارض على هذه الطريقة ولماذا يجرى هذا الماء ومن أوجده فيه فقال بشر نعم انه لم يكن ماء فى هذه الصحراء المقفرة فلاجل راحة المسافرين والمارين في هذه الصحراء التي لا ماء فيها ويشتد فيها الحر والظمأ أقام أهل الخير هذا الماء ثوابا لوجه الله ولأجل وقايتها وضعوها في صورة كوب داخل فى الارض وهم الذين يحافظون عليه من الكسر ويأتون إلى هنا بالماء فيضعونه فى هذا المكان كلما فرغ وبذلك يكتسبون دعاء الذاهب والآيب وينالون الأجر والمثوبة من الله عليه تعالى فهذا الماء سبيل من أهل الخير فقال له مليخا ما شاء الله عليك أيها الفيلسوف الماهر وألف ماشاء الله عليك وعلى هذا العقل الناقص والفكر القاصر ولو كنت أعلم ما أنت عليه من هذه الافكار الجنونية التي لا تصدر إلا عن البسطاء والجهلاء من الناس ولا يقولها إلا كل ضعيف الرأي عديم الادراك والصواب لاخترت الانفراد بنفسي ولا اتخذتك رفيقا لأن من أعظم الضربات ابتلاء العالم

بالجاهل . ألا تعلم أيها الكبير الدماغ الصغير العقل أن هذا الماء ما وضع هنا إلا كفخ لأن الصيادين اللذين يطوفون الصحارى والبرارى لأجل صيد الحيوان قد اختاروا هذا المكان فوضعوا فيه هذا الكوب وملأوه ماء وزرعوا عنده هذه الأشجار وصاروا عندما يطلبون الصيد يأتون فيختفون فيها وبالطبع فأن الحيوانات كالأرانب والغزلان ونحوها عندما يشتد بها العطش والظمأ تطوف الصحراء مفتشة على الماء حتي تأتى هذا المكان متهالكة من الظمأ فترمى بنفسها الى الماء فينقضون عليها ويمسكونها أوأنهم يرمونها بالسهام فيقتلونها وهذا هو القصد من وجود الماء هنا .

فقال له بشر ليس هذا بالمهم فكل انسان يعتقد ما يلوح له ويخطر فى ذهنه ويري الأمور بحسب ضميره وطهارة قلبه فالرجل المتدين الذى يخاف الله يظن بالناس خيرا ويرى الخير فى كل ناحية وأما الرجل الكافر فيظن بالناس سوء فكل خير يعملونه يراه شرا لأنه لا يعرف للخير بابا فاصغ لي واقبل مني النصيحة ولا تكن كافرا ولا تتكلم بالناس شرا ولا تحد عن طرق الخير وتب الى الله سبحانه وتعالى فيعفو عنك فان المرء يأكل من ثمرة أعماله فاذا سمعت مني وقلعت من قلبك ورأسك هذه الافكار الباطلة والاوهام الفاسدة والمعتقدات وطهرت نفسك من أدران الكفر ذهب عنك غضب الله وتخلصت من انتقامه .

فهز مليخا رأسه وقال له أقصر عند حدك فقد ابتليت بك فلا حول ولا قوة والآن بعد خروجنا من هذا المكان سر أنت وحدك وأنا وحدى لأن رفقة الجاهل مصيبة كبرى وبلية عظمى فكفانى ما لقيت منك فيما مضى .

ثم إنهما وضعا الأكل وأكلا وشربا واستراحا برهة وبعد ذلك قال مليخا انى أريد أن أنزل فى هذا الماء واغتسل فانتظرنى بضع دقائق . فلم يخالفه بشر بل نهض واقفا وأخذ يتمشي بضع خطوات مفكرا فى أمر رفيقه متأسفا عليه غير ناظر الى نفسه .

أما مليخا فانه نزع ثيابه وغاص فى الماء ولم يعد يظهر له أثر وبقى بشر على حاله مقدار ساعة ثم جاء لجهة العين ونظر جهة الماء فلم ير أحدا فوقف مبهوتا متعجبا حائرا لا يعلم ماذا يعمل ولا يعرف ماذا جري لرفيقه هل أن الارض ابتلعته أوأن العفاريت اختطفته وقد لاح له أن العين عميقة وأن مليخا ربما يكون قد غرق فيها رفيقى على حاله نحو ساعتين واذا بجثة مليخا تطفو على وجه الماء

فمد بشر يده اليها وتناولها بأسرع من لمح البصر وأخرجها إلى الارض فاذا هو ميت فحزن عليه جدا ولكنه قال فى نفسه هذا فعل الله العظيم إن فى ذلك عبرة لأولى الكفر ثم خرّ للأرض ساجداً وصلى لله وشكره على رحمته به وسأله العفو عن روح مليخا الذى أنكر قدرته وادعى لنفسه معرفة كل شيء . ثم حفر فى الأرض قبرا فدفنه فيه وجمع ثيابه وأمتعته وما يحمله من المال وكان مقداره مائة دينار ذهب وقال من اللازم أن أحمل تركته الى المدينة وأسأل عن أهله وأقاربه فأدفعها اليهم إذ لا يليق بى أن اختص بها لنفسى أو أتركها لغيرى وركب جواده وسار فى طريقه وهو لا يفتر عن ذكر الله ولا يغيب عن ذهنه كل ما وقع له مع مليخا تارة يأسف عليه ويحزن لأجله وطورا يقول كمن يناجيه . أى مليخا كيف أغرقت نفسك وكيف مت مع أنك أمام العالمين وتدعي أنك تدفع الموت إذا أردت أين تركت علمك ومعرفتك وأين كرامتك وفضيلتك قلت أنك تعلم علم الغيب وتعلم ما يكون قبل وقوعه بألف عام وتعرف كل ما فى الارض والسماء مع أنك لم تعلم ما فى هذه الحفرة الصغيرة لماذا لم تخلص نفسك من الموت لماذا تركت هذا الماء القليل يقوي عليك ويخنقك . لقد قلت لك أن هذا الماء وضع هنا لأجل حياة الانسان ووقايته من الظمأ ولعمل الخير وأنت قلت انه وضع لاجل صيد الحيوان والوحش فها قد جوزيت بسوء ظنك .

وما زال سائرا فى طريقه عدة أيام حتى وصل المدينة وكان جل اهتمامه أن يوصل أمتعة مليخا والمائة دينار التى وجدها معه الى أهله ويخبرهم بما وقع له معه وهو على يقين أنهم يصدقونه فى كل ما يقوله . ولكنه حالما دنا من المدينة عادت اليه أفكاره الغرامية وعاد اليه خيال تلك الفتاة الحسناء التى رآها وقد طار الغطاء عن رأسها يتراءي أمامه ويلوح لعينيه خصوصا عندما مر من تلك الناحية التي رآها فيها فلما اشتد به الحال قال اسألك العفو والمغفرة يارباه لقد فارقت المدينة وقصدت بيت المقدس وتبت اليك واستغفرتك من ذنبي وسألتك أن تخلصنى من ربقة سلطان الغرام . فها أنا أرى حالتى كما هى بل أشد فما هى ارادتك وما هى حكمتك يارب اغفر ذنبي ياربي ارحمني ولا تجعل حياتى شقاء وخلصنى من كل شر وكان أهل المدينة لما علموا بوصوله خرجوا كبيرا وصغيرا للقائه وكلهم يقبلون يديه ويتبركون به .

وما زالوا يسيرون حوله وبين يديه يرحبون به حتى أوصلوه الى صومعته فودعوه وسألوه الدعاء لهم وبقي هو كسابق عادته يصلي في صومعته ويحارب أفكاره الغرامية مدة أسبوعين .

ثم رأى من الضرورة السعي والسؤال عن بيت مليخا كي يوصل أمواله إلى أهله فدخل المدينة وسأل عن بيت مليخا فتسابق الناس الى خدمته حتي أوصلوه اليه فشكرهم وصرفهم ثم طرق الباب فأجابته امرأة من الداخل . من الطارق . فقال لها أهذا بيت مليخا . ففتحت المرأة الباب ووقفت من خلفه وقالت له نعم هذا بيت مليخا فلماذا تسأل عنه وما هو طلبك فربما أمكننا أن نلبيه . فدخل بشر ووقف مبهوتا متفكرا كيف يباغتهم بالخبر وكيف يعلمهم بموت مليخا .

وبعد التردد سأل المرأة هل أنت زوجته . أجابت نعم أنا أسيرته أو بالحرى زوجته المعذبة فالله يفكني من هذا القيد . فتعجب العابد من كلام المرأة وطعنها بزوجها . فسألها هل أنت غير مسرورة من مليخا أجابته انى أطلب من الله إما أن يأخذ روحى واما أن يأخذ روح هذا الخبيث الكافر الطاغي ويخلصني من يده لأني لاقيت من كفره وظلمه وعذابه مالا يمكن أن تكون امرأة على وجه الارض قد لقيته من الكفر والظلم والعذاب . ما رأيت في كل مدة وجودى معه دقيقة واحدة من الراحة والهناء ولهذا السبب ترانى غير مسرورة من هذا البخث التعس والحظ النكد وقد أخفيت حالي عن كل الناس ولم أخبر بحالى أحدا لاقريبا ولا غريبا والآن لا أعلم ما السبب حتي بحت بظلمى وعذرى أمام رجل لا أعرفه ولكن ما ذلك إلا بقضاء الله وقدره فاعذرني يا سيدى فقد تكلمت عن غير وعى . ولكن هذه حالتي أنطقني الله بها والسلام .

فتعجب بشر غاية التعجب وقال فى نفسه انى مارأيت ولا سمعت طول عمرى ما أسمعه الآن من هذه الفتاة فهى على ما يظهر فى ريعان الصبا ومقتبل العمر ونضارة الشباب فكيف تزوجت برجل تكرهه وما هو الداعى لزواجها منه وما هو العذاب الذي تلاقيه منه وقد رأى من عذوبة كلامها ورقة ألفاظها ومعانيها ما وقع فى قلبه موقعا رفيعا وبعد أن أطرق إلى الارض برهة قال لها قلت انك تكرهين مليخا فاذا كنت تكرهينه حقا فلماذا تزوجت به ومن كان سبب هذا الظلم احكي لي ولا تخفي فانى أكره مليخا أكثر مما تكرهينه وسترين ذلك بعد قليل .

فقالت كيف لا أكرهه وهو لم يعتبرني بمقام الزوجة بل كان يحتقرني ويهينني ومع ذلك فاني لم أخالفه قط في أمر من الأمور إلا في مبادئه الكفرية فأنا بنت التاجر فلان وقد أحبني أبي وأمي كثيرا . فلا أعلم من أين سمع بي مليخا ولا من وصفني له فصرف جهده للاقتران بي وقد تظاهر أمام والدي بالغنى والعقل فزوجاني به . وبعد أن أقمت عنده يومين فقط بدأت تظهر منه أحوال غريبة وآراء كفرية وأطوار وحشية فهو يتكلم بكلام غير معقول ويكفر بالله وبقدرته وحتى الآن لم أر من هذا الرجل الا المعاكسة والاهانة ومع أن أبي وأمي كثيرا ما اجتهدا من منعه من الهذيان والشطط فهو لم يزد إلا غلظة ووحشية وكفرا بالله العظيم ثم صار يمد يده الي ويضربني من غير ذنب مع أني أري العاقل من الناس يعيش مع زوجته بالحب والسلام لتتم سعادتهما ولا سيما اذا كانت الزوجة متهالكة في راحة زوجها وقيام بيتها عاملة على كل ما يطلبه الله منها من الحقوق الزوجية المقدسة كاملة في محاسنها وآدابها وطهارتها .

وكانت تتكلم وبشر العابد يسمع لها وقلبه يختلج من فصيح كلامها ورقة معانيها وحسن مباديها وسمو آدابها ثم قال لها إذا كان الأمر كما زعمت فاني أقدم اليك بشارة كبرى فيها نفعك وخيرك وخلاصك من مليخا فانك لن تعودي ترى وجهه بعد الآن وذلك أني بينما كنت آتياً من زيارة بيت المقدس صادفت مليخا في الطريق فاتخذته رفيقا لي ولكني تكدرت منه لكفره وادعائه الباطل ونكرانه قدرة الله فقد لاقيت منه في هذه الايام القليلة من الهذيان كما قلت ماجعلني أكرهه وأندم على مرافقته وما زلنا حتى أتينا عين ماء وكنا من العطش في حالة يرثى لها وبعد أن شربنا وأكلنا ذهب لكي يغتسل في الماء فابتعدت عنه قليلا ونزع مليخا ثيابه وغاص في الماء فانتظرت ساعات فلم يخرج من الماء فافتقدته فاذا بجثته تطفو فوق وجه الماء وقد مات مختنقا بالغرق فأخرجته متأسفا عليه وقد تيقنت أن الله جازاه على كفره وعناده وبعد أن دفنته حملت ما كان معه من الامتعة والاموال وأتيت بها وقصدي أن أستدل على بيته وأهله فأسلمها اليهم لأنها حقهم الشرعي ولذلك بعد أن وصلت المدينة ببضعة أيام سألت أهل المدينة عن بيت مليخا فدلوني عليه وقد استصحبت معي الأمتعة والمال لأسلمها اليك فها هي حاضرة معي لان الله جل جلاله يحب الصدق وقد أوصى بالامانة فمن الواجب على أن أؤديها كما هي .

فلما سمعت المرأة كلام بشر لم تتكدر على زوجها ولا بكته بل بالعكس فرحت لانها كانت مظلومة معه وكانت تكرهه لكفره ونكرانه قدرة الله جل جلاله وادعاءاته العريضة الباطلة ولكنها كانت تفكر فى عمل بشر ثم قالت له بالحقيقة انك أمين وصاحب مروءة وكرامة ولو كان غيرك لأخذ كل ما كان يحمله زوجى وأخفى أمره أما أنت فقد أديت شروط الامانة فمثلك يجب أن تكون الرجال وإلا فلا والآن أرجوك أن تدخل الى الداخل وتجبر خاطرى وتتناول ولو شربة ماء جزاء معروفك وحسن ذمتك . ولما ألحت عليه دخل معها وهى تعظمه وتبجله وتحترمه وتكرمه .

ولما دخل بشر البيت وجده واسعا عاليا مزينا بأنواع الفرش الفاخرة وفيه خدم وجواري وكلهم واقفون فى خدمته . فتحير بشر العابد مما رآه ودهش وتعجب كيف أن مليخا مع كفره ونكرانه واجد الوجود حصل على غني وافر وسعادة كاملة وزوجة فاضلة مع أنه لا يستحق شيئا من هذا النعيم . فكان فكره موزعا تارة يتجه الى غنى مليخا ويسره مع كفره والحاده ، وتارة ينشغل بزوجته وفضلها وأدبها وقد شغل قلبه بها وصار يختلس النظرات اليها بالرغم منه ثم يعود إلى وعيه فيندم على ما فرط منه ولكن قلبه لا يطاوعه فيطمع فى التقرب اليها ولهذا كان يحدث نفسه ويتمني أن تقبله زوجا لها حلالا وكان يقول لو تم ذلك لى فانها تخدمنى وتكرمني وتعرف فضلى واعتبرها وأجعل عيشتها راضية فهى صالحة تقية . ثم يغالط نفسه ويقول كلا كلا لا يلزم أن أفتكر بمثل هذا الامر وأطمع فى زوجة الرجل وأمواله ولا سيما وهي لا يمكن أن تقبل بذلك ومن أين تعرفنى وتركن إلي وعلى الخصوص فقير لا أملك مالاً ولا عقارا وكل ما كان عندى أنفقته فى سبيل الله .

وبعد أن قدمت زوجة مليخا لبشر حق الضيافة جاءت فجلست أمامه وسألته أن يعيد عليها خبر موت زوجها فأجاب طلبها وحكى لها الحكاية من أولها الى آخرها حرفا حرفا وكيف أنه صادفه فى الطريق وكيف ادعي أنه عالم الانس والجن وأنه عارف ما فى الارض والسماء وكيف قاومه وعانده وخاصمه وبين له قدرة الله ووحدانيته وهو يهزأ ويسخر حتى لقى عقابه . فجعلت المرأة تشكر الله وتشكر بشر العابد وتقول له نعم ان أفكاره كما قلت فهو لم يكن مسرورا من أحد ولذلك كنت أكرهه وقد قضيت معه عدة أشهر وأنا كارهة له ولعناده

وكان كل همه متجها إلى حملي على الكفر والاشراك بالله ويكرهني لأعترف بوحدانية علمه فكنت أخالفه وأجتهد لكي أرده الى الله فكان يهينني ويضربني فالآن أشكر الله تعالى لأني تخلصت منه نهائيا ولو أني بقيت اشكر الله مدة عمري فلا أوفيه ماله على من الفضل والمنة لخلاصي هذا .

وأما بشر فانه كان نشوانا من عذوبة ألفاظ الفتاة ولطف حركاتها وحسن محاضرتها ورفيع آدابها وكان يتمنى لو أنها تكون له وفي حوزته وهي لما رأت انشغال باله وتوهان عقله أدركت أنه تولع بها وعلق قلبه بحبها وكانت هي أيضا لما رأت فيه التقوى والعقل والذكاء وشاهدت فيه حسنا باهرا ووجها مشرقا مالت اليه وقالت في نفسها ماضرني لو اتخذته زوجا واقترنت به فاني لاشك أعيش سعيدة وأغسل تلك الأيام السوداء بأيام بيضاء فقد ساقه إلى القدر لهذه الغاية ولكن ما الوسيلة لمفاتحته في هذا الموضوع ولكن بعد التفكير والامعان قالت له وهو لا يزال غائبا عن وعيه لا يعرف خلفه من أمامه ولا يميز رأسه من رجليه .
وإذا كان مليخا قد مات وتخلصت منه فالحمد لله على سلامتك أنت والآن اذا ساعدني الحظ وخدمني التوفيق يسهل لى الاقتران بزوج عاقل نظيرك محب فاضل تقي ينسيني أيام العذاب والعناء التي صرفتها مع مليخا فلاشك في أني أعيش أنا واياه عيشة صالحة براحة وهناء كروحين في جسد واحد .

فكاد يطير من الفرح وهو يقول في نفسه أصحيح ما تقوله أتريد الاقتران بي ولكن ما الفائدة وقلبي وفكري معلق بتلك المرأة التى رأيتها في الطريق وصورتها لا تبرح من ذهني وفيما هو غائص في أفكاره لا يدري بماذا يجيبها سمعها تقول له . نعم اذا كنت تقبلني زوجة فانه يكون من سعادتي لأني لا أتوق لوجود زوج أوفق منك لأني حالما رأيتك وقعت محبتك في قلبي وبعد أن أخبرتني بموت مليخا تأكدت ان ذلك فعل الله . وانك ستلاقي من الزوجة المطلوبة فضلا عن أنه عندي من الاموال ما يكفي لعيشتنا هذا فضلا عما أرثه مني مليخا ومن أبي وهذا يساعدني على القيام بخدمتك حق القيام وأنت تعلم أن لابد للمرأة من الزواج لتعيش مستورة وتفي بواجبات هذه الدنيا التي فرضها الله عليها بمساعدة الرجل وما من شك عندي أننا سنكون راضيين من طالعنا ونصرف عمرنا في الهناء والسعادة لأني أراك رجلا كامل الصفات حسن العبادة فلا يمكن لي أن أتوصل للزواج برجل مثلك وكذلك أنت لا يمكن ان تقع على زوجة مثلي

تعرف قدر الرجل وكيف يجب أن تخدمه فضلا عما أعطانيه الله من الجمال النادر المثال ولكي تتحقق ذلك أكشف لك عن وجهي لتتأكد صدق قولي ثم أزاحت اللثام عن وجهها وبان من تحته جمال باهر وحسن فاضح لم يخلق الله مثله .

فلما وقعت عين بشر عليها تبين له انها هي نفس الفتاة التي رآها في الطريق وأطار الهواء غطاء رأسها وقد أصابه من حبها وغرامها من نظرة واحدة ما كاد يذهب بقلبه ولبه وفي الحال أغمي عليه ووقع الى الارض فاقد الحواس فتعجبت الفتاة من حاله وقالت ياللعجائب ماذا أصابه وقد شغل بالها لأجله . ثم أسرعت فرشت الماء على وجهه حتى فتح عينيه ورآها الى جانبه فعادت اليه حواسه وجلس في مكانه وبعد أن عاد اليه وعيه سألته عما أصابه وما سبب ما هو فيه فأجابها كيف تسأليني إذا كنت أقبلك زوجة وأنت سبب شغل بالي واضطراب أفكاري وموضوع حبي ليس من اليوم بل من مدة أشهر وقد أصابني بالرغم مني من عذاب الحب مالم يصب به عاشق فالشكر لله تعالى الذي أوصلني اليك لأطفي نيران غرامي

فزاد تعجبها من كلامه وسألته من أين وقعت في غرامي وأنت لم ترني قبل الآن وأنا لم أسمع بك ولا رأيت وجهك قبل هذه الساعة . أجابها صدقت لأنك لا تعلمين بحبي وأما أنا فقد رأيتك في الوقت الفلاني في الطريق الفلاني وقد طار الغطاء عن رأسك من الهواء وظهر لي حسنك وجمالك فعلق بك قلبي وارتبط بك عقلي وبقيت عدة أيام أصلي الى الله وأطلب اليه أن يقتلع حبك من قلبي فما كنت أزداد إلا حبا وغراما . ولما أعياني الامر وضاقت بي الحيل خطر لي أن أزور بيت المقدس لعلي أسلوك وانسي حبك فجرى لي مع زوجك في أثناء عودتي ماجرى وما ذلك الا من غرائب الصدف وأسرار العناية التي قصدت خلاصك من زوجك الكافر الخائن لأن الله عادل فلا يبقي نفسا في ضيق ولا يجمع بين الكافر والتقي جل جلاله فزاد تعجب الفتاة من هذه الصدفة وقالت له ما من شك في أن الله قد هيأ هذه الفرصة لاجتماعنا لنعيش كما يريد وأتخلص من كل شيء لاقيته ولهذا أعتبر نفسي كأني ولدت من جديد في حجر السعادة والاقبال .

وفي الحال اهتما باتمام العقد وفي مدة قصيرة نالا الحظ الوافر - والسعادة الدائمة وعاشا عيشة خضراء بهناء وراحة وبقيت كل أيامهما مخضرة زاهرة إلى أن فرق بينهما الممات .

وبعد أن قصت السيدة برى بنت صاحب الاقليم الثالث أى سلطان خوارزم حكايتها على ما تقدم . قالت له وهكذا ياسيدى أمرى من الحكاية التى سمعتها أن اللون الأخضر هو اللون المقبول أكثر من سائر الألوان كالنبات عندما يكون مخضرا يكون محبوبا مرغوبا وكذلك الزمرد كلما زاد اخضرارا زاد قيمة وغلا ثمنا واللون الأخضر يجلو النظر وتتوق إليه النفس وقد فضلوا الربيع على باقي الفصول لاخضرار الارض فيه ثم انتهت من الكلام .

وعندما سمع بهرام شاه هذه الحكاية تعجب غاية العجب وبعد أن تفكر فيما كان من أمر مليخا وبشر قال فى الحقيقة لا يستطيع أحد من الناس أن يعرف مقاصد الله وأعماله فكم من فتي نراه فى أعيننا جميلا وهو قبيح الصفات والأعمال والعكس بالعكس فما كل جميل جميل وقد صدق من قال .

وقبيح ظن لما أن دعى ... بجميل أنه أضحى جميل
كيف لايدرى بأن الكلب قد ... لقبوه بالوفى وهو ذليل

ثم أخذ هو وزوجته فى البسط والانشراح والمداعبة والملاعبة الى أن أقبل المساء وبناء على أمر برى لبس نحو خمسين جارية من جواريها الحسان الملابس الزمردية من رؤوسهن الى أقدامهن وحضرن وبيد كل واحدة منهن مصباح أخضر فعلقنها جميعها فى أغصان وأشجار تلك الحديقة فأمست مزينة بالألوان فكان بهرام وهو في الوسط يرى نفسه كأنه فى جنة النعيم ومن حوله السماء قد زينت بالكواكب وبين يديه الحور العين يتمايلن ويتسابقن فى خدمته فسر غاية السرور ولما حان وقت الطعام تهيأت المائدة بلون أخضر ووضعت عليها الاوانى والصحون وكلها من الصينى الاخضر المرصع بالزمرد ولما جلس للطعام طاف البنات بالمائدة وهن كالاقمار وبأيديهن الشمعدانات والشموع الخضراء ولم يكن بهرام ليجحد فضل الله الذى أنعم عليه بمثل هذا النعيم ولذلك كان لا يفتر عن شكر الله عز وجل . وبعد مناولة الطعام نهض وزوجته عن المائدة وغسلا أيديهما وعادا إلي الحوض فجلسا مكانهما وغاصا فى بحر الأنس والصفا وقضيا سهرة طويلة الى أن جاء وقت النوم فدخلا القصر والتصقا ببعضهما حتى الصباح فنهضت الملكة قبل بهرام وأمرت باحضار الحمام وما يلزم ثم عادت إلي جانب بهرام شاه تقبله وتعانقه ففتح عينيه وشاهد جمال زوجته وكأن وجهها قمر

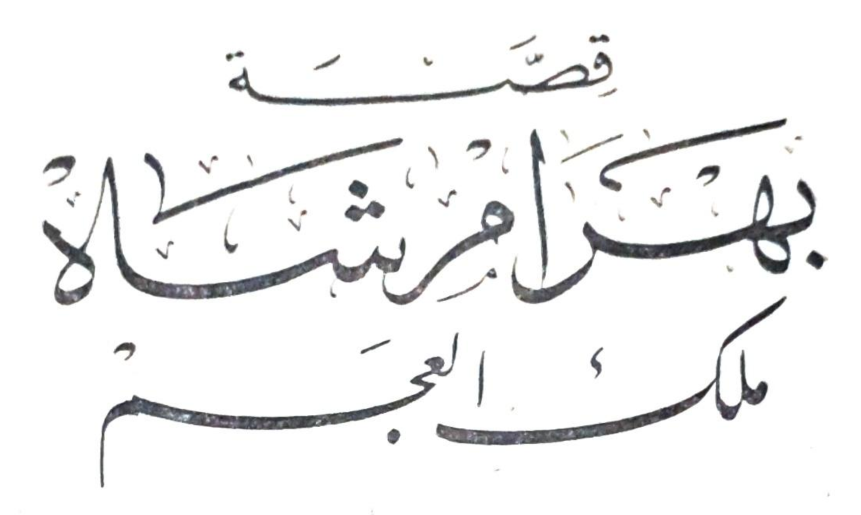
يشرق فوق وجهه فمد يديه ولفها فوق عنقها وجذبها الى صدره وقبلها فى خديها وألصقها به ثانيا .

ثم خرجا من السرير ودخلا الحمام فاغتسلا وحينئذ سألته : من من زوجاته يقصدها فى ذاك اليوم فأخبرها أنه سيذهب عند نسرين بوش بنت ملك صقلاب ملك الاقليم الرابع فأتته بثوب أحمر مرصع بالياقوت الاحمر وأفرغته عليه بيدها وخرجت به الي غرفة الراحة وبعد أن شرب ما قدمت له من الأشربة السكرية الملوكية نهض فقبلها فى خديها وقبلته فى عنقه وجبهته وودعها وخرج عازما على الذهاب الى القصر الاحمر وهو لابس الملابس الحمراء .

وما زال الملك بهرام شاه سائرا فى طريقه بالابهة والاجلال الي وصل إلى منتصف الطريق فرأى صيوانا أحمر مرصع جميعه بالياقوت الرائق الشفاف يتلألأ كالشمس فى رابعة النهار يعجز النظر عن التحديق فيه وكان حول الصيوان نحو من خمسمائة فارس بالألبسة الحمراء فوق خيول حمراء وبيد كل واحد منهم سيف مرصع بالياقوت الاحمر وقد اصطفوا صفين صفين لتأدية السلام عند قدوم الملك بهرام .

فلما رأى بهرام ذلك قال عجبا ماهذا الصيوان المنصوب هنا وماهؤلاء وما الفرسان القائمون عنده . وأما الفرسان فانهم حالما رأوا بهرام شاه وقد صار قريبا منهم خفوا لاستقباله بانتظام وترتيب وقاموا بواجب السلام والاحترام فتحير من أمرهم واستدعى قائدهم وقال له ما هذا الصيوان فأجابه القائد بعد أن قام بواجب الدعاء والثناء إننا أرسلنا من القصر الأحمر وأمرنا بنصب هذا الصيوان فى هذا المكان لأجل راحتكم وارتياحكم وقد وضع فيه صندوق ليسلم الي عظمتكم ولكننا لا نعلم ما بداخله .

{ انتهى الجزء الاول من قصة بهرام شاه ويليه الجزء الثاني }



وما جرى له فى بلاد الملك النعمان وتملكه عرش مملكة فارس
والأقاليم السبعة وقهر ملوكها العظام وزواجه
بالسبع بنات ملكات البهاء والجمال

وهى قصة تاريخية واقعية

منقحة ومهذبة وبها زيادات بقلم

عبد الله الصاوى

الجزء الثانى

عبد الحميد احمد حنفى

بشارع المشهد الحسينى رقم ١٨

المراسلات : مصر - صندوق بوستة الغورية رقم ١٢٧

اشتريته يوم الخميس ٨ / ذو القعدة / ١٤٤٣ هـ
٨ / ٦ / ٢٠٢٢ م

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر



فأطرق بهرام شاه وقال في نفسه لابد أن نسرين بوش قد فعلت ذلك تحببا إلى ورغبة في خدمتي ولما صار عند باب الصيوان نزل عن جواده وقصد الدخول وإذا به يري عند الباب جواداً جميلا بديع الشكل مزينا بالسرج الفاخر المرصع باليواقيت الثمينة لونه أحمر وسرجه أحمر وكل ما عليه أحمر . فاندهش بهرام من منظره وسأل لمن هذا الجواد فقيل له أنه أرسل اليه لأجل ركوبه الى القصر ففرح به لأنه أعجبه كثيرا ثم دخل الصيوان فرآه مزينا أيضا من الداخل بأبدع النقوش وأغربها وأثمن الاقمشة وأغلاها مما يكل عن وصفه اللسان . وفى وسطه قد نصب سرير من الياقوت فجلس عليه وإذ ذاك حضر رئيس الفرقة فقبل الارض بين يديه ودعا له ولدولته بالعز والاقبال . ثم أخرج من جيبه رسالة مضمخة بالطيب والمسك قدمها له بكمال الوقار والاحترام فأخذها من يده وهو يفتكر فيما تتضمنه وفى الحال فتحها واذا مكتوب فيها .

« مولاى سلطان العالم ومالك رق العباد صاحب التاج والعظمة والبطش والاقتدار القابض على السبعة أقمار حبيبي ومالك قيادى لقد تجاسرت بتقديم عريضة الحب والاخلاص إظهارا لشعورى وميلى الى ذاتكم العالية وقد أرسلت لاستقبالكم الحاجب وأصحبته صندوقا من الألبسة لأجل تغيير ملابسكم فالتمس من معاليكم قبولها مع التنازل بالتعطف على رهينة أمركم وغريقة بحور هواكم »

امضاء

« نسرين بوش »

فلما أتم بهرام شاه قراءة الرسالة سر من زوجته وامتلأ قلبه حبا لها وفى الحال فتح الصندوق وأخرج مافى داخله فرأى ثوبا مزركشا بالياقوت الاحمر يضيء كالشفق وهو مطيب بأزكي أنواع الطيب فانشرح لذلك صدر بهرام شاه ونزع ماعليه من الثياب ولبس الثوب المذكور وجلس للاستراحة نحو ساعة ثم نهض وركب الجواد المرسل من طرف زوجته وسار نحوها محفوفا بالعظمة والاجلال .

ملك يسير مطوقا من جيشه ... بمواكب الاسعاد والاجلال
فكأنه قمر أحيط بأنجم ... بزغت بنور العز والاقبال

وكان الرائي لا يقدر أن يحدق بصره فيه لشدة لمعانه وكان وجواده قطعة واحدة من الياقوت الأحمر البراق وكانت المهابة والشوكة تزيده أشراقا حتى أن العيون كانت تنبهر وتندهش عند وقوعها عليه ولما لم يبق بينه وبين القصر الا مقدار نصف ساعة رأى نحوا من مائة رجل على جانبي الطريق بالملابس الحمراء اللامعة يحملون قربا حمراء مملوءة بالماء السكرى تفوح منها الروائح الزكية التي تشرح الصدور وهم ينادون (سبيل يا عطشان) ففرح لذلك بهرام شاه فرحا لا يوصف وقال في نفسه ان نسرين بوش أشد من غيرها رغبة في تكريمي وتفريحى ولا ريب أن الحكاية التي سأسمعها منها تكون أبدع الحكايات وأحسنها . ولما قرب بهرام شاه من القصر نزل عن جواده ودخل الباب بالأبهة والافتخار وما وصل داخل الباب الا وأشرق عليه نور محيا زوجته نسرين بوش وهي تتمايل كغصن البان وقد لبست ثوبا من الحرير الشفاف الأحمر مرصعا باليواقيت الحمراء وعلى رأسها تاج أحمر مرصع باحجار اليواقيت الكبيرة ووجهها البديع الزاهر كان يتدفق باحمرار الجمال كأنه ورد جوري حتى أن بهاء محياها الساطع بأنوار الجمال أكمد لون اليواقيت والاحجار البراقة التى كانت فوق جبينها اللامع وتحت عنقها الساطع .

البدر طلعتها والغصن قامتها ... والمسك نكهتها ما مثلها بشر
كأنها أفرغت من ماء لؤلؤة ... في كل جارحة من حسنها قمر

وكانت نسرين بوش محاطة بنحو خمسين أو ستين جارية من الجوارى الحسان كل واحدة منهن تفضح البدر جمالا والغصن دلالا وكلهن بالملابس الحمراء الزاهية المرصعة باليواقيت وعلى رؤوسهن أكاليل من الازهار حمر الألوان وبيد كل واحدة طبق من الذهب مغطى باليواقيت والجواهر الكريمة . وحالما التقى بهرام شاه بزوجته صافحته وأخذته من يمينه وتقدمت به بين الجوارى وكان كلما خطا خطوة تشير نسرين بوش للجوارى فيفرغن الجواهر عن الاطباق عند قدميه فيدوس عليها ولا تلحق قدماه الارض وما زال يخترق الجوارى وهن يرمين باليواقيت عند قدميه ويسرعن إلى أذياله فيقبلنها وينشدن أناشيد الاستقبال حتى أوصلته من فناء القصر وجلست واياه على سرير من الذهب

مرصع بالجواهر وقد عرشت فوقه أزهار الورد والمنثور ونحوهما واحتاطت به الجواري من كل ناحية صفا صفا . وبعد قليل قدمت اليه بعض الجواري الشراب السكري الوردي على طبق مرصع بالياقوت فشربه وانتعش به صدره ثم التفت إلى نسرين بوش وأبدى لها امتنانه من اهتمامها باظهار كل ما يسره ويرضيه . ودعت له بدوام العز والبقاء وقالت له من الفرض على جاريتكم الاخلاص في خدمتكم ولا سيما وأن الامر الوحيد الذي ينشرح له صدري وأتمناه في سري وجهري أن تكون فرحا منشرح الخاطر راضيا عن جاريتكم .

وما استقر به المقام حتي أخذهو زوجته يتعاطيان كؤوس الصفا والمسرات والمداعبة والملاعبة ولم تفاتحه نسرين بوش لا بحكاية ولا بقصة وهو منتظر منها أن تسليه بحديث أوقصة حتى مر عليه مقدار ساعتين وهى تشاغله بالتكريم والتبجيل والمؤانسة والمباسطة . وحينئذ ظن بهرام شاه أن زوجته لم يخطر في بالها أن تحكي له حكاية فاستحسن أن يطلب اليها ذلك فأخذ رأسها بين يديه وضمها الى صدره وقبلها فى خدهـا وقال لها . أي بدرى ونور عيني وحبة قلبي ان معدات الأنس والصفا كاملة شاملة وأري اتماما لسروري وامتناني أن نقطع قسما من الوقت بالسمر والحكايات فأحب أن أسمع من فمك العذب وحديثك الشهى حكاية أو حديثـا مسليا يسليني ويزيد فى حبوري خصوصا اذا كانت الحكاية بديعة عجيبة تنطبق على كمال اهتمامك بأعمالك .

فلما سمعت نسرين بوش كلام بهرام شاه أظهرت الفرح والانبساط وعادت بدورها فعانقته وقبلته وقالت له انى يامولاى ومالك رقى كنت منتظرة صدور أمرك بذلك اذ لا يمكنني أن أتجاسر على ذلك بدون أن تأمرنى به والآن حيث قد تنازلت فتعطفت بالامر لجاريتكم الحقيرة بأن تحكى لـكم حكاية غريبة فقد صممت على الاسراع بانفاذ أمركم واجابة طلبكم ولـكن لي اليكم رجاء واحد إذا تنازلتم به جعلتمونى غريقة فى بحار كرمكم ولطفكم . فقال بهرام شاه اطلبي ما شئت فانى مصغ اليك لا أتأخر عن قضاء غرضك ولا أتوقف عن اجابة سؤالك فهو فرض واجب على فأبدت السرور وأكثرت من عناقه وتقبيله وقالت له اعلم ياسيدي اني وأنا بنت صغيرة فى بيت أبى كنت أتبادل المكاتبات مع آذريون بنت سلطان ولما سمح القدر وصرنا نحن الاثنتين فى قبضة يدك وشرفنا الزمان بأن نكون زوجتين لك فكذلك لم نقطع المكاتبة ومن جملة مادار بيننا التفاخر

في خدمتك والقسابق الى مرضاتك لنعرف من منا أكثر اهتماما وأقدر على ارضائك ومسرتك واتفقنا على أن نتخذك حكما في ذلك وأن تصغى إلى الحكاية التي أحكيها أنا لسموكم والتى تحكيها أذريون ثم تبدى رأيك فى أى الحكايتين أحسن من الأخرى وأيهما نالت استحسانك وميلك . وها أنا الآن أضمك إلى صدرى وأفتخر على بنات العالم لكونى زوجتك وقادرة على خدمتك ومسرورة برضاك عنى وفى الغد ستضمك اليها أذريون وتسألك ما أسألك أنا الآن ويبقى بعد ذلك الحكم لك فى استحسان حكايتى أو حكايتها ومن منا أحسنت خدمتك واستجلبت رضاك أكثر من الثانية . ثم ختمت كلامها بأن قبلته فى عينه وجبينه وعنقه وخديه حتى سكر من مؤانستها له وتحببها اليه فأخذها الى صدره وقبلها بدوره وقال لها أقسم لك بالله العظيم أني أحكم بينكما بالحق وأتكلم بالصدق ولا أفضل فى الحكم احداكما على الأخرى . فلما آمنت نسرين بوش على قضاء مرامها وسمعت يمين بهرامشاه فرحت ومن ثم دعت بطول العمر والبقاء وأخذت فى سرد حكايتها فقالت .

حكاية أولاد ملك سرنديب الأذكياء

اعلم ياملك الزمان يحكي أنه كان فى قديم الأيام فى مملكة سرنديب ملك رفيع القدر عالى الشأن كثير العدل والانصاف كريم الأخلاق والطباع حكيماً عالما عارفا بجميع العلوم والفنون واقفا على تواريخ العالم وأحكام الأزمان باحثاً فى أمور الدول وأعمال الملوك والحكام وبالنظر لعلومه ومعارفه ورقة طباعه وعظيم انصافه وعدله كان محبا لرعيته جدا يباشر الأمور بنفسه ولا يعين حاكما قط في بلد أو على قوم ولا يرضي بمأمور مالم يمتحنه بنفسه ويعلم مقدار علمه ومعارفه ويختبر طباعه وأوصافه والغاية أن ذلك الملك كان كاملا فى كل عمل . وقد أنعم الله عليه بثلاثة أولاد ذكور اجتهدوا بتتبع خطوات أبيهم باكتساب العلوم والمعارف والسير في طريق الامانة والحكمة مقتدين به في كل عمل حتى برعوا فى كل علم وفن وفاقوا علماء الأرض وانتشر صيتهم فى شرقها وغربها فكان لو سئل من أعلم علماء العالم لقيل أولاد ملك سرنديب . ومع أن أباهم أيضا كان يعتني بتربيتهم ويراقب آدابهم ويلازمهم ليلا ونهارا كان أيضا متظاهرا

أمامهم بالهيبة والوقار سالكا معهم على الدوام سبيل الجد حتي كانوا يخافونه ويرهبون بأسه ولو رأى الرائى حاله معهم لقال ان هذا ليس بأبيهم وأمامهم فبالعكس كانوا يعلمون ويحققون أن كل مايفعله أبوهم هو لأجل نفعهم ومصلحتهم ويحبونه وعلى ذلك مرت عليهم الاوقات وفى كل يوم يستدعى الاب أولاده ويتباحث معهم فى العلوم والفنون ويتجاذب الحديث فى أمور الدول وأحوال الممالك ويتداولون الشؤون والوسائل التى ترقى بها الهيئة الاجتماعية العالمية وتقوى الروابط بين الاجناس البشرية وتصل العالم الانسانى بعضه ببعض فكان مايراه الملك ويسمعه من أولاده موجبا للفرح وللسرور فكان يشكر الله على هذه النعمة العظمى التى كان يراها فى عينيه أعظم وأفضل من كنوز العالم وخزائنها المملوءة ذهبا وجواهر وإذ ذاك قال فى نفسه لم يبق على الا أن أمتحنهم فى أمرين مهمين أعرف بهما غاية ماأريده منهم . فالأول هو أنى استدعى كل واحد منهم على انفراد بغير علم أخويه وأكلفه بقبول السلطنة فاذا قبل أو مال اليها أرى أنه لايزال فيه وجه نقص فأهتم فى طريقة أخرى توصله الي الكمال وان رفض أكون مسرورا منه والثانى إذا لم يقبل ما أعرضه عليه من السلطنه واعترف بنقصه ورآنى قدطردته ثم طلب الى أن يتسرح فى الممالك لأجل اختبار أحوالها وملاقاة العذاب والمحن اعرف انهم قد أدركوا درجة الكمال واصبحوا على غاية ما أرغب .

وبعد أن وطد رأيه على هذه الأفكار عزم على اخراجها الى الفعل . ففي ذات يوم استدعي ابنه الأكبر إلي خلوة وضمه اليه وقبله وأجلسه الى جانبه وفتح له باب النصائح قائلا له أى ولدى وفلذة كبدى ونور عينى انى أرى الآن أن الكبر قد أحني ظهرى والشيخوخة تدنو منى وتكثر من اعتناقى ولهذا أرى أنه غير لائق لى بعد أن وصلت الي هذا السن التفرد بأمر السلطنه والجلوس على عرش المملكة بل من الواجب على أن أتفرغ لعبادة الله جل جلاله وألازم الصلاة والصيام والدعاء إلى الله لأجل امداد يده لمساعدتكم . ولما كانت أمور السلطنة عائدة لك أفوض اليك أمرها وأبين النصائح اللازمة فأنت من فضله تعالى كامل عاقل وخير خلف أسر به فكن ليلا ونهارا في مصالح الحكومة وانظر فى أمور عباد الله ولا تغفل عن صغائر الامور فان من تغاضى عن الصغيرة يسهل عليه بحكم العادة التغاضى عن الكبيرة وإذا أحسنت العمل ذكرت بالخير واتصفت بالعدالة

والانصاف والذكر الحسن خير من كنوز العالم . واعلم أنك أنت الراعى والرعية قطيع من الخرفان فاذا لم تنصف فيهم وتسهر عليهم وتعتنى بأمورهم انحل عقد راحتهم وافترسهم ذئاب الضعف وتمكن منك ومنهم العدو فهم أمانة فى عنقك فكن صائنا للامانة حريصا عليها تنل ثواب الدارين .

فلما سمع ابن السلطان الاكبر هذا الكلام من أبيه علا وجهه الحياء والخجل وأخذ العرق يتصبب من جبينه وانعقد لسانه عن الجواب ولما سكن روعه قليلا كرر عليه أبوه الخطاب فقال لا أحرمنا الله منك ياسيدى وأطال عمرك ووقاك من كل ضرر وصانك من نكبات الزمان أنت تعلم ضعفي وعجزى عما تدعونى اليه وليس من حدى أن أقبل مثل هذا الامر وأنا ما أنا عليه من الجهل وقلة الادراك ولهذا أري أنى غير لائق لاستلام زمام السلطنة ورعاية الرعية .

فسر الملك وامتلأ قلبه فرحا عند سماعه كلام ابنه المملوء بالحكمة والتعقل وعدم الانتفاخ بالعلم والمعرفة وشكر الله فى سره ولكنه لم يتظاهر أمامه بالفرح بل قطب وجهه وأظهر الغضب وقال له ولك أتخالف كلامي ولا تصغى لما أطلبه اليك فاخرج من أمامي بالعجل ولا ترنى وجهك بعد ذلك .

فلم يتكدر ابن الملك من طرد أبيه له واهانته اياه ولا غضب من معاملته القاسية بل أظهر له الطاعة والانقياد فتقدم من السرير الجالس عليه أبوه فقبل أطرافه وخرج بأدب مكررا له الدعاء بطول العمر والبقاء وذهب الى محله حزين القلب منكسر الخاطر وهو يفكر فى نفسه لماذا احتدم أبى غيظا وحنقا منى على غير عادة وطردنى من أمامه وأنا لم أقل الا ما أعتقده فى نفسى

أما الملك فاستدعى اليه ابنه الثانى على انفراد وهش فى وجهه وبش وأبدى له من الالتفات والاعتناء والاهتمام ما أجواه مع الاول وأجلسه إلى جانبه ثم قال له أى ولدى العزيز وقرة عينى أنت تعلم انى قد كبرت وقربت من الشيخوخة ولم أعد لائقا للسلطنة لان تعبها ليس بالقليل ولا يمكن لى أن أتحمله ولا سيما وان الانسان عند كبره يطرأ على عقله الخلل ويعتريه الضعف والخوف فأخاف أن يتغير عقلى وأنا لا أعلم فأغير نظام حكمى ويقل عدلى واهتمامى برعيتى وارتكب الاثم وأنا غير شاعر به فضلا عن أن من الواجب على أن اصرف العمر منزويا فى احد المعابد أعبد الله واقدم له الصلاة وفروض العبادة ولهذا

لما كنت أراك عاقلا وحكيما ومحباً للناس ولمصالحهم وأعلم أنك لائق للتولى على الرعية خطر لى أن أسلم اليك السلطنة وأجلسك على عرشي فى حال حياتى .
ولما فرغ الملك من كلامه وقف ابنه بين يديه ودعا له بطول العمر والبقاء وقال له انى ولدك وغرس نعمتك وان كان من حدى الانقياد على ارادتك والمخالفة لأمرك لكنى أرى نفسى عاجزاً عن حمل مهام السلطنة وليس فى من القدرة ما يؤهلنى لتاج السلطنة وانى أرى أن أخى الاكبر أوسع منى عقلا وأعظم لياقة بالملك فهو أحق به منى ولهذا أتجاسر الآن لديكم بالالتماس أن تستدعوه وتفوضوا اليه انفاذ أمركم . فطار قلب الملك فرحا لجواب ابنه المملوء بالحكمة والزهد والحب لأخيه لكنه لم يظهر ذلك له بل قطب حاجبيه وتظاهر بالغيظ والكدر وقال لابنه انى اعرف ان كنت أنت أوسع عقلا من أخيك أو أن أخاك أوسع عقلا منك وحيث انك لم تطاوعنى فاخرج عني فى الحال واذهب من أمامي سريعا .

فلم يتكدر ابن الملك من أبيه ولا من طرده اياه وغضبه منه بل دعا له وقبل الارض بين يديه وخرج الي مكانه مفكرا فى السبب الذى حمل أباه على طرده دون موجب حيث لم يجبه جوابا يغيظه . ثم أحضر الملك ابنه الثالث وبعد الاعتناء به والالتفات اليه أجلسه الى جانبه وقبله فى جبهته وقال له أي ولدى ومهجة فؤادى ومحط آمالي لقد تبين لى من أخويك أنهما بغير عقل فقد ضاعت فيهما آمالى وخالفا أمرى على خلاف ما كنت أرجوه منهما وانى على يقين انك لن تكون مثلهما فلا تخرج عن دائرة أمرى وارادتي سيما وانى أعهد فيك كل حكمة ودراية واستقامة ولما كنت قد شخت وأحب أن أرتاح من متاعب السلطنة فانى أريد الآن أن أنفرد الى عبادة الله واعهد اليك بالسلطنة وأسلمك زمام المملكة تسوسها بما أعهده بك من الدراية واللياقة . فأطرق ابن الملك الثالث عند سماعه كلام أبيه وقد أخذ العرق يتصبب خجلا على جبينه ثم رفع رأسه الى أبيه وقال له عفوا ياسيدى فانى أرجوك الحلم والمعذرة انى أعلم أن الله قد فرض على الطاعة لك والانقياد لأمرك حتى الموت لأن ابراهيم لما عزم على ذبح ابنه اسحق لم يخالفه ابنه بل مد اليه عنقه وفقا لطلبه لكنى لما كنت على يقين من عجزي وعدم اقتداري على التولى على الرعية والنظر فى شؤونهم أسألك ان تسمح لى برفض ما تأمرنى به وأن تسلمه لأحد أخوى الاكبر منى لانهما أوسع علما

وأرفع فهما وأكمل عقلا وأليق منى فى كل حال على سياسة الرعية ففرح الملك لكلام ابنه وما أبداه من الحكمة فى الجواب والحب لأخويه ولكنه عامله كما عاملهما فقال له وأنت ايضا تخالف أمرى وتضاد ارادتي فاذهب من أمامى ولا ترنى وجهك بعد ولا أريد أن أرى أحدا منكم يبقي في بلادى ومملكتى فسيروا أين شئتم فلا أري لى رغبة بكم . فقبل ابن الملك الارض ثم قبل طرف السرير ودعا لأبيه بدوام العز والبقاء وخرج وهو غارق في بحار الافكار والتأملات .

هذا وبينما كان الابن الأوسط حزينا كئيبا وبعد ان أقام في مكانه قضى وقتا طويلا وهو يفكر فيما جري بينه وبين أبيه من الامور قال فى نفسه يلزم ان أذهب لاخى الاكبر وأخبره بواقعة الحال واتخذه شفيعا لى عند أبى عساه يعفو عنى ويسكن من غضبه وفى الحال نهض الى مكان أخيه فدخل عليه فرآه فى حالة حزن واكتئاب يضرب أخماسا فى أسداس فلما رآه داخلا عليه اخفي حزنه وكدره ولاقاه بالفرح والابتهاج وصافحه وأجلسه الى جانبه وهو يهش بوجهه ويبش . غير ان ابن الملك الثانى لحظ منذ دخوله كدر أخيه ولم تخف عليه حالته ولذلك قال له أرجوك العفو يا أخي وحبيبي فانى منذ دخلت رأيت على وجهك علائم الكدر والحزن وأخاف أن يكون لذلك سبب لا علم لي به أو أن لذلك علاقة بحضورى اليك . فضمه اخوه الاكبر الى صدره وقال له ما هذا الفكر يا أخى هل انت غريب منى الست انا وانت من دم ولحم فما الذي يغيظنى منك بل بالعكس انى كنت مكدرا من جهة ثانية فحالما رأيتك زال الكدر وانفرج الغم عن صدرى ورأيت نفسى براحة تامة . وحينئذ أعاد الاخ الثاني على اخيه الاكبر ما وقع بينه وبين أبيه وكيف انه اغتاظ منه وطرده وانه ماجاء نحوه الا ليشكو اليه أمره ويتخذه وسيطا لدى أبيه . فلما سمع منه كلامه تبسم وقال له ان كنت تطلب لدى أن اكون شفيعا لك عند أبيك فمن سيكون شفيعا لى أنا الذى وقع لى نظير ما وقع لك . ثم حكي له ما كان من الامور بينه وبين أبيه .

وكذلك فعل ابن الملك الاصغر فانه بعد ان رجع الى محله حزينا وغاص بالتفكر قال فى نفسه انى أذهب الى أخى الاكبر مني وأخبره بحالى واسأله عن رأيه والذى يكون موافقا أعمله . فنهض فى الحال وجاء الى محل اخيه الثانى ولما لم يره هناك اخبر بأنه سار الى أخيه الاكبر فسار فى اثره ودخل الغرفة الموجود

فيها أخواه فوجدهما على ما تقدم يتخابران وهما فى شاغل من عمل أبيهما معهما فحالما شاهدهما على تلك الحالة ظن من نفسه انه ربما يكون عندهما أمر مهم اجتمعا لأجله فعزم على الرجوع والانتظار . فنهض اليه اخوه الاكبر وقال هلم يا أخى العزيز لا ترجع فتقدم حينئذ وسلم عليه وقبله فقال له قد خفت ان يكون عندكما شاغل مهم أوجب انفرادكما فقصدت الانتظار كي لا أثقل عليكما . فقال له كلا لا يوجد عندنا أسرار قط وان كان فلا نخفيها عنك لأنك واحد منا ولست غريبا . وبعد أن أجلسه فى مكانه سأله عن حاله وعن سبب القلق المستولى عليه فأخبره بما كان من أمر أبيه وكيف أنه أظهر الكدر من جوابه وطرده من أمامه .

وبعد أن سمع الأخوان كلام أخيهما الاصغر أخذوا يتشاورون مع بعضهم ويفكرون فى طرق التدبير فقال بعضهم لبعض لا ريب أن أبانا ما دعانا اليه وعمل ما عمل معنا إلا لأجل أن يمتحننا ويمتحن حبنا لبعضنا البعض وما طردنا من أمامه ومن بلاده إلا وفى قصده أن نسافر فى البلاد لأجل التمرين وملاقاة الاهوال لأن الغربة تفيد وتعلم مالا تعلم الكتب والاساتذة المحنكون فأول شيء يلزم أن نسافر واننا والحمد لله ثلاثة أخوة من أب واحد وأم واحدة وثلاثتنا قد حصلنا العلوم العالية والفنون الواسعة واتفقنا على السراء والضراء ولم يكن منا من يخالف الآخر فلنتمم ارادة أبينا وبعد ان اتفقوا على السفر ذهب كل الى مكانه وفى اليوم الثانى أخذوا فى تهيئة لوازم السفر دون تردد ولا تأخير فأحضروا ثلاثة أفراس جياد واخذ كل منهم ما يلزمه من السلاح الكامل والدراهم اللازمة وباقي الاستعدادات السفرية ثم أنهم ساروا إلى أبيهم لأجل وداعه فدخلوا عليه فى قصره فتقدم منه في الاول ابنه الاكبر . فقبل يديه ودعا له بالبقاء وطول العمر وأخبره بعزمه . فلم يقدر الاب على الثبات أمام ألم الفراق المر فضمه إلى صدره وقال ان شاء الله اراك عائدا إلى بصحة وسلامة فأينما ذهبت فاذهب لكن اريد أن أقدم لك بعض نصائح أبوية تتخذها لك قاعدة لكل عمل وتتذكرها عند الاحتياج اليها . وهي يلزم أن تتأنى فى كل عمل جزئيا كان أو كلياً لان الباحث والمتأنى لا يلحق به الندم قط بوجه من الوجوه فالتأنى والبحث أمران عظيمان وكذلك لا تنوى عملا دون أن تستشير به لأن عقلين افضل من عقل واحد وأيضا كن مع اخوتك ثابت القدم على التعاضد والاتحاد فلا يمكن أن

يقاوم اتحادكم مقاوم . فلما سمع ابن الملك الاكبر من أبيه هذه النصائح وشاهد منه الحنو الغريب لم يتمالك نفسه اسقاط الدموع فقبل يديه ودعا له وانسحب وحينئذ تقدم الابن الثانى وقبل أذيال ابيه ويديه ووقف بين يديه فقبله أبوه ودعا له أيضا بالسلامة والتوفيق وقال له انى اسأل الله ان يكون مساعداً لكم فى السير والترحال وأن يسهل لديكم كل أمر عسير فأوصيكم بالاتحاد واذا انفصل احدكم عن الآخر يلزم ان يكون بغاية التيقظ والاحتراس لأنكم جميعا على أرفع جانب من العقل فاتحاد عقولكم على كل صعوبة وانفصالكم يضعفها ولهذا لا يعمل أحدكم عملا من رأيه لوحده وإذا تعذر عليه استشارة أخويه فليتأن ولا يعجل ويستشير من يمكن له ان يستشيره أى يقرن رأيا آخر برأيه وإلا يندم فيما بعد ..

ولما فرغ أبوه من وصيته قبله ودعا له فقبل يديه وذيله وانسحب الى الخارج وحينئذ دخل عليه ابنه الاصغر فلم يتمالك الملك من البكاء عند نظر ابنه الاصغر ثم تجلد وقال له أسأل الله ان يحفظك ويصونك من حوادث الايام ويعيدك مع اخوتك سالما الىّ وانى الآن انصح لك ياولدى واقدم لك الوصية الوحيدة وهى إذا رأيت نفسك قد وقعت فى مشاكل وصعوبات فلا تعجل من نفسك فى مقاومتها بل اسأل رجلا مسنا حكيما وأستشره واستعن به على قضاء مصلحتك لأنك لا تزال فتى لا تعلم الدقائق والحقائق فتغتر بفراستك وعلمك مع ان كثيرا ما كان من هو أكبر منك يوما أكثر منك علما وإذ ذاك انسحب ابن الملك الاصغر إلى اخوته وأما الملك فلم يقدر أن يضبط نفسه من الحزن فدخل الى قصره وانفرد بنفسه حزينا آسفا كي لا يعلم بحزنه وقلة جلده أحد .

وفى الحال ذهب أولاد الملك الى خيولهم فركبوها وأصحبوا معهم كل ما يحتاجون اليه وخرجوا من المدينة وقد رافقهم الوزراء والأمراء وأعيان المملكة للوداع وهم يسكبون دموع الاسف على بعدهم وسفرهم وقد عرضوا عليهم البقاء فى المدينة فيكونون طائعين لأمرهم ويبايعونهم عوضا عن أبيهم فنفر أولاد الملك من كلامهم وقالوا لهم ما هذا إلا جهل وحماقة فاننا راضون بعمل ابينا مطيعون لآرائه فهو لا يأتى عملا الا وفيه خيرنا ونفعنا ثم انهم ودعوا الجميع وساروا فى طريقهم .

ثم إن أولاد الملك الثلاثة خرجوا من وطنهم المحبوب مكرهين مضطرين للتنقل فى البلاد الغريبة وفيما هم فى طريقهم يتفكرون فى أمورهم وما جرى لهم والحزن يملأ قلوبهم وأحيانا كانوا يرون أنفسهم بسرور وفرح لمرافقتهم بعضهم بعضا وتارة كانوا يلتفتون الى وطنهم ومسقط رأسهم ويتحسرون عليه قائلين هل يا ترى يساعدنا القدر بالرجوع اليه . وعلى هذا الوجه قطعوا مسافة من الطريق حتى خرجوا من حدود البلاد الواقعة فى حكم أبيهم ودخلوا فى البلاد الأجنبية ولكن لم يفترق أحدهم عن الآخر قط فى كل هذه المدة بل بقيموا متحدين فى كل أمر لا يتركون البحث والتنقيب فى كل شأن وبينما كانوا يسيرون على هذه الحالة كانوا ينظرون بدقة أمامهم وإذا رأوا أقداما بحثوا فيها وأمعنوا فى تركيبها ومحل وجهتها واستنتجوا منها معانى غريبة لا يعرفها الا ذوو الفطانة والكياسة العالية وكلما دخلوا بلدا أو قرية أوقعوا فى قلوب أهلها المحبة لهم والاعتبار لما يشاهدونه منذ كائهم المفرط وآدابهم إلى أن كان ذات يوم أشرفوا فيه من بعيد على مدينة عظيمة ولما رأوها فرحوا كثيرا وقالوا لابد أن تكون هذه المدينة عاصمة مملكة ومن الضرورى أن نقيم فيها مدة أيام للراحة بها والاستكشاف عن أحوالها .

وبينما هم يتقدمون الى جهة المدينة نظروا عن بعد فرأوا رجلا يسير إلى جهتهم بسرعة الطير فتعجبوا من دعوتا جريه وقالوا لبعضهم البعض نقف وننظر سرعة ماهو السبب فى شدة جرى هذا الرجل ووقفوا فى مكانهم منتظرين وصوله اليهم . وبقى الرجل فى سرعته حتى وصل الى أولاد الملك وهو على آخر نفس من التعب وقد سال العرق من جسده حتى بلل ثيابه وبعد السلام سألوه عن سبب ركضه . فقال انى اضعت جملى فبالله عليكم هل صادفتموه فى طريقكم .

فقال الاول :ـ على الغالب أن جملك أعور أى بعين واحدة .

فأجاب الجمال :ـ نعم نعم الله يرضى عليكم فهو كما قلت بعين واحدة .

فقال الثانى :ـ وكذلك الذى الحظه أنا أن جملك آعرج من احدى رجليه .

فأجاب الجمال :ـ صحيح . صحيح . تمام . تمام هو هو كما تقول أعرج من رجله .

فقال الثالث : على ما يظهر لى أن الجمل قد قلع من فمه سن .

فسأل الجمال . بالله عليكم أن تعلمونى كيف عرفتم أن الجمل بعين واحدة وأنه أعرج وقد قلع من فمه سن واحد فقط .

فلم يجيبوه بل قال له الأكبر سر على هذا الطريق مستقيما فلا بد أن تصادف الجمل . فذهب في الطريق الذى دله عليه وساروا هم أيضا فى طريقهم إلى المدينة حتى وصلوا من أطرافها فرأوا عين ماء جار صاف فنزلوا عن خيولهم وجلسوا يستريحون ويفكرون فى كيفية دخولهم المدينة . وما لبثوا أن جلسوا حتى رأوا الجمال قد عاد لجهتهم بسرعته المعتادة ولما قرب منهم قال لهم ان الامارات التي أشرتم اليها وهى موجودة فى نفس جملى ولـكنى ذهبت فى الطريق الذى أشرتم اليه وفتشت فى السهل والوعر فما وقفت للجمل على أثر .

فقال له الأول :ـ عجبا كيف لم تر الجمل مع أنه عليـه حمل والحمل ضرفان فى واحد منهما سمن وفي الآخر عسل .

فقال الثانى :ـ نعم وفوق الجمل كانت تركب امرأة .

فقال الثالث :ـ وليس هذا فقط بل ان المرأة التي كانت على الجمل هي حامل أيضا .

فلما سمع الجمـال من أولاد الملك هذه الاشارات والعلامات زادت حيرته ودقق فيهم فرآهم مسلحين بالأسلحة الـكاملة فقال لا ريب أن هؤلاء من من الاشقياء يتجولون للغارة ونهب أرواح وأموال العالم . وفي الحال أخذ فى الصياح والبكاء وهو يقول لم يبق خلاص لـكم أيهـا الاشقياء فانى لا أتركـكم الا إذا رجعتم لي جملى ومالي وعيالى . ان الامارات التي أشرتم اليها هي مطابقة جدا لحالة جملي وما عليه لـكن الجمل غير موجود تكلموا واخبرونى به اكراما لله فأسير اليه وآخذه . وبينما الجمال يصيح ويبـكي كان الناس الخارجون من المدينة والآتون اليها يعرجون لجهته حتى اجتمع الخلق هناك وقد سمعوا كلامه ورثوا لمصيبته وتبين لهم من حالة الاولاد أنهم من الاشقياء قطاع الطرقات وإلا لما كانوا تدججوا بكل هذا السلاح . وفى الحال هجموا عليهم فلم يمانعوا فربطوهم وادخلوهم المدينة ولما رأى أولاد الملك الحالة التى وقعوا فيها ندموا على ما فرط منهم واحتاروا فى أمرهم وصاروا يرجون الناس أن يطلقوهم قائلين لهم اننا غرباء الديار لاعلم لنا بأمر مما تزعمون ولا رأينا لاجملا ولا امرأة فلم يصدقوهم وساقوهم إلى دار الملك وأخبروه بأمرهم وما سمعوه منهم . فاستدعى الملك فى

الأول الجمال وسأله عن القضية . فقال أدام الله سيدى الملك أني أملك جملا أعور وأعرج وناقص أحد أسنانه ففي هذا الصباح حملت الجمل ضرفين لأجل البيع أحدهما عسل والآخر سمن وأركبت زوجتى فوقهما وأخرجتها أمامي من القرية وجئنا نقصد المدينة . ثم بعد مدة سرت فى أثرها حتى دخلت المدينة وفتشت فى مكان المعهود الذى نقصده فما وجدت لا الجمل ولا الأحمال ولا المرأة فأسرعت فى العودة مفتشا وسائلا فصادفت هؤلاء الثلاثة فسألتهم اذا كانوا صادفوا الجمل فقال لى أحدهم أن الجمل أعور وقال الثانى انه أعرج وقال الثالث انه ناقص احد أسنانه فوصفوه وصفا مطابقا له ثم دلوني على طريق زعموا أن الجمل سار فيه فسرت فى الطريق حتي آخره فلم أر شيئا فعدت وإذا بهم عند العين جالسين وأخبرتهم انى مالقيت الجمل فى الطريق فقال لى الاول وكيف مالقيته وهو محمل ضرف عسل وضرف سمن وقال الثاني وكان فوق الضرفين امرأة راكبة وقال الثالث والامرأة أيضا هي حامل وبالحقيقة كما وصفوا ثم أنكروا أنهم لارأوا الجمل ولا المرأة فهل يصدق ذلك بعد أن أبدوا الأوصاف والدلائل المنطبقة على الحقيقة وهذا الذي جعلنى أؤكد انهم من الاشقياء وقد اغتنموا الجمل بما عليه فأرجوك ياسيدى أخذ حقى منهم وارجاع مالى وزوجتى .

وبعد أن سمع الملك كلام الجمال استحضر أولاد الملك وسألهم عما يدعيه عليهم الجمال فأجاب ابن الملك الاكبر بعد ان دعا للملك بالبقاء وطول العمر وقد اظهر الادب والحشمة وقال له لسنا من الاشقياء ياسيدى الملك ولا نقبل أن يشاع عنا فى مدينتكم وتحت عنايتكم هذا الاسم بل نحن غرباء عن بلادكم مقصدنا السياحة والتطواف فى الممالك والبلدان الوقوف على عوائد أهلها والفرجة على آثارها ومصنوعاتها وفيما نحن قاصدين هذه المدينة رأينا هذا الجمال وجري لنا ما جرى معه وقد استنتج من وصفنا آثار جمله وزوجته اننا من الاشقياء فجمع النـاس وقبضوا علينا بدون تردد ولا فحص وأحضرونا إلى حضرتكم ورجاؤنا أن تعاملنا بالعدل والانصاف وتطلق سبيلنا لنسير فى طريقنا . فتقرر عند الملك لما سمعه من الجمال ومن اولاد الملك واعترافهم بوصف الجمل بما عليه أنهم رأوه وسلبوه وانهم دون شك من الاشقياء وقطاع الطرق . وحينئذ اشتد غضبه وأجابهم بحدة لقد ثبت عنـدى أنكم من الاشقياء ومغتصبون وقد اعترفتم بالنهب والسلب فمن أين علمتم لو لم يكن الجمل عندكم انه أعور واعرج وناقص

سنا وان عليه ضرفا عسل وسمن وفوقهما امرأة حامل فكل ماتكلمتم به كذب دمين . فقال ابن الملك الأكبر انا في الواقع مثلما رأيتم لكن يقع أمور كثيرة مثل هذه فالانسان كثيرا ما يصف أشياء غائبـة عن عينيه بحذاقة فكره وبناء على استنتاجات ادركها بما أعطاه الله من التميز ويكون الوصف صحيحا منطبقا على الموصوف . فقال الملك كلا كلا لا يمكن ذلك ومن المحال أن تتخلصوا من يدى قبل ارجاع الجمل وماعليه والمرأة ونوال الجزاء ماجنت أيديكم . ثم أمر الحجاب بحدة وغضب ان يجروهم الى السجن ففعلوا وكان أولاد الملك تارة يضحكون من أمر هذه الحادثة التي جرت معهم وطورا يحزنون ولكنهم كانوا يسلون بعضهم البعض قائلين ان الانسان في ديار الغربة والسفر يكون معرضا لوقوع حوادث كثيرة فمن الحكمة التحمل والتأنى والصبر .

أما الجمال فانه عاد في المساء إلى بيته فرأى الجمل هناك كما كان قبلا وكذلك امرأته جالسة في مكانها لاشيء جرى عليها فتعجب من ذلك وسأل امرأته عن غيبتها فقالت له ذهبت إلى المدينة وحال وصولى بعت السمن والعسل وبما أني لا شغل لى هناك لم استحسن الانتظار فعدت في الحال من الطريق الفلانى . فقال لها وهل لم تصادفى فى طريقك ثلاثة فرسان مسلحين بالسلاح الكامل وتحتهم خيول جميلة قالت لم اصادف إلا مشاة وجمالين يسوقون جمالهم إلى المدينة . فندم على ما فرط منه في حق أولاد الملك ولم تطعه نفسه ولا رضيت ذمته أن يصبر إلى الصباح بل عاد فى ذاك المساء إلى دار الملك واستأذن بالدخول فأذن له ولما وقف بين يديه اخبره بأن جمله فى بيته سالم من السلب والنهب وكذلك زوجته ولم يفقد له مقدار ذرة وان من المؤكد عنده انهم لم يصادفوا الجمل فى الطريق ولا رأوا ما عليه قط . فتعجب الملك العجب الزائد وقال أيمكن ذلك . وفى الحال أمر الملك أعوانه ان يخرجوا أولاد الملك من السجن وأن يحضروا بين يديه بمنتهى الرقة واللطف فتأهل بهـم وترحب وأمرهم بالجلوس فأبوا مظهرين التأدب واللياقة فى حضرة الملك فأمرهم ثانيا وثالثا بالجلوس وألح عليهم حتى رأوا الطاعة فرضا فجلسوا مطرقين رؤوسهم إلى الأرض لا يرفعون نظرهم فى الملك وعند ذلك فتح الملك باب الاعتذار فقال لهم لقد أهنتكم تعديا وحبستكم بغير حق ولهذا أريد أن استجلب خواطركم وأبين لكم غلطى فأجابوه بكل حشمة ورعاية وقالوا العفو يامولانا . أنت المتسلم أزمة العالم والمتسلط على بلادك

بالحق الشرعى فما أجريته كان بحق وعدل منك . وكان علينا بقضاء وقدر إذ قدر الله وجوب وقوع هذا الحادث علينا لأمر يريده . فقال الملك ان كان كذلك فلى اليكم رجاء واحد والأمل أن لاتردوه بل تخبرونى بالصدق . فأجابوه معاذ الله أن نقول غير الصدق أو نتكلم بغير الحق فى حضرة سيدنا الملك فمر بماشئت ولك منا الصدق فى القول . فقال ان الاصاف الصحيحة التي ابديتموها للجمال عن جمله كيف عرفتموها وأنتم لم تروا الجمل ولا صادفتموه فهذا هو الرجاء والالتماس الذي أطلب اليكم انتصدقونى به . فأجاب ابن الملك الاكبر نعم اننا لم نر الجمل ولا الذى عليه قط لكن ان أبانا أوصانا بعض وصايا ونصحنا عدة نصائح وهي لا تزال نصب أعيننا لا تفارقنا ونعمل بموجبها على الدوام ومن نصائحه التدقيق والانتباه فى كل شيء وفي كل وقت . وعليه فاننا لا نغفل قط عن البحث والاعتناء فى كل أمر . ففيما كنا آتين فى الطريق رأيت أثر جمل فى الارض وتبين لي من الحشيش النابت هناك ان الجمل قد رعى الطرف الواحد وأبقى الآخر على طول الطريق فادركت ان كان أعور أو انه كان وهو سائر يأكل النبات من الجهة الواحدة حيث يراه بعينه الصحيحة ولا يأكل من الجهة الثانية حيث لا يراه فاستحسن الملك هذه الحذاقة ومدحه عليها .

ومن ثم تكلم ابن الملك الثانى فقال وأنا ياسيدى عرفت ان الجمل أعرج من رجله الواحدة لأني كما كنت أنظر فى أثر رجليه كنت ارى أثر ثلاثة منها بالغة فى الارض والرابعة تكاد لا تظهر فرأى الملك فى كلامه الصواب فمدحه أيضا

فقال ابن الملك الاصغر وانا أيضا ياسيدى فانى كنت أبحث فى النبات وأوفق فيه فرأيت ان الجمل لما كان يرعاه كان يقتلع أكثره ويبقي فى الوسط عشبة واحدة من النبات قائمة لا تمس فعرفت ان الجمل ناقص سنا والا لو كانت أسنانه جميعها سالمة لما سلمت تلك النباتات وان سلمت واحدة فلا تسلم الثانية . فتعجب السلطان من حذاقتهم وادراكهم وذكائهم وقال لهم اعترف بأنه لا يوجد فطنة ولاذكاء تعادل فطنتكم وذكاءكم فالآن أظهرتم لى سبب معرفتكم أوصاف الجمل ولم يبق فى نفسى من هــذا الوجه شاغل فأرجوكم أن تبينوا لى سبب معرفتكم ما عليه .

فقال ابن الملك الاكبر انى لما رأيت أثر الجمل فى الطريق مستقيما فى الطرف الواحد النمل قد اجتمع صفوفا صفوفا وفى الطرف الثانى قداجتمع الذباب بكثرة

فعلمت ان النمل اجتمع على السمن والذباب على العسل ولهذا لابد ان يكون الجمل محملا عسلا وسمنا وقدسقط منه على جاني الطريق قطرات وقال ابن الملك الثانى أما أنا فقد عرفت ان الذى ركب الجمل امرأة لانى رأيت أثر ركب الحمل فى الارض فعلمت ان الجمل قد أنيخ فى تلك الناحية ورأيت عند أثر ركبه أثرا لاقدام شخص ثم رأيت منديلا واقعا الي الارض فتناولته وحالما شممته تحركت بى الشهوة فعلمت ان ذلك الشخص هي امرأة .

وقال ابن الملك الاصغر وأنا ياسيدى عرفت ان تلك المرأة حامل لأنى رأيت انها بعد ان نزلت عن الجمل جلست وبينما هى تنهض للركوب تركت بجانب أثر رجليها أثرا ليديها فلاح لى من الثقل أنها وضعت يديها على الارض ونهضت والذى عليها لابد من أن تكون حاملا .

فلما سمع السلطان من أولاد الملك هذه البراهين والأدلة العقلية تعجب من كياستهم وحكمتهم وصار يمدحهم ويطنب فى ذكائهم وقال لهم لست انا وحدى ممن يعجب بفراستكم وافراط ذكائكم بل العالم أجمع لو رأوا مارأيت وسمعوا ما سمعت لاعترفوا لكم بالفضل وأقروا أنكم حكماء هذا الزمان وفلاسفته ولهذا ترونى قد استفدت منكم أمورا كثيرة منها أن لا أحكم بعد الآن على الظواهر ولا أباشر عملا بدون ترو ولا أترك شيئا بدون البحث فيه والانتباه اليه ولكى تزيدوني فائدة أرجوكم ان تقيموا فى ضيافتى بضعة ايام وتبقوا عندى مدة لان طعام هذه المدينة لايوجد مثله قط فى غير بلادى . فأجابوا طلبه وفي الحال أمر بأخذهم إلى القصر الملكي وعين لهم الخدم والحشم والجواري لخدمتهم فصرفوا عنده خمسة عشر يوما وفى كل يوم سواء كان فى النهار أو فى الليل يذهبون إلي الملك أو أن الملك يذهب اليهم فيقتلون الوقت فى الاحاديث المفيدة والمباحثات النافعة والحكايات التاريخية إلي ان كان ذات يوم أراد الملك ممتحنهم فأرسل اليهم أبريقا من الخمر وصحفة من الشواء ثم جاء واختبأ [illegible] الباب ليسمع ما يقولون فى حقه .

أما اولاد الملك فانهم لما وضع الشراب والشواء أمامهم أظهروا السرور والامتنان وابتدأ ابن الملك الأكبر فأخذ كأسا وصب فيه خمراً وشربه وقال انى اشتم فى هذا الخمر رائحة دم انسان . ثم اخذ الثانى قطعة من الشواء فأكلها وقال

يترجح لى ان الماعز الذى أخذ منه هذا اللحم رضع من لبن الكلاب وكان الملك يسمع الكلام من وراء الباب . وأخيرا قال الاصغر . والذي يلوح لى يقينا ان هذا الملك ولد من صلب طباخ . فلما سمع الملك هذا الكلام لعب به الغيظ والغضب واحمرت عيناه وهاج دمه . وجعل يفكر فيما يفعل فلم ير أفضل من الصبر والتأنى ورجع إلى مكانه والكدر يقيمه ويقعده ولما وعي إلي نفسه قال من اللازم أن ابحث أولا فيما قالوا وإذا وجدت كذبا فى كلامهم قتلتهم بدون تردد وإذا كانوا يصدقون فيما يقولون فلا أمسهم بضرر . فأرسل أولا فاستدعى بائع الخمر وقال له اصدقنى الخبر من عمل الخمر الذى ارسلته الى فاضطرب صاحب الخمر ثم قال أنا ياسيدى عملته . فقال من أين اخذت العنب الذى عصرته منه . قال من الكرم الفلانى والكرم المذكور بين القبور . فتعجب الملك مما سمع وقال ان كلام الفتي الأكبر صحيح لا ريب فيه فلننظر هل كلام الثانى صحيح أيضا وأمر أن يأتوه بالرجل الذى باع الماعز فحضر بين يديه فقال له من أين اخذت الماعز الذى بعتنا اياه قال اخذته من الراعى فلان فأرسل الملك واحضر الراعى فوقف بين يديه وهو يرجف من الخوف ويقول فى نفسه ماذا يا تري يريد منى الملك . فسأله الملك الماعز الذى بعته لفلان من أى موضع . أجاب رضع من أمه . فقطب الملك حاجبيه واظهر الغيظ والغضب وقال له انك تكذب فاما انك تخبرنى بالصحيح أو إنى أقتلك فى هذه الساعة فوقعت الرهبة فى قلب الراعى ولم ير بدا من الاقرار فقال انى اخبرك بالصدق ياسيدي ان أم الماعز المذكور ماتت حالما ولدته وحيث لم يكن عندى وقتئذ غيرها ترضعه وقد صادف ان كلبة ولدت عندى فأرضعته منها ليعيش ولا يموت فربى مع أولادها .

فلما سمع الملك كلام لراعى طار عقله من العجب وغرق فى بحر من الحيرة والاندهاش وبعد ان صرف الراعى وهدأ من سكرة الاندهاش نهض فدخل الحريم وهو يفتكر فى نفسه ويقول العفو يا ربى إذا وجد كلام الفتي الأصغر صحيحا كيف يمكن لى أن اعيش بعد واصرف باقى عمري .

ثم استدعي والدته العجوز إلى خلوة فرأته متحيرا ومرتبكا وغاضبا فقالت له ما بالك يا ولدى مضطربا ومكدرا وما ذا جرى عليك فقال لها نعم أنى أريك اليوم عداتي فزاد تعجبها وكررت عليه قائلة ماذا وقع لك ولم ذا الكلام .

أما الملك فكان يرغى ويزبد ونيران الغيظ والكدر تضطرم فى فؤاده وقد قال لها نعم أريد منك ان تعترفى لى بالصدق ولا تكذبى بحرف واحد فاخبريني أنا ابن من وما هو أصل أبى فتغير لون والدته من كلامه وصار وجهها أصفر كالموتى واحتارت بما تجيب ... ثم عمدت إلى الحيلة حالما سكن روعها قليلا وقالت ما هذا الكلام ياولدى ضع عقلك برأسك ألا تعرف اباك ماهذا الكلام الفارغ ان العالم أجمع يعلمون ان اباك كان ملكا عالى الجاه وسلطانا مرفوع المقام فأظهر الملك غيظه وحدته واستل سيفه من غمده وهجم على والدته ورفع السيف فى يده وقال لها مادمت لاتتكلمين بالصدق وتكذبين على فستصادفين جزاءك . وعندما رأت شدة غضبه ثبت عندها أنها إذا انتظرت لحظة واحدة قطعها نصفين صاحت مهلا مهلا يا ولدى اني اخبرك بالصدق واطلعك على سر الأمر فتوقف الملك حينئذ وقال الآن وفى هذه الدقيقة أريد أن تعلميني بالحقيقة وإلا كانت العاقبة وخيمة .

ولما رأت الملكة أن لا وسيلة الى الانكار وان لابد أن يكون قد اتصل بالملك سرها الذي كان محصورا بين اثنين أو ثلاثة عزمت على الاعتراف بالحقيقة فأخذت تتأسف وتظهر الندامة وتذرف دموع التوبة وتتأوه وتتأنف فزاد ضجر الملك فصاح بها وقال تكلمى لسنا الآن فى مقام العبادة فاذا كنت لاتجيبني فانى أضطر إلى ان أتخلص منك بحد هذا الحسام فقالت كلا لا أتأخر وسأخبرك بكل شيء . فقط أسأل الله سبحانه وتعالى المسامحة على سابق عمل ارتكبته في زمن الجهل فقد كنت حينئذ فى الحرم وكنت جميلة وشابة طائشة في ذات يوم خرج الملك للصيد فأتيت أنا ووقفت عند النافذة ابعث بنظرى إلى الحدائق البهجه المحيطة بالقصر وكانت الأطيار تتنقل على الأغصان والروائح العطرية تنبعث من الأزهار وتتصل بي فتنعش روحي وقد أهاجت مناظر الطبيعة البديعة أشجانى وحركت فى نفسي عوامل الصبا احساسات غريبة وبالصدفة جاءنى فى تلك الدقيقة بالطعام فتى طباخ كان قد ألحق جديدا بخدمة المطبخ فالتفت اليه فرأيته جميلا بديعا لا يتجاوز العشرين وأنت تعلم حالة الصبوة والشبوبية فان الفتاة الشابة تميل دائما إلى الشاب الجميل ولا تميل إلى الكهل أو الشيخ إلا كارهة مغصوبة ولا أخفي عليك انى علقته ووقعت محبته فى قلبي وغلبت على شهوة النفس حالما وقعت عيني عليه وحينئذ انسحبت إلى خلوة وأمرت إحدى الجواري التي

كنت أثق بها أن تدخل إلى الفتى الذى جاء بالطعام ففعلت وكان الشيطان الذى وسوس لى فى هذا الحب حرك بى فعل الطبيعة فانقدت اليه ولما أخذت بمداعبة الغلام وملاعبته لم أتمالك نفسي ولا عدت أقدر على مقاومتها فقضيت منه وطراً وانا مسرورة وممتنة من ذلك ومن حبي لفتى فى بدء العمر أديره كيف أريد ولكن بعد أن مر على ذلك عدة أيام رأيت نفسى قدحملت فيك . وعندما لفظت هذه الجملة وقع السيف من يد الملك وندم الندم العظيم على تحريه هذا الأمر ولكن ما الفائدة فقد صار الذى صار ... (وفى الواقع ان الانسان كثيراً ما يبحث عن أشياء ترغمه النفس على الوقوف عليها وحالما يعلمها يقع فى الندم والأسف ولكى لا يحزن ويتكدر الأفضل له ان لا يسأل ولا يبحث ولا سيما فى مسائل نظير هذه لأنه فى الاول يكون مرتابا فتارة يتوهم صحتها وطورا يكذبها من نفسه الى أن ينساها ولكن إذا تحققها وثبتت لديه لا يعود ثمة وسيلة للنسيان فيصرف عمره حزينا كئيبا فيندم حين انه لا ينفع الندم) وهذا مصداق لقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)

وبعد ان حقق الملك من أمه عن حقيقة حاله ومن هو أبوه ووقع السيف من يده خرج وهو فى أشد الخجل من نفسه لا يعي على شيء والحزن ملأ قلبه وجعل يعض اصابعه ندما وأسفا ولكن وقع القضاء فلا مرد له وتأكد لديه أنه ليس من نسل شريف فاختلى بنفسه وهو فاقد الصواب وبقى مدة يعاتب دهره فلم ير وسيلة إلا الصبر والتحمل على فعل القضاء .

ثم خطر على باله ضيوفه فقال يلزم أن أحقق معهم من أين عرفوا ذلك فنهض اليهم ولما رآه أولاد الملك داخلا عليهم وشاهدوا على وجهه علامات الغيظ والكدر لم تخف على فراستهم حالته فوقفوا فى الحال وخفوا لاستقباله بالتبجيل والتعظيم .

ثم ان الملك جلس على سرير هناك وأطرق إلى الارض ساكتا لا يفوه بكلمة وهو يفكر كيف يفتتح الكلام معهم في هذا المعنى وأخيرا التفت إلى ابن الملك الأكبر وقال له انى أمس ارسلت اليكم ابريقا من الخمر وصحفة من اللحم المشوى واختبأت خلف ستار الباب فأخذت انت بعضا من الشراب فشربته ثم قلت ان رائحته دم انسان فحققت فكان في الواقع كما قلت فالآن اخبرنى من أين عرفت ذلك .

فلما سمع أولاد الملك سؤال الملك أدركوا الباقي فخجلوا ثم فكروا قائلين في نفوسهم مهما جري يجري فاننا لم نتكلم كذبا . وحينئذ تكلم الاكبرفقال للملك نعم ياسيدى اننا نحن كما أخبرناك سابقا اخوة لأب واحد ولما كان أبونا عاقلا حكيما أمرنا أن لانترك شيئا يمر علينا بدون ان نتروي به ونفحصه وأن ندقق فى الكليات والجزئيات ولهذا ترانا عندما نأكل ونشرب وننام ونقوم ونذهب ونجلس ونصاحب ونرافق ونتحاور . والحاصل فى أي عمل عملناه أو رأيناه لانباشره بغير تفكر وترو فالبحث لدينا دستور العمل . وبمجرد التأنى والتدقيق نعرف باطن الانسان من ظاهره فلما شربت من الخمر الذى أرسلته لنا فعوض ان ينشرح صدرى أخذنى الملال اي بالعكس يعني ان الخمر يفرح قلب الانسان ويدفع عنه الغموم والاكدار ولنفرض إذا شرب الانسان المغموم والمكدر جدا قليلا من الخمر تنسيه كل هم وغم ويهون لديه كل عمل ويرى فى نفسه العظمة والمجد أما أنا فانى شربت قليلا فشعرت بانقباض وصرت كلما زدت منه زاد انقباضي وغضبي وسألت اخوتى أيضا فوجدت بهم مابى من الانقباض والملال وحينئذ ثبت لدي أنه يوجد فى هذا الخمر شيء وقد توجه فكرى إلي أن ذلك الشيء هو دم إنسان .

فلما سمع الملك جواب ابن الملك الاكبر وتعليله الامر والسبب الذى لأجله أدرك أن فى الخمر دم انسان استحسن ذكاءه ومدحه ثم التفت إلى الثانى فقال له وأنت أيضا عندما أكلت اللحم قلت ان الماعز الذي قطع منه قدتربي من حليب الكلاب فمن أين عرفت ذلك .

فدعا ابن الملك الثانى للملك بالبقاء وطول العمر ثم قال نعم يا سيدى انى لما أخذت قطعة منه ووضعتها فى فمى امتلأ فمى ماء وأخذ الماء يسيل بكثرة من شفتي فقد رأيت له طعما غير طعمه العادى ولأجل ذلك ادركت ان الماعز تربى من حليب كلب لانى قرأت فى بعض الكتب ان اللحم المتربى بحليب الكلاب يسيل ماؤه بعد أكله .

فأعجبت هذه الافادة الملك ومدحه أيضا على ذكائه وكان ابن الملك الثالث عرف ان الدور وصل اليه فكان فى غاية الخجل والحياء وقد أطرق برأسه إلى الارض يتوقع سؤال الملك إلى أن سأله قائلا وقد حققت أيضا ما قلته فاذا هو صحيح فمن أين عرفته .

فأجاب كلا يا سيدى انى لم أقل شيئا صحيحا وان لا وجه للصحة فيما قلته وانى اتبين الغلط من نفسى ولهذا لا أقول شيئا ولا يمكننى أن أقول شيئا وحينئذ أقسم له الملك أن لا يتكدر ولا يغتاظ وان لا بد من اطلاعه على سبب معرفته انه ابن طباخ .

فحينئذ قال ابن الملك نعم ياسيدى ان لا ذنب فى ذلك عليكم ولا على ولا على أحد انما الذنب على القدر وهذا شأن أكثر حرم الملوك فان نفوسهن تميل إلى ارتكاب المحرمات وذلك لأنهن يقمن طول أيامهن بلا شغل يشغلهن ولا عمل يعملن به والبذخ والتنعم والترف وطيب المأكل وحسنها يقوى من شهوتهن فاذا لم يكن فى قصورهن من الخدم من لا يفى بحق اراداتهن توصلن إلى جلب الذكور من الخارج وهذا ليس فى هذا الزمان فقط بل منذ الأزل وكما أن الفقر يجر بالمسكينات الفقيرات أحيانا لارتكاب الفواحش سداً لجوعهن واحتياجهن الضرورى الذي لا غنى عنه فكذلك زيادة النعمة والراحة تهيج نفوس المتنعمات حتي لا تعدن قادرات على مقاومة الطبيعه ومفاعيلها والاحسن ان لا يكون فى قصر الملك إلا واحدة وان لا تترك بلا عمل ففى ذلك تسلية ورياضة بدنية وابتعاد عن المعصية ومع ذلك فلا شىء يجري فى الدنيا إلا بعلمه تعالي والقضاء المقدر لا بد من وقوعه مهما تحصن المرء منه وهكذا لا بد أن يكون وقع مع والدتكم إذ وقعت تحت حكم ونفوذ القضاء .

وأما سؤالك عن سبب معرفتى ذلك فأنا قلته غير محقق بل من قبيل التخمين والترجيح وذلك لانى منذ تشرفت بلقائك حتى الساعة وأنا لا أسمعك تذكر شيئا أكثر من الطعام فدائما وفى كل وقت وأمام كل واحد تقول مثلا ان الطعام الفلانى لذيذ جدا والطعام الفلانى ألذ من الطعام الفلانى وطبخ هذا الطعام مستوفى الشروط وأما الطعام الفلانى فكان يلزمه من السمن مقدار كذا وذاك قد زيد فيه الأرز وهذا قد قل فيه الملح وذلك كان من اللازم ان يطبخ نسق كذا ويوضع له كذا وكذا والحاصل لا ينقطع من فمك ذكر الاطعمة والطبخ ولو كنت فى أشغال المملكة وتدبير شئون الرعية على غير قصد منك ومعلومك أن مثل هذا الأمر يؤخذ على وجهين فاما أن يكون المرء ذا شهوة غريبة فى الطعام أكولا كبير البطن نهما سريع الهضم فيشعر دائما بخور فيضطر لذكر الاكل لأنه أحب شىء لديه . واما أن يكون مولودا من رجل صناعته الطبخ فيكون ميله لذكر

الطعام فطرة وتخلفا ولما لم أر فيك الصفة الاولى مال فكرى إلي الامر الآخر فقلته وأرجوك العفو لاننا ما تكلمنا ذلك إلا بيننا ولا يعرفه رابع قط ولو لم نتعمد الاطلاع على أفكارنا وتختبيء لما وقفت علي ماوقفت عليه والشيء الذى نقوله مرة لا نعيده ثانية فنرجوك العفو .

أما الملك فانه كان مطرقا الى الارض وقلبه يشتعل من نار الكدر من وقوفه على حالة وجوده ثم نهض من عند أولاد الملك ورجع الي خلوته يفكر فيما ينبغى أن يعمله معهم وقد خطر له فى بادىء الامر أن يدعهم ينصرفون عن بلاده لكن رجع فقال فى نفسه هذا لا يمكن لأنهم على جانب عظيم من الذكاء والمعرفة ومن اللازم أن أبقى عندى واحدا وأترك الاثنين فى طريقهما ولا ريب انى أنتفع بذكاء وعلم الذى يبقي عندى ولكن هل يا ترى يقبل أحدهم أن يفترق عن أخويه ويبقي عندى بعد أن ثبت لديهم انى لست ابن ملك ثم خطر له أن يأخذ رأيهم فدعاهم وأظهر لهم الاهتمام والاتفاق وقال لهم بالحقيقة إنكم جميعا على جانب عظيم من الذكاء والفطانة وقد أتقنتم العلوم والمعارف وحزتم أجلها وأرفعها وقد مال قلبي إليكم ولذلك أريد أن ابقي أحدكم عندى لأستوزره وأعهد اليه بتدبير شئون المملكة وأزوجه بابنتي فأرجوكم قبول طلبي هذا وأن لا تضيعوا رجائى فيكم .

فنظر أولاد الملك الي بعضهم البعض برهة دون أن يفوه أحدهم بكلمة ثم التفتوا إلى الملك وقالوا أطال الله عمر مولانا الأعظم انه من الصعب علينا أن يفارق أحدنا الآخر بسهولة ولذلك نسألك السماح لنا بالتشاور مع بعضنا البعض فى خلوة لنري الطريقة التى تقينا من بلايا السفر والنظر فى انفاذ أمركم فقبل الملك طلبهم وأذن لهم في المشاورة فنهضوا من حضرته وساروا إلى مكان اقامتهم ودارت بينهم المباحثة والمخابرة وأخيرا سكت الاخوان ينتظران رأى أخيهما الاكبر فقال أى أخوى العزيزين ونورعيني الاثنين هانحن قد خرجنا من وطننا المحبوب ووقعنا فى بلاد الغربة وكان لأجل ملاقاة المشاق والمحن والخروج والتخلص منها وكان رجاؤنا أن نعود الي الوطن بالسرور والراحة لكنما الدهر الخؤون لايبقي على أخين لم يتفرقا .

كم فرق الدهر بين الأم والولد هو الظلوم فلا يبقى على أحد

نعم ان الدهر من شأنه التفريق والجفاء والذي أريده فى كلامى الآن هو

أني أرى علائم التفريق بادية أمامنا ولا بد للملك أن يدعوني اليه فلا أعلم بماذا أجيبه فأبدى أخواه علامات الفرح على وجوههم وقالوا له لقد أصبت يامدبرنا ومشيرنا فان الدهر بدأ بمحاربتنا ليوقع بيننا ومن الحكمة أن لانقاومه لأنه إذا قصد تفريقنا فلاقدرة لنا على مخالفته وأنواع التفريق كثيرة فالاصوب أن نختار الأهون . فالآن أنت لا تفتكر بنا فاننا نقدر باذنه تعالى على اتمام سفرنا حتى يأذن الله برجوعنا فاذا صرت أنت صهراً للملك ومدبرا للملكة ربما تنال خيرا أعظم فيما بعد ويكون ذلك بتدبير من الله ونحن كذلك لدى تطوافنا ربما نلاقي من الخير مالا نعلمه الآن ومتى أذن الله بعودتنا نعود اليك ونذهب سوية الى وطننا وبلادنا .

فبعد المشاورة والمحادثة اتفقوا على ذلك فنهض ابن الملك الاكبر وهو صاغر لحكم القضاء والقدر حتى جاء الملك واخبره بما اتفق عليه رأيهم فسر الملك من ذلك سرورا عظيما وتقدم من ابن الملك فضمه الى صدره وشكره على تفضله بالبقاء عنده وأمر فى الحال باقامة الافراح والولائم وبتهيئة قصر جميل لابن الملك ثم بعد أيام زف ابنته عليه وأقامه وزيرا ومدبراً لمملكته واتكل عليه فى كل أموره .

وأما اولاد الملك الآخران فأقاما الى بعد زفاف أخيهما على بنت الملك ثم ودعا الملك وأخاهما والحزن يملأ قلبيهما والدموع تنهل من مآقيهما غزيرة وخرجا من المدينة وقلبهما مملوء من الحزن والكآبة لفراق أخيهما الاكبر وكما كان الاثنان يعاملان أخاهما الاكبر بالاعتبار والاحترام لكونه بمثابة أب لهما اصبح الاصغر يعامل أخاه الثانى معاملة الاكبر ويحترمه لكونه أكبر منه سنا وبعد أن سارا مدة يوم أراد الأخ الثانى أن يمتحن الاصغر فقال له أنظر كيف أن أخانا الاكبر قليل الوفاء عديم المحبة فقد تركنا نسير وحدنا وشغل عنا بالعيش والمسرة والصفاء والهناء فأجابه ان ما عمله أخونا معنا لم يكن ناشئا من قلة وفاء أو محبة بل كان ذلك لأجل مصلحتنا وخيرنا . لأن الانسان عندما يكون منفردا بنفسه يفكر أكثر ويدقق أكثر وينظر فى المشاق والمحن أكثر والا لو وجد ثلاثة أشخاص أو أربعة سواء ولاقوا المحن والمشاق لم يهتموا ولم يفكروا فيها ولذلك لا يمكن ان يحنكهم الزمان وتعلمهم الايام وعليه فيكون أخونا قد أراد امتحاننا وليس كما نزعم أنه تركنا بغضا وقلة وفاء أرأيت كيف ان أبانا قد طردنا نحن الثلاثة سواء . هل كان ذلك منه بغضا او كرها كلا بل انه

قصد خيرنا ونفعنا . فلما سمع اخوه كلامه سرَّ منه سرورا لا مزيد عليه واستحسن جوابه .

ومازالا في مسيرهما عدة أيام وليالي حتي انتهيا إلى نقطة يتفرع منها طريقان الواحد لجهة اليسار والثاني لجهة اليمين فوقفا مفكرين ناظرين الى الطريقين وهما ينظران في أيهما يجب أن يسيرا . وبعد برهة قال الاكبر لأخيه انى أرى من مصلحتى على ما يدلنى عليه قلبي أن أسير فى الطريق الشمال لان لى خيرا هناك . فأجابه الأصغر وأنا أيضا أرى أن من خيرك ان تسير فى الطريق الشمال وأسير أنا فى الطريق اليمين وبالنظر لما يلوح لى ان لى نفعا وصالحا هناك . ولهذا قد قضى علينا ان نقف فى هذه النقطة للوداع فهلم ياأخي هلم للوداع أن الله حكم بذلك وعلى المرء أن يخضع ويمتثل لحكم القضاء وأن يكون شجاعا مقداما لمحاربة الايام والاهوال .

فلما سمع أخوه كلامه قال فى نفسه ان أخى مصيب في كلامه فاذا كانت شجاعته وحكمته حملتاه على ركوب الاخطار لوحده اجابة لحكم القدر فمن اللازم وأنا اكبر منه سنا أن أكون أشد بأسا وأقوى قلبا . وفى الحال نزل كل منهما عن جواده وضم أخاه الى صدره ودموعهما تسيل على الخدود كالامطار . ولما دنت ساعة الفراق قال الاوسط للاصغر أى اخى العزيز ونور عينى إن الفراق قبيح جدا والهجران أمر لا يحتمل قط . ها ان أخانا الاكبر قد أصبح صهرا الملك فى بلاد جميلة عظيمة وهو يصرف أوقاته بالانس والصفا ولذلك أفكارنا مرتاحة من جهته ففراقه لم يكن فراقا يذكر بالنسبة لهذا الفراق . فقد تركنا وحدنا لانعرف الطريق ولا نعلم ماهي الاهوال والمصائب التى ستمر علينا أما نحن فاننا سنفارق بعضنا وافكارنا محزونة ولا يعلم أحدنا ماذا يتم على الآخر فهنا نقطة المرارة ومركز الصعوبة اذ يبقى أحدنا حزينا على الآخر .

فلما سمع الاصغر كلام أخيه له لم يتمالك من البكاء فتدفق من عينيه الدمع ثم قال له ان ما قلته هو الواقع ولكن ما العمل وإذا وقع القضاء والقدر لا ينفع التحرز والحذر فنحن عبيد الله وهو خالقنا ومعبودنا وحافظنا ورفيقنا فى طريقنا فهو الذى يرى خيرنا ويعرف طريق نجاحنا وهو بالحقيقه والدنا الشفيق الرحيم والذي أراه لأجل نفعنا أوجد هذين الطريقين وقادنا اليهما ووضع فى قلب كل منا الميل إلي طريق واحد منهما وبالطبع متى كان الانسان متكلاً على الله

حق الاتكال فعليه ان لايخالف دلائل قلبه لأنها الهامات ربانية فلنفعل الآن كما شاء ربنا وهو المدبر المتمم . وبعد أن انتهى الاصغر من كلامه انفصل أحدهما عن الآخر وهو مملوء من الحزن والغم فاستلم الأكبر طريق الشمال والاصغر طريق اليمين وبقي كل منهما يلتفت إلى أخيه وهو سائر والدموع تذرف من عينيه كالأنهار حتى غابا عن بعضهما البعض .

فلنترك الآن ابن الملك الأصغر سائرا فى طريقه وننظر فيما يجرى على أخيه فانه بقى سائرا فى الطريق الشمالي محزونا يائسا وفيما هو سائر جعل يفكر ويلوم نفسه قائلا لأى شيء أحزن واتكدر إن الدنيا حالها هكذا . فلا لقاء الا ويعقبه فراق ولا فرح إلا ويعقبه ترح كل هذه أمور تمر على الانسان فالعاقل من يصبر عليها سيما وانى على يقين من أن أخوي بخير ومن المرجح أن نعود جميعنا ذات يوم إلى أبينا ويجتمع بعضنا ببعض باذن الله . وكان يسلى نفسه بمثل هذا هذا الكلام وهو سائر فى طريقه حتى قطع مسافة خمسة عشر يوما على تلك الحال وقد صادف فى طريقه كثيرا من البلدان والقرى والآثار القديمة وكل شيء كان يراه يدقق فيه ويسأل عنه . وأخيرا انتهى الى مدينة عظيمة كبيرة فدخلها وسار إلى أحد الفنادق فاكترى له حجرة سكن فيها وقد رأى من المناسب أن يقيم فى تلك المدينة أياما ليستريح من التعب ومشاق السفر وكان فى النهار يذهب الى الاسواق والشوارع فيطوف فيها متفرجا باحثا وفي المساء يعود الى الفندق وكان مسرورا جدا من حسن هواء تلك المدينة واتساعها واتقان أبنيتها وكثرة جنائنها وحدائقها .

فصرف بضعة أيام على هذه الحال وفى ذات يوم خرج من حجرته على جارى عادته وأخذ يطوف فى الاسواق حتى وقف أمام دكان رأى الناس مجتمعين بكثرة عندها فاختلط بينهم ليرى السبب فشاهد شيخا قابضا على ولده الفتى وهو يضربه ضربا شديدا ويجتهد فى منعه من الذهاب وهو يقول له أنت ابني ولى عليك حق السلطة فلا أدعك تذهب . فتعجب ابن الملك من هذه الحال والتفت إلى أحد الحضور وسأله قائلا لماذا ياترى يضرب هذا الشيخ ولده وإلى أين يريد أن يذهب وهو يمانع فى ذهابه . فسأله الرجل ألست من سكان المدينة فأجابه كلا بل أنا غريب دخلت هذه المدينه منذ أربعة أيام فقط .

فقال الرجل يوجد فى هذه المدينة ملك عظيم واسع الملك عالى الجناب ولكنه

عادل وظالم رحيم وعديم الرحمة . فتعجب ابن الملك من كلامه وقال له كيف يكون الملك ظالما وعادلا وشفوقا وقاسيا . قال نعم ان ملكنا كذلك فان له ابنة جميلة جدا حتى أنه يندر وجود مثلها فى زمانها وهى ذكية وفهيمة للغاية وقد أقسم الملك ان لا يزوجها الا لمن يبيت عنده أسبوعا كاملا ولا يقتله لان ذلك الملك كان غريب الاطوار يقتل لأقل هفوة وحتي الآن قد اضاف الملك نحو الثلاثة آلاف فتى من الغرباء ومن أهالى مملكته بعضهم من أولاد الملوك وبعضهم من الاعيان وبعضهم من الفقراء ولا واحد منهم قدر أن يقيم فى ضيافة الملك أسبوعا كاملا ولا قدر أن يتخلص من بين يديه بل جميعهم قتل فهذا هو ظلمه وأما قولى بانه عادل فانه لا يجبر أحدا على ضيافته بل بالعكس يمانع فى بادىء الامر وقد فوض وزيره أن ينصح كل من يريد الزواج بابنته ويمنعه ويجتهد فى ردعه ويخوفه من القتل والاعدام وهذا هو عدله . وبنت الملك المذكور تخرج فى الاسبوع مرة الى الحديقة الكبيرة المحيطة بقصرها فيذهب الكثير من الناس لأجل رؤيتها وهذا اليوم الذى نحن فيه موعد خروجها وقد قصد ابن هذا الشيخ ان يسير ليراها فلم يهن على أبيه ذلك فهو يضربه ويمنعه من الذهاب إلي هناك .

فتعجب ابن الملك وقال لابد لهذه المسألة من سر خفي وتاقت نفسه فى الحال لرؤية الصبية فسار حالا نحو قصر الملك فرأى كثيرا من الناس قد تجمعوا عنده لرؤية بنت ملكهم واذا بها قد دخلت الحديقة باحتفال عظيم وبين يديها نحو خمسين جارية جميعهن بالملابس الحسنة والجواهر النفيسة وهى بينهن كالقمر بين الكواكب تتمايل كغصن بان أو كقضيب خيزران وقد سلم عليها الناس بكل خضوع واحترام . ثم أنها أخذت تطوف فى الحديقة من طرف الى آخر وهى تشاهد الناس وتحييهم . أما ابن الملك فحالما رآها تحركت فيه عوامل الحب عن غير ارادته فكأن الله قد سخر حسن ودلال ذلك الغصن الميال لاستعباد قلبه وتقييده بحبال الهوى . وكذلك بنت الملك فانها حالما وقع نظرها على شخصه أدركت بذكائها أنه من أولاد الملوك النجباء وظهر ذلك واضحا فى سيمائه وعندما تعطفت بكليتها اليه وانجذبت روحها نحوه ولم تقدر ان تضبط نفسها عن التبسم له والاشارة اليه بالسلام على نوع خاص ثم انسحبت الى قصرها . فأحدق فيها ابن الملك برهة وهو يفكر فى أمرها وجمالها .

ولما غابت عن عينيه سار إلى مكانه وصرف تلك الليلة مشتغلا بما رأى باحثا في عقله عما يعمل وهو يقول في نفسه هل أبيع حياتي رخيصة في سوق جمال هذه الفتاة التي لم تر عيني أجمل وأبدع منها . كلا . كلا . ليس من السهل أن أسلم نفسي على الخفة والطيش وأضحى حياتي لأجل الحب . يلزم أن أتحمل . وكذلك مر عليه اليوم الثاني والثالث حتى الاسبوع وهو على تلك الحالة لاهم له إلا التروي والتفكير والتدبير . ولما آن وقت خروج بنت الملك إلى الحديقة سار اليها واختلط بجماعة الملك ولكنه لم يقف في المكان الذي وقف فيه في المرة الأولى بل وقف في جهة ثانية وفي يقينه أنها ان كانت أحبته كما لاح له منها فلابد أن تبحث بنظرها عليه بين الجموع فيتبين له ذلك ويعرف من هيئتها وحركاتها ما يرتاح اليه ضميره . وبقى منتظراً دخولها الحديقة . وإذ ذلك خرجت الفتاة من قصرها كالعادة ودخلت الحديقة للنزهة وبعد أن حيت الجماعة بدأت بالتطواف في الحديقة . وقد أرسلت بنظرها الأول وهلة إلى المكان الذى كان واقفا فيه ابن الملك في الاسبوع الماضي فتأكد له أنها تبحث عليه ولما لم تره فيه أكثرت من التلفت والبحث في كل جهة حتى وجدته في مكانه وكان في هذه المرة قريبا منها فتمكنت من السلام عليه وبعد السلام وضعت أصبعها على شفتيها ثم ضمت أصبعها هذا إلى أصبع آخر ومضت فلما رأى الناس منها هذه الاشارة تعجبوا وكل واحد أول الاشارة الى معني الطابق هواه ولكن لم يدرك أحد منهم المعنى الذي تقصده الا ابن الملك .

وبعد أن طال به التأمل رجع الي مكانه وهو يبتسم ويتفكر وقد صرف تلك الليلة على هذه الحال وخيال محبوبته يلوح أمام عينيه لايفارقه لحظة واحدة وحبها يزيد وينمو في فؤاده إلى أن كان الصباح فلبس ثيابه وسار الى الوزراء المعينين لنصيحة الضيوف وتحذيرهم وبعد أن دعا لهم وسلم عليهم واخبرهم بأن قصده ضيافة الملك .

ولما رأى الوزراء نجابة ابن الملك وسمعوا فصاحة كلامه وشاهدوا رقة جانبه سروا منه فأكرموه وعزوه كثيرا وأجلسوه ما بينهم ثم سألوه في بادىء الأمر من هو ومن آى البلاد جاء فقال لهم أنه ابن أحد أمراء مدينة سرنديب وأنه قد خرج من بلاده لأجل السياحة والفرجة على البلاد والآثار . وإذ ذلك فتح الوزراء باب النصيحة فقالوا له إنك ترمى بنفسك في بحر الهلاك وتختار الموت

لنفسك بدخولك فى ضيافة الملك لأن الرجل الذى لاتقبله بنت الملك ولا يوافق مشرب أبيها يقتله ولا يبقيه حيا ومن الصواب رجوعك عن عزمك هذا فبنات الملوك والامراء كثيرات فيمكنك ان تختار منهن من تحلو لك فتتزوج بها بغير عذاب ولا خطر وأنت لاتزال شابا وفى بداية عمرك فيخاف عليك وعلى صباك فلم يقبل نصيحتهم وقال لهم انى أشكركم على تحذيركم اياى ونصيحتكم لى فقد أبرأتم ذمتكم وفعلتم الواجب الذى يطلبه الله منكم وزيادة أما أنا فانى مصر على عزمى وليقضى الله أمرا كان مفعولا . فلما رأي الوزراء اصراره قالوا له اذهب انت الآن اليوم وفى الغد عد فندخل بك على الملك والآن ندخل عليه ونخبره بكل ما جرى لنا معك واننا نصحناك وحذرناك فلم ترجع عن عزمك ولا قبلت النصيحة .

فعاد ابن الملك إلى منزله بعد أن شكر للوزراء عملهم وأثنى عليهم وقد صرف باقي يومه وليله وأفكاره تقرب بين الرجاء واليأس وكلما فكر فى العدول عن عزمه وجد من قلبه زاجراً وتبين له من إشارتها انها بدون شك ستلتصق به وقد أعجبها فتقوى آماله ويتأكد عنده نوال غايته . وفى صباح اليوم الثاني ذهب الى قصر الملك فلاقاه الوزراء وأعادوا اليه النصيحة وخوفوه من العاقبة فلم يصغ اليهم ففي الحال ساروا به إلى الملك وأخبروه بأنه راغب فى ضيافته فنظر فيه الملك وكان حكيما فطنا فتبين له فيه دلائل الذكاء والنجابة فرحب به وزاد فى اكرامه وأجلسه الى جانبه وسأله من أين هو وإلى أي جهة هو ذاهب . فأخبره أنه من مدينة سرنديب وأنه سائح فى الدنيا يستطلع أخبارها ويتفرج على آثارها فأرسله الملك الى المكان المعد للضيافة وأمر عدة من الخدم بملازمته والاهتمام بخدمته .

ولما كان المساء خرج الملك من ديوانه وسار إلى حرمه فأقام هناك نحوا من ثلاث ساعات ثم جاء الى المكان الذى يقيم فيه ابن الملك فاستقبله ابن الملك بالترحيب والاكرام وأكثر من الدعاء له والثناء عليه فصافحه الملك ومدحه وجلسا إلى جانب بعضهما البعض ولما كان الملك قد رأي من هيئة ضيفه انه لابد أن يكون ابن أحد الملوك الكبار أخفى ذلك فى نفسه ولكنه كان يعامله بالوقار والاحترام كما يعامل الملوك وبعد أن صرفا وقتهما بالاحاديث والاخبار

حضر الطعام فجلسا عليه والملك يمتحن ضيفه ويسأله المسائل العظيمة وهو يجيب عن كل شيء بحكمة وتعقل وتأن حتى سكر الملك من ذكائه .

ولما حان وقت النوم نهض الملك ودخل الى حرمه وأخذ ابن الملك الى غرفة نوم مزينة بكل أنواع الزينة قريبة من محل الحرم . وكان ابن الملك يتعجب من الاكرام والاحترام اللذين لقيهما من الملك مع أنه كان سمع أن الملك يقتل ضيفه بعد أسبوع فلماذا يكرمه فى الاول ثم يقتله فى الآخر . ومن بعد أن دخل الغرفة نزع عنه ثياب النهار ولبس ثياب الليل أى ثياب النوم وجلس يتفكر فى أحواله وفى سر هذا الأمر برهة ثم نهض الى سريره وقبل أن يتسلط عليه سلطان النوم سمع صوت فتح الباب فاضطرب قلبه وارتجف ونهض جالساً وأمعن فى الداخل فرأى فتاة فى سن الخامسة عشرة قد دخلت منه فحقق النظر فيها فعرف أنها بنت الملك نفسها فخرج فى الحال من سريره وترحب بها غاية الترحاب وقدم لها مايليق بها من الاعتبار والاكرام . ومن بعد أن حيته بكلمات الغنج والرقة والدلال جلست ودعته للجلوس فلم يؤخذ ابن الملك بكل ما أبدته من حركات الغنج والتيه بل جلس الى جانبها مطرقا الى الارض لا يرفع نظره الى وجهها فضاق لذلك صدر الفتاة وقالت له لماذا تعرض عنى هل لم أعجبك فأجابها كلا ياسيدتى فأنت معدن اللطف والكمال ولكنى مخجول من زيارتك فى مثل هذا الوقت ولم أر لها معنى واضحا وظاهراً إلى فلماذا شرفتينى فى وقت ليس وقت زيارة والأعجب من ذلك انفرادك بى فى مثل هذا المكان وهذه الساعة . فقالت نعم ياسيدى انى أتيت لأراك لأنى حالما رأيتك وقع حبك فى قلبي وعشقتك بالرغم منى وأصبح قلبي أسيرا فى يديك .

قال لا ألومك على ذلك انما ليس من الحكمة العجلة بل من الواجب ان تصبري الى حين يدنو وقت نوال المراد . فقالت له رفقا بى ياملكى المحبوب كأنك لم تسكر من خمرة الحب ولم تأسرك حبال الغرام والا لما كنت تجيبنى بمثل هذا الجواب واني أعذرك عليه لانى كنت مثلك قبل أن رأيتك لا أعذر عاشقا ولا أرحم مغرما فهل يطيق العاشق الصبر على وصال معشوقه وهو قريب منه .

قال فى الواقع كما قلت لكن العرض والناموس أعظم بكثير من العشق والمحبة لا أخفى عليك انى عاشق شديد الغرام بك لكن العرض والناموس يمنعانى عن اجراء ما أروم .

فأظهرت الفتاة التأثر وقالت له المعنى أنك تظن أنه لا يوجد عندى عرض وناموس . قال حاشا ياسيدتى أن أفكر بذلك فانى لم أقل لك أن لا عرض ولا ناموس عندك بل انى أرى ان العشق والمحبة عندك قد التقيا بالعرض والناموس وهذا الذي حملك على الجراءة لزيارتى فى مثل هذا الوقت مع أنه لايزال الناموس عندي منفصلا عن الحب .

فقالت له العفو يا محبوبى العزيز إن كل كلامك حكمة وعقل فليس الآن وقت الكلام واللوم فالوقت قصير هلم الآن نغتنم هذه الفرصة فنقض ساعتنا القصيرة باللهو والتسلى فلم يوافقها وقد دله قلبه أن عملها هذا هو دسيسة وحيلة لامتحانه فقال لها أرجوك يا سيدتى إكراما لمجد الله لا تمسي شرفي وناموسي بأذي فاذهبي عنى لأنه لا يمكن لى أن أدع قلبي يتغلب على عقلي ولا أعمل أمراً مالم أفتكر فى عواقبه ولا آتى عملا إلا بعد التروى والتبصر فزاد نفوره وعفافه فى هواها وغرامها فقالت له مماأنت خائف ياروحى فاني أقسم لك الايمان العظيمة أنى أصبحت عاشقة لك مغرمة بك ومنذ رأيتك أول مرة فى الحديقة انسحب قلبي اليك على غير رضى مني وعدت لا أطيق صبرا على بعدك وما ذلك إلا بأمر من الله تعالى . فالآن لماذا تظلمنى وتجافيني هلم إلى ارحمنى انصفني لا تتركنى يائسة حزينة .

فقال . كلا يا سيدتى فقد يستحيل على أن أوافقك على ما تدعونى اليه بل أرجوكى أن تتركينى وحالى هذه الليلة وتذهبي عنى ولا أقول ذلك إلا لزيادة حبي لك انى أحبك وأهواك أكثر مما تحبينني وتهوينني بألف مرة . لكن عدم الصبر والتأنى مضر فاصبرى أسبوعا واحدا فقط فاذا تخلصت فيه من أبيك سهل علينا الاجتماع ونوال الوصال . فتبسمت الفتاة وقالت له أى حبيبي ومالك لى لاتعر أذنا لما تسمع ان هذا الأمر هو بيدى وما يشيع عن أن أبى يقتل طلابى والراغبين بى بعد زيارتهم له أسبوعا هو غير الحقيقة بل اذلك سر آخر لاأخفيه عليك وهو أنه إذاجاء أبى ضيف راغب فى فبعد ان يجرى معه التجملات والاحترامات اللائقة بالمضيف مدة ستة أيام وفى الليلة السابعة يأخذ في امتحانه فيرسلني اليه ويختفي هو خلف الباب والسيف فى يده . وعندما أدخل أناعلى الخاطب وابدي لديه اشارات الحب وافاتحه بالغرام يأخذه الطمع بى فيهجم على قاصدا ضمى واعتناقى ونوال غرضه منى فى الحال فيخرج اليه أبى فيقتله ويعلم انه غيرصالح لى

لدناءته وعدم صبره . أما أنا فحتى الساعة لم أمل قط الى واحد من جميع الذين رغبوا فى ولا أحببت قط واحداً منهم أما انت فحالما وقعت عيني عليك توسمت فيك العقل والكمال والحكمة فرماني الله بالرغم منى فى هواك ولهذا لا يمكن لي أن أسلم بقتلك مالم أقتل قبلك . والدليل انى لم أصبر عليك بل أتيتك اشكو اليك حبي لأصرف واياك هذه الليالى الستة على الحظ والانشراح وفى ليلة الامتحان تتحذر فيرى أبى فيك المطلوب ومن ثم يعقد لي عليك ويتم اقتراننا فلاتخف الآن من محذور فمتي دمت أنا فى قيد الحياة لاتقع عليك أذية .

فلما سمع ابن الملك كلام خطيبته زاد به التعجب وهو غائص فى بحر من الافكار ثم دار بوجهه اليها وقال لها مادام الأمر كما قلت فاصبرى فبعد مرور السبعة أيام ننال المراد ويتم لنا الحظ والفرح ولا يبقى فى سبيلنا مانع ويبقى ناموسنا محفوظا فتأوهت الفتاة وظهرت على وجهها علائم الذل والانكسار وقالت له لماذا أنت ياحبيبي عديم الرحمة والشفقة أيمكن لى الصبر سبعة أيام وانت في قصرى ولم يكن بيني وبينك حاجب فارحمنى واطفي لهيب قلبي باجابة سؤالى ودعنا نصرف ايامنا بالانس وأنا على ثقة من اننا نقترن حلالا ولا يفرق بيننا الا الله سبحانه وتعالى فلا تدعنى حزينة قانطة من الحياة .

ولما رأى ابن الملك حالة الفتاة وشدة ولوعها به وقلة صبرها على قربه كاد يعذرها ويجيب سؤالها ولكن فى الحال خطر على ذهنه وصية أبيه وهى (لا تعمل أمرا ربما تندم على عمله فيما بعد ولا تعجل بعمل الخ) وعليه فقد عاد إلى ممانعة الفتاة وقال لها لا أمل فى هذه الليلة الى اجابة سؤالك فاتركيني واذا كنت لا تزالين مصرة على طلبك فانه خير على قتل نفسي من أن اجيبك الى مرادك خفية عن أبيك وانا ضيفه وفي يده حتى لو كنت أينما كنت .

فلما رأت الفتاة عناد ابن الملك وامتناعه الى هذه الدرجة انفطر قلبها وغاب رشدها ورمت بنفسها على قدميه ترجوه وتسأله الرحمة ولما رأى ابن الملك أن الفتاة لا تقنع ولا تتركه أخذته الحدة والغضب وقال لها ألم اقل لك اذهبي عنى هذه الليلة فلا يمكن لى ان اجلس واياك دقيقة واحدة بعد فاما أن اقتل نفسي واما ان تذهبي عني واذا كنت لا تذهبين عنى فها أنا ذاهب الى حجرة الضيافة حيث كنت فى النهار ثم خرج وهو بحدة وكدر الا أنه مالبث ان اخرج رجله من الباب

حتى رأى نفسه وقفا تجاه الملك والسيف مسلول فى يده فخار واضطرب ورمى نفسه على أذيال الملك يقبلها بدهشة ورعب .

وكان الملك لما فارقه ذهب لغرفته وهو يفكر فيه وفى نجابته وذكائه وجماله وقد وقع فى قلبه موقعاً عظيماً وخاف من أن تقوده الظروف الى قتله فأراد أن يذهب الى ابنته ويخابرها بشأنه وقد خطر على ذهنه أن يزوجه بها بدون أن يمتحنه اذا تبين له انه شريف ومن أصل عال فخرج من غرفته وقبل ان يصل لغرفة بنته وجدها سائرة تحت الظلام فشغله أمرها فانزوى الى أن مرت فتأثرها حتي دخلت على ابن الملك فوقف خلف الباب وقد اشهر السيف بيده وسمع كل مادار بينهما حرفا بحرف .

ولما رأى أن ضيفه قد ارتمى على أقدامه قبض عليه من يده وأنهضه عن الأرض وقبله فى جبينه وأدخله الى الداخل وقال له وهو مملوء من السرور والفرح لقد أحسنت أيها الشريف الذات والصفات بالحقيقة أنك ابن حلال فهيم عاقل لا يوجد لك ثان بين الناس ولم ترعيني قط مثلك فأنت هو الرجل الذى أبحث عنه وأسعى وراءه وارغب فى مصاهرته وأطلبه زوجا لبنتي . ومن بعد أن أكثر الملك من مدح ابن الملك واطنب فى صفاته أحضر فى الحال الفقهاء فعقدوا لابن الملك على بنته . ثم تركهما وحدهما وانصرف الجميع وبقي العاشقان فى خلوتهما يقطفان ثمار الحب ويتلذذان بوصال بعضهما البعض وداما على حظهما حتى الصباح فخرج ابن الملك للحمام فاغتسل وجيء له بالثياب الفاخرة فلبس وخرج الى القصر واذا بالأفراح قائمة والموسيقى تعزف وكان الملك من فرحه قد بكر الى اعداد الافراح واخبار حاشيته ورجال معيته بزواج ابنته فتوارد المهنئون يهنئون الملك وصهره وهم يتعجبون كيف أن يزوج بها في أول ليلة ولم يجسر أحد أن يسأل عن السبب ولكنهم قد أحبوا ابن الملك جدا ومالوا اليه وعجبوا من سياسته وحكمته وبقي ابن الملك عند عروسه على البسط والانشراح فهذا ماجرى لابن الملك الثاني فلنتركه فى فرحه لانكدر له عيشا .

أما ابن الملك الأصغر فانه بعد أن انفصل عن أخيه سار فى الطريق الايمن حتى مساء ذلك اليوم فعرج الى قرية هناك بات فيها تلك الليلة وفي صباح اليوم التالى نهض من نومه واستأنف المسير حتى المساء فبات فى احدى القرى وفي اليوم الثالث عاد الى التقدم فى طريقه ودام على ذلك مقدار خمسة وعشرين يوما

وفي اليوم السادس والعشرين وصل الى مدينة كبيرة واسعة لم ير في زمانه مثلها قط فسر لذلك لأنه كان قد أعياه التعب وشدة السير فتاقت نفسه للراحة ولذلك عزم على البقاء بضعة أيام في تلك المدينة حبا في الراحة والفرجة عليها فدخلها في الحال واستأجر له غرفة في أحد الفنادق وصرف تلك الليلة في الخان حتى أقبل الصباح فخرج الى الحمام ولبس ثوبا نظيفا جديدا وأخذ يطوف الأسواق والشوارع متأملا وباحثا في كل مايراه وكانت المدينة جميلة جدا وعامرة وهي محاطة بالحدائق المعشبة المثمرة والمتنزهات الغناء الزاهرة وأبنيتها جميعها من الحجارة البيضاء المرمرية مزينة ومزخرفة بأبدع النقوش وطرقها ومسالكها واسعة ومعتدلة على ترتيب هندسي جميل مما يدل على أن ذوق أهاليها بديع وأنهم على جانب من العقل والذكاء والرقة والأنس فأعجبته جدا ولذلك دام على التطواف والتنقل من جهة إلى ثانية حتى قادته الصدف إلى جمع غفير من نساء ورجال يسيرون مجتمعين الى جانب بعضهم البعض فتعجب ابن الملك من كثرتهم وقال في نفسه يلزم أن أسير بينهم لأرى الى أين ينتهي بهم المسير وأي جهة يقصدون فاختلط بينهم وسار معهم وفيما هو سائر قال لأحدهم الى أي جهة ياترى تسيرون فأجابه الرجال هل انت غريب الديار حتى تجهل المكان الذى نقصده .

أجاب نعم لقد دخلت المدينة مساء أمس ولم أكن أعلم قط . قال ألم يخبرك بعد أحد فزاد تعجب ابن الملك وقال له كلا فاني لا أعلم ولا سمعت ولذلك رجوتك أن تخبرني فقال له اعلم أنه يوجد في هذه المدينة ملك عظيم الجاه عالي القدر وله بنت وحيدة جميلة لا نظير لها قط في الحسن والذكاء والفراسة والعلم والآداب ولما لم يكن له أولاد غيرها أحبها كثيرا وفي يوم ولادتها زين المدينة وقام بالولائم والعزائم وكان يوم فرح عظيم لم يسمع بمثله وتربت بالنعمة والدلال حتى بلغت الثانية من العمر وكانت وهي في حالة الطفولة يشاهد عليها من آثار الحسن والجمال ماينذر وجود مثاله في هذه الدنيا فانعطفت اليها كل أميال الملك وكانت كلما تقدم بها السن ازدادت محبة أبيها لها ولما أدركت التاسعة عين لها المعلمين والاساتذة لتلقينها العلوم بأصولها وفروعها وكانت الفتاة من فطرتها على جانب عظيم من الذكاء والفطنة فلم تصل الى الرابعة عشرة حتى برعت في جميع العلوم والفنون ثم أحضر لها والدها الفلاسفة والحكماء من البلاد الغريبة وكان كلما سمع بفيلسوف ماهر أحضره وغمره بالانعام وعين له الرواتب وخصصه لتعليمها كي لا يوجد

فى الدنيا من يفوقها علما وأدبا كما لا يوجد من يفوقها حسنا وعقلا والغاية أن بنت الملك برعت فى كل فن وتقدمت فى كل علم وأتقنته ووعته حتي علم الفلك والجفر والرمل والحساب والهندسة والطلاسم والسحر فقد أتقنتها جميعها حتي أدركت درجة الكمال فيها .

أما جمالها فقد يتعسر على وصفه تماما ولكن لكى تعلم فى أية درجة هي من الحسن أقول لك إن لا نظير لها في الدنيا وأنا أراهن على ذلك فأنها لما أدركت الرابعة من عشرة من عمرها كان من الصعب على نساء قصر أبيها وجواريها أن ينظروا اليها دون أن تأخذهن رعشة عصبية فاذا كانت النساء تهيم وتجن عشقا لجمالها ودلالها فكم بالحرى الذكور وقد شاع في الدنيا خبر حسنها وجمالها وآدابها وكمالها فكانت آية الحسن الكبرى وفريدة فى الجمال والكمال وهي ربعة القامة مندمجة الجسم متناسقة التركيب بجبين أبيض وحاجبين سوداوين وعينين (أجلبن الهوي من حيث أدرى ولا أدرى) إذا مشت يحمل لها جواريها ذيل شعرها خوفا من أن تدوسه بأقدامها وخدين موردين وأنف أقنى وفم كخاتم سليمان قد ملكها الله اياه لتأمر به على الانس والجان فتطيعها ولها عنق وصدر لا أقوى على وصفهما وليس النظر كالعيان فلا أنا ولا أفصح العالم لسانا وأقدرهم علما يقوى على وصف جزء من جمالها وقد أعطيت وحدانية المحاسن فأرجوك أن تعذرنى اذا كنت لا أعرف أن أصفها لك فسوف تشاهد بنفسك صورتها وتتيقن صدق كلامي . وكما أنها وحيدة فى الحسن والبهاء فريدة فى العلوم والفنون فكذلك لها معرفة وشغف بالصيد والقنص وقد برعت فيهما . فهى تخرج فى الاسبوع مرة منتخبة لمرافقتها مائة أو مائة وخمسين فتاة وتوسع التجول فى الغابات والاحراش . ولما كانت محبة أبيها تزداد لها اليوم بعد اليوم فهو لا يخالها قط بوجه من الوجوه بل يظهر لها رغبته فى كل ما تعمله ولا سيما فى خروجها للصيد مع جواريها فيركبن الجياد من الخيول ويخرجن الى الصحارى والوديان بغير حجاب ولا نقاب .

ولهذا عندما يعلم الناس بيوم خروج بنت الملك يتجمهرون ويتجمعون منذ الصباح ذكورا وأناثا شبانا وشيوخا وأطفالا ويصطفون من المدينة حتى الصحراء بترتيب وانتظام ينتظرون مرور بنت ملكهم (على أنه لو كانت بنت الملك قبيحة المنظر وارادت الخروج لاجتمع الأهالى للفرجة عليها فكم بالحرى وبنت الملك

أجمل فتاة صنعتها القدرة الالهيـة وأبدعتها يد البارىء المصور سبحانه وتعالى والآن ترى المتفرجين) . ولو بقيوا على هذه الحالة سنتين لما اكتفوا من النظر إلى ملاكهم السماوى وربما تاقت نفوسهم إلى زيادة الوقوف والتمتع برؤيتها فلا تكفيهم الأيام والشهور والسنون بل كلما زاد الوقوف والنظر فيها كلما زاد الشوق الى جمالها والاستصباح برؤيتها ولقد برعت فى فن الصيد والقنص براعة لم يصل اليها أشد الفرسان بسالة وأقداما فهى تنقض على صيدها مهما كان كما ينقض البازي على أضعف العصافير ولم يكن للاهالى حديث فى حضورهم وفى أسفارهم وفى مخازنهم وفى بيوتهم وفى أشغالهم وفى راحتهم الا التـلذذ بأخبار بنت الملك وأعمالها وكلامها . ولذلك انتشر صيتها فى الضواحى وبعد الى الممالك الأخرى فأخذ الشبان وأولاد الملوك يتقاطرون من كل الجهات للتمتع برؤيتها فزاد عشاقها وكثر طلابها ولـكن دون فائدة لا تميل الى العشق وتمنعها الأنفة والكبرياء من النظر الى وجه أى فتى مهما كان وعلومها وآدابها كانت تصـونها من التفكير فى أمر الحب والاشتغال بأمور ترى نفسها مضطرة للتنزه عنها لأن الله رفعها عن أبناء جنسها ذكوراً وأناثا حتى أصبحت معجبة بنفسها غاية الاعجاب فلم تر فى كل من رأتهم من هو كفء لها أو يليق بأن يكون زوجا ومقارنا لهـا وكان أكثر العلماء والحكماء والفلاسفة يجتمعون بها فتباحثهم فتتغلب عليهم وتفحمهم وتخضعهم وتذلهم لسلطان علمها ومعرفتها وقد وضعت بسحرها بعض طلاسم حارت فيها العقول . وذلك أنها فكرت قائلة فى نفسها حيث أن شهرتى وصيتي قد أحاطا بأكثر أقسام الدنيا فيلزمنى اثبات ذلك والاثبات يكون باظهار عدم ميلي الى الذكور فاصنع طلسما والشاب الذى يقدر على ازالة هذا الطلسم أرضى بالتزوج به وأقبله رفيقا وشريكا لحيـاتى لأنه يكون ولا ريب أكثر منى علما ومعرفة . وبعد ذلك أمرت ببناء قلعة على جبل كبير عال قريب من المدينة . وبنت حولها حائط ولـكن أى حائط إنه حائط كالجبل فكأنها أقامت جبلا على جبل فلم تر عين ولا سمعت أذن أصعب منه متانة ولا أكثر ارتفاعا وحينئذ عملت عمارة بالسحر والطلسم في داخل الحائط وعملت من الحائط الى أسفل الجبل عدة طلاسم سحرية حتى أصبح من المستحيل أن يقدر أحد من البشر على الصعود إلى الجبـل .

ومن بعد أن أتمت الفتاة كل هذه الاعمال أبانت لأبيها غايتها وأن مرادها

أن تقيم داخل القلعة فكل من يقدر أن يبطل سحرها وطلسمها يقوم بأربع شروط شنتها وعينتها كانت له زوجة وكان لها بعلا وسألت أباها أن يرخص لها فى ذلك ولا يخالف ارادتها فوافق أبوها على ما أرادت لأنه كان يحبها كثيرا ولأنه كان يعلم أيضا أنها أكثر أهل زمانها عقلا وأرفعهم حكمة فلا تفعل الاصوابا . ومن ذلك الحين دخلت بنت الملك الى قصرها الجديد وقد أخذت معها نحوا من مائة وخمسين من الخدم والحشم والجوارى والعبيد ولها الآن مقدار سنة فى تلك القلعة وكانت قد صورت نفسها بيدها صورة بديعة وعلقتها على أشهر أبواب المدينة وكتبت تحتها شروطها الاربعة أما الأهالي فقد يئسوا جدا من تحاميها منهم وامتناعها فى تلك القلعة ولما عجزوا لم يروا وسيلة الا الاصغاء وقنعوا بالتفرج على تلك الصورة والتلذذ بمرآها فصاروا في كل أسبوع يذهبون مرة الى المكان الذي علقت عليه الصورة وكثير منهم من يذهب يوميا لمشاهدة الصورة وها نحن الآن فى طريقنا إلى ذلك المكان نسير اليه بأجمعنا لنرى صورة بنت ملكنا التى أحببناها وعبدناها .

فلما سمع ابن الملك من الرجل هذا الكلام تعجب غاية العجب وبعد التبصر والتروي حمله الميل والرغبة وما ركب فى طباع الشباب من حب الاستطلاع والبحث على السير ليرى تلك الصورة وهل هى على الصفة التى سمعها أو مبالغ فيها وقد رأى من نفسه وقلبه انجذاباً الى تلك الفتاة وتاقت نفسه إلى رؤية تلك الصورة بدون ابطاء ولا تريث فأسرع فى المشي .

وعند وصول السيدة نسربن بوش بنت ملك صقلاب صاحب الاقليم الرابع الى هذا الحد رمت نفسها على زوجها بهرام شاه ولفت يديها الى عنقه وضمته الى صدرها تقبله فى خديه وعينيه ولما كان بهرام شاه يحب استماع الحكايات والقصص من طبعه كان مأخوذاً بهذه الحكاية مصغيا لاستماعها زيادة عن سواها وكان يدقق فى كليات الاشياء وجزئياتها وقد بهت من ذكاء بنت الملك وتفردها بالعلم والجمال وتشوق للاستطلاع عما سيكون لابن الملك معها فهل ينال مراده من زمانه كما نال أخواه ولذلك أسرع الى ضم نسربن بوش الى صدره وتقبيلها فى فمها وعنقها وصدرها وخدها وجبينها وقال لها لقد أحسنت ياروحي ومنية فؤادي اذ علقت قلبي وفكرى بهذه الرواية فأطلب اليك أن لا تنقطعى عنها وتتركيني فى شغل أفكار لأجل ابن الملك .

فتبسمت نسربن بوش ومالت عجبا ودلالا وقالت له أرأيت يا بهرامي المحبوب اعراضك عني وتمسكك بالحكاية حتى لم يبق لنا وقت للانس والصفا فاذا كنت لا أنقطع عن الحكاية ففي أي وقت نقطف زهرة الحب وصفو العيش أواه من من غدر الزمان فانه ينتزع مني فرحة الهناء ويختلس مني ساعة حظ كنت أتمناها مع الحبيب . وكان من غاية بهرام أن يستمع نهاية الحكاية قبل كل شيء ولكن خوفا من أن يكدر صفو هناء زوجته عاد فضمها اليه ثانيا وثالثا وأكثر من تقبيلها وملاعبتها ثم أخذ كأسا بيده وسقاها اياها ورأسها على زنده وبعد أن شربته استأذنته وأخذت كأسا وسقته أياها مقابلة بالمثل ثم قربت شفتيها من شفتيه فامتصهما في مكان النقل (المزّه) حتى امتلأ فمه عسلا وذاق حلاوة ولذة كاد يغيب عن هداه منهما ثم بعد أن صرفا نحوا من نصف ساعة على تلك الحال عاد بهرام شاه فطلب الى زوجته أن تتم الحكاية فأجابته الى طلبه وقالت .

ولما وصل ابن الملك الثالث مع المتفرجين من باب المدينة فحالما وقع نظره على صورة بنت الملك انعطف قلبه اليها وقد اندهش من حسنها وذهل من فرط جمالها وبقي نحوا من نصف ساعة محدقا فيها يتأمل تركيب جسمها وبديع تكوين جمالها وقوة جاذبيتها ويتعجب من حسن صنعتها ومعرفتها العالية بفن التصوير وأما الاهالي فمنهم من كان يتأوه ويتحسر ومنهم من كان يعض شفتيه حسرة وندما فيدميهما ومنهم من يبكي ومنهم من يكفر ومنهم من لا أعلم ماذا كان يعمل فعذرهم ابن الملك على أعمالهم لأنه يستحيل على ابن انثي أن يراها ولو مرة ثم يعود يملك عقله ولو لم يكن قد أعطى نعمة الصبر وترفع عن أبناء جنسه من البشر بالعقل والحكمة والتدبير أكثر مما فعلوا .

وفيما كان ابن الملك يدقق في حسن الفتاة وبراعة التصوير وقعت عينه على لوحة معلقة تحت الصورة مكتوب عليها ما يأتي :

(ايضاح)

ان جميع ابناء البشر في هذه الدنيا ذكورا وأناثا يتمسكون جميعهم بحبال الراحة والسعادة فاذا نظرنا إلى أحاد الناس عموما نراهم يرغبون في صرف أوقاتهم بالانس والصفا . فبنوا البشر ينقسمون الى قسمين يقال لأحدهما الخواص وللآخر العوام ولأجل ذلك اذا كان الشخص المعدود من الخواص يطلب الراحة والسكون اللازمين فعليه أن لا يختلط بالعوام وكذلك صنف العوام اذا

مال أحدهم الى الراحة الواجبة له في حالته فعليه أن لا ينظر الى الخواص ولا يتقرب منهم يعني أن كل جنس ينبغي له أن لا يعاشر الا أبناء جنسه ليجد الراحة والسعادة ومن المحال أيضا معاشرة الجاهل للعاقل والعاقل للجاهل لأنها لا تكون باعثا للراحة والهناء كمعاشرة بنت الملك لابن الزبال أو بنت الزبال لابن الملك. فانها لا تأتى بالراحة والسعادة لهما . ولكن لو عاشر الجاهل جاهلا والعاقل عاقلا يجدان الراحة والهناء بسهولة وعليه فاذا كنت أرى نفسي بنت ملك عظيم وقد أعطيت من العقل والعلم والحكمة والذكاء ما جعلني أري من الواجب على أن أعيش مع من هو مثلى فلكي أجد قرينا فى كل معنى موجود فى وضعت هذا الطلسم فمهما قال العالم عنى فليقل فليس من شأنى ولا يهمنى فكل طالب يرغب فى فما عليه الا إزالة السحر والطلسم وأن يراعى هذه الشروط الاربعة الآتية وهي :

(الشرط الاول)

يلزم المباشرة بفتح هذا الطلسم في الساعة كذا من اليوم كذا المخصوص وإذا فرض انه لم يراع هذا الشرط وأمكن فتح الطلسم فأقبل .

(الشرط الثانى)

على الطالب من بعد فتح الطلسم أن يأتى الى حد الحائط الكبير ويقف هناك

(الشرط الثالث)

عندما يأتى الحائط عليه أن يبحث عن بابه فى أى جهة هو ويفتحه .

(الشرط الرابع)

اذا أمكن وجود الباب وفتحه فعليه أن لا يدخل الى الداخل بل ينزل الى أسفل وينتظر إلى حين مجىء أبي وآتي معه وأنا متحجبه وأسأله أربع أسئلة فاذا أجاب عليها حق الجواب رضيته بعلا لى وشريكا لحياتى ومن لا يراعى هذه الشروط ولا يقدر عليها سيحل به الاسف والندم إذ الموت أمامه فى كل دقيقة .

وبعد أن قرأ ابن الملك الاعلان المذكور غرق فى بحر من الافكار وهو محدق بالصورة يتأمل فيها وهو يتأوه ويتمنى الحصول عليها ثم ان الجماعة لما عادوا من الطريق الذي جاؤا فيه خرج معهم وتلك الصورة نصب عينيه ويتعجب من اللطافة والظرافة اللتين شاهدهما في الصورة ويسبح الله على غريب صنعته . وكان يقول بنفسه فى الحقيقة اذا كان يوجد فى الدنيا جمال في هذه الفتاة فيحق لها أن تباهي وتفتخر على أبناء جنسها .

ومنذ تلك الساعة شغل ابن الملك بالفتاة بمجرد النظر الى صورتها وتعلقت أفكاره بالحصول عليها وزرع فى قلبه بذرة حبها فبدأت بالنمو يسقيها بمياه الأمل بالفوز إذا ساعدته العناية ولم تكن تبرح عن فكره لحظة واحدة وانفرد بنفسه ولزم مسكنه وما زال يقدح زناد الفكر فى تدبير نفسه حتى أشرق الصباح فنهض من فراشه ولبس ثيابه وخرج الى ذيل ذاك الجبل يتمشى عنده ليرى الطريق المساعد لنوال غايته فوجد حوله جماجم الطالبين مطروحة بعضها فوق البعض والشبان الذين يأتون ويقعون في ذاك الميدان يئنون أنين الموتى فى حالة النزاع وما من مساعد لهم أو معين . فتأثر ابن الملك عند نظره هذا المنظر المحزن وتمنى لو أنه لم ينظر ذلك المنظر المفتت للاكباد وبعد أن طاف قليلا باحثا ومدققا رجع الى مكانه . وأخذ يفكر قائلا فى نفسه كيف العمل يا ترى وكيف أقدر على فتح هذا الطلسم وكان تارة يقول الأوفق صرف النظر وعدم التفكير فى هذا الشأن والسفر عن هذه المدينة والخروج منها فى الحال للخلاص من مرض الغرام وطوراً يتصور أمامه ذاك الجمال الباهر والحسن الزاهر فيهون فى عينيه الموت ويقول كلا كلا لا أتركها وأسافر وأعجز عن الحصول عليها وهي بشر مثلي ومن اللازم الثبات فى الحب والحكمة فى التدبير والتأني فى العمل فاما أن أنال غايتي وأتزوج بها وأخلص الناس من أيدى سلطتها وإما أن أضم إلى أولئك الفتيان المساكين الذين قد استشهدوا فى سبيل حبها وهواها .

وعلى هذا الوجه كان ابن الملك يصرف الليالي بالتفكر والاهتمام وتخطيط الطرق اللازم اتخاذها وفى النهار يذهب الى الجبل فيطوف حوله باحثا فاحصا فمن الجهة الواحدة كان العشق والغرام قد أشغلاه وتركاه فاقد الراحة ومن الجهة الثانية كان معظم همه إيجاد الوسيلة الموصلة لازالة الطلسم وفتحه . وعند فراغ الوقت (ولكن من أين للعاشق الولهان فراغ وقت) كان يقول هل يا ترى أتقهقر أمام هذه الفتاة وهل تفوز علي بعلمها ومهارتها كما قويت بسلطان حسنها اذا كانت تفتخر بكل ذلك فلأي شيء لا أفتخر أنا عليها فاذا كانت هى بنت ملك فأنا ابن ملك واذا كانت هي شابة فأنا شاب أيضا واذا كانت هى ذات علم ومعرفة وفضل فأنا أيضا تعلمت كل علم وفن مع أنها هي فتاة وانا رجل أتمكن أن أغلب منها . من يعلم . لا يلزم أن أخافها فاما أن أغلب واما أن أغلب والله يفعل ما يشاء .

وعنداما كان يطوف حول الجبل ويرى عنده جماجم الفتيان الذين طمعوا فيها كان يصعب عليه الأمر ويقول وا أسفاه على هؤلاء المساكين لقد قادهم الغرور والعشق ولعب بهم تيار الطمع والعنفوان مثلي فهل يا ترى يوجد بينهم رأس شيخ كلا بل رأس شبان يعملون مالا يعلمون ولا يفكرون في عواقب الطيش والحمقة .

وبقي ابن الملك على هذه الحالة مقدار شهر لاهم له الا التفكر والتدبر لايجاد وسيلة وقد أصر كل الاصرار على المباشرة في السعي لنوال مراده وخلاص الفتيان والشبان الجهلاء من عاقبة غرورهم وفيما هو على ذلك خطرت في ذهنه وصية أبيه وهي (اذا وقعت في أمر صعب ومشكل ولم تقدر أن تتوصل الى حله من نفسك فابحث عن شيخ عاقل خبير محنك فاستشره) ولما لاح في ذهنه هذا الخاطر رآه عين الصواب فأخذ من تلك الساعة يختلط بالناس ويصاحب ذوى الاختبار والعلوم ويبحث عن غرضه بينهم وكل الذين اجتمعوا وصادفوه كانوا يعجبون من ذكائه وفطنته ويتحيرون من سمو معارفه وعلومه وآدابه حتي اشتهر وذاع صيته وتمكن حبه من القلوب .

ففي ذات يوم بينما كان مجتمعا مع بعض أصدقائه وقد أخذوا يتفكهون بالأحاديث والاخبار ويتطيبون بذكر الملوك والوزراء وأفاضل الرجال سأل ابن الملك ألا يوجد يا ترى في هذه المدينة رجل شيخ حسن خبير بأحوال العالم حكيم في أعماله وأقواله فأجابه أحدهم انه يوجد في مدينتنا رجل شيخ فاضل وهو أكبر من في المدينة من الرجال والنساء ومع أنه مسن لدرجة أنه لم يبق قادرا على التحرك بسهولة فهو قادر على الكلام بحكمة وفصاحة غريبتين وهو مقيم في المعبد الفلاني خارج المدينة وأقيم لخدمته عدة أشخاص من نساء ورجال وفضلا عن أنه محنك ومختبر ومجرب لكل أمر فهو غاية في العلوم والمعارف .

فسر ابن الملك عند سماعه هذا الكلام وقال لهم على ما أظن أن زيارة رجل كهذا لاتخلو من فائدة وأرى من المناسب أن نقصده ذات يوم فأظهروا مسرتهم بذلك وقالوا له إننا لا نمتنع عن مرافقتك اليه عندما تريد قال اذاً نذهب في الغد فوافقوه وعادوا إلى ما كانوا عليه من حديثهم الى أن كان المساء فتفرقوا الى أماكنهم وسار ابن الملك الي منزله فبقي فيه الي الصباح فنهض وصلى واغتسل ولبس ثيابه وانتظر الي الوقت المعين وحينئذ سار الى أصحابه ومشوا جميعهم

ولما وصلوا اليه قبلوا يديه بكل احترام وأدب وجلسوا . فنظر ابن الملك الى الشيخ فرأى النور يتدفق من وجهه وذقنه بيضاء كالثلج تغطى صدره الى حد منطقته وشعره الابيض يتدلى على أكتافه كعقود من لؤلؤ فتوسم فيه الخير ولاح له من هيئته أنه من ذوى العلوم والمعارف وأنه لاقي فى زمانه من حوادث الدهر شيئا كثيرا وخط الزمان على جبينه أثراً لعجائبه وغرائبه . وكان الشيخ قد نظر الى وجه ابن الملك المرة بعد المرة فأدرك أنه غريب وأنه على جانب رفيع من الذكاء والنجابة . فقال له مرحبا بك يا بنى لقد حللت بلادنا على الرحب والسعة وأخذ يتأهل به ويستفسر منه عن صحته وأحواله بكمال اللطف والحب فأجابه ابن الملك بأحسن جواب يمكن أن يصدر من أعقل عاقل . ومن بعد مرور ساعتين نهض مع رفاقه فودعوا الشيخ وسار كل منهم بطريق . وفي صباح اليوم الثانى سار ابن الملك الى الشيخ منفردا فتأهل به الشيخ ورحب وأجلسه الى جانبه ودار بينهما الحديث ولما رأى الشيخ ماهو عليه من العلم والمعرفة والذكاء والفطانة والفصاحه تعجب غاية العجب وأدرك من سيمته ومن هيئته أنه من أولاد الملوك .

وبقى ابن الملك على ذلك المنوال مدة أسبوعين يأتى بيت الشيخ كل يوم ويتحبب اليه ويظهر له كل الميل والرغبة فى خدمته واقتطاف الفوائد من رياض علومه وفى اليوم الاخير التفت اليه الشيخ وقال له أى ولدى أنى أظن أنك معلق آمالك ببنت الملك وراغب في الحصول عليها ولهذا أتيت هذه المدينة . فأجابه كلا يا سيدى إنى لم آت المدينة لهذه الغاية ولكن بعد أن دخلت المدينة تصادف لى فيها وقوع بعض حوادث أوجدت فى الميل والأمل وبعد التفكر في هذا المعنى أكثر من شهر وطدت الامل على سلوك هذا السبيل ورأيت من اللازم فى الأول أن آتى اليك وأستشيرك وأستنصحك وأعمل برأيك وقولك . فسكت الشيخ عند سماع كلامه وأخذ يفكر مطرقا ثم رفع رأسه وقال فليساعدك الله على مرادك وانى فى الواقع أرى على ناصيتك أثر الادراك والدراية وهذا الذى يجعلني أعلق الأمل بنوالك مقصودك لأن كل الذين جاءوا المدينة لهذه الغاية رموا بأنفسهم في بحور الهلاك به غير ترو ولا تأن ولم يشاور أحد منهم أحدا من الناس قط وبالنظر لكونك قد تمسكت قبل المباشرة بالعمل المشاورة وأخذ رأى من هو أكبر منك عمرا وأكثر خبرة وتجربة ستفوز لكن لا يخفاك يابنى أن هذا الذى

تطلبه كثير الصعوبة والسير فى طريقه كثير الخطر فهذه الفتاة تزيد عن الناس عموما فى هذه المدينة وفى غيرها أيضا علما وذكاءً فصنعت طلسما لا يمكن فتحه قط لأنه لا يوجد له طريق غير الصعود على الجبل والصعود من الطرف الآخر مستحيل وغير ممكن وقد وضعت فى هذا الطريق قبل الوصول من الحائط ثلاث عمليات سحرية أولها أنك فى حال ذهابك ترى الطلسم الأول وهو هيكل معمول بادراك وصناعة غريبة فى يده سيف مشهر دائما وحالما يقرب منه الانسان ويريد أن يجتازه يقع السيف بقوة الصناعة على عنقه فيقطعه ويقع رأسه الى أسفل الجبل فجميع الذين جاءوا فى طلب ابنة الملك أضاعوا أروحهم فى هذا السبيل وهذا هو السبب الذى حملنى على أن أقول لك ان إزالة هذا الطلسم من الأمور الصعبة والخطرة .

ولما سمع ابن الملك من الشيخ هذا الكلام أطرق قليلا وهو يفكر ثم رفع رأسه وسأله ألا يوجد وسيلة إذاً فأجابه اعلم يا ولدى أنى عشت كثيرا فى الدنيا ولاقيت حرها وبردها ودرست العلوم قليلها وكثيرها ولكنى لم أدرس علم السحر والعرافة ولهذا لا يقدر عقلى أن يدرك شيئا فى هذا المعنى . ومع أن هذا الكلام قد أوقع ابن الملك باليأس وجرَّ له ضيق الصدر غير أنه تصبر ولم يقطع الأمل وعاد فسأله الشيخ ألا تعلم على من أخذت بنت الملك علم السحر والطلسم ومن هو معلمها الذى علمها اياه فأجابه يستحيل وصولك اليه لأن بنت الملك بعد أن درست علم السحر عليه وأتقنته اتقانا تاما لم يعد يرى قط ولا علم أحد الى أين أرسلته والحاصل اصغ لى واقبل منى واخرج من رأسك هذا الوهم ولا تجر البلاء على نفسك فأظهر ابن الملك الطاعة وشكر الشيخ لحبه اياه ونصيحته له ولكن كرر السؤال عليه قائلا وهل لا تعلم أيضا كيف عمل هذا الطلسم وفى أى زمان عمل . فأجاب الشيخ ان الذى أسمعه أنه لما كان الصعود الى الجبل صعبا وغير ممكن وبالنظر لعدم وجود طريق أيضا من أية جهة كانت حملت الناس على أن يبذلوا غاية ما فى وسعهم لحفر خندق من طرف الجبل وعملت فى داخل الخندق سلالم وحالما يبتدىء الانسان بالصعود عليها يرى هيكلا فى يده سيف وقبل أن يقرب الانسان من الهيكل بعشر درجات ينجذب السيف من يد الهيكل الى عنقه فيقطعه ومن بعد ذاك الهيكل أسد لأنه إذا أمكن الانسان التخلص من سيف الهيكل وتقدم الى حد أن يبقى بينه وبين الأسد خمس درجات يتحول

الأسد ويخرج من فمه ماء فاذا أصابت النقطة الواحدة الرجل قطعته اربا اربا ومن بعد هذا الأسد هيكل أفعي عظيم ينفث النار من فمه فالذي ينجو من السيف والماء لا يقدر أن ينجو من الحريق . فهذا جميع ما أعرفه عن بنت الملك وقصرها والسلام

فسأل ابن الملك الشيخ قائلا وإذا لزم شيء لبنت الملك من المدينة فكيف يأتون به اليها وبأي طريق . فأجاب الشيخ انه يوجد لذلك خادم مخصوص مطلع على ذلك وعارف قاعدة هذا السحر ففي أي وقت لزم لها شيء من خارج قصرها أرسلت ذاك الخادم أحضر لها ما تطلبه . واذا فرض أن الخادم غلط أو أخطأ مرة هلك ونفذ فيه حكم الطلاسم وقد قتل حتي الساعة نحو عشرة أنفار من خدمها ممن زاغوا عن الطريق ونسوا ما أهدتهم اليه .

فحزن ابن الملك عند سماعه كلام الشيخ ونهض من أمامه فودعه وسار الى مكانه يائسا مفكرا .

وعندما وصلت نسرين بوش من حكايتها إلى هذا الحد سكتت ونهضت فأخذت كأسا حمراء ومملوءة بالخمر الأحمر الممزوج بالسكر وتقدمت من بهرام شاه وهي تمايل وتتحلى بحلل البهاء وتتيه بثياب الغنج والدلال فناولته اياه فشربه ثم تبسمت وقالت له كيف يا ترى حكايتي يا زوجي وسلطاني المحبوب . فأظهر لها استحسانه وقال لها في الحقيقة إنها حكاية نادرة بعجائبها وغرائبها منها يتعلم الانسان فضائل شتي ولكنها تستجلب خاطر السامع حتى لا يطيق صبرا عن استماع باقيها فهل يا ترى ان ابن الملك الثالث يبطل سحر بنت الملك وينال وصالها ويبلغ غايته منها . فأعادت نسرين بوش التبسم وقالت الأفضل أن لا أخبرك لأني اذا أخبرتك بذلك تتخلص من الانعطاف والميل الي استماع تتمتها أيمكن للانسان وهو في نصف الحكاية أن يخبر بآخرها . فقال لها إذا يا حبيبتي وساكنة فؤادي أنهي الحكاية وخلصيني من الارتباك والتعلق ثم ضمها إلى صدره وقبلها في خديها وعينيها ورجاها الاسراع في اتمام حكايتها . وبعد أن قابلته بالمثل قالت .

ثم إن ابن الملك عندما فارق الشيخ وعاد الى مكانه صرف مدة وهو يبني في فكره ويخطط طرق الوصول الي غايته والتغلب على من سلبت لبه وقلبه قبل ان يرى جمالها الحقيقي وكان كلما رأى صورتها تتجدد فيه الرغبة والمحبة وتقوى فيه الآمال فيوطد العزم على عدم الرجوع عن غايته ولكنه كان عندما يذهب

الى الجبل ويشاهد جماجم عشاقها الذين أهلكهم عشقهم وغرامهم ولم يقدروا على نوال مرادهم يأسف على نفسه ويفتر عزمه فيقع فى الارتباك والحيرة وتزبد لديه المصاعب والمتاعب فيرى التأنى والامهال والاتكال على مدبر الاحوال من أهم الأشياء فيصبر ويزيد فى البحث والتروي والفحص فيقول فى نفسه لا بد لى من ازالة هذا الطلسم لأخلص الناس من شر هذا البلاء ومن الممكن أن أتوصل الى مفتاح هذا الطلسم الذى لا بد أن تكون إزالته بواسطة المفتاح إذ جعل لكل باب مفتاح وبنت الملك ما أقامت هذا الطلسم حاجزا منيعا يستحيل فتحه بل جعلت فتحه فى الامكان لأنها على جانب من العقل والعلم فارادت أن تعرف الفتى المماثل لها فى الذكاء والحكمة فالذى يرى هذه الطلاسم بعقل وحكمة يراها فى الظاهر صعبة وغير ممكن ازالتها ولكن على ما أرى أنها لا بد أن تكون وضعت واسطة لازالتها من أسهل الوسائط وأهونها وأخفت تلك الوسائط تحت حواجز لا تدرك الا بالفطنة والذكاء الفائقين فهى ولا ريب ترغب فى الزواج ولكنها لا ترغب إلا الزواج بمن يثبت أنه يماثلها علما وذكاء والدليل على أن فتح هذه الطلاسم هو من الأمور السهلة أن الخادم الذى تعينه للدخول والخروج منها متى بينت له الطريق مع جهله وقلة علمه عرفه وصار يدخل ويخرج دون خوف ولا خشية من الموت نعم لا بد لى من الوصول الى الغاية وكشف هذا المعني ورفع الستار عن هذه الخفايا كيف لا وأنا أعتقد أنى وأخوتى بلغنا من العلم والذكاء مالم يبلغه سوانا فى هذا العصر فكيف أعجز عن فتاة مهما ترفع عقلها وعلمها لا تدرك مدارك عقولنا وعلمنا فلا بد من زيادة الفحص ولا بد من التروى والبحث ولا بد من نوال المراد ولو طال الزمان ومرت السنون ولا أقدم على الطلب إلا بعد التحقيق والاستيضاح التام واتخذ الله معينا ومساعدا وعلى هذا صرف ابن الملك مدة غير قصيرة .

ففي ذات يوم نهض وجاء ذيل ذاك الجبل وهو يتمشى ويتفرج حتي وصل من السلم وكان الخادم نازلا الى أسفل السلم فلما رآه قال فى نفسه ألا يمكن ان أقبض على هذا الخادم وأحمله إما بالرضي وإما بالجبر أن يخبرنى بسر هذا الطلسم . ثم فكر قليلا وقال فى نفسه كلا ليس ذلك من الحكمة . وقد يلزم فى هذا المعني الاحتراز من أمرين الأول أنه إذا بلغ الفتاة ذلك تقول انى لا أقبل لان هذا العمل مخالف للشروط المضروبة ومن اللازم أن يكتشف الانسان بدرايته

وفطنته سر هذا الطلسم فيزيله بالقوة من نفسه وعلمه لا بمعرفته من غيره والثاني أن هذا مما يحط من ادراكي لاني اذا كنت لا أقدر أن أفتح الطلسم الذي وضعته فالأجدر بي أن أكون خادما أو بوابا ولا أكون ابن ملك وقد أفرغ أبي الخزائن على تعليمي وتثقيفي وفيما كان يفتكر في هذا المعنى كان يراقب حركات الخادم حين نزوله ويدقق كعادته في كل حركاته فرآه يدوس على الدرجة الواحدة من ذاك السلم ويترك الثانية فأكثر التدقيق في ذلك فرآه يتحذر كل التحذير من أن يلحق رجله بالدرجة المتروكة فقال ابن الملك في نفسه ها قد وقفت على بعض السر اذا لم يكن على كله .

ثم انسحب الى زاوية واختفى فيها وبقي يراقب أرجل الخادم ليرى في النهاية هل يدوس على الدرجة أم لا اذ كان من الواجب أن يعرف ما هي الدرجة التي يدوس عليها وما هي الدرجة التي يتركها ولما وصل الخادم من الأسفل كان دائسا على الدرجة الثانية فقفز الى الارض وترك الاولى فلم يدسها . وحينئذ فهم ابن الملك أنه لا يجب أن يداس على الدرجة الاولى كل هذا والخادم لم يره ولا انتبه اليه قط لأنه كان ينزل على السلم بتمهل وأعينه لا تفارق درجاته خوفا من الغلط وبعد أن صار على الارض سار وغاب عن الأعين فانسحب ابن الملك من مكانه وجاء الى الجهة التي ينتهي اليها أسفل السلم وأخذ في أن يفحص الدرجة الاولى ويدقق في وضعها وتركيبها فوجد أنها مسمرة بمسامير رفيعة جدا تكاد لا تظهر ولا يمكن أن يراها الا الناقد البصير ثم نظر في الدرجة الثانية فلم ير أثرا لدسار أو لمسمار وحينئذ أدرك سر المسئلة فسر سرورا لا مزيد عليه ورجع في الحال الى مسكنه وهو لا يدري ماذا يعمل من الفرح بل كان يقول في نفسه لقد وجدت السر وفهمت السحر والطلسم على أي طريقة وضعا كل ذلك هو عمل الحكمة والعقل فقد نلت مرادي وخلصت الناس من هذا البلاء .

وفي اليوم الثاني لبس الألبسة الجميلة وسار رأسا الى قصر الملك وقد دخل عليه وبعد أن أدى واجب السلام والاحترام أخبره بأنه جاء من بلاد بعيدة وأنه يريد أن يفتح السحر والطلسم اللذين وضعتهما بنته .

فلما رأى الملك هيئته وشاهد فيه آثار النجابة والذكاء وقعت محبته في قلبه حالا فرحب به وأجلسه الى جانبه بالاعزاز والاكرام وغزير الالتفات ثم قال له اعلم ياولدي أني لا أقبل منك مطلقا ان تتمسك بمثل هذا الامر لأني حالما رأيتك

أحببتك ولذلك لا أطيق أن أراك واقعا فى حضرة الهلاك فالله يجازى ابنتى فأنى
وان كنت في البداية رضيت عن عملها لكن ما كنت أعلم بأنها ستكون داعيا
لقتل الكثيرين من عباد الله وترانى الآن نادما على موافقتها ولكن ما الفائدة
لم يبق باليد حيلة والآن تفرغ عن هذا الطلب وأبعد عنك هذا الفكر وأعرض
عنه فأنا اتخذك ابنا لى ووريثا للملكي فهو أفضل لك من الموت والهلاك وبعد
أن فرغ الملك من هذه النصيحة انسكب الدمع من عينيه . فتأثر ابن الملك من
كرام الملك وحسن طويته وأظهر له الطاعة والتأدب وأفاض فى الشكر له
والامتنان منه والدعاء له والثناء عليه ثم قال له نعم ياسيدى الواقع أن الحق وكل
الحكمة فى كلامك وتأثرك على هلاك الكثير من الشبان هو فى محله لكن
لا يلزم أن تنظر إلى الجميع بعين واحدة اذ لا يمكن أن يتساوى الناس عقلا وعلما
فليس الكل مثل الواحد ولا الواحد مثل الثاني .

فأنا أيضا لما نظرت أنه هلك قبلي العدد الغفير من الفتيان عرفت أنهم ألقوا
بأنفسهم فى وهدة الهلاك عن طيش وخفة وقلة ترو مع أن من ينظر فى عمل دون
تأن ولا ترو وفحص وتدقيق لا يحصل على النجاح أما أنا فقد أتيت هذه المدينة
منذ شهرين تقريبا وشاهدت هذه الاحوال بعين الناقد البصير فاستشرت ثم فحصت
وبحثت وما أتيت بين يديك الا وأنا على يقين من اكتشاف السر .

فلما سمع الملك كلام ابن الملك ورأى فيه الفصاحة والذكاء وتبين له أنه ليس
كالشبان الأوائل الذين طلبوا اليه بنته بل ظهر لديه أنه أرفعهم درجة وأوسعهم
عقلا وأثبتهم حكمة ومع ذلك لم يوافقه على طلبه لأن قلبه كان يختلج من الحب
والميل اليه . فأعاد ابن الملك الالتماس والرجاء وقال له لا يشغل لك بال ولا تخف
على وان شاء الله بعنايتك وبركة دعاك أفتح الطلسم وأخلص الناس من هذه البلية
فلما رأى الملك اصرار الفتى تحير ولم ير بدا من إجابة طلبه فقال له لقد رخصت
لك يا ابنى فى ذلك لكن يابنى أرجوك أن تتمعن وتدقق فان الذين جاءوا قبلك
كانوا مغرورين بعلمهم ومعرفتهم فأملوا فتح هذا الطلسم الصعب وتكلموا
كما تكلمت مع أنى لم أكن أشاهد فيهم المعرفة والنجابة التى أشاهدها فيك فلاقوا
حتفهم فقال ابن الملك كلا ياسيدي لا يأخذك الخوف والوجل على فقد اكتشفت
السر وعرفت ماهنا لك لكن لما كان قد كتب بالاربعة شروط أن فتح السر
يكون فى يوم مخصوص فأرجوك أن تتكرم على بمعرفة هذا اليوم المخصوص .

فأجابه الملك ان اليوم المخصص لذلك هو يوم الاربعاء . وحيث أن هذا اليوم هو الاربعاء فافتكر فى ترك هذا الطمع من الآن ليوم الأربعاء الآتى وراجع ذاتك جيدا . وحينئذ افعل ما يخطر لك وما تراه مناسبا فقال ابن الملك ما دام هذا اليوم هو اليوم المخصوص فأنا سأتمم ما أريده فى هذا النهار وإن شاء الله لا يأتى المساء إلا وقد أنهيت المسألة وعدت فائزا . ولما رأى الملك أنه لا يزال مصرا على اجراء قصده وراغبا فى العجلة ولا يريد أن يمر ذاك النهار دون أن يحصل على مراده أو يلحق بغيره ممن سبقه انقاد لارادته وقال له فليعنك الله . وحينئذ نهض ابن الملك وقبل يد الملك وقال له أرجوك أن تزودنى بالدعاء والرضي والصلاة فضاق صبر الملك وانهمل الدمع من عينيه وأحدق فى وجهه حزينا عليه والحب ينمو فى فؤاده ويزداد .

وخرج ابن الملك من أمام الملك وتهيأ وتحضر بالأسلحة الكاملة وسار نحو الجبل . وكذلك الملك والوزراء ركبوا خيولهم وساروا الى جهة الجبل ليروا مايتم على ابن الملك وهم لا يفترون من الدعاء والصلاة والطلب الى الله لنجاته وخلاصه ولما رأى أصحاب ابن الملك ومعارفه الذين صحبوه فى مدة وجوده فى المدينة ماعزم عليه اجتمعوا حوله والتمسوا اليه بحرارة ودموع سخية أن يعدل عن عزمه ويترك الطمع ولا يرجو نوال المحال وعددوا له الصعوبات والاخطار وأصروا كل الاصرار على ممانعته فلم يصغ ولم يسمع لهم بل قال لهم انى أشكركم على غيرتكم واخلاصكم والانسان العاقل لا يباشر عملاً قبل الفحص والتروى ولما صار قريبا من الجبل وجد الاهالى عموماً كبارا وصغارا نساء ورجالا قد خرجوا للفرجة وكلهم يتأسفون على ابن الملك ويدعون على بنت الملك ويسألون الله مجازاتها وقد ارتفع لهم جلبة وضجة فى ذاك المكان حتي خيل أن يوم القيامه قد دنا وما منهم إلامن ينادي الله أن يحفظ ابن الملك وينظر الى شبابه ويخلصه من الموت .

أما ابن الملك فانه عندما رأى اجتماع ذلك الجمهور من الخلق وكلهم ميالون اليه يتمنون خلاصه دبت فيه الغيرة والحماسة وتقدم فى طريق الجبل كالأسد الكاسر والسيف فى يده وكان لا يسمع الا أصوات الدعاء والافواه جميعها تلفظ هذه العبارات (الله يصون هذا الشاب من الهلاك وينتقم من بنت الملك الساحرة الفاجرة ومن الملك الظالم العاتى) وما من واحد الا منديله بيده يبكى ويمسح

دموعه وكان الملك أيضا يسير خلف ابن الملك متأسفا عليه وعلى صباه وذكائه وفطنته . وحالما دنا ابن الملك من الجبل وقف متفكرا ونظر بدقة فى الجهات ثم بدأ بالصلاة فقال ياألله أنت حاضر وناظر انى رجل غريب الديار وقد تصديت لازالة هذه الحيلة التى يتوهمون أنها سحر لخلاص العباد من الهلاك فساعدنى اللهم ولا تتركنى لأيدى الفناء والموت ولا تدمع عين أبى وأخوى حسرة على ولا تدع هذه الفتاة واسطة لتفريقنا فراقا أبديا فاستجب لى اللهم أنت السميع المجيب . وبقى نحوا من نصف ساعة يسكب الدموع وقد جاء فى خاطره أبوه وأخواه فأهاجوا شوقه ولـكنه سلم الأمر لله واتكل عليه وتقدم حتى قرب من السلم فذكر اسم الله تعالى ثم وضع رجله على الدرجة الأولى وجرب بأن ضغط عليها قليلا وأعاد أذنه فسمع من تحتها الأرض صوت سلك رفيع يكاد لا يسمع فرفع رجله عنها فى الحال ووضعها على الدرجة الثانيـة وضغط قليلا فلم يسمع شيئا فزاد الضغط واذا بالدرجة ثابتة فصعد عليها ومنها الى الرابعة ومن الرابعة الى السادسة ومن السادسة الى الثامنة وصار يترك واحدة ويصعد على الثانية ولـكن لا يصعد مالم يجرب برجله كما فعل عند الدرجة الاولى حتى وصل الى الدرجة الثمانين فنظر من هناك الهيكل الذى قيل له عنه قبلا وهناك جرب بأن ضغط على الدرجة الثانية والثمانين قليلا فرأى الهيكل بدأ يتحرك فرفع رجله فى الحال فوقفت حركة الهيكل ثم وضع رجله على الدرجة الثالثة والثمانين فلم يتحرك بل بقى ثابتا ورأى الدرجة ثابتة فصعد عليها ولم يدس على الرابعة والثمانين والخامسة والثمانين بل على السادسة والثمانين ولما لم يبق بينه وبين الهيكل الا أربع درجات فقط ثم وقف ومن بعد أن تنفس الراحة جيدا استل سيفه وقد تأكـد أنه أصبح إذا مد يده تصل اليه وضرب به على يده الحاملة السيف فقطعها ووقع السيف وحينئذ مسك ابن الملك الهيكل وكسره قطعا قطعا واذا به سمع عدة أصوات تحت الارض وبعد لحظة انقطعت تلك الاصوات . فلحق به من الفرح ماحمله على أن ينزل الى الملك ومن معه ليبشرهم بذلك .

وكان الملك والمتفرجون عندما صعد ابن الملك على درج الجبـل يبكون ويتأسفون على شبابه وفيما هم على ذلك رأوه من بعيد نازلا فاستدلوا من نزوله بأنه فتح الطلسم فتبدل كدرهم بفرح وعلا الصياح من كل ناحية بألفاظ الاستحسان والامتنان . الا أن ابن الملك بينما كان نازلا رأوه قد رجع ثانيا

وذهب إلى طرف الجبل وذلك لأنه طلب النزول فلما وصل إلى نصف الطريق افتكر قائلا فى نفسه لا يناسب الآن النزول قبل فتح الطلاسم وإزالتها . كل شيء يلزمه دقة وتأنى فأحسن شيء أن أرجع إلى الملك بعد أن أتمم العمل وأزيل الموانع كلها أي الطلاسم التي وضعتها عثرة فى الطريق ولذلك رجع إلى طرف الجبل ولما وصل إلى مكان الهيكل رأى وامتحن الدرجات فوجدها جميعا مدسرة وكلما وضع رجله على درجة سمع من تحتها صوت الأسلاك وحينئذ غاص فى التفكير وقال لو كنت نزلت إلى الأسفل ولم أدقق جيداً لكنت أندم فيما بعد مع أن هذا الأمر أكثر إشكالا . ومن بعد أن فكر كثيرا رأى عند مكان الهيكل ثقبين يشبهان أثقاب المفاتيح وبالقرب من الثقبين عند رجلى الهيكل مفتاحين أيضا فأخذ على الفور مفتاحا وأدخله فى أحد الثقبين وأداره فلم يدر فأخرجه ووضعه فى الثقب الآخر وأداره فلما رد سمع له صوت غريب وبقي يديره إلى أن وقف فأخرجه وتقدم من الدرجات ولمس برجله واحدة فسمع صوتا فتركها وداس التى فوقها فرآها ثابتة ففرح غاية الفرح وصعد على السلم يدوس على الواحدة ويترك الثانية حتي قرب من الأسد ففعل به كما فعل بالهيكل وقطعه قطعا قطعا ثم أراد أيضا أن يمتحن درجات السلم الباقية فوجدها غير ثابتة كالتي قبلها فعاد وأخذ المفتاح الثانى ووضعه فى الثقب الثانى وأداره إلى أن وقف وعاد الى فوق واذا بدرجات السلم جميعها ثابتة لا تتحرك فزاد فرحه وكاد يطير من الفرح والسرور وبقى فى صعوده حتى رأس الجبل وعندما نظر الحائط المصنوع فى أعلاه تعجب من جسامته واحكامه ثم أخذ يطوف حوله مفتشا على بابه فلم يهتد فأخذته الحيرة والارتباك ثم عاد أيضا فطاف حوله ثانيا وثالثا دون جدوى ولما أعياه الامر وعظم عليه جلس ليستريح برهة متكئا على الحائط غائصا فى بحار التأملات

وكان الملك والجماعة المنتظرون فى الاسفل يتعجبون مما رأوا من ابن الملك فانهم بعد أن رأوه آتيا اليهم عاد فرجع من نصف الطريق وكانوا يتساءلون عن سبب ذلك وجل ما أمكنهم أن يستنتجوه فى هذا المعنى أنه قدر أن يصعد الى أعلى السلم ولكنه لم يقدر أن يتغلب على الطلاسم ويزيلها ولذلك قصد النزول وتركها ولكنه عاد فافتكر أن يعود ثانية اليها ويعالج فتحها وقد خشى أن يعود بالخيبة والفشل .

أما ابن الملك فانه جلس يطلب الراحة ولكنه كان يتفكر كثيرا وعينه تكاد تخترق الحائط وفيما هو على ذلك رأى ورقة ملصقة بالحائط من لون الحائط وشكله . فطار قلبه شعاعا وقال هاقد كشف السر ونهض فى الحال فاقتلع الورقة واذا به يرى تحتها ثقبا وفى داخل الثقب سلك من النحاس فمسكه بأصابعه وسحبه فامتد معه وحينئذ قبض عليه جيدا وشده بكل قوته واذا به يسمع قرقعة كأصوات وقوع أحجار ثم فتح باب فى الحائط . ولما رأى الباب وقد فتح كاد يجن ولم يعد يعلم ماذا يجب أن يعمل فخر الى الأرض ساجداً شاكراً لله تعالى الذى وفقه وسهل له كل الموانع فأزالها بعنايته والهامه حتي نال كل ماهو طالب . وكانت بنت الملك في قصرها فسمعت صوت فتح الباب فخفق قلبها وقالت ماذا جرى هل أبطلت طلاسمى ونهضت من مكانها ونظرت من النافذة فوجدت الباب مفتوحا وحينئذ أرسلت أحد خدمها لابن الملك وأمرته أن يسلم عليه ويثنى على مهارته وذكائه ويخبره أنه لم يبق عليه الا الجواب علي الاسئلة الاربعة وذلك يكون فى المدينة فليرجع هو الي المدينة وهى فى الغد تأتى اليها أمام أبيها وتسأله بحضوره فجاءه الخادم وعرض له كل ما سمعه من بنت الملك فأجاب وعاد فى الحال وقلبه مملوء من الفرح والاستبشار ونزل عن الجبل الى الاسفل فلما رآه الملك والجماعة قد عاد ثانية تيقنوا نجاحه ففرحوا به غاية الفرح وانتظروا وصوله فأسرعوا لملاقاته وفي أولهم الملك فأخذه الى صدره وقبله فى جبينه وسأله عن حاله فدعاله بالبقاء وطول العمر والسعادة وأخبره بانتصاره التام حتي فتح الباب فعاد الملك وضمه ثانيا وقال له فى الحقيقة يليق بك أن تكون فى درجة الملوك لا فى درجة العوام لانه لا يوجد لك ثان فى هذا الزمان . فقد خلصت الناس من بلاء هذه الطلاسم وأنزلت عن ظهري حملا ثقيلا وان شاء الله فى الغد يسهل عليك مجاوبتها على أسئلتها وينتهى الحال وتزف عليها فأفتخر بك وبمصاهرتك على ملوك الارض أجمعين . ثم ان الملك أراد أن يعرف كيف فك الطلسم فتقدم وابن الملك الى جهة سلم الجبل حتي قربا من السلم وحينئذ قال ابن الملك ان هذا الذى يسمونه سحرا كله استنباط العقل وهذه المبالغات التى أوهمت الناس وضيعت الشيطان زاعمين أن الملكة سحارة هو كذب فليس للسحر ولا للسحرة أثر فى الدنيا . فاذا أمرت دقق النظر فى هذا الذى زعمتم أنه سحر . ثم تقدم ابن الملك والملك الى جانبه وأراه الدسارات المضروبة فى الدرجة الاولي فسأله لماذا وضعت هذه الدسارات

فوضع ابن الملك رجله على الدرجة وضغط عليها ضغطا ضعيفا وإذا به سمع صوت رنة أسلاك من تحتها فتحير وقال من أين جاء هذا الصوت فأجابه ابن الملك إن على الدرجة الفلانية من هذا السلم الهيكل وفى يده السيف وتحت رجلى ذاك الهيكل قد ربط سلكان فهما يتصلان بالدرج حتى هذه الدرجة وقد ربط بأحد السلكين طرف سلك آخر وأطرافهما تخرج من هذه الدرجة كالمسامير فعندما يغيب هذان السلكان يظهر غيرهما مرتبطا بها تعبىء أسفل الدرجات باحكام ودقة وحسن صنعته فاذا داس وأمعن النظر سمع صوتها كما سمعت وإذا تحركت هذه الأسلاك اتصلت حركتها بالهيكل فيتحرك على حسب الصنعة الهندسية المصنوع بها ويصدر منه ما يحرك سيفه الطويل حركة قوية عندما يقرب الصاعد منه ويصبح تحت حكم السيف وهكذا الأسد فان الأسلاك متصلة من الهيكل إلى مكان وجوده باحكام ودقة غريبة لكن قد جعل لكل ذلك تدبير فالذى لا يدوس على الدرجة المربوط بأسفلها السلك يأمن من غدر الهيكل و كذلك يوجد تحت رجلي الهيكل ثقبان ومفتاحان لأجل إبطال حركة الأسد وتمكين باقى درجات السلم فلولم أستعمل العقل والحكمة وأفحص فى كل ما أراه ولا أتى حركة عن طيش وجهل لاصابني ما أصاب غيرى ولكني استعملت حكمتي فساعدتنى العناية . وكذلك أيضا عند ما وصلت إلي الحائط فقد فتحت بابه بكل سهولة وأزلت كل الموانع .

وكان الملك يصغى وهو متحير مندهش من ذكاء ابن الملك وفرط حكمته ودرايته فمدحه على عمله وأظهر له كل ممنونيته والتفاته فقبل ابن الملك يديه وشكره بدوره وأبدى لديه الاحترام والاعتبار .

أما الأهالى والأعيان والامراء فكانوا يطوقون ابن الملك ويطيرون من الفرح به ويدعون له بالبقاء وطول العمر على قصم هذا الأمر وإزالة هذا الطلسم الذى كانوا يظنونه سحرا ويخافون على عباد الله منه وقد انتشر ذلك بين الجميع حتى كان مدحه دائرا على شفاه الجميع ومحبته تدخل فى قلب الكبير والصغير وقد وصل بهم الأمر أن قالوا لبعضهم بعضا إذا كان الملك لا يجيب طلبه فى الحال ويزف ابنته عليه أو اذا امتنعت الابنة عن قبوله نهضنا نحن فأرغمنا الملك وبنته أو قلعناه عن كرسي المملكة وأجلسنا هذا الغريب لان مثله يليق بأن يسوس العباد ويحكم البلاد . ومن بعد ذلك عاد الجميع إلى المدينة وتفرق كل إنسان إلى

بيتة وكذلك الملك سار إلى قصره وقد أخذ معه ابن الملك فأحله محل الاحترام والاعتبار ثم قال له بالحقيقة ياولدى انك وحيد عصرك فى العقل والدراية لكن أخاف أن يبقي بالأمر صعوبته وهو أنى أخاف أنك تعجز عن اتمام الشرط الرابع وهو الاجابة على الأربع أسئلة المزمعة أن تسألها لك فلربما كان فيها صعوبة أكثر من إزالة الموانع التي كنا نظنها من قبيل السحر والطلسم وبالطبع إن أسئلة ابنتي لاتكون سهلة بل صعبة قد هيأتها واستعدت لها من زمان طويل مع أنك اذا كنت لا تعلمها لا تقدر أن تجيب عليها وإذا كنت تعلمها فربما لا تخطر على ذهنك ومتى تعسرت عليك الاجابة فبالطبع تكون ما أتممت الشروط فلا تقبلك وهذا الذى أخشاه وأسأل الله أن يساعدك عليه ويقويك عليها حتى ترغم أنفها ولا يضيع تفكيرك وتعبك الذي تعبته عبثا وأخسر مصاهرتك بعد أن وقع حبك فى قلبي موقعا عظيما . فلما سمع ابن الملك كلام الملك فكر قليلا ومع أنه رأى أن البحث فى السؤال والجواب عليه صعب قال فى نفسه لقد أصاب الملك فقد يمكن أن تسألنى أسئلة لا أعرف لها جوابا فالانسان مهما كثر علمه وقاض فهمه لا يقدر أن يحرز علم العالم أجمع لكنه قال للملك لا أظن ياسيدى أنى أعجز عن اجابة سؤالاتها ومع ذلك فالله المعين على كل حال .

ولما وصلت نسرين بوش الى هذا الحد من الحكاية ورأت بهرام شاه مأخوذا بها مشتاقا لنهايتها سكتت فطار صوابه وعجب من سكوتها ولذلك قال لها لماذا ياحبيبتى ونور عينى تتركيني فى ولع وشوق وتسكتين عند قربك من النتيجة وأنا منتظر لأرى ماذا جري لابن الملك الثالث هل يجيب بنت الملك على أسئلتها أم لا يجيب وماهي يا ترى أسئلتها . وهل أن ابن الملك بعد هذه المشقة وبعد ملاقاة مالاقي من العناء والتعب ينال وصال بنت الملك أو يرجع بخفي حنين .

فتبسمت نسرين بوش من كلامه وقالت اعلم يا سيدى وحبيبي ومهجة فؤادى وروحى المحبوب أن ابن الملك بعد أزال الطلسم بقى ينتظر اتمام العمل بما تعهده به وهو الاجابة على أسئلة بنت الملك فى اليوم الثانى . فصرف تلك الليلة فى قصر الملك وقد تناول الطعام معه وتسامر وتصافيا ونام هناك حتى الصباح وكانت بنت الملك قد ضاق صدرها من تبطيل عملها وكشف أستار طلسمها وقد حسدت طالبها لتأكدها أنه لا بد أن يكون فوقها في الحكمة والدراية ولكن ما الفائدة وقد ربطت نفسها بذلك وعاهدت طلابها عليه فلا يسعها المخالفة وبقي لديها أمل فى أن

تفوت طالبها بتعجيزه عن الجواب . وحالما أشرقت الشمس وفرشت أشعتها الذهبية على قمة الجبل خرجت من قصرها وسارت تواً الى المدينة .

ولما كانت منذ سنة تقريبا لم تخرج من قصرها ولا رأتها عين وقد بلغ الأهالى أنها ستأتى من قصرها فى ذاك الصباح الى قصر أبيها بكر الاهالي الى الخروج من بيوتهم واجتمعوا على الطرقات من الجبل الى قصر الملك صفوفا صفوفا حتي غصت بهم الامكنة وضاقت الفسحات وامتلأت السطوح والنوافذ .

ولما نزلت من الجبل محاطة بجواريها وخدمها سارت أمامها فرقة من الجند لتفتح لها طريقا ومع ذلك كان الاهالى لشدة اشتياقهم اليها يتزاحمون ويتراموں فوق بعضهم البعض ليمتعوا أنظارهم برؤيتها البديعة . وما برحت حتي جاءت قصر أبيها فدخلت مقر الحريم واذ كان الملك منذ مدة طويلة لم ير ابنته دخل دائرة الحريم فرآها وفرح بها فرحا لا يوصف وقبلها فى جبينها ثم قال لها أى بنتي العزيزة لقد اكتشف هذا الشاب الغريب الذي جاء في طلبك معنى الطلسم الذى كان باعثا لظلم العباد و قتل النفوس وانى عجبت كثيرا من ذكائه وحكمته فهو أعقل فتي رأيته ورآه غيرى فهذا هو الشاب الذى يليق أن يكون لى صهراً وتكونين له عرسا . فقالت ان نظرك فى محله يا سيدى فلو لم يكن فطنا ذكيا لما قدر أن يكتشف سر عمل خفي يصعب على أعظم الناس عقلا كشفه ولكن لا أشهد وأعترف بعقله وذكائه الا اذا أتم الشرط الرابع حق القيام وأجاب كما يجب أن يجيب ليظهر لنا فضله فضاق صدر الملك من كلامها وقال لها

ماذا يكون الشرط الرابع فلا أظنه يصعب عليه ولكن الاحسن أن لا نضع العقبات فى سبيل اقترانك به فهو لائق بك وقد أحببته كثيرا فقالت له كل شيء يلزمه امتحان اذا كان العمل يتم بدون تجربة يعقبه ندامة فشرطى الرابع أن أسأله عن أربعة أشياء فاذا أجاب الجواب الكافى فلا يبقى لي كلام بعد ذلك ولا يحق لى اعتراض عليه مطلقا بل أقبل به ويكون هو قد أقام بعمله وأنا قمت بتعهدي وتمت ارادة الله واذا لم يجب وعجز عن تأدية الجواب فليرجع من حيث أتى لان ابطاله طلسمى لا يعجبني ولا يكفيني . حينئذ ارتبك الملك فى أمره وبقى حائرا .

ومن بعد أن مرّ ذاك اليوم وتلك الليلة على هذه الصورة خرج السلطان عند الصباح من محل الحريم وقصد ردهة الاجتماع ودعا بالوكلاء والوزراء وأركان .

الدولة وأعيان الامة فحضروا وانتظم المجلس بكمال الابهة والاجلال وكانوا جميعهم متألمين ومتأثرين من عمل بنت الملك وقد كرهوا أعمالها حتي تمنوا لها القتل إذا تغلبت على ابن الملك ولم تختاره زوجا لها .

أما بنت الملك فخرجت من مقصورتها وتقدمت تختال وتمايل كغصن البان متباهية مفتخرة بسلطان جمالها الفتان وبقيت تتقدم شيئا فشيئا حتي وصلت من تحت أبيها فجلست إلي جانبه . ولما رأى المجلس والحضور حسن وجمال ملكتهم تاهت عقولهم وخفقت قلوبهم وتغيرت من عقولهم تلك الأفكار التي كانوا يفكرون بها وما منهم إلا من كان يدعو لها بطول العمر ويتمنى أن تبقي جالسة أمامه طول حياته . وبعد أن استقر بها المقام سألت عن الفتي الذى جاء فى طلبها وفتح الطلسم .

فقالوا لها انه فى المكان الذى عين له . فأمرت باحضاره فأرسل الملك أحد وزرائه فسار اليه وبلغه أمر الملك فنهض وجاء نحو المجلس وهو لابس أبهى الملابس وأفخرها . وحينئذ نهضت بنت الملك ودخلت غرفة ثانية فسأل الملك عن سبب ذلك فأجابته من اللازم أن أبقي أنا مكان وأنت وضيفك فى مكان آخر فأرسل اليه بأسئلتي مع رسول فيبعث لى بأجوبتها .

ولما دخل ابن الملك المجلس بكمال الاجلال والوقار نهض جميع من فيه وأبدوا له علامات الاعتبار وألفاظ الاكرام فشكرهم بدوره ودعا للملك ولدولته بالنصر وطول العمر ثم ان الملك دعاه للجلوس في مكان مرتفع عن مكان الوزراء فاجتازهم وجلس فيه وبعد ذلك جيء بالشراب وشرب كل من كان حاضرا فى ذلك المكان وبعد الشراب مدت موائد الطعام وعليها من أصنافه أشكال وألوان فتناولوا الطعام بالفرح والانبساط وعاد كل إنسان الى مكانه منتظرين أسئلة الصبية .

ولما رأت بنت الملك أن الوقت أزف وانتهت فروض الاكرام أخذت من أذنيها حبتين من اللؤلؤ المتزينة به فدفعتهما الى جاريتها وقالت لها ادفعى هاتين للضيف واتيني منه بالجواب عن ذلك .

فأخذت الجارية اللؤلؤتين ودخلت مجلس الملك وسلمتهما لابن الملك بعد أن وقفت أمامه وأبدت رسوم الدعاء والتبجيل وسألته التنازل بالافادة والجواب عنهما الى سيدتها لانها بالانتظار .

واذ ذاك أخذ ابن الملك اللؤلؤتين من الجارية وأطرق يفكر قليلا وأما الحاضرون فقد تحيروا فى نفوسهم قائلين ما هـذا السؤال الخفي الرمزي وماذا يا ترى يكون معناه ولم يقدر أحد منهم أن يفهم له معنى ولا يعلم قصدا ومالوا جميعهم بأنظارهم لابن الملك ينتظرون ماذا يكون منه وبماذا يجيب عليه . وبعد أن فكر ابن الملك قليلا التفت الى الملك وسأله أن يأمر باحضار عدد من اللؤلؤ فأمر الملك فجىء فى الحال بعلبة صغيرة ضمنها نحو ستين أو سبعين لؤلؤة فاختار ابن الملك منها ثلاثا فقط فضمها الى المرسل من بنت الملك ودفع الجميع للجاريه وقال لها هاك الجواب فأوصليه اليها .

فأخذت الجارية اللاّلىء الخمسة وعادت بها إلى سيدتها إلا أن الملك وسائر المجلس غاصوا بالأفكار وتأولوا ذلك لمعان كثيرة بعيدة عن القصدلم يقدروا أن يفهموا منها السر المقصود .

وعندما أوصلت الجارية اللؤلؤ الى سيدتها وقالت لها هذا هو الجواب تبسمت الفتاة عند وقوفها عليه وسكتت برهة . ثم أمرت فجىء لها بميزان فوزنت الخمس لؤلؤات كل واحدة لوحدها فوجدتها كلها بوزن واحد لاتزيد الواحدة عن الثانية ثقل شعرة . وحينئذ أخرجت عقدها من عنقها فرفعت ماسة واحدة وضعتها فى هاون وسحقتها حتي نعمت ثم وضعت فوق المسحوق سكرا ناعما مزجته به مزجا كاملا وأرسلته الي ابن الملك . فأخذ ابن الملك الماس والسكر وبعد الامعان قليلا أمر باحضار قدح من اللبن فأتوه به فوضع اللبن فوق السكر والماس فى قدح واحد وأرسل القدح لبنت الملك فلم تنطق الفتاة بكلمة ولكنها أخرجت خاتمها من أصبعها ودفعته للجارية وقالت لها خذي هذا وأتيني بجوابه

فأخذته الى ابن الملك ودفعته . فأخذ الخاتم وبعد أن نظر فيه برهة أدخله فى أصبعه فجاء كأنه مصاغ له فتركه فيـه وأخرج منه ياقوتة حمراء سلمها للجارية وقال لها خذى هـذا هو الجواب فعادت الجارية بالياقوتة لسيدتها . أما الملك والوزراء والجارية والحاضرون جميعا فلم يفهموا شيئا مما كان يجرى بل كانوا مندهشين مما رأوه وشاهدوه .

وعادت الجارية الى بنت الملك وأخبرتها بما عمل ابن الملك ودفعت اليهـا الياقوتة التى أعطاها إياها فتناولتها ونظرت فيها قليلا ثم أخذت يواقيت العقد الذى فى عنقها وأخرجت ياقوتة من بينها بقدر ولون الياقوتة التي أرسلها اليهـا

ووزنها لا يمكن أن تفرق الواحدة عن الثانيه فسلمت الياقوتتين للجاريه لتوصلهما الى ابن الملك فرجعت اليه وأعطته اياهما فأخذهما وتأمل فيهما برهه ولما لم يقدر ان يفرق بينهما ولا ان يعرف انها ياقوتته وانها ياقوتتها طلب فى الحال خرزة زرقاء قرنها إلى الياقوتتين وأرسلها جميعا إلى بنت الملك وبعد أن أخذتها أعادت ياقوتتها إلى عقدها وضمت الخرزة اليها ونهضت تمايل وتتهادى وتعجب بجمالها الذى ميزها الله به عن أبناء جنسها حتى دخلت مجلس أبيها فأنير المكان من بهاءها وجمالها ونهض الجميع إجلالا لها حتى جلست إلى جانب أبيها وما من أحد إلا وكان يختلس النظر اليها وكأنه مغرم بها من زمان .

أما الفتاة فانها بعد أن دارت بنظرها على الجميع وصلت إلى ابن الملك ووقعت عينها عليه وقد رأته بديع الجمال نادر المثال فدار فى فؤادها دولاب الهوى فى الحال واستأثرها وأنزلها عن سلطان مجدها إلى حضيض الذل والانكسار وشعرت في داخلها بشىء لم تكن تعرف له تأثيرا قبل تلك النظرة .

ثم انها قالت لأبيها بحضور الوزراء والوكلاء هل ظهر لك يا سيدي نتيجة رأيى وموافقتك عليه بأن كل شيء فى هذه الدنيا كليا كان أو جزئيا يحتاج إلى الامتحان . ولو لم يكن الامتحان فى الدنيا لما عرف الخير من الشر . ولو لم أدقق أنا وأتأنى وأصنع وسيلة الامتحان الصادرة عن ذكاء العقل وقد ظنه الجميع سحرا أى لو لم أضع طريق الامتحان بل قبلت أن أتزوج بفتى جاهل لا معرفة ولا آداب عنده لصرفت كل حياتى بالهم والغم والحزن ومن أين كنت أتوصل للزواج بشاب جمعت فيه كل الصفات الحسنة فهذا هو المطلوب وهذا الذى يستحق أن يكون صهرا للملك وللملكة فيما بعد على البلاد . اذ أنه فضلا عن ذكائه وعلمه فهو ابن ملك .

وعندما سمع ابن الملك كلام الفتاة لم يجب بشىء بل أطرق إلى الأرض خجلا وحياء لكنه كان يتعجب كيف عرفت أنه ابن ملك مع أنه لم يقل ذلك أمام أحد وكذلك الملك والحضار فانهم بعد أن سمعوا كلام بنت الملك بقيوا صامتين متفكرين في أمرها ومتيقنين أنها بعلمها وعملها حصلت على زوج لا يمكن أن تحصل عليه لو تركت طريق الامتحان الذى اتخذته

ثم ان السلطان دار بوجهه إلى بنته وقال لها أصحيح ما تقولين من أنه ابن ملك . فأجابت الفتاة نعم يا سيدى أنه ابن ملك ولا ريب ألم تدرك ذلك من علمه

وسمته وحركته وعظمة نفسه كان كل ما يبدو منه يدل على أنه ابن أصل شريف وملك عظيم .

وإذ ذاك التفت الملك إلى ابن الملك فوجده مطرقا باسما والخجل والحياء والعرق يصبب من جسمه . فسأله أي ولدي العزيز لا بد أن تكون بنتي صادقة في كلامها فأخبرني من أي ذات علية خرجت ومن أي صلب مقدس أتيت ومن هو ذاك الأب السعيد الذي أوجد مثلك في هذه الدنيا . حينئذ رأى ابن الملك أن من اللازم أن يخبره بأبيه وأصله إذ لم يبق مانع يدعوه للتستر ففتح فاه ودعا للملك بالبقاء وطول العمر ومدح منه ومن رجال دولته ورعيته وبنته وشكر الله الذي أوصله اليهم اتماما لسعده وحسن حظه وفي الأخير قال نعم يا سيدي إن الملكة صادقة في كلامها وقد حملها ذكاؤها على اكتشاف حقيقة أمري فأنا ثالث أولاد ملك سرنديب ونحن ثلاثة أولاد قد صرف سيدي والدنا معظم همه وعنايته في تعليمنا وتثقيفنا وتهذيبنا وتأديبنا حتى أدرك غايته وخرجنا بعونه تعالى على جانب من الخبرة والعلم ومع أنه كان متهالكا في حبنا وايصالنا إلى الدرجة المطلوبة فقد رغب ان نسافر ونغترب لأنه يعتقد إن الغربة تعلم الانسان ما لا يعلمه وتفيده فوائد لا يمكن ان يستفيدها من كتاب او معلم فالغربة أكبر معلم ومهذب للانسان . وعليه فقد خرجنا نحن الثلاثة من وطننا وبعد ان سرنا في الطريق اياما قضى علينا ان نتفرق عن بعضنا وينفصل كل واحد منا في جهة وما كان ذلك إلا بأمر من الله سبحانه وتعالى .

ولما سمع الملك وجميع الحاضرين من ابن الملك هذا الكلام تعجبوا من ذكائه وغريب أحواله ومن إدراك بنت الملك وفطانتها حيث علمت أنه ابن الملك .

وإذ ذاك نهض الملك بنفسه وعانق ابن الملك وقبله في وجهه وأبدى له مزيد الاعتناء والترحاب ثم التفت إلى بنته وسألها كيف عرفت انه ابن ملك فأجابت أنه لما أبطل الطلسم وفتح باب الحائط الخفي فلكي لا يدخل الى الداخل بل يرجع الى أسفل لاجل اجراء الشرط الرابع أرسلت اليه أحد خدمي فبعد أن رآه الخادم وأخبره بأمره رجع الى فسألته عن هيئته وحالته ففصل الى ما رآه فيه فقلت في نفسي انه ربما يكون ابن ملك وبقيت في ارتياب الى أن رأيته بنفسي فتأكد لي أنه من أصل ملكي شريف لان هيئته الملكية تطبع على جباه أصحابها فسر الملك من ذكاء بنته وفطانتها ثم قال لها والآن يا عزيزتي لم يبق مانع ولم

يعد لك من عذر تعتذرين به فمن اللازم أن توافقي على عقد زواجك بابن الملك لاننا به نفتخر على ملوك الارض طرا كيف لا وقد جمع فيه الشرف والذكاء والعلم النادر المثال والعقل والحكمة الغير موجودين فى غيره من جميع رجال هذا الزمان فأجابته الفتاة بحرية نعم يا سيدى لم يبق لي قط كلام ولا اعتراض وانى أشكر الله على حسن بختى وطالعى ولا أخفي امتنانى وسرورى بالاقتران بفتى زاد علما ودراية على درايتى .

وكذلك كان الملك وجميع الحاضرين لا يزالون فى حيرة من جهة الاسئلة الخفية التى سألتها بنت الملك بالاشارات والرموز وأجابها ابن الملك بمثلها ولم يفهموا شيئا منها فطلبوا اليها أن تبين لهم معنى أسئلتها وما فهمته من أجوبتها فأجابت طلبهم وأخذت تشرح لهم معنى كل ما رأوه فقالت .

إن معني اللؤلؤتين الاثنتين اللتين أرسلتهما اليه في الاول هو أنى أقصد بهما أن العمر كناية عن يومين فيلزم أن تغتنمهما . فضم إلى اللؤلؤتين ثلاثا وأعاد إلي الخمس يقصد أن العمر ولو طال إلى خمسة أيام فهو سريع الزوال .

وكذلك السؤال الثانى فانى أرسلت اليه الماس والسكر مسحوقين فمعناه أن العمر ذو قيمة كالالماس وهو شىء ممزوج بالشهوة الحلوة كالسكر فهل من الممكن يا ترى انفصال أحدهما عن الآخر . فأجاب ابن الملك بأن أخذ قدحا من اللبن وضعه فوق السكر والماس فذاب السكر وبقى الماس وهو يزعم أنهما بالحقيقة ممزوجان مع بعضهما كالسكر والماس لان ان الشهوة تنفصل عن العمر بنقطة من لبن .

ومعنى ارسال الخاتم اليه فى السؤال الثالث قصدت أن أقول له . نعم انك لائق بي وانى أقبل بك وقد رضيت بعقد زواجي عليك وأما معني الياقوتة التى أرسلها لى فهو انى مثل الياقوت لا نظير . وأما معني ضم الياقوتة الثانية المماثلة طبقا لياقوتة وارسالهما اليه هو انى أقول له انى أنا نظيرك ومساوية لك وقد رأيت أنه لا يوجد بين بعضنا البعض زيادة أو نقصان . فلما رأى الياقوتتين بقدر واحد لا تزيد احداهما عن الاخرى فلاجل الحفظ من العين ربطهما بتلك الخرزة الزرقاء وأرسلها الي .

ولما اطلع الملك والوزراء على أسئلة بنت الملك الخفية وعلى أجوبة ابن الملك

عليها بسهولة تعجبوا وغبطوا سعادتها . ومنذ تلك الساعة أمر الملك أن يبدأ بتهيئة لوازم الزينات وان تزين المدينة وتقام الافراح فأقام الناس في الحظ واقامت المدينة برمتها على البسط والانشراح ابتهاجا بالعروسين مدة اربعين يوما ثم عقد لابن الملك على بنت الملك وكان فرحهما وسرورهما بعضهما البعض يفوق حدود الوصف والقياس إذ كان كل واحد منهما يقدر الثانى حق قدره من الذكاء والعلم والأدب فيؤمل السعادة بالانضمام اليه . وصرفا وقتا بالحظ والصفاء متلذذين مع بعضهما البعض باقتطاف ثمرات الحب والهيام الى ان جاء اليوم الموعود لوفاة الملك فارتحل الى دار البقاء فجلس ابن الملك مكانه واشتغل بتدبير أمور الرعية واصــلاح شئونها والاعتناء بها حتى زاد حب الرعية له اضعاف ما كان .

وكان ابن الملك عندما يخطر على باله أخواه يحزن ويتحرق قلبه شوقا لمعرفة أخبارهما وعلى الخصوص أخوه الثانى لأنه ما كان يعلم بمكان وجوده ولا يعرف لأى جهة راح ولا أين ذهب ولذلك أرسل رسالة إلى أخيه الأكبر يخبره بما جري عليه من الأول إلى الآخر وكيف أنه تزوج بنت الملك بعد أن أبطل عملها وفك طلسمها وتولى بعد ذلك على المملكة ثم سأله أن يخبره عن أخيه الثانى إذا كان بلغه عنه خبر لأنه فارقه ولم يعد يعرف شيئا عنه .

وكان ابن الملك الثاني أيضا بعد أن راق باله واستقام حاله أرسل رسالة أيضا إلى أخيه الأكبر يخبره بها بأنه تزوج بنت الملك وجرى له ما هو كذا وكذا وأنه براحة تامة وعظمة تامة لا يكدره الا فراق أخويه ولاسيما أخوه الاصغر لأنه فارقه ولا يعلم بعد ذلك ما جري عليه ويرجوه إذا وقف على خبره أو اتصل به أنه يرسل فيعلمه لكي يسعى للاتصال به .

فلما وصل جواب ابن الملك الثاني لاخيه الاكبر سر وفرح كثيرا بما توصل إلى أخيه من التوفيق والنجاح ولـكنه تكدر لانفصالهما عن بعضهما البعض ولجهله معرفة مكان أخيه الاصغر وبقى بضعة أيام في كدر عظيم يؤمل أن يأخذ خبرا عن أخيه الاصغر وإذا برسالة قد وردت اليه فقرأها وفرح الفرح العظيم لما قرأ ما وصل اليه أخوه من العظمة وخر على وجهه إلى الارض شاكرا الله الذي خلصه من الخطر ورفعه على سرير مملكة عظيمة . وفى الحال كتب رسالتين الى أخويه يهنئهما بما وصل إليهما من السعادة والمجد ويعلمهما بمكان

بعضهما البعض ويخبرهما بأنه بعد أن سافرا عنه بمدة وجيزة مرض أبو زوجته ولما توفى الملك جلس فى مكانه وأنه يشكر أن الذى وفقهم بأن صيرهم الثلاثة ملوكا وسهل لهم التزوج ببنات ملوك . وبعد أن أرسل الرسالتين الى أخويه أرسل رسالة أيضا الى أبيه يطلعه فيها على كل ماوقع لهم من الاول الي الآخر .

وعندما وصلت رسالتا ابن الملك الاكبر الى أخويه فرح كل منهما الفرح الذي لايوصف لما نال أخوه من التوفيق والاقبال وتبودلت بينهما الرسائل يهنيء كل منهما أخاه على ملكه وزواجه وكتبا أيضا الى أبيهما يعلمانه بأمرهما ويسألانه دوام مرضاته والدعاء ولما اتصلت أخبار أولاد الملك بأبيهم فرح وشكر الله حيث أصبحت أربع ممالك في أيديهم وأرسل يهنئهم وبقى هو على كرسى دولته واولاده علي ممالكهم الى ماشاء الله

ولما انتهت نسرين بوش من حكايتها قالت لبهرام شاه والآن يا سيدى قد تخلصت من الولع الذى لحق بك من جراء هذه الحكاية وأريد أن أسألك هل سررت منها أو لم تسر كالواجب فلف بهرام شاه يديه على عنق نسرين بوش مظهرا كمال المسرة والانبساط وقبلها فى عنقها وشفتيها وقال لها إنى سررت من حكايتك سروراً عظيما فقد أعجبتنى جدا ولا أظن أنه يوجد حكاية تماثلها فى حسنها وجمالها وغرابتها .

فقالت له نسرين بوش نعم يامليكى المحبوب إن مرامي من هذه الحكاية مدح اللون الأحمر ولأجل ذلك تري الانسان فى وقت الفرح يحمر وجهه كما أنه فى الكدر والحزن يصفر . فاللون الأحمر بالحقيقة مقبول ومحبوب أكثر من جميع الألوان حتي أن الخمر لما كان أحمر أوجب فرح الانسان وانبساطه . وكذلك الدم فانه أحمر وهم يعبرون عنه بالروح فى الجسم وكذلك الذهب الأصفر فانه يفضل بالذهب الاحمر ويعلو قيمة والياقوت كلما ظهر أحمر كلما كثرت فيه الرغبة وغلا ثمنه وكذلك الورد فما دعي بسلطان الزهور الا لكونه أحمر اللون .

فشكر بهرام شاه نسرين بوش وصدق على كلامها . وعندما أقبل المساء اشتغلا فى تلك الحديقة المنشور فوقها رواق الصفاء والانس بادارة الكؤوس الياقوتية بين أغصان الورد المتوج بأقراص الزهر العطر الرائحة إلى أن حان وقت الطعام فتهيأت سفرة الطعام المعمولة من الياقوت والمرجان وصفت أطباق الطعام

الكثيرة العدد والالوان فجلس عليها بهرام شاه وأمامه نسرين بوش وأخذ كل واحد منهما يطعم الآخر بيده ويلقمه اللقمة بعد الثانية وحولها نحو سبعين أو ثمانين جارية كأنهن الاقمار يحملن بأيديهن الشموع الكافورية ينتظرن الامر فى كل حين :

وكانت نسرين بوش تأخذ اللقمة بيدها وتمدها باطف إلى فم زوجته وكثيرا ما يضع أحدهما فمه على فم الآخر وينفحه قبلة شهية فيقابله الآخر بمثلها فتكون سببا للهضم وتهييج القابلية وتجديدا الشهوة للطعام :

وبعد تناول الطعام على هذه الصورة هيء لهما مجلس الحظ والانشراح فأخذا فى معاطاة الخمور بين شم وضم وتقبيل وامتصاص وارتشاف حتي لعبت الخمر برأسيهما فناول أحدهما زنده للاخر فلفه على خصره وانسحبا الي خلوة وتمددا على سرير المسرة والهناء ودارت بينهما المداعبة والملاعبة ونسرين بوش تقعد وتقوم وتبدي من أنواع الخلاعة والمعاشرة والحركات العجيبة حتي أطارت النوم من أجفان بهرام شاه وحبيبته بالرغبة بكثرة اقتطاف ثمرات الحب والتنعم بلذات الزواج فدام معها ما بين قطع ووصال حتى بان وجه الصباح وحينئذ تركته لينام ساعتين ويرتاح جسمه من تعب الاياب والذهاب ونامت هى أيضا ذاهبة العقل والجسم منهوكة القوي والحواس ، ولما استيقظ جاءت اليه وألقت بنفسها عليه وقبلته فى عنقه وعينيه وعلي جبينه وخديه وشفتيه ففتح عينيه فرأي وجهها عند وجهه فوفاها ما أسلفته ولما رأته علي تلك الحالة وقد نهض من النوم وبدنها أطرى من ريش النعام تذكر ماجرى له معها فى الليل فأعاده استصباحا ولف كل منهما الآخر نحو ساعة تقريبا ثم نهضا ثملين بخمرة اللذات ودخلا الحمام فاغتسلا كل منهما بيد رفيقه وبعد ذلك جاءته بثوب قرمزى جديد فلبسه وأمرت أن يهيأ له جواد أحمر وخرجا متخاصرين الى ردهة الراحة وقدم له الشراب بالماورد والسكر وكان بهرام شاه مسرورا من نسرين بوش ومن خدمتها له بيدها لكنه كان متحيرا ومندهشا كيف ألبسته الثوب الاحمر وكيف يذهب به الى القصر الازرق وقد خالفت عمل باقي زوجاته ومع ذلك لم يعترض عليها بل ودعها وخرج قاصدا القصر الازرق (السماوي) .

وكان اليوم الذى صار فيه بهرام نحو القصر الازرق يوم الاربعاء فتقدم فى طريقه بالأبهة والاجلال وماتقدم الا القليل حتي رأى الارض مفروشة بالقطيفة

الزرقاء الحريرية وعلى جانبي الطريق نحو مائة وخمسين نفرا يلبسون الملابس الزرقاء وقد اصطفوا لأجل السلام وكذلك نحو مائة خادم من الفتيان بالملابس الزرقاء وبأيديهم القماقم المملوءة بالعطريات ومياه الزهور ونحو خمسين أيضا يحملون المباخر المرصعة بأحجار الفيروز . وعند أول الطريق المفروشة ستة حجاب يمسكون جوادا سماوى اللون عليه عدة مطعمة بأحجار الفيروز الصافى اللون وعلى أيدى بعضهم بقجة من الحرير الازرق داخلها الثياب الحريرية الزرقاء الملوكية .

ولما رأى بهرام هذه الشوكة والاجلال سر حتى كاد ينسى الاحتفالات والاهتمامات التي قامت لديه بها نسرين بوش فاجتاز الخدم والحشم وبقى سائرا فى طريقه فلم يقل له أحد استرح هنا أو قدم اليه الجواد ليركبه والثياب ليلبسها ولذلك دام على تقدمه مفكرا أنه سيدخل على آذريون بالثوب القرمزي الأحمر وهناك ينزعه ويلبس غيره وكان الخدم يسيرون من خلفه حتى انتهى الى ساحة فيها مئات من الخدم اللابسين الملابس الزرقاء واقفين لاستقباله ورآهم وقوفا عند باب صيوان مركب من الاشجار اليانعة المتلاصق أوراقها الزرقاء بعضها ببعض وتحت تلك الاشجار المحكمة الوضع سرير أزرق فيروزى اللون والارض مفروشة بالاقمشة الحريرية الزرقاء وعندما وقف عند باب الصيوان خر الخدام سجودا لديه ودعوا له بدوام العز والنعم ومشى حاملوا المباخر والقماقم بين يديه حتى دخل الصيوان وجلس على السرير وحينئذ قدم اليه الشراب بأقداح زرقاء شفافة فشرب وحمد الله ثم تقدم اليه خادم شاب جميل الصورة بهى الطلعة يحمل على يديه طبقا من الذهب المرصع بالاحجار الفيروزية وعليه رسالة زرقاء اللون فتناول بهرام شاه بيدى الفرح والمسرة الرسالة ففضها وقرأ فيها ما يأتى :

اطال الله عمر سيدى ومولاى وزوجى المحبوب صاحب الشرف العالى والبهاء المتلالىء من سار ذكره فى الآفاق حتى بلغ السبع الطباق وساد على كل ملك وسلطان بالحلم والعدل وباقى الصفات الحسان . لقد ارسلت لأعتابك العلية خدمي وحشمي يقدمون لذاتك الكريمة عني فروض الخدمة فتنازل واقبل منهم خدماتهم كرما ولطفا وما يقدمونه اليك من تقدمات جاريتك وانى اطلب اليه

تعالى ان يحفظ لى ذاتك الكريمة ويقيك من عين كل حسود ويديم ملكك الى آخر الزمان آمين . آمين .

فلما قرأ بهرام شاه الرسالة ورأى ما تضمنته من الرقة واللطف فرح فرحا لا يوصف وحينئذ دخل المحل ولبس الملابس التى أرسلتها اليه أذريون ثم ركب الجواد المرسل منها أيضا وجاء بمنتهى الشوكة والاجلال والأبهة والتعظيم إلى جهة القصر وعند ما أصبح قريبا من الباب ترجل عن جواده ودخل والتفت إلى ما حول القصر فوجده محاطا بالأزهار وقد تهيأت الكراسي الزرقاء حول حوض من الماء وتهيأ أيضا فى صدر المحل سرير عال مرتفع جميل نادر المثال مصنوع من حجر الفيروز وقد اتكأت عليه آذريون وهى فاترة العينين كأنها غارقة في النوم وقد احمرت وجنتاها فأصبحتا بلون الورد والعرق يتصبب من وجهها كأنه حبات لؤلؤ تتدحرج فوقه وقد أسندت رأسها على وسادة من ريش النعام وكشفت عنقها إلى ما فوق نهديها حيث تتدلى جواهرها الوهاجة وصدرها العاجى وعنقها وخداها وجبينها تشع بأنوار الحسن والجمال . ولما شاهد بهرام شاه تلك الحالة تاه عقله وضاع صوابه وتقدم رويدا رويدا حتي جلس بالقرب من أذريون ولم يشأ أن يوقظها وقد قنع بالنظر اليها والتلذذ بالتأمل في جمالها وبهائها ثم مسح العرق المتصبب من وجهها بلطف ففتحت عينيهما قليلا ثم أغمضتها وتبسمت تبسم الغنج والدلال فهاج حب بهرام شاه ولم يعد قادا على الصبر والتأني فألقي نفسه فوقها وهو يقبلها فى خدها ويمص شفتيها وقد قال لها أى روحى وحبيبتى ونور عينى وحبة فؤادي ومنتهى آمالى لماذا تتغافلين وتتظاهرين بالاستغناء عني وعدم الاكتراث بي أيمكن لك بعد أن علمت أن بهرام زوجك الذى ملك العالم وخافت الأسود بأسه قد زارك أن تعرضي عنه وتتنامى عند زيارته فانهضي الآن وانظرى ضيفك واعطفي عليه بلطفك . فنهضت شيئا فشيئا وجلست إلى جانبه ثم فتحت عينيها ومدت يديها إلى عنقه وجذبته الى صدرها فقبلته ثم أخذت تعتذر اليه قائلة العفو يا سيدى وسلطانى ومحبوبى ومالك حواسى . فانى منذ أمس بشاغل احزننى ما قدرت أن أنام أما قولك أنى مستغنية عنك فهذا غير الواقع لأنى مستغنية عن العالم بأسره ويكفينى منه أنت فقط ثم غمزته بطرف عينها وتبسمت عن ثغر فاتر فعانقها وعانقته وتبادلا الحب والشكوى ثم بعد ذلك أنشدت تقول :

ان كنت يا سيدي فقت الورى شرفا   فنور خدى منه الشمس والقمر

فقال هذا مما يسرني لأن هذا النور البديع الذي يضيء على لا يتصل بغيري فأنشدت تقول :

إن كان تاجك من ياقوت جواهره فتاج حسني منه المسك ينتشر

فقال وهذا أيضاً أشم منه نكهات سعادي وحظي . فقالت :

إن كان تختك من عاج ومن ذهب فتخت صدري فيه يبهت النظر

فقال ذاك لقيامي وذا لمنامي . فقالت :

وإن بلغت سليمانا بسلطنة فعظم سلطنتي ذات لها البشر

قال صدقت وأنا أول من ذل لسلطان حسنك الذي أملكه فأصبحت مالكا مملوكا . ثم أنشدت :

إن كنت تمتلك الدنيا برمتها فلا عجيب لحسني ملكه القدر

قال لا أنكر عليك أن ما يفعله سلطان حسنك يعجز عن فعله مالك الدينار ثم أنشدت تقول :

إن كانت الشمس من كفيك مطلعها ففوق عنقي تدور الأنجم الزهر

قال هي بدور أطلعها حسن حظي وحصلت عليها بقوة بأسي . فأنشدت :

وكيف أرهب آساد الشري وأنا معي الذي خافه الآساد والنمر

قال وهذه نعمة أوصلك اليها حسن حظك وحصلت عليها بنفوذ جمالك . فأنشدت :

فان ملكت بنات الأرض أجمعها وأنت ملكي وهذا فيه أفتخر

قال من كثرت زوجاته . وتوفرت معداته . زادت مسراته . فأنشدت :

فبنت سلطان أرض الهند قد سرقت من ليل شعري سواداً فيه تشتهر

وبنت قيصر من حسني لقد خجلت فأصبحت باصفرار اللون تستتر

وبنت مولى خوارزم لقد خرجت عن حدها اذ بلون الخضر تختضر

كذاك نسرين من ياقوت طلعتنا ومن عقيق شفافي شاقها الحمر

قال لكل منكن ما أحبت وما فيكن الا من سادت وتباهت وكلكن في أعيني أقمار حين تنير بأنوار الكمال فمقامكن عندي واحد . فأنشدت :

يهنيك مولاى اذ اعطيت جارية الورد من خدها الجوري ينتثر

فاقطف ولا تخش من عين الرقيب وزد حظا وأنسا فمزن الحظ ينهمر

وهاك عنقي فقبله على عجل وكلما زدت بالتقبيل يزدهر
ثم امصصن شفق اللعس مرتشفا ثغري الذي فوقه العناب يعتصر
واجنى بحقك رمان النهود فقد آن القطاف ودلى ذلك الثمر
وهاك صدرى فسرح فيه طرفكم فأبيض الصدر قد يجلى به البصر
وهاك خصرى فطوقه بزندك واجـــذبه اذ الخصر بالتطويق يختصر
ولا تطل زمن التشويق يا سيدى فانني عن وصال لست أصطبر
ان كنت موسى فانى اليوم صخرته فاضرب عسي بعصاك الماء ينفجر
واعجل بالصاق جسمينا لبعضهما فهل عن الوصل يا مولاي تعتذر
ان الغيوم اذا شمنا تراكمها حينا فلا بد يأتي بعدها المطر

فسر بهرام من انشادها وقال لها انى ما أتيت اليك الا وفى نفسي من حبك شيء عظيم وهاهو زمن السرور قدحان ولا بد لنا من اقتطاف ثمرات لذاته . وفى الحال أخذت كأسا من الخمر وسقته اياها من يدها ومدت عنقها ووضعت شفتيها على شفتيه حتي اذا التصقا فقضيا مصلحة فى النفس وآذريون تبدى ألذ نوع من الغنج والدلال حتي نسى بهرام ورأي فيها من حركات التشويق والترغيب مالم يره في غيرها من نسائه ولم يعد يسعه الصبر على مثل هذه الحالة فأخذها بين يديه كما يأخذ الأسد الغزال أو الباشق الواحدة من الحمام وألقاها على سرير مفروش بفراش من ريش النعام قد هيأته لمثل هذه الغاية وملأ فمه بعصير السكر الذى امتصه من شفتيها ونهديها وقد خط على عنقها وصدرها أسطراً من اللذة لا يمحوها كرور الأيام كيف لا وقد ذاق من حلاوة العمل مالم يذقه عند غيرها من نسائه والحاصل أنهما بقيا نحواً من ساعة يطوق كل منهما بيديه جسم الآخر ويضغط عليه ضغط التشفي . ثم افترقا وانفكت أياديهما عن بعضهما البعض وفى الحال نزلا الحوض وسبحا فيه وهما يلعبان ويمزحان وبعد ساعة خرجا من الحوض ولبسا ملابس جميلة فاخرة . وجلسا للمنادمة والمسايرة ولا يخفى مافي هذه الراحة من النفع للجسم والعقل . وحينئذ قال الملك بهرام شاه أى حبيبتى وزوجتى ومنى نفسى أريد أن تسليني بحكاية غريبة لنقتل بها بعضا من الوقت .

فتبسمت آذريون وقالت له نعم يا سيدى انى أحكي لك الآن حكاية عجيبة غريبة جميلة لكن أرجوك رجاء واحداً فقط وهو أن تكون منصفا وتبين وجه التفضيل بين حكايتي التي تسمعها مني الآن وبين الحكاية التي سمعتها من نسرين .

بوش في الليلة الماضية . فوعدها بهرام أن يقول الصدق ولا ينكر على احداهما وجه التفضيل بين حكايتهما . وحينئذ بدأت آذربون بسرد الحكاية فقالت :

قصة ماهان وما جرى له مما يشيب الولدان

اعلم أيها الملك السعيد انه كان في مصر السعيدة تاجر واسع الثروة كثير الأموال ولعظم غناه لقب بشيخ التجار . ولهذا التاجر ولد اسمه ماهان في الخامسة عشرة من عمره كان يهتم بتربيته وتعليمه .

ولما كان ماهان عاقلا وذكيا اجتهد في تحصيل العلوم والمعارف منذ صغره وكان مع ذلك جميل الطلعة . وكان في الصباح يذهب مع أبيه الى المخزن وفي المساء يرجع أيضا مع أبيه الى البيت ويصرف نصف الليل في القراءة ومطالعة الكتب وأحيانا يبقى أبوه في البيت فيذهب هو وحده الى المخزن ويبيع ويشتري برقة ولطف ولسان عذب والناس يسرون منه ويشكرونه والتجار يثنون عليه ويمدحونه حتى أخذ من صغر سنه مكانة رفيعة وحل موقعا عاليا بين قلوب التجار وصار اسمه يذكر بالمديح والاطراء في المجتمعات والنوادي والحفلات وفي كل مكان يجتمع فيه التجار وصاروا يدعونه في الأسبوع مرة الى بيوتهم فيجيب دعوتهم ويبقى عندهم للمحادثة والمنادمة والمؤانسة الى نصف الليل وكان أبوه بالنظر لاعتقاده في نزاهة ابنه ودرايته وسعة عقله وعلمه لا يمانعه بل كان يقول لا بأس من الاجتماع في الاسبوع مرة للتسلي مع رفاقه . وقد عقد ماهان شركة مع أحد التجار فكان الغلام يقيم في المخزن للبيع والشراء وشريكه يذهب الى الخارج لاجل جلب البضائع والاتجار أيضا .

ولما كان شريكه مسافرا في احدى المدن لاجل أشغال تجارية دعا أحد التجار ماهان وبعض رفاقه كجاري العادة الى بيته الى حفلة حضرها جمع كبير من اخوانه التجار وزملائه المشهورين وبعد قضاء سهرة طويلة استصوب التجار أن يصرفوا اليوم الآتي في حديقة مشهورة في طرف المدينة فذهبوا اليها وجلسوا حول حوض من الماء في وسطها وأخذوا في ترويح النفوس بشرب الكؤوس وراق لهم كأس الصفا وانتشر بينهم لواء الوفا

ولما كان ماهان شابا لم تسبق له تجربة فان الخمر لعبت بلبه وأغرته على

الاكثار من الشرب فأفرط فيه أكثر من الجميع حتى سكر ولكن بالنظر لثباته وعزة نفسه لم يدع رفاقه يلحظون منه ذلك بل كان يجيب على أسئلتهم بلباقة وحكمة ولما لم يدركوا من ظواهره شـــدة سكره لم يكفوا عن تقديم الشراب اليه .

وأقبل المساء وجاء وقت العشاء فوضعت مائدة الطعام فأكلوا حتى اكتفوا ثم نهضوا عن الطعام وعادوا إلى أماكنهم حول الحوض ثم أخذوا فى المنادمة والبسط والمعاشرة الى الساعة الثانية من الليل وحينئذ شعر ماهان بغشيان ونقل على معدته فأراد أن يتقيء فنهض من مكانه بثبات وشدة عزم وقصد البعد الى جهة نائية فسأله رفاقه اذا كان يريد الذهاب . فقال كلا وانما أطوف قليلا فى أطراف هذه الحديقة فلم يعترضوا عليه بل شغلوا بحظهم وبسطهم .

وابتعد ماهان عن المجلس الى طرف الحديقة فتقايأ قليلا فشعر براحة وقد عاد اليه وعيه وصحا من سكره على نوع ما فأخذ يتمشى بين الأشجار وبينما هو يطوف من جهة الى ثانية وقد انتهى الى جهة الباب رأى شبحا تحت ظلام ذلك الليل فاندهش وتعجب ووقف ينتظر دنوه اليه .

ولما قرب الشبح اليه أمعن فيه تبين له أنه شريكه الذي كان مسافرا فتقدم اليه وأظهر له كأنه يعلم أنه فى ذلك المكان فجاء ليراه وسلم عليه فتعجب ماهان عندما رآه وقال له ماذا أتى بك يا أخي الى هنا وفى أى وقت رجعت من السفر وكيف وجدت فى هذا المكان ولماذا أتيت فى وقت ضيق مثل هذا فأجابه شريكه انى ذهبت الى المدينة الفلانية فحالا وبأسرع ما يمكن بعت كل ما معى من البضاعة وربحت فيها أرباحا وافرة ثم صادفت أصنافاً من البضاعة تباع هناك رخيصة جداً فاشتريت بكل الدراهم التى معى منها وعدت فى الحال وكانت سفرة موفقة لا أظن يوجد سفرة أوفق منها وأتيت فى الساعة الواحدة من هذه الليلة فوجدت باب المدينة مقفلا لا يمكن للقافلة الدخول ليلا فأنزلتها فى الخان الفلانى فى المحل الفلانى وقد أدركت أنك هنا فأتيت لأخبرك . والآن هلم نذهب معا ومهما حصل فليحصل اذ يلزم أن نخرج بضايعنا الآن واذا أرشينا البواب سمح لنا بالدخول ليلا فأولا نخلص البضائع من رسم الدخول ثم من خطر الليل وكذلك نكون فى الصباح عند ازدحام السوق مباشرين بيعها ولا يخفاك ما يكون لنا فى ذلك من الفوائد والأرباح والاقتصاد وعندى أن هذه البضائع ستربح معنا أرباحا

باهظة جداً ومتى رأيتها وعلمت أصل ثمنها تأكد لك مقدار الأرباح المنتظرة منها وصدق قولي .

فلما سمع ماهان من شريكه خبر الأرباح والمنفعة لعب به الطمع وحب المال وقال له هلم يا أخي لقد فعلت حسنا فسار شريكه وسار في أثره حتى خرجا من الحديقة واستلما الصحراء ومع أن ماهان كان سكرانا لم يفكر بشيء من تأثير الخمر بل أخذ يصحو شيئا فشيئا حتى الرابعة بعد نصف الليل وهو يسرع الجري في أثر شريكه وقد بدأ به التعب وخطر له أن شريكه قد وضع البضائع في مكان بعيد فقال له الى أين سائرين الآن فقد أبعدت المكان وهل لا يزال بعيداً فأجاب شريكه كلا بل صار المكان قريبا ولازم السير وهو في أثره وكلما سأله يقول له أصبح المكان قريبا حتى قرب وقت الصباح فتعب جدا وزاد اندهاشه وتكدر من شريكه فصاح من الغضب ماهذا العمل لقد أخرجتني من حفلة حظي وسرت بي في القفار وفي طرق لا أعلمها وأنا سكران وفوق كل ذلك مرادك تسحبني الى آخر العالم لقد تعبت رجلاي من المشي ففي أي جهنم وضعت هذه البضائع . فأجابه الشريك بلين ولطف لم يبق وجه اللوم يا أخي نعم ان المكان بعيد ولكننا وصلنا اليه ولم يبق أمامنا الا مسافة قليلة وسوف تتأكد ذلك ثم أسرع في الجري فلم ير ماهان بدا من تأثره وهو في حالة غيظ وغضب وكدر من شريكه وما سار مقدار نصف ساعة حتى بدأ الشفق أن يظهر في الشرق ونور الصباح ينجلي شيئا فشيئا وحينئذ نظر الى أمامه وحواليه فلم ير شريكه ولا تبين له أثرا فزاد كدره ووقف مبهوتا ثم جلس يستريح على الأرض ولم يعد قادرا أن يقف ثم ألقي رأسه الي الأرض فنام لأن تأثير السكر والتعب والغيظ والسهر تغلب عليه حتي لم يعد قادرا أن يضبط نفسه وبقي نائما الي نصف النهار حيث لدغته حرارة الشمس فاستيقظ مرتاحا صاحيا والتفت الى ماحواليه فلم ير أثر العمران والسكان ولم ير أمامه الا الاحراش والادغال والبراري والقفار والسهول والاوعار والجبال العالية المحيطة بالمكان الموجود فيه وجعل يسمع فحيح الحيات وزئير الأسود وأصوات الوحوش على اختلاف أجناسها وهو يراها تمر وتوغل في الفلاة فيظهر غيرها أسرابا أسرابا فوقع الخوف والرعب في قلبه وبلغت روحه التراقي فلبث في وهق الخوف واليأس مقدار ساعة ومع أن الوحوش كانت تراه فلم تدنو منه ولا أضرته بشيء ثم أخذ قلبه يتقوى شيئا فشيئا ولم ير بدا من المسير عساه يدرك

العمران قبل دنو الظلام فصلى لله وسأله المعونة وسلم حياته واتكل عليه فى حفظها ونهض يعدو متكلا أيضا على الله فى الطريق الذى يقصده لأنه كان لا يعلم الى أى جهة يسير والى أية جهة يقصد ليصل للطريق العام وبقي فى مسيره حتى أقبل المساء فعاد اليه خوفه ورعبه واحتار ماذا يعمل وكان وهو سائر يخاف من ظله .

وعند حلول المساء كاد عقله يذهب من رأسه فان التعب والجوع والعطش قد أنهك جسمه ولكنه نسى كل ذلك وعظم عليه الخوف والفزع حتى توهم عند حلول الليل أن الجبال سقطت على صدره فضاق وثقل عليه الأمر فجعل يتضرع إلى الله ويبكى ويقول ماذا جرى عليَّ يا ربى من أين جاءتنى هذه المصيبة يا ليتنى لم أوجد فى الدنيا نعم ان الدنيا يومان يوم شقاء ويوم رخاء . لكنى لا أرغب فى يوم الرخاء ان كان لا بد من يوم الشقاء . ما الفائدة ان الأمر ليس حسب رغبتي . فالآن ماذا أعمل والى أين أذهب كيف أجد الطريق وفى أية جهة الطريق وذاك الشخص الذى ظهر كأنه شريكي أين ذهب ، هل كان بالحقيقة شريكى أو هل هو شخص آخر لا ريب أنه جنى لا أعلم ما هو والآن ماذا أفعل وكيف أنام وماذا آكل .

والحاصل أنه بعد البكاء ولوم نفسه وزمانه لم ير وسيلة الا أن يلجأ الى احدى المغائر وهو يرى أمام عينيه أن كل عود أفعى وكل شجرة وحشا وفيما هو يفكر فى أمره سمع صوت انسان آت لنحوه فسر ماهان من سماعه هذا الصوت وأمل النجاة وحدثته نفسه بالخلاص ونظر إلى جهة الصوت فرأي رجلا عجوزا وعن خلفه امرأته وعلى كتفيهما الحطب ولما وصلا من باب المغارة ونظر الشيخ ماهان أظهر التعجب والاندهاش . وقال من أنت يارجل ولماذا أتيت هذا المكان وكيف وقعت هنا مع أنه مكان الغيلان ومسكنها فاذا وجدت إنسانا لا تصبر عليه بل تمزقه اربا اربا فطار عقل ماهان عند سماعه هذا الكلام ووقع على الشيخ يسأله المعونة والمساعدة وقال له أرجوك ياسيدى الرحمة والمساعدة فانى لم آت بارادتى إلى هذا المكان فانا ابن أحد التجار وبينما كنت أتمشي فى الحديقة جاءني شخص بصفة شريك وقادني إلى هذه الأماكن وأنا لا أعلم الآن إلى أية جهة أذهب ولا أعرف كيف أتخلص وأعود الى العمران وقد صرفت

هذا اليوم وأنا في غاية الجوع والعطش وقد طفت كثيرا فلم أهتد الى الطريق العام وأعاد عليه قصته بتمامها .

فقال الشيخ ان أمرك أحزنني فقد تعذبت كثيرا ولاقيت كثيرا ومن حسن حظك اني صادفتك هنا لأخلصك فالرجل الذى أتاك بصفة شريكك هو لا ريب غول وقد أراد ان يقودك الى مكانه فأدركه النهار أو في عزمه أن تهلك في هذه الصحراء من العطش والجوع . فهلم يا ولدى سر خلفي ولكن حذار من أن تخرج صوتك من فمك أو تتفوه بكلمة والا فاني لا أعود قادرا على خلاصك . ثم قبض على ماهان من يده وسار به وسارت العجوز معهما واذ كان الليل حالك الظلام ساروا بسرعة كلية . ومن شدة الخوف لم يخرج صوته قط بل كان يسرع في الجرى ويرتجف عند كل حركة ولا يعلم الى أين يقوده الشيخ وزوجته بل كان متعجبا منهما متيقنا أنهما لا يقصدان به ضرا ولا زال على سيره حتى ظهر الشفق وبدأ نور النهار بالجلاء وحينئذ افتقد الشيخ وزوجته فلم ير لهما أثراً وقد اختفيا بغتة ولم يشاهد أمامه الا صحراء واسعة وجبالا مرتفعة ووحوشا تزأر وحيات تنفث وغربانا تنعق

وعندما رأي ماهان نفسه على هذه الحالة عاد اليه الخوف بأكثر من الأول ووقع على الأرض مغشيا عليه وبعد ساعة رجع اليه وعيه وهو يكاد يجن من عظم الأخطار المخيفة المحدقة به ولكن لما كان من طبع الانسان المحافظة على حياته والاجتهاد لحفظ سلامته بمنتهى قواه لم ير وسيلة الا السير والتفتيش على الطريق العام عله يهتدى اليه ويتخلص من برية التيهان لأنه لو بقي في مكانه سنة لما استفاد فائدة لا سيما وأن المخاطر محدقة به من كل جهة واحدة ، الجوع والعطش وقلة النوم والتعب والخوف وقد اضطر لشدة الجوع أن يأكل من نبات الأرض ما يراه طريا وصالحا للاكل ولكن لعدم وجود ماء يروي به ظمأه لصق لسانه بحلقه وكان يسأل الله أن يهديه الى الصواب ويخلصه من هذا العذاب ويفرج عنه تلك المخاطر ويحفظ حياته من الضوارى والوحوش المفترسة

وبعد أن بقي برهة على هذه الحالة رأى نفسه باضطرار للنوم ولو قليلا ليقدر على الثبات في مقاومة ما يتهدده من الاتعاب والأخطار فانسحب الى مغارة هناك فنام فيها قليلا بعد أن تقلب وتفكر أكثر من ساعتين ثم نهض أيضا والخوف نصب عينيه فخرج من المغارة وكانت الشمس شديدة الحرارة فغطى رأسه بطرف ثوبه واستلم الصحراء وبدأ في السير والطواف بهمة ونشاط وصلاة

لا تنقطع وطلبات متواصـلة ولا زال على ذلك حتى المساء فلم يتوقف لايجاد طريق الخلاص فخطر له أن يقتل نفسه ويتخلص من هذا العذاب الاليم لكن حب الحياة منعه فوقف يفكر كيف يصرف تلك الليلة وأين يختبىء وماذا يفعل وفيما هو على مثل ذلك سمع صوت وقع اقدام جواد فكاد يذهب عقله من رأسه وأخذ يرتجف قائلا فى نفسه هذا مصاب جديد يدنو منى .

ثم التفت الى جهة الصوت فرأى فارسا يتقدم اليه وهو يقود جوادا آخر فى يده فلما وصل اليه صاح فيه أي خبيث محتال لماذا أنت تمشى فى هذه النواحى شغلك فى وقت الليل فى هذه الأرض ، لقد أتيت الى هذا المـكان لتنظر عالم الجن وتطلع على أحوالهم فاذا كنت لا تتكلم الصحيح لا خلاص لك من يدى فاضطرب ماهان من كلام الفارس وخاف منه ثم قال له العفو يا أخى اكراما لله اقتلنى وأرحنى من العذاب الذى وقعت فيه فانى أنا كدت أقتل نفسي مرارا ولم أجسر على ذلك ، فأظهر الفارس الحيرة من كلامه وقال له ما معنى هذا الكلام هل أتيت بين الجان بالرغم عنك ولماذا أنت كاره فى الحياة .

فقال ماهان نعم ان الدهر الغدار قد أوصلنى إلى هذه الديار ولم أجد لى معينا أو مساعدا ولا رأيت أنيسا أو مخلصا يخلصني من حالتى الحاضرة وأنا تعس لا أعرف من الذى أوصلنى إلى هذه الصحراء وما هي هذه الأرض التى أرعبتنى وأخافتني كثيرا

ثم حكى له السبب وأعاد عليه القصة من أولها إلى آخرها منذ كان فى الحديقة إلى تلك الساعة فتعجب الفارس وقال له اشكر الله على خلاصك فان الشيخ والعجوز اللذين قد صادفتهما فى ليل الأسر هما من الغيلان وأنا نفسي أتعجب كيف أنهما أبقيا عليك وربما كان بفكرهما أن يأتيا بك إلى محل اقامتهما ويأكلانك لكن أدركهما الشفق ونور النهار فخافا واختفيا . لأن النور يخيف الغيلان ولو لم يدركهما النهار لأتيا بك مكانهما وقطعاك قطعا فاشكر الله الذى لم يصلا إلى مكانهما وأدركهما النهار فهربا والآن سر خلفى ولا تخف فانى أخلصك من عذابك ثم قبض على يد ماهان ورفعه إلى ظهر الجواد وسارا يضربان فى تلك الصحراء تحت ظلام الليل

وكان ماهان قد تسلى على نوع ما ولكنه لم يكن مطمئنا للغاية لانه وان كان

يعلم انه تخلص فى الليلة الماضية من مصاب عظيم فقد وقع فى مصاب اعظم لكن ما الوسيلة وماذا يقدر أن يعمل غير الاتكال على الله والتسليم لارادته واندفع بجرى وراء الفارس وكان الفارس ينظر اليه المرة بعد الثانية ويقويه ويطمنه ويقول له لا تخف فقد تخلصت من العذاب فلا تغفل عن ذكر الله .

فقطعا الجبل على هذه الصفة وطافا في السهل وكان النسيم لطيفا وبينما كان الفارس يسلى ماهان ويشدد عزائمه سمع ماهان صوت طنبور وغناء

ثم عقب ذلك صوت ينادى قائلا (اخرج عن هذه الجهة . الى هنا تعال . لاتذهب الى هناك) وتبع ذلك أصوات كثيرة فدقق ماهان النظر واذا به يرى فى تلك الصحراء الكبيرة نحو ألف أو ألف وخمسمائة من الغيلان قد تجمعوا الى بعضهم البعض وكل واحد يضاهي العفريت قباحة ومنظراوهم فى هرج ومرج كأن القيامة قدقامت بينهم فاضطرب ماهان وخاف كثيرا وكاد يغيب عن صوابه ووصلت روحه الى حد شفتيه .

ثم لاحت منه التفاتة الى بعيد فرأى أيضا نحو ألفى عفريت بالمشاعل وهم سود الوجوه قباح المناظر يترنمون ويغنون بأصوات كريهة جدا وقد وضع الواحد منهم يديه بيد الآخر وهم يرقصون ويلعبون .

ثم رأى عفريتين من العفاريت الأوائل قد خرجا من بين فرقتهما وخفا لاستقبال هؤلاء ، ولم يكن إلا القليل حتى اختلط الفريقان بعضهما ببعض ودار بينهما الرقص والنط واللعب ، وحالما رأى ما هان هذه الحال شعر بأن الجواد من تحته بدأ بالرقص فتعجب وقال ماذا جرى للجواد وإذا به يري النار تقذف من فمه وقد تغيرت هيئته وصارب كهيئة العفريت فزاد عليه الوهم والخوف حتى غاب عن هداه فوقع الى الأرض مغشيا عليه وكان قد تيقن من قرب الاجل وبقى في غيبوبته الى نصف اليوم الثاني فانتبه من نفســه فلم ير أحدا فى تلك الصحراء وما زال تائها حتي عثر على طريق ففرح واستصوب السـير فيه فتطرقه وسار على بركة الله ، وقد كان الطريق المذكور صعب المسلك كثير الصعوبات الا أن الخوف هون لديه كل صعب فلم يتوقف عن السير ولا تردد فيه بل بقى يتقدم حتى قرب المساء وحينئذ لاح له شجرة كبيرة أمامه فقصدها ولما دنا منها رأي تحتها عين ماء فطار من الفرح فجلس وشرب قليلا وبعد ان هدأ روعه وارتاح قليلا شــكر الله وطلب اليه قائلا الهى ارحم عبدك لأنى لا قدرة لى على تحمل

هذه المشاق إلهى أنت حاضر وناظر ولا رجاء لى فى غيرك ولامساعد لى سواك العفو يا الهى من أين جاءتنى هذه المشقة وهذا العذاب فاهدنى الي ما فيه خيرى وخلصنى من الخطر يا رحيم يا رحمن ياواسع الملك يا سلطان وكان يتكلم والدموع تسيل من عينيه كالسواقي .

وبعد أن قضى نحو ساعة على الاستغاثة والبكاء عاد فتناول جرعة ثانية من الماء وغاص فى الافكار وقد خطر له على باله بلاده وأهله واخوانه فتقطع قلبه حسرة عليهالانه كان عائشا بالراحة عندأهله والحظ والانشراح مع رفاقه لايعرف قط كيف يكون الهم ولا من أين يأتى الغم بل دائما على الهناء والسرور وبقي أيضا هومدة يتذكر سابق أيامه ويأتى على باله كل ماهو عزيز ومحبوب فتساقطت الدموع من عينيه فيعود الى البكاء والندم ولوم الدهر وأعماله ثم يعود الى الاستغاثة بالله والاتكال عليه .

وبعد كل ذلك قال فى نفسه ان قمت أنا الآن لأذهب عدت إلى البلاء والعذاب وإذا لم أذهب فلا خلاص لى من المشاق والمخاطر فكيف العمل ثم خطر له أن ينزوى إلى مكان خفي ينام فيه تلك الليلة إلى أن يشرق الصباح فنهض من مكانه وأخذ يبحث عن مكان ينام فيه في تلك الجهة فتبين مغارة قريبة فدخلها ولبث فيهـا نحوا من ساعتين ينتظر مصابا جديداً فلم يصادف شيئا فشكر الله على ذلك .

ولما هدأ باله وسكن خاطره على نوع ما ألقى رأسه إلى الأرض فنام فعاودته الأحلام المخيفة فاستيقظ مرعوبا وجلس خائفا وكانت عيناه قد ورمتا من شدة البكاء وسكب الدموع فعاد الى التأوه والأنين وزاد عليه الضجر والملل وعادت اليه ذكرى أهله وأبيه فعظم الامر عليه وقال فى نفسه ماذا يا ترى يكون جرى على أبى هل يبقى حيا اذا افتقدنى ولم يرنى وانتظرنى ولم أعد اليه أواه واحسرتاه عليك أيها الاب المسكين لا ريب أنك تموت أو تقاسي عذاب الفراق والحسرة على بعدى وهذا أشد وقعا من الموت :

أواه من فعل الزمان وما أتا • من المصاب والبلايا والمحن
فطر القلوب من الفراق وفعله أوهى البدن

أواه أين هى راحة الانسان فى هذه الدنيا بالحقيقة لا يوجد راحة وكل من قال أنه مرتاح فهو كذاب فلا تضحك الدنيا يوما إلا وتبكي سنة وقد يمكن

أنه توجد الراحة بين البدو والعالم المتوحش هكذا نظن لكن من يعلم نعم انهم لا يفكرون بشيء ولا يعرفون شيئا ولكنهم ذوو احساس مثلنا يشعرون بالالم والوجع كنت قبل الآن عائشا بنعمة وراحة لا أفكر بأمر الا الحظ والعمل بالراحة ومن أين يرضي الزمان لي هذه الحال وهو أبو المصائب .

وعلى هذه الصورة جلس فى زاوية من المغارة يفكر في ماضيه ويناجي نفسه ويسأل ربه المساعدة والخلاص من هذا الضيق الذى وقع فيه وفيما هو كذلك لاح له بصيص نور فى الزاوية الثانية من المغارة كأنه سراج الليل ومع أن ماهان كان فى حالة مخيفة وارتباك واضطرب وقد مر عليه من المخاوف ما جعله يخاف من تحريك ورق الشجر لكنه فى هذه المدة لم يبق مستكنا في مكانه بل حمله الطمع والفضول على أن ينهض من مكانه ويتقدم شيئا فشيئا الى جهة النور ولما دنا منه وجد ثقبا فى الارض يخرج منه النور فتعجب من وجود ثقوب بالارض ومد اصبعه فى الثقب فوسعه فرأى النور قد زاد بقدر اتساع الثقب .

وحينئذ أخذ حجرا وجعل يوسعه حتى أصبح فى درجة يمكن للانسان الدخول منها وإذا به يرى سلما عريضا منحدرا إلى أسفل فرجع إلى الوراء وأخذ يعمل فكره قائلا فى نفسه ماذا أعمل أبقى هنا أو أنزل إلى أسفل لا أعرف متى تأتيني المصيبة فاذا بقيت هنا ربما يأتى أحد الغيلان المخيفة فيزيد رعبي وخوفي أو ربما يأتى بلاء آخر وإذا نزلت إلى أسفل ربما صادفت أيضا من المخاوف مالا أعلمه وبعد التفكر قال فى نفسه الأحسن أن أنزل وأري ما يوجد أسفل ومهما وجد فانى أظن أنه لا يوجد من العالم المخيف الذى أصادفه في الصحراء فتحت الأرض أكثر اطمئنانا من فوق الارض .

ثم أخذ فى النزول على السلم بتمهل وتأن وإمعان وبعد أن نزل نحواً من عشر درجات أو خمسة عشر رأى حائطا عاليا جدا ورأى فيه بابا كبيرا جدا فنظر داخل الباب فرأي الجهات مضيئة منيرة كالنهار فوقف مبهوتا متحيرا وقد خاف أن يدخل فيصادف ما يخيفه ولكن الروائح العطرية المنبعثة من الداخل دفعته الى الدخول بالرغم عن مخاوفه وكان الباب مفتوحا فوجد فى الداخل حديقة غناء مزهرة كبيرة جدا لا يعرف أولها من آخرها وأرضها مفروشة بالأزهار البديعة والالوان القوية الرائحة والاشجار قائمة صفا صفا من تفاح

واجاص ورمان ونحوها والاثمار مدلاة عليها على قدر البطيخة وقد نضجت حتى طاب أكلها وهى تنير على الاغصان كالنور لحسن نضجها وصفاء لونها والماء يتجدول بين تلك الاشجار بترتيب وصنعة غريبة وقد جعل حول جداول الماء طريق من الحصا الابيض بلون الفضة .

ثم تقدم فرأى فى وسط الحديقة فسحة مفروشة بأنواع المفروشات والبسط وقد نصب فيها سرير من الصندل

ومع كل ذلك لم ير فى تلك النواحى روحا تدب فتعجب من ذلك وبقى برهة يتأمل فى الحديقة وما يراه فيها من أسباب النعيم والراحة وكيف هى خالية من السكان وأخذ ينتقل من جهة إلى ثانية ومن مكان الى آخر ولما لم ير أحدا تاقت نفسه لاقتطاف بعض الاثمار والتقوت بها فمد يده وتناول واحده منها فأكلها ثم تناول غيرها وبينما هو يقطف ويأكل سمع صوتا يقول اللص اللص امسكوه فنظر الى جهة الصوت واذا برجل شيخ على كتفه عامود من الخشب قد انقض عليه فاحتار ماهان واندهش من عمل الشيخ وقال فى نفسه هـــذا مصاب جديد قد وقعت فيه وتوارى خلف شجرة ليحافظ على حياته من صولة الشيخ وصار يعاتب الدهر قائلا .

أواه منك أيها الدهر الغدار الظالم ان الانسان لا يتناول نقطة ماء صاف مالم تجرعه ألوف نقاط من السم فى مقابلها

أواه أيها الزمان الجائر ماذا أعمل لأتخلص والى اين أهرب لأفلت من يديك لاقيت مالاقيت من العذاب وأنت ساكت عنى ولما وصلت الى محل الراحة والسكينة واشتهت نفسي واحدة من هذه الفاكهة الشهية لم تصبر على لأتمم أكلها حتى فجأتنى بغدرك قبل أن تستقر فى جوفى :

ولم يكن الا القليل حتى وصل الشيخ منه وقال له ويلك أيها الخبيث كيف أتيت الى هنا فى مثل هذا الوقت المظلم هل قادتك المنية بيديها لكى تخرب لى حديقتى ولى عشرات من السنين وأنا أعمل فيها فهل يمكن لك الخلاص من يدى ومن في الدنيا يقوى على ذلك فأخذ ماهان يقبل أيادى الرجل ويتوسل اليه وقال له العفو ياوالدى تمهل واسمع مني شرح حالى لتعرف ان كنت لصا أم لا وبعده افعل ما أنت فاعل اذا لم تحب أن تعذرني .

فلما سمع الشيخ كلام ماهان دقق النظر فى وجهه متعجبا ثم رمي العمود

الى الارض وأسند نفسه على الشجرة وقال له أخبرني اذاً بواقعة حالك ومن أنت وكيف أتيت هذا المكان .

واذ ذاك أخذ ماهان في شرح حاله للشيخ فقال له أكيد يا أبي أني عجزت من عناد الدهر حتي صرت أتمني الموت لأتخلص من عذابي الحالي ولكن أين الموت وهو يهرب من وجهي .

فأنا ابن رجل من تجار مصر الاغنياء وقد صرفت وقتا جميلا في مصر براحة ومسرة في بيت أبي وبينما كنت غارقا ببحر الهناء واللذات مع بعض أصحابي وأصدقائي حسدني الدهر واستصوب إنزالي من سماء الهناء الى جهنم العناء .

ففي البداية سخر أحد الجن فظهر لي بهيئة شريك لي فغشني فأخرجني بالحيلة من بلدي ومكان راحتي فوقعت في أرض مخيفة لاقيت فيها عذاب الهون ولم يكتف بكل ذلك بل قيض لي شيخا مسنا وزوجته العجوز فتظاهرا بالغيرة على فطافا بي الصحراء الليل بطوله وهما يقودانني الى الهلاك ومع ذلك فان عملهما معي يحسب رحمة بالنسبة لما صادفته بعد ذلك فسخر لي فارسا الى أتاني وزعم أنه عامل على خلاصي وهنأني بخلاصي من العجوز والشيخ لأنهما من الغيلان وأركبني جوادا وقد ظهر لي أنه أكبر عدو لي فقد قادني بين ألوف من الجن والعفاريت والغيلان لا أعلم وكلهم قباح المنظر لا يمكن للانسان أن ينظر الواحد منهم بدون خوف وفزع والحاصل أنني تخلصت من هؤلاء أيضا وأنا في غاية الجوع والعطش فقادني الدهر الي هذه الجنينة وأراني الأثمار الشهية من كل أنواعها فتحركت بي شهوة النفس واشتد بي الجوع ولما مددت يدي وقطفت واحدة منها دفعك الي فتوهمت اني لص أتيت لاخرب لك الحديقة مع أني لولا الجوع وشدته لما تجاسرت لمد يدي قط فهاك قصتي فاحكم بيني وبين زماني وكن بي راحما يرحمك الله .

فأظهر الشيخ تأثره من كلام ماهان ومما جري عليه وتأسف على حالته حتى سال الدمع من عينيه حزنا عليه .

وقال له يا للعجائب هل كل ما أخبرتني به حق صحيح وهل يدخل العقل أن هذه المصائب تقع على رأس الانسان واني أتعجب منك كيف قدرت أن تثبت في وجه هذه المخاوف والشدائد واهنئك الآن بالخلاص لأن رأس مال المصائب السلامة فادمت سالما فالذي مر عليك كأنه ما كان فلا تتكدر يا ولدي

ولا تحزن . فاقبلني لك فى مكان الأب وإني أترك لك أملاكي وأموالي وموجوداتي الغزيرة إذ لا ولد ذكر لي ولي خمسون سنة وأنا أعتني بهذه الحديقة وأخدمها بنفسي حتى أصبحت عندي بمقام عزيز علي جدا فى الواقع فانى أفضلها على نور عيني لكثرة عنايتي بها وحبي لها والآن ان كنت تقبل أن تكون بمثابة ولدي أهب إليك جميع أموالي وأزوجك فتاة جميلة وحسناء جدا وتعيش معي بهناء وراحة لم تر مثلها عمرك فتنسي وطنك وبيت أبيك

فأبدي ماهان الفرح عند سماعه هذه البشارة من فم الشيخ فعاد الى تقبيل يديه ثانيا وقال العفو ياسيدي أنا عبد لك وليس من حدي انه أكون ابنا لك لأن حظي الاسود لا يؤهلني لقبول مثل هذه النعمة التي لاتليق بي ولست أهلا لها ومن أين للزمان أن يساعدني على هذا الحظ إن ذلك لمن أعجب العجب

فأجاب الشيخ كلا يا ولدي فما هذا الكلام الذي تتكلم به فلا تقطع آمالك من مساعدة الايام فان فرحا بدون كدر لا يصير وراحة بدون محنة لا تقع وهذا أمر ظاهر فان الراحة والسكينة يعقبهما العذاب والمشقة ومتى انسحب العذاب والمشقة حل محلهما الراحة والسعادة ومن المقرر أن الراحة بعد المشقة تكون لذيذة وحلوة والمحنة التي تجيء بعد الراحة تكون صعبة جدا ولاجل ذلك فبعد أن انقطت محنتك واوقات عذابك وصلت إلى ميدان الراحة والسعادة فلا تندم فقط عليك أن تصغي لي ولا تخالفني . فأكثر ماهان من الدعاء للشيخ والثناء عليه

وقال له كيف لا أصغي اليك وأسمع كلامك مع أنك تنازلت إلى حد أن قبلتني عندك واهتممت على مساعدتي فماذا أريد من الله غير ذلك وحينئذ أخذ الشيخ ماهان من يده وقبله فى جبينه وعاهده على أن يكون له أبا ومساعدا وحنونا وكذلك عاهده الآخر بأن يكون له ابنا طائعا محبا وعلى ذلك أصبح منهما ينظر إلى الآخر نظر الحب والامتنان وقد سر ماهان مما أوصل الزمان اليه وقال فى نفسه انى أقيم الآن عند هذا الشيخ وأتخلص من كل عذاب وعناء واتخذه أبا لي ومعينا فى حياتي الي أن يقضى الله أمرا كان مقدورا .

ومن ثم قال الشيخ لماهان انت تعلم ياولدي أن هذا المكان بعيد عن العمران وهو مكان الغيلان والعفاريت ولأجل ذلك أنشأت هذه الحديقة تحت الارض ومع ذلك فان لست أمينا على نفسي فى وقت الليل فاني أذهب كل ليلة الى بيتي وآتي فى الصباح فاذا شئت اذهب معي الي بيتي وإذا كنت ترغب فى أن تبقي

هنا فأدلك على مكان حصين خفي عن العيون تبيت فيه الى الصباح وفى الصباح نذهب سواءا الى البيت فأريك أموالى وجواهرى وأسلمك الجميع وأستريح أنا من العمل .

فأطرق ماهان متفكرا عند سماعه كلام الشيخ وقد قال في نفسه من يعلم إذا كان الشيخ صادقا فى كلامه أم لا فلربما إذا ذهبت معه إلى البيت اقع هناك ببلاء عظيم أليس الرجل الذي صادفني في الأمس قد أظهر لي من الغيرة والاهتمام ما أكد لى أنه سيخلصني ثم انضح لى أنه غول وقادنى إلى البلاء وسحبنى إلى داخلية الصحراء عوضا أن يخلصنى وربما لولا بزوغ الصباح لكان أهلكني فالأوفق أن أبقى هنا هذه الليلة فأنام مستريحا إلى الصباح وفي الصباح أعرف إن كان الشيخ كاذبا أم صادقا وهل هو انس أم جن وأخيرا قال الشيخ أرجوك ياسيدى أن تسمح لى أن أبقي هذه الليلة فى هذا المكان لأن مالاقيته فى الامس من الاتعاب وصادفته من المصائب أنهك جسمى فأرغب إذا سمحت لي أن أستريح فى هذا المكان وفى الغد نذهب إلى حيث أمرت .

فحينئذ قبض الشيخ على يد ماهان وقال له إن كان الأمر كذلك فهلم لأريك المكان الذى تنام فيه فتكون مستريحا فى هذه الليلة .

ثم سحبه إلى شجرة صندل عند حوض الحديقة وأراه سلما من الجلد معلقا فيها وقال له اصعد يا والدى الى الأعلى وهناك ترى على قاعدة الاغصان محلا مصنوعا من الخشب على شكل تخت وهناك أيضا سفرة من الطعام عليها من الأطعمة عدة ألوان فيمكنك اذا جعت أن تأكل ما تشتهى نفسك منها وهناك سرير النوم فقط أنصح لك ياولدى فاصغ لى وان كان هذا المكان خالى من السكان لكن ربما يأتى اليه أحد من الغيلان أو العالم الوحشى فهذا المخبأ أحفظ مكان يمكنك أن تختفي فيه عن العيون فابق فيه الى الصباح واذا نزلت قبل الصباح ربما صادفت مصابا جديدا وأكرر لك النصيحة فحذار من النزول مهما صادفت من الغرور والخزعبلات والأمور التى تتوق اليها نفسك والا فلا تلومن الا نفسك .

واذ ذاك اندهش ماهان من كلام الشيخ وصار يردد فى نفسه ان كان كما يقول عن وجود خوف فى هذا المكان فالاوفق أن أذهب الى بيته لكن لا أذهب فانه يغشنى ويخيفني لاذهب معه الى البيت ألم أتعلم من كل ماوقع على رأسى من المصائب والتجارب والذى أراه أن هذا الشيخ أكبر مصيبة لى وأعظم

بلية لأنه يقول لى هلم معى الى البيت فى مثل هذا الوقت وتحت الظلام فكيف يمكننى أن أسير معه فى الصحراء ولا ريب أنه يقصد بى شرا

ثم قال للشيخ انى حسب أمرك سأنام فى الشجرة ولا أنزل الى أسفل . وفي الحال تسلق السلم وصعدا لى أعلى الشجرة لينام .

أما الشيخ فانه ترك ماهان وذهب وبقى ماهان خافق القلب ينظر من الشجرة الى جهات الجنينة الأربع بخوف وقلق وهو يدعو الله أن يصونه تلك الليلة من وقوع مصيبة جديدة لأنه لم يعد قادرا على احتمال المصائب والشدائد وفيما هو على مثل ذلك يرجو رحمة الله والتفاته ويسأله الاغاثة والمعونة رأي نحوا من خمسين أوستين مشعلا مقبلة من أطراف الجنينة ولما صارت على قرب منه رأي مقدار ثلاثين فتاة على جانب من الحسن والجمال والبهاء والكمال وفى وسطهن صبية تمايل كغصن البان وقد لبست ثياب الحسن والجمال بما ميزها عن الجميع ورفعها عنهن فى كل شيء .

فلما رآهن ماهان خفق قلبه وقال في نفسه ها قد دنت مني مصيبة جديدة ما هذا البخت وهذا الطالع المنحوس . لا تمر علي براحة . ولكنه عاد فغالط نفسه وقال كلا ان هذه ليست مصيبة كما أتوهم بل ان الله سبحانه وتعالى قد استجاب دعائي وسمع صوت استغاثتى فأراد أن يخلصنى من محني الماضية ويظهر لى غزير رحمته واحسانه انى أرى هذه الفتاة جميلة جدا لم أر مثلها زمانى بطوله لقد مال قلبي اليها أواه ياليت هذه الصبية تدعونى اليها فأصرف هذا الليل معها على الحظ والهناء وأتسلى بالتمتع بجمالها ووصالها (هذه حالة الانسان فهو ظالم لنفسه جهول قليل العقل لا يتخلص من البلاء والعذاب بل لا يزال محاطا بها من كل ناحية حتى يفكر فى الفسق والزنا ولا يخطر بباله أن ربما تكون هذه الصبية واحدة من البلايا المتراكمة عليه المتسابقة اليه) . ولما قرب الفتيات من الحوض نصبن عنده سريرا مزخرفا جميلا . فدنت الصبية الحسناء وجلست عليه ووقف باقي البنات حوالها صفا صفا

ثم ان الصبية أشارت فأحضرت سفرة من الطعام كثيرة الألوان داخل أطباق من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة فنهضت من مكانها وهى تمايل بدل وخفر وجلست على الطعام وشغلت فى الاكل .

وكان ماهان ينظر اليها بكمال الدقة والامعان فتاه عقله وكاد يغمي عليه

من شدة الوجد والغرام والجمال . وحيث انه كان قريبا من مجلس الصبية أخذ فى أن يتفرج عليها جيدا ويشاهد كل معنى فيها وكان يلوح فى خاطره أن هذه الصبية هى بنت الشيخ وهؤلاء البنات هن خدمها ومن عادتهن أن يأتين فى الليل إلى هذه الحديقة للتسلي والحظ والانشراح .

ثم تأوه وقال آه كم هى جميلة كم هى بديعة وحسناء انى أكاد أن أقع مغشيا على ما هذا التأثير العجيب أواه ما هذه الشفاه العنابية ما هذه الحواجب والعيون السوداء وماهذا العنق اليقق البلوري الابيض انى لم أر مثلها زمانى بطوله فهل يا ترى أقدر أن أنال منها ما أشتهيه . وأتمتع بهذا الجمال الباهر . ان كانت بنت الشيخ صاحب هذا المكان فهى من نصيبي لامحالة لأنه وعدنى أن يزوجني بفتاة حسناء ويتخذنى كولده . وبقيت هذه الأفكار تقوى عليه وتتلاعب به وعيناه لاتفارق الصبية .

ثم ان الصبية بعد أن فرغت من تناول الطعام نهضت ومالت يمينا وشمالا ومشت الى السرير وهى تهز خصرها تارة وتحرك ردفها تارة أخرى وتلاعب عنقها آونة وتذبل عينيها أخرى وما استقر بها الجلوس حتي استوى كل جماعات البنات حولها وأخذت كل واحده منهن آلة طرب وأخذن فى الضرب عليها والغناء بأصوات فردوسية ودارت عليهن احدى الفتيات بكاسات الخمر وقد رقص ذلك المكان على نغمات الطرب وألحان المغنيات .

ولما مضى نحو من نصف ساعة عليهن وهن على تلك الحالة رفعت الصبية نظرها الى فوق فرأت ماهان محدقا بهن يتفرج عليهن فأرسلت في الحال واحدة من أتباعها وأمرتها أن تدعوه للاشتراك معهن على مائدة الحظ والبسط والانشراح .

فتقدمت الفتاة بقدمانس الى تحت الشجرة وخاطبت ماهان بلسان عذب وغنج ساحر ودعته الى النزول والجلوس بينهن والاستئناس بهن فانجذب قلبه برنتها ودلالها وأراد النزول فى الحال ولكن طرأ على فكره قول الشيخ له حذار من النزول الى أسفل والا جلبت على نفسك بلاء عظيما ولذلك تردد فى النزول وأخذ يفكر فيما يجيب به وقد رآهن على أتم صفاء وأنس وما من داع للحذر . ولما رأته الفتاة على ما هو عليه من الارتياب قالت له لم هذا التردد والجفاء فان سيدتنا قد أمرتنى باحضارك اليها ليتم حظها بك لاننا جميعنا بنات

أبكار وليس بيننا رجل وهي تحب الغرباء وتكرمهن كثيرا وأنت لا ريب غريب عن هذه الديار فلاتحرم نفسك من ساعات حظ لم تر مثلها زمانك بطوله وقد ساقك الزمان الينا من حسن حظك وارتفاع نجم سعدك والدليل أن سيدتنا ما دعتك الا وقد مالت اليك وأحبتك من أول نظرة ولقيت فى قلبها موقعا حسنا مع أن كثيرا من الملوك وأبناء الملوك يتمنون أن يحصلوا على نظرة منها أو كلمة رضا من فيها وما انتهت الفتاة من كلامها حتي هبط ماهان من أعلى الشجرة الى أسفلها وسار بفرح لا يوصف الى جهة المجلس فنهض البنات جميعهن الي استقباله والترحيب به وقد حملته علي أيديهن وأتين به الي سيدتهن فعلقته بالبشر والترحيب وأجلسته الى جانبها واشتغلت بمصاحبته وملاعبته :

فنسى ماهان نفسه وما كان فيه من العذاب وغرق فى بحر الأنس والصفا ولم يعد يعلم ما فى الدنيا خربت أو عمرت وهل الزمان يحاربه أم يسالمه وهل هو تحت خطر أو تخلص من الأخطار ولم يعد همه الا النظر فى وجه الصبية والتمتع بملا عبتها وقد تحركت فيه نيران الشبوبية فنصب ماء الحياء من وجهه فأكثر من التطاول وقد لف يديه على عنقها فقبلها وكان يخطر له أنها ربما تمانع أو تدافع أو تغضب فلم تبد الا السرور والرضا فقال فى نفسه انها ولا ريب غريقة فى حبي قتيلة فى غرامي ولما رأي منها الطوع والانقياد وعدم الممانعة هاجت به الشهوة وحب الفسق فسألها السماح بالوصل فأسرعت الى الاجابة ونامت فى الحال علي السرير الجالسة عليه غير محتشمة من وجود البنات فزاد ميل ماهان فلم يتأخر ولا تهامل .

وقد أعاد الكرة ثلاث أو أربع مرات وهى لديه أطوع من بنانه وفى كل مرة ينهض والصبية فيجلسان اما على سفرة الطعام واما على سفرة المدام ويطوف بهما البنات للخدمة وتلقى الاوامر وقد غابت عن خاطر ماهان الدنيا ومافيها وحسب ذلك من نعم الزمان وحسناته عليه فأكثر من الطعام ومن مناولة المدام وأفرط فى الجماع وسلوك الغابات والبقاع . ولم يعد يذكر ماذا يجرى عليه فى الصباح وما سيكون له في اليوم الثانى فكانت الصبية كثيرا ما تنهض مبدية ضروب الخلاعة والدلال فتسقيه المدام من يدها ثم تجلس على ركبته فتداعبه وتلاعبه وتمسح خدها وعنقها على شفتيه فيكثر من التقبيل والعناق حتى تهيج السواكن فيأتي العمل بغير مهل كل هذا والبنات يغنين ويطربن على الآلات

ويهيجن منه الاشواق وقد صرف الليلة على مثل هذه الحال بين نغمات وكاسات ونيل وصال .

وبقى ماهان يتسلي مع الصبية على مثل ما تقدم الى أن قرب وقت البزوغ وتبين أن الصباح صار قريبا فشعر بنوع من الغم لعلمه بقرب رجوع الشيخ ومع ذلك أراد أن يتودع من الصبية قبل الانفصال فقبض عليها من خصرها وجلسا على الطعام فأكلا حتي اكتفيا ثم عاد الى الشرب واللعب وسولت لماهان نفسه أيضا أن يعود أيضا الى الالتصاق بصدرها وختم ليله بختم شهوته فمد يده اليها فنامت فعلاها وكان شفق الصبح قد ظهر بالأفق وفيما هو مشغول بعمله رأى نفسه راكعا بين رجلي عفريت كريه المنظر قبيح الخلقة هائل مخيف لايجسر الانسان مهما كان شجاعا على أن يرفع نظره الى وجهه كأنه خرج من جهنم فى تلك الساعة .

ولما رأي ماهان هذه الحال خاف جدا واحتار ماذا يعمل وقد جمد فى مكانه ولم يعد قادرا على التحرك من الخوف . أما العفريت فقال له ماذا جري لك ياحياتى لماذا هذا الخوف أين ذهبت محبتك ألم تكن أنت الذى كنت تقبل وجهى برغبة واشتياق ألم تكن أنت الذي تواصلني بوجد وهيام وكنت تارة تمص شفتى وتلحس خدى وتارة تطوق عنقي بيديك وتضمنى بحرقة زائدة الي صدرك أليس من العار عليك أن تفتر محبتك ورغبتك في وصالى مع أنى نفس الصبية الجميلة التى رأيتها ونفس المحبوبة التي أحببتها فلماذا أنت مندهش الآن

فلم يقو ماهان على الجواب ولكنه رفع عينيه الى السماء وقال العفو ياربى ماهذه الاحوال وكيف هذا الامر ألا يمكن لك أن تخلصنى من جور وظلم الدهر الغدار الي متي تجلب لى هذه البلايا والمصائب والي متي أبقى هكذا مقهورا ومحزونا ألم تفرغ جعبتك من المصائب ألم تنته ألم يكف كل مالحق بى من العذاب كيف تطيق نفسي الصبر وكيف يمكن قلبي التحمل ليتنى ما أتيت هذه الدنيا ولا رأيت من دهري المحنة والجفاء أواه ماذا أعمل وكيف الخلاص ثم تعاظم عليه الحال وكبر الامر فوقع على الارض مغمى عليه

وبعد أن بقى مقدار ساعة غائبا عن الصواب مطروحا على الحضيض عاد اليه وعيه وانتبه الى نفسه والتفت الى ماهو فيه فاندهش واضطرب زيادة عن الاول لانه رأي نفسه كمن قد خرج من الجنة الى الجحيم وقد خرج من الانس والصفا ماذا

رأى يا ترى رأى أن تلك الحديقة التى كانت عامرة بالأشجار والأزهار عبارة عن غابة من الأشواك وتلك المفروشات التي كانوا جالسين عليها عبارة عن قطع أخشاب قذرة مكسرة وتلك الآلات التى كانوا يضربون عليها قطع من عظام الحيوانات . وكذلك ظهر له أن تلك الأطعمة الشهية الكثيرة الألوان كانت من النجاسة والأقذار فلما رأى ماهان ذلك اضطرب اضطرابا عظيما وأخذ فى التقايىء واستفراغ ما أكله وبعد أن صرف نحوا من ساعة فى قىء واستفراغ تضجر من عمره وكره الحياة واشتد بغضه لها ولوجوده فيها ولم يقف به الحد الا عند البكاء وسكب الدموع بكثرة وأخيرا لم ير وسيلة الا الرجوع بالشكوى الى الله ومعاتبة الزمان الغادر الذي حط بكليته عليه .

وهكذا صرف ماهان عدة ساعات بين تأسف وعتاب وشكوى والتماس حتى هان عليه الأمر وعرف أنه ما عاد يفيد الا السعي والجري فنهض يركض وهو يفتش ويطوف البرارى والقفار مفتشا على الطريق والاهتداء اليه وهو كلما جال في خاطره ما مر عليه في الليلة الماضية تطبق الدنيا على رأسه ويصبح كالمجنون قائلا ما هذا الذى وقع على لقد رأيت الصبية فاذا هى جميلة ولمستها فاذا هي ناعمة البدن طرية الجنبين وواصلتها فاذا هى نهاية في اللذة والغنج والحركة ثم رأيتها وقد دخلت فى هيئة عجيبة غريبة مخيفة شيطانية وتلك الحديقة التي جلت فيها وشاهدت أشجارها وأزهارها وأكلت منها أثمارا لا تنقص عن الجنة فى كل أمر كيف بأقل من لمح البصر أصبحت كجهنم وكيف أن ذاك الطعام الفاخر المتنوع الشهى الذى كنت التهم منه بشوق زائد قد ظهر لى فى آخر الأمر أنه نجس وغائط وليس هذا فقط بل كل شىء حسن كنت أسر وألتذ به ليلا أصبح وقت الصباح قبيحا وكريها فيا للعجب من هذه الحال لقد قضى كل هناء بأسرع من لمح البصر وعدت أجول وأركض فى أطراف الصحراء كما كنت فى أول يوم .

(ومن دقق النظر ير أن ما وقع لماهان هو طبق ما يقع للناس فى الامور الدنيوية وهم لا يشعرون بها فاذا رفع الغطاء عن عيوننا رأينا أن كل الأمور التى نميل اليها والاشياء التى نتعشقها ونتيه بها ونتشاحن عليها ونتعذب فيها إنما هى مظاهر وصور وهمية موشاة بقشور براقة خداعة فمتى أزيلت ظهر أنها نجاسة وأكثر كراهة من النجاسة فالانسان على الدوام يعجب بما يرى لانه يغش

بالظواهر للغفلة المحدقة به ولحجاب الوهم المنسدلة أستاره عليه خلفه فكم غرت المناظر الناس وذهبت بألبابهم وفطنتهم مع أن الدنيا مملوءة بالمكاره والمصائب فان الناس يفرطون فى عشقها وغرامها وحتى الذى جربها وذاق ضرها فانه لا يملها أبدا وهى حبيبة عنده

وإذا الشيخ قال أف فما مل حياة ولكنما الضعف ملا

وحقيقة الامور الدنيوية فى غاية الحقارة ولذلك قيل ان أحسن ما فى الدنيا منكوح ومطعوم وملبوس فالملبوس أفخر أنواعه الحرير وهو خره دودة القز والمطعوم أشرف أنواعه العسل النحل وهو خره ذبابة أما المنكوح فهو مباله في مبال أى مكان البول سواء كان من الرجل أو المرأة ـ هذا وإن فعل الوهم فى الأشياء ليخرجها عن حقائقها فرب بصقة فى الارض انعكست عليها أضواء الشمس فرأتها العين فحسبتها ماسة غالية الثمن وربما دفع الغرور والوهم الناظر اليها الى السقوط عليها لاخذها فيجدها شيئا تعاف النفس ملمسه وتقزز منه الاذواق السليمة .

وهكذا اللذة والشهوة الطعامية والبهيمية فى ظواهرها حسنة وهي اشياء فى غاية الضرر والهوان وقد بقى ماهان على تلك الحالة فى الصحراء وهو تارة يفكر وطورا يحزن ويعظم عليه الامر فيبكى بدمع غزير وتارة يسأل الله الخلاص من الضيق الذى نزل به والعذاب المحيق به .

ودام على هذا الوجه يضرب فى تلك الصحراء الواسعة الجوانب لا يعلم ماذا يعمل ولا إلي أين يذهب وفى أية جهة يسير وهو متيقن ومتأكد أنه لابد فى المساء من أن يقع في بلية أخرى اذا دام تائها لا تمر ليلة بدون مصاب ولم يهتدى الى طريق عام قط ليقدر أن يصل منه الى الصحراء ولما قرب المساء أخذ يرتجف من الخوف وقد شعر بقرب وقوع المصيبة وصاح من قلب مقروح ماذا أعمل ها قد دنا المساء وأنا أعرف أنه لا يمكن لليل أن يمر على بدون ويل وعذاب وكان لا يغيب عن فكره قط كل ما جري عليه فى الليلة الماضية فقد أكل بشهية وشرب باطمئنان ولذة ثم تبين له أن ما أكله وشربه كان من أوساخ المخلوقات المتنوعة وأن تلك الفتاة التى ظهرت لعينيه بأبدع منظر وأجمل صوت تبينها على نور النهار فما كانت الا عفريتا قبيح المنظر كريه الشكل تنفر من قبح صورته الوحوش الكاسرة

ولما رأى الليل أخذ ينتشر شيئا فشيئا على تلك الصحراء جعل يبحث في نفسه عما يعمل وأين يختفي وكيف يلقى حوادث الليل التي تفاجئه وبرغم احتراسه منها فانه يقع فيها . ولكن من يقدر أن يخلصه مما هو فيه غير الله القدير سبحانه وتعالى وأخذ يدعو الله ويسأله المعونة ويقول إلهي ان كنت قد أذنبت اليك فالجزاء الذي لاقيته كاف إذ ليس لي قوة ولا جلد على احتمال شيء جديد وصبري قد نفد وقوتي ضعفت فارحمني يا مولاي وارحمني يا إلهي وفرج عني ما أنا فيه ولا تتركني عرضة للنوائب ولا توقعني في أيدي العفاريت والغيلان .

فما فرغ من دعائه حتى لاح له تحت الظلام نار تضطرم في إحدى الجهات فبقي محدقا بها برهة من الظلام يشتد عليه حتى كاد يجن من الخوف ومع أنه رأى من المصائب ما رأى فلم يتمالك أن جعل يتقدم إلى جهة النار شيئا متستراً هاربا من سواد الليل وخوفا من مفاجئة جديدة تفاجئه دون أن يراها . وظل يتقدم صوب النار المشبوبة حتى قرب منها فرأى عندها عفريتين سود الألوان بيد كل منهما دماق . وحالما شعر العفرتين بصوت وقع اقدام ماهان خفا إليه . فغاب عقله من رأسه وقال لاحول ولا قوة إلا بالله ماهذه الأمور أرؤيا أم سحر ام أنا في معرض القيامة . إن كنت قد تخلصت فيما مضي من البلايا التي وقعت على رأسي فلا أظن أنني في هذه المرة أتخلص من هذين العفريتين وزاد عليه الخوف والبكاء وحال الهرب فخانته قدماه وقيدها الخوف فلم يعد في وسعه إلا الاستغاثة

ولما رأى العفريتان حالة ماهان وذهوله وضياع صوابه قالا له يا لك من ضعيف وحقير لقد أتيت وحدك ألم يكن لك رفيق . فرمى ماهان نفسه على أرجلها وأخذ يتوسل اليهما ويستغيث بهما ويقول لهما ليس لي رفيق بل أنا وحدي الذي نكبت بما أنا فيه فصرت على جمر الشدائد والأهوال . فقالا له أن كان الأمر كذلك فهلم واجلس حتى يأتينا رجل آخر فتقسمكما فيأكل كل واحد منا واحداً . فارتجف ماهان من ذلك وازداد رعبه وخوفه وتيقن الموت والهلاك وبقي واقفا كالأموات فقبض على أحدهما وساقه إلي جهة النار وهو يقول له إنك ضعيف للغاية لا تشبع أحداً منا فدائما يأتينا اثنان سمينان فنأكلها . فلم يقول ماهان على الكلام بل بقي يضطرب مقدار ساعه يرثى فيها نفسه ويصلي إلي ربه ويطلب منه المساعدة والخلاص والفرج ثم بعد ذلك انتبه إلي نفسه فرأى العفريتين يتخاصمان فنظر اليهما فرأى

أحدهما قابضا على الآخر باليد الواحدة ويضربه بالمطرقة على رأسه باليد الثانية وقد سالت الأدمية على جسديهما وسمع الواحد منهما يقول للآخر هذا الى ورزقي فأنا آكله ولا يمكن أن أطعمك منه لقمة ولو قطعت إربا إربا نيجيبه الآخر، أنا آكله ولا تقدر أن تمد يدك إليه أو تشاركني في قطعة منه .

فقال ماهان في نفسها انهما يتخاصمان على الآن والأمل في الله أن يميت بعضهما بالبعض فيحرمان من هذه الأكلة اللذيذة وبقى ناظرا اليها وكل واحد يطرق بالمطرقة رأس الاخر دون فتور ولا رحمة وداما على ذلك مقدار ساعتين حتى فتحت في رأسيهما الفتحات وانفجرت الادمية كالغدران وكلا وملا ولم يعودا قادرين على الثبات فغابا عن الوجود ووقعا إلى الارض كالموتى .

فلما رأى ماهان منهما ذلك كاد يطير من الفرح ولم يضيع هذه الفرصة فنهض من محله وتقدم اليها فوجدهما يخفقان من التعب والجراح إوهما في حالة النزع فأخذ مطرقة احدهما وسحق بها رأس الواحد بعد الاخر ثم خر على وجهه الى الأرض شاكرا الله تعالى على خلاصه وشعر من نفسه كأنه عاد الى الدنيا ثانية واكتسب حياة جديدة . وكان الشفق حينئذ قد قرب فأخذ في الركض وهو يقول ياليت أنه الليل لم يخلق والظلام لم ينتشر في هذه الصحراء حتي أتخلص من أيام مصائبي ومحني ودام في ركضه طائفا في تلك الصحراء مفتشا عن الطريق العام المؤدى إلى العمران ولكن هيهات فقد أقبل عليه المساء دون أن يجد وسيلة أو فائدة وقد تسلق الجبال وطاف السهول والوعور والغابات والأحراش ولما رأي الليل قد قرب عاد اليه الخوف ووقفت روحه عند شفتيه واستعد لملاقاة صدمة جديدة لا يعلم نوعها ولا يدرك عظمها ولم يعرف ماذا يعمل وصار يردد هذه الجملة إنا لله وإنا اليه راجعون .

وبينما هو يفكر في نفسه قائلا أين أذهب وفي أية زاوية أختفي سمع خلفه صوتا يقول هنا هو هذا هو فدار بوجهه الى الوراء فرأى اثنين من العفاريت لم يخلق الله أقبح منهما منظرا ولا أشنع خلقة وبيد كل واحدة منهما مطرقة ولما اقتربتا منه قالت احداهما للاخرى هذا هو الانسان الخبيث الضعيف الذى قتل زوجينا في الليلة الماضية فلننظر الآن في طريقة مجازاته ومعاقبته على فعلته الشنعاء .

وماسمع ماهان هذا الكلام حتي قطع الرعب أوصاله وصـــارت روحه تتردد فى صدره .

فسأل الله المساعدة على الخلاص منهما وأن يهديه الي وسيلة للنجاة كما خلصه من غيرهما وكان يفكر ان من المستحيل إفلاته منهما وهما تقصدانه وتفتشان عليه للاخذ بالثأر والانتقام منه .

وفيما هو يردد ألفاظ الاستغاثة الى الله ويفكر فى وسيلة للخلاص قالت احداهما للاخرى أنا آخذه الى مكانى وأقتله هناك بعد أن أذيقه أنواع العذاب وأشدها فأجابتها الثانية :

كلا . كلا . بل أنا آخذه وأعذبه وأقتله لأن ثارى عليه أعظم من ثارك حيث أن زوجى كان أحسن من زوجك .

فخالفتها ولم تسلم معها واغتاظت منها وحينئذ وقعت المنازعة بينهما وكل واحدة منهما تقول للاخرى لا يمكن أن أتركه لك بل أنا آخـذه وأقتله فى زوجي ولم تلبثا أن ووقع بينهما الضرب بالمطارق على رأس بعضهما البعض .

وعندما رأى ماهان ذلك انفرج عنه بعض الهم وقال إن شاء الله أتخلص منهما كما تخلصت من العفريتين زوجيهما بالأمس ولبث ينتظر انتهاء المعركة حتى رآهما وقد تخدشتا بالجراح وسالت الآدمية من رأسيهما الى الأرض كالغدران ثم وقفتا غائبتين عن الوجود فقال الحمد لله وهذه طريقة مناسبة للخلاص وحينما عزم على الفرار سمع صوت أسدين يزأران وقد رآهما يتقدمان اليه من بعيد

فماذا يترتب على ماهان أن يعمل فى مثل هذه الحال لقدزاد خوفه فى بادى فى الأمر لـكنه رأى نفسه واقعا بين خطرين فأسرع أولا الخلاص من المصاب الأول فأخذ مطرقة إحدى العفريتتين وسحق بها رأسيهما دون امهال وصبر الى أن دنا منه الاسدان فأسرع حالا ورمى لـكل واحدمنهما واحدة من المقتولتين فتناولهما بسرعة وبركا الي الارض واشتغل كل واحد يأكل واحدة فاغتنم ماهان هذه الفرصة ومال الى جبهة ثانية وصار يركض فى تلك الصحراء ولـكن قلبه كان يخفق وجسمه يرتجف وهو يتلفت الى ورائه المرة بعد الثانية خائفا من أن يلحق به مصاب جديد أيضا وهو لايعلم ماذا يعمل والى أين يذهب وقد تمزق الحذاء الذى فى رجليه قطعا قطعا فألقاه وصار يمشي عارى الرجلين وهو يتضجر من نفسه ويقول آه . ما هذه الحال . ما هذه الحياة ليث الأجل

يفاجئني فيخلصني من هذه الشدائد والمحن التى أحسب أن لا نهاية لها فلو أنه جاء بى لنجوت من هذا العذاب المهول . ان حياتى ليست بيدى والا كنت أتركها . لقد عجزت وهلكت من التعب والركض كانى أتيت الدنيا لملاقاة البلايا والمصائب لقد رمانى الدهر فى وهدة العذاب وتخلى عنى فالى أين أذهب من وجهه والى من أفر ليساعدنى وأين احتبىء ومن يقدر أن يخلصنى . ياليت الموت سبق الى فأدركنى قبل خروجى تلك الليلة لتلك الحديقة ولكنى قدر فكان انما الذى يحيرنى الآن أني لا أعرف حقيقة هذه الاحوال التى أناقيها ولا أدري كيف وقعت فى هذه الجهات وما هي تلك المصيبة الاولى التي جاءتنى بشكل شريكي ان كل هذه الشدائد توالت على بسبب تلك الليلة الكريهة فلا كانت ولا كانت الخمر التى شربتها فبسببها ذهبت لأتقايأ فى الحديقة ومنذ تلك الساعة لم أذق النوم ولا الراحة وبقى يتضجر ويشكو ويتحسر ويسرع فى الركض يفتش عن مكان يختبىء به حتى الصباح . ولما رأي الشفق قد بان من الشرق انفرج بعض الهم عن صدره وحسب النهار نعمة كبرى لعلمه الاهوال والمخاوف لا تأتيه فى النهار بل فى الليل ولذلك فرح بدنو النهار وشعر بالاحتياج الى الراحة فعرج الى خلف أكمة وجلس وراءها يفكر فى حاله وما صادفه فى هذه الايام القلائل من النوائب العظيمة وعلى الخصوص عندما خطر على باله وطنه وأهله وقد سال الدمع كالسيل عن عينيه وصاح من قلب معذب أواه كم هو حسن أن يكون الانسان فى وطنه وبين أهله يقضي عمره فى الراحة والصفاء والهناء ولما كنت فى بلدى ما كنت أفكر فى أمر قط ولا كانت تهمنى الدنيا وأمورها وأحوالها وأتعابها فكنت أنهض فى الصباح من سرير جميل ووسادة لينة فأغسل عيني ووجهى ويدى ورجلي وأجلس براحة أضحك وأتسلى مع أهلى حتى يأتى وقت ذهابى الى افتتاح المخزن فالبس الملابس الجميلة والثياب الفاخرة وفى المخزن أيضا أقضى النهار فى التسلي واللهو والضحك والممازحة والفرح بالارباح وفى المساء أقفل دكانى وأعود بفرح الي بيتي فأغتسل بماء الورد من رأسي الى قدمى وأغير ثياب النهار وألبس ثياب السهر وأصرف بالمزاج والحظ والانشراح والتسلى لا أفكر خربت الدنيا أم عمرت . آه ما أجمل الاوقات التي ذهبت وما ألذها في الاسبوع كان يدعونى أصحابى مرتين أو ثلاثة فنبقي إلى نصف الليل وأحيانا الى الصباح على المنادمة والحظ والانشراح

فمن كان يظن أو يجول فى فكره أنى أنتشل من ذلك النعيم والقى بنفسي فى هذا الجحيم بأسرع من لمح البصر فيا ليت الموت كان قد باغتنى قبل أن أصل الى هذه الحالة ويا ليت الزمن أبقانى أعيش فى وطني عيشة القهر والفقر حيث أنه أراد أن يتنكر لى ويبليني بمثل هذه المحن والتجارب بعد أن كنت أرتع فى حلل الهناء والسعادة . وبقى ماهان يعدد ويفكر فى حالته الماضية وسعادته التى انقرضت حتى ضجر ولم ير من فائدة الا السعى والجد والتفتيش فنهض وعاد الى البحث عن الطريق كالايام السابقة .

فاخذ ماهان فى الركض من ناحية الى أخرى فى الصحراء والآكام تائها مقروح الفؤاد وقد تشققت رجلاه وسال الدم منهما وجف ريقه من قلة الماء والتصق لسانه بحلقه وأصبح كالخشبة ولم يكن له ما يأكله ليرطب به جوفه الا النباتات التى كان يصادفها احيانا فى طريقه في بعض البقع ودائما كان يعمد الى الدعاء والصلاة ويقول يا إلهى بحق أنبيائك الكرام إما أن تخلصني من هذا العذاب واما أن تدع الليل يأتى ولا تذهب بالشمس أواه هاك الشمس تغيب والليل يتقدم بويلاته الى وبعصائبه المخيفة المرعبة واحسرتاه ما هذا العمر السيء والحياة التعسة . ولما رأى الليل يقترب أيقن بدنو العذاب فصار ينتظر وقوعه الدقيقة بعد الاخرى

وفيما هو على تلك الحالة رأى فى الأفق غيمة سوداء ظهرت من الغرب وأخذت فى التقدم والانتشار حتى ملأت السماء وظللت تلك الصحراء فزادت الليل اسودادا فارتجف قلب ماهان منها وقال ويلاه هذه مصيبة كبرى وبلية عظمى وأخذ يضطرب من الخوف لانه لكثرة الظلام وتغطية الكواكب لم يعد قادرا أن يرى ما أمامه .

وبعد دقائق قليلة انفتحت ميازيب السماء وانفجرت منها ينابيع الامطار فطار صواب ماهان وصار يبحث عن مكان يختبىء فيه أو شجرة يستظل بظلها ولكن عبثا كان يبحث فانه لم يتوفق الى وجود غصن يظله أو صخرة يختبىء تحتها بل كان الحصى يجرح رجليه والوحل يغرقها وقد ابتل جسمه وثيابه وصارت المياه تتساقط منها كالميازيب وأصبح فى حالة يرثى لها غارقا فى الوحل والمياه والمطر لا ينقطع وهو لا يدرى أين يضع رجله من شدة الظلام فمرة يدوس فى

حفرة مياة فيغرق إلى وسطه ومرة يعثر في حجر أو شجرة فيقع على وجهه وقد تعذبت نفسه وخارت قواه وسالت منه الدماء فكان يصيح من ألم العذاب . آه يا ربي . ما هذه الأحوال وما هى الفائدة لك من عذابي وبلائي وأي ضرر عليك لو أشفقت علي وخلصتني من هذه المصائب والمحن فأسألك يا رب بحق جلالك ورحمتك وعظمتك أن تخلصنى من هذه الشدائد أو تميتنى فى الحال لأني لم أعد قادرا على تحمل أكثر مما تحملت فقد ضاق صدري وزهقت روحى وهلك جسمى وأصبحت فى آخر رمق من حياتى وإذ ذاك اشتد المطر وأصبحت النقطة الواحدة قدر الجوزة فزاد خوف ماهان وتعاظم عليه العذاب والضيق ولا سيما عند ما برد الهواء وصار الجو كالزمهرير واصطدمت الأرياح بعضها بالبعض واشتدت الرعود والصواعق وتواترت الزوابع فصار يرتجف مثل ورق الشجر عند هبوب الريح (فالله لا يرى أحداً مثل ما رأى ماهان فى تلك الليلة) وفيما هو على تلك الحالة طرق سمع صوت نباح كلب فطار قلبه من الفرح وقال لا بد من وجود قرية على مقربة مني .

ثم ارتمى لجهة صوت الكلب ومع أنه سمع الصوت قريبا منه فبعد أن مشي مدة انقطع الكلب عن النباح ولم يعد يسمع له صوتا فارتجف قلبه ووقف وفيما هو واقف عاد الكلب إلى النباح على مقربة منه فمشي فانقطع الصوت فوقف فعاد الكلب إلي النباح فتحير ماهان من ذلك وقال في نفسه ياللعجائب ما هذا ، من المحتمل أن الزمن سيوقعنى فى مصاب جديد أواه من ظلم الدهر ما هذه الأحوال وهل بقي عند الزمان نوع من المصائب لم يجرعنى كأسه هل رأي أحد من الانس فى كل ذلك الزمان الطويل الماضى مثلما رأيت أنا وبقي على حاله مع الكلب حتى أصبح الصباح فانقطع الصوت وذهب كل خوف عن ماهان ولما لم يعد قادرا على الوقوف وقع إلى الارض غائبا عن الهدى والوعى .

وبعد أن مر عليه نحو ساعة وهو على تلك الحال عاد اليه وعيه ففتح عينيه فوجد الشمس قد خرجت ولم يبق أثر قط للغيوم وهب النسيم لطيفا وظهر على الآكام المحيطة به النباتات الخضراء والزهور الملونة الزكية الرائح تتلألأ تحت نور الشمس البهى .

وعندما رأى ماهان هذه الاحوال رفع عينيه وقال سبحان الله ماهذه الأحوال وما كانت الحالات التي رأيتها وماذا تكون الاشياء التى سأراها فيما بعد فهل

يا ترى أتخلص من هذه البلايا وان كنت أتخلص فأين ومتى وهل يا ترى أرى بعد ذلك وطنى وبلادى وأقيم فيها براحة كما كنت قبلا . أواه . من يعلم ومن أين لى ذلك وسوء حظى يتعاظم اليوم بعد اليوم .

ولما وصلت الملكة آذريون بنت سلطان الغرب صاحب الاقليم الخامس فى حكايتها إلى هذا الحد قالت كيف ترى يا حبيبي بهرام حكايتي وكان بهرام يستمع حكاية آذريون وهو متأثر مما جرى على ماهان ويتعجب من الامور التي طرأت عليه وينتظر نهايتها ليعلم ان كان يتخلص من توهانه ومن الحوادث القوية التى كانت تقع عليه فى كل ليلة.

فلما سألته قال لهـا نعم يا عزيزتى وعيونى ان حكايتك هى بالحقيقة تفوق غيرها من الحكايات التي سمعتها وهي بالحقيقة جميـلة ومؤثرة وهي موعظة وعبرة للانسان تبين له عجائب مخلوقات الله وأنواعها وأنا أرجوك أن لا تقفي عند هذا الحد ولا تطيلى السكوت لأنى أحب أن أعلم هل يتخلص ماهان من البلايا والمحن أم لا وكيف يكون خلاصه إذا كان يتخلص .

أما آذريون فتمايلت من الفرح تمايل السكران وأبدت ألف غمزة وغنجة وعادت الى الحديث فقالت :

ورأى ماهان نفسه فى تلك الصـحراء والبر الواسع ورأى تلك النباتات والازهار الجميلة وشعر بالهواء يهب لطيفا ومنعشا فأهاج ذلك خاطره بزيادة وحرك فى نفسه الحنين الى وطنه وبلاده فطفق يبكى على غير ارادته وبعد أن جف دمع عينيه بالبكاء ومقدار ساعتين أو ثلاثة رأى أن الوقت يمر والنهار يقصر وهو على تلك الحالة لا يفيده البكاء شيئا ولا تخفف عنه الذكرى مصابا بل تزيده بلاء وعناء وحينئذ نهض وكان النهار قد تناصف فأراد السير فلم يقدر كسابق الايام لان البرد كان قد أثر فى جسمه وثيابه المبللة أضرت به فنزعها عنه ونشرها فى الشمس حتي نشفت وارتاح جسمه قليـلا فلبسها وإذ ذاك رأى أن الشمس قد مالت نحو الغرب فحزن ولا حزن يعقوب وقال ويلاه هو ذا الليل يتهددنى ولا أعلم جنس المصيبة التي تختبىء لى في جوف هذه الليلة الآتية .

ولما لم يجد فائدة ولا وسيلة ليقي نفسه بها وهو فى ذلك المكان نهض وأخذ يطوف من جهة إلى أخرى ومن مكان إلي مكان فلم يهتد إلي طريق كل هذا

وعيناه لا تنفصلان عن الشمس حتي كادت تختفي عن الأرض فصاح واويلاه ماذا أعمل فى هذه الليلة وأين أختبىء من نكبات هذا الليل التى لا أعلم كيف تكون .

ثم انه لجأ إلى ذيل جبل وجد فيه مغارة صغيرة فاستصوب أن يختفي فيها تلك الليلة وأخذ يجمع أخشابا وأشواكا وحطباً ويأتى به إلى المغارة وأحكم وضعها على بابها وأقام داخلها لكن كيف كانت حالته فان قلبه من الخوف والهلع كان يرتجف وآذانه من دقيقة إلى ثانية تسمع أصوات المصيبة وعيناه تراقب باب المغارة وأفكاره تدله على أن المصائب تتزاحم عنده ومر عليه ساعه وهو على تلك الحالة ثم شعر بأن جسمه يرتجف ويهتز كمن يتحرك بقوة كهربائية فقال ها هو البلاء قد جاء فكيف الخلاص وتعاظم عليه الحال واشتد به الأمر وكبر الوهم وهو لا يعرف كيف يفعل حتي مرَّ نحو ثلاث ساعات من الليل ولم يعد قادرا أن يتحمل فوقع الى الأرض مغميا عليه مدة ثم أفاق من غشيته وقفز كالسهم من الوتر الى خارج المغارة ومزق ثيابه قطعا قطعا حتي لم يبق عليه الا ثوب واحد منها فأخذ يركض فى تلك الصحراء تحت ظلام الليل العاكر كالمجانين فاقد العقل لا يعى على شيء .

ولما لم يبق لماهان شيء عقل ولا ادراك أخذ فى أن يجول كالوحوش الضارية فى تلك الجهات لا يعرف الخوف والفزع ولا يشعر بالتعب والجزع فكان يلعب بالحجارة والأعشاب والنباتات ويسير مع مهب الهواء ويضحك عند اشتدادها ثم يبكى بكاء مراً وقد مر عليه باقي الليل على تلك الحال .

ولما أصبح الصباح لازم السير فى الصحراء وهو لا يعى شيئا من أمور الدنيا مطلقا ولا يفكر فى البحث عن الطريق كما كان سابقا ولا فى الخروج من الصحراء والوصول الى بلده وبماذا يفتكر المجنون وماهان قد أصبح مجنونا منذ الليلة التي قضى فيها ثلاث ساعات فى جوف المغارة فكيف يخاف فلم يكن يعرف شيئا ولا يشعر بشيء يأكل من النبات كالبهائم والحيوانات ويأوى الي الكهوف والمغائر ويمشي كيفما تأخذه الصدف تارة شرقا وطورا غربا وبقى هذا المسكين فى تلك المحلات على هذه الحالة مدة شهرين تقريبا وقد تدلى شعره على أكتافه واسود وجهه وطالت أظافره وصارت حالته غريبة يرثى لها وتخدش جسمه الناعم اللطيف المدلل الذى ربى فى أحضان النعيم والعز .

وبينما كان يطوف فى تلك الصحراء صادف عين ماء عليها رجل جالس وبين يديه طعام يأكل منه وقد وقف حواليه نحو خمسة عشر رجلا .

ولما كان ماهان جائعا فارغ الجوف لم يحفل بالرجال الوقوف بل دنا من الرجل يأكل الطعام وجلس تجاهه وأخذ يزدرد الطعام ومع أن الرجال الوقوف اهتموا كثيرا فى منعه بل أشاروا اليه بأيديهم وأعينهم أن يمتنع ويرجع الى الوراء فان ماهان لم يصغ اليهم ولا سمع لاشاراتهم .

وقد كان لحسن حظ ماهان أن ذلك الرجل كان ملكا والرجال المحيطون به رجال معيته وقد خرج معهم فى ذاك اليوم للصيد والقنص ثم جلس عند العين ليستريح من التعب ويأكل ما حمل اليه من مدينته من الطعام .

فلما رأي الملك أن ذا المجنون قد جلس معه على الطعام غير مهتم بأحد ولا خاف أحدا وهو فى حالة غريبة سر منه جدا وزاد سروره لما رآه يهذي بكلام غير مفهوم ويتكلم بلغة غريبة لا يفهمها فدارت المعاشرة بينهما بالاشارة والحركة والملك يضحك والسرور ظاهر عليه .

أما ماهان فانه نظر بعينيه فى وجه الملك وبعد أن أمعن فيه برهة أخذ يقهقه ويضحك ثم أخذ فى البكاء والعويل واتبع ذلك بتنهدات حارة ثم مزق طوق ثوبه ووضع يديه على صدره وكان أيضا ينظر الى أتباع الملك ويضحك ضحكا عاليا .

فلما رأي الملك أحوال ماهان وما هو عليه أدرك أنه غريب وأن لابد أن يكون قد صادف حوادث عجيبة وأمورا غريبة فاستصوب أن يصحبه معه الى المدينة واذ ذاك التفت اليه وأشار له بيديه قائلا هلم فلنذهب وجفل ماهان وقفز الى جهة اليمين قاصداً الهرب فأمر الملك أتباعه أن يقبضوا عليه فأسرع الخدم فى اثره ولم يرجعوا حتى أمسكوه فتصدي لمقاومتهم وقد جرحهم بأسنانه وأظافره وأخيراً تغلبوا عليه وربطوا يديه الى خلفه وجاءوا به الي بين يدى الملك .

ولما جيء بماهان أمام الملك أخذ يقهقه فلاطفه وهدأ روعه ثم نهض الى جواده فركبه وسار الى المدينة بعد أن أمر أن يؤتى بماهان اليها .

ولما استقر فى قصره جيء بماهان ثانية لبين يديه وأمروه أن يجلس على كرسى فوضع الكرسى علي اكتافه وجلس على الارض وهو تارة يضحك وتارة يبكي

وكان الملك والحاضرون يتعجبون من حالته وجعلوا يتشاورون فى أمره .

أما الاهالي فكان قد اتصل بهم أن الملك عثر على رجل مجنون وهو فى الصيد ولما كان حال هذا المجنون غريبا فقد أحضره الى الديوان فخرجوا صفوفا صفوفا إلى الطرقات الكبيرة والصغيرة ودخل الاعيان منهم الديوان يتفرجون عليه .

وعندما رأى ماهان هذا المجتمع والتجمهر وقع فى قلبه الرعب فأسرع فى الحال إلى الباب ومنه قفز إلى الخارج فصاح الملك اقبضوا عليه ولا تدعوه يفلت فتسابق الخدم خلفه ولكنهم لم يقدروا على الدنو منه وهو يهدر كالجمل الهائج وما زال يعدو عدو الغزال حتي خرج من المدينة فتكدر الملك من ذلك واستدعى أحد فرسانه وأمره بأن يسير فى أثره وأن لا يرجع إلا به .

فركب الفارس جواده وأسرع خلفه حتي صار قريبا منه فرآه ماهان فاضطرب وخاف وطلب الفرار فتأثره ثم نزل عن جواده وصار يناديه ويصفر له فالتفت ماهان اليه فمد الفارس يده الي ماهان كأنه يريد أن يعطيه شيئا فرجع ماهان ودنا من الرجل وعانقه وأخذ يقهقه ويضحك فلاطفه الرجل وقبض عليه من يده وأشار اليه بالجلوس علي الارض فجلسا الواحد بجانب الآخر . وقد أخذ ماهان يقتلع من النبات الجالس عنده ويأكل منه ويضع فى جيبه وفى الحال وقع الى الارض غائبا عن الوجود .

فلما رآه الفارس وقد سهل عليه أخذه فرح كثير فربطه على الجواد وأسرع به عائدا إلي المدينة ودخل علي الملك وأخبره أنه تأثره لغاية المكان الفلانى وهناك لاطفه وأجلسه الى الارض فجعل يأكل من النبات ثم أخرج من جيبه شيئا أكله مع ذلك النبات فوقع الى الارض مغشيا عليه فربط يديه وحمله على جواده وجاء به مسرعا .

فتعجب الملك من ذلك وأمر أن يخصص له قصر وأن يؤتى له بالحكماء فتقاطر اليه الاطباء والحكماء فسقوه الادوية ورشوا الماء والمقطرات علي وجهه حتى وعى الى نفسه .

ولما فتح ماهان عينيه ورأى نفسه محاطا بجمهور غفير من الناس وهو بتلك الثياب الرثة خجل من نفسه كثيرا وغطى وجهه بيديه وهز رأسه فلما رأى الملك وجماعته حالة المجنون تحيرا وتعجبوا وقالوا لابد لذلك من سبب ثم ان الملك أمر

بأن يؤتى له بالثياب الحسنة وبعد أن لبس ورتب نفسه وأصلح حاله وقف أمام الملك بكل حشمة وأدب فزادت حيرة الملك من هذا التغير وسأله عن حاله وسبب ما كان مصابا به فلم يفهم كلامه ولا عرف أن يتكلم بلغته وكان في ديوان الملك جماعة يعرفون عدة لغات فاستدعاهم ليرى من منهم يعرف لغة ماهان فكلمه أحدهم بلغته ففهم منه فأعاد اليه طلب الملك أن يخبره بحاله وأصله وفصله وبأية طريقة وصل إلى ذلك المكان .

ولما عرف أن الجالس أمامه ملك خر بين يديه وقبل الأرض ودعا له بدوام العز والبقاء وعاد فوقف مكانه والتفت إلى الترجمان وأعاد اليه قصته من أولها الى آخرها وأخبره بكل المصائب التي وقعت على رأسه أنه تاه في صحراء الجن والغيلان فزاد تعجب الملك والحضور من هذه الحوادث الغريبة وتأثروا لأوجاعه وآلامه ونهض الملك من مكانه وقلبه مملوء بالفرح والسرور وقبله في جبهته وعاد الى سريره والتفت الى رجال دولته وقال لهم أرأيتم كيف أن الله سبحانه وتعالى اذا أراد اجراء أمر سخر له من عالم الغيب من يقوم به فألف شكر لله لانه بعث بهذا الرجل فكان سببا في خلاص ابنتي . ما هذه الاحوال وما هذا العالم وكم هي عظيمة قدرة الله وحكمته لقد ساق هذا الرجل من بلاده ورماه في بحار المصائب والاهوال وأذاقه فيها أشكالا وألوانا حتى خسر عقله وجن ثم رماه على مملكتي وأوصله اليها في الوقت الذى خرجت فيه للصيد والقنص وأوصله الى جائعا بينما كنت آكل ووضع حبه في قلبي حتى ما كنت أريد أن أفارقه ثم هرب مني فأرسلت فارسا في أثره حتى وصل الى المكان الموجود فيه الدواء الذى يبرئه فأكله وشفي فظهر من كل ماجرى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يدلنا على الدواء الشافي لابنتي من مرض الجنون مع أنى صرفت كل ما عز وهان في سبيل شفائها واستحضرت الحكماء من أقطار العالم فما قدر أحد منهم أن ينفعها بشيء حتى سخر هذا المجنون ليكون واسطة لاهتدائنا الى العلاج الذى كنا نجهله ولا يتصور أحد أننا نهتدى اليه إلا بأعجوبة إلهية فما هذه القدرة العالية وهذه الحكمة الدقيقة والرحمة الواسعة التى شمل الله سبحانه وتعالى بها عباده .

ولما سمع رجال الملك كلامه فما منهم الا من سبح الله وحمده وشكره وقال لقد صدق اعتقادك أيها الملك فان الله عادل رحيم لايشارك أحدا في علمه ومعرفته في كل عمل من أعماله معجزة وأعجوبة .

وحينئذ أمر الملك أن يؤتى بثياب ماهان القديمة الممزقة فأحضرت بين يديه فبحث فيها عن النبات فأخرجه من جيوبها وسار إلى بنته وكانت مجنونة منذ عدة سنين ولم ينجع فيها علاج فأطعمها من النبات المذكور فى الحال وقعت الى الأرض مغشيا عليها مدة ساعتين ثم انتبهت من نفسها واذا بها مقيدة فأظهرت التعجب وقالت لأبيها ماهذا ولماذا أنا مقيدة فطار قلب الملك فرحا ولم يعد يعرف ماذا يفعل وقد تقدم منها وفك قيدها وجعل يقبلها فى وجهها وعينيها وحكى لها ما مر عليها من تجارب الزمان ، ولما سمعت كلام أبيها شكرت الله سبحانه وتعالى على ذلك وأثنت على ماهان .

ولما لم يكن للملك غير هذه البنت فانه فرح بشفائها كثيرا وأمر أن تزين المدينة ثم أرسل ماهان إلى الحمام فاغتسل وأتى له بالحلاق فحلق شعر وجهه وأصلح شعر رأسه ولبس الملابس الملوكية الفاخرة وأعيد الى بين أيدى الملك فنهض الملك من شدة فرحه وتلقاه بالأحضان وقبل ما بين عينيه وأجلسه إلى جانبه وبعد أن مدحه وتلطف به كثيرا أمر باقامة الافراح وزف ماهان على ابنته .

ولما رأى ماهان أنه تخلص من ذلك العذاب المؤلم وأن عاقبة الشقاء سعادة إذ كانت الطريق لوصوله الى الملك والزواج بابنته والتمتع بوصلها والحصول عليها وكانت على جانب عظيم من الجمال ذات حسن باهر ووجه ساحر خر ساجدا لله على ركبتيه وشكر الله سبحانه وتعالى على انعامه ومن ثم أرسل الرسل بالرسائل الى أبيه يخبره بأمره وبمكان وجوده وبما ناله من السعادة .

وكان ابو ماهان قد ضعف لفراق ابنه لا يقر له قرار لا فى ليل ولا فى نهار قد انقطع الى البكاء والأنين وقطع الرجاء ويئس من لقاء ولده وأما التجار الذين كانوا مع ماهان في الجنينة ليلة فقده فقد قبضت عليهم الحكومة وألقتهم في الحبس إلى حين ظهور خبره .

فلما وصلت رسالته الى أبيه صفق من الفرح وطفح السرور على قلبه حتى أنه لفرط الفرح غاب عن الوعى وفقد الصواب مدة ساعات ثم رجع الى نفسه فشكر الله وحمده على ارتياح باله واطمئنانه على ولده وفى الحال ذهب الى دار الحكومة وأعرض الامر على حاكم المدينة فأخرج التجار واعتذر اليهم . ثم بعد ذلك باع أملاكه وكل متعلقاته وحمل عياله وما يحتاج اليه فى سفره وسار قاصدا ولده

أما ماهان فمنذ صار صهرا للملك جعل يهتم بارضائه وساعده علي ذلك ذكاؤه وحسن تربيته غير أن همته كانت متجهة الي تعلم لغة البلاد والتعود على عاداتهم فوجه اجتهاده الى هذه النقطة وفي وقت قريب تعلم كل ما يحتاج اليه وأصبح كأنه مولود فى المدينة متعلم فيها فصار يصرف أكثر أوقاته مع حميه الملك ويعيد عليه ذكر الحوادث والمصائب التى مرت عليه فيتعجب لها ويشكر الله على خلاصه منها .

وبعد مرور أشهر قليلة دخل أبو ماهان المدينة فبلغ الخبر ابنه ففرح الفرح العظيم وخرج لاستقباله وعانق أحدهما الآخر وقد أغمى عليهما من شدة السرور مدة ساعتين تقريبا ثم أدخل ماهان أباه الى قصره بالاحتفاء والاحتفال وأفرد له مكانا خاصا يقيم فيه وعين له الخدم والحشم ، ولم يمر على ذلك الأشهر قليلة حتى توفى الملك وجلس ماهان مكانه وقد عظمت شوكته وازداد جلاله وعلت شهرته لأنه مع ادراكه ودرايته فان البلايا والمحن التى لاقاها علمته ما لم يعلم وقد استفاد منها أمورا كثيرة وأصبح ماهان الملك المتسلط والحاكم في البلاد فعكف علي الاشتغال بالحكم وتولي الاحكام بنفسه وصرف جهده الي الحكم بين الرعية بالعدل وقد أحضر لديه الوزراء وكبار الوكلاء وأبدى لهم كل التفات واحترام وقال لهم انى أوصيكم بعباد الله ورعاية أمورهم فلا تغفلوا دقيقة واحدة عن رعايتهم والاهتمام بمصالحهم علي مايرضي الله سبحانه وتعالى وأريد منكم أن يخبرنى كل واحد عما فى ضميره وما يجب عليه .

فدعا له الجميع بالبقاء وطول العمر ثم تكلم الوزير الأول فقال لا يخفي على جلالتكم الملكية أن الاهالي والجنود علي الدوام مشغولون بالدعاء لدولتكم ليلا ونهارا لما يرونه منكم من العدل والميل الي راحة الرعية واعلان شأنهم حتى هان عليهم أن يقدموا أموالهم وأرواحهم بين أيديكم .

وفيما الوزير يتكلم دخل رئيس الحجاب الي ماهان وبعد أن أدي واجب الثناء قال لقد حضر معتمد من قبل ملك الصين وهو يطاب مواجهتكم فاصفر لهذا الخبر وجه الوزير الأول حتى صار كالأموات فتعجب الملك من ذلك وسأله عن سبب هذا الخوف والتغيير الذى حدث فى وجهه .

فأجاب الوزير ان سلطان الصين قادر باسل ولديه من الجند والفرسان ورجال الحرب والتدبير عدد غفير ولذلك فهو فى كل سنة يجمع الخراج من كل الممالك

المجاورة له وقد جرت العادة أن تقدم له مملكتنا الخراج فى كل عام ولهذا فان معتمده قد حضر لتسلم الخراج . فتبسم ماهان وقال وما هو وجه الخوف هنا لأجل الدراهم يصفر لون الانسان ويعظم عليه الامر فمادة الخوف هذه لا تحدث عن هذا الشأن وان كان من طبعة الجبن والخوف فلا يلزم أن يظهر عليه ويصفر ويصير لون وجهه كالاموات فخجل الوزير واعتذر ثم أمر ماهان باحضار المعتمد .

وقد تحير الوزير الأول وباقي الوزراء من شجاعة ماهان وثبات جأشه وتأنيه فى الأمور . وعلى حسب العادة أتى برسول ملك الصين الى أمام السلطان ولما رأى الرسول عظم هيئة ماهان وجلالة قدره وعلو منزلته وقع الرعب فى قلبه وصار يرتجف وبعد التعظيم وأداء واجب الثناء والدعاء أخرج من جيبه رسالة سلطان الصين وقدمها الى الملك فأشار الملك الى وزيره الأول أن يتناولها من يد الرسول وأن يقرأها بصوت عال ففعل الوزير وكان مضمون الرسالة ما يأتى .

« بعد تقديم التبريك لكم لجلوسكم على تخت الملك حميكم أبين لكم أنه بناء على المعاهدة المعقودة بين دولتنا وحكومتكم أن يرسل الينا في كل سنة مقدار معين من المال بادرنا لارسال معتمدنا الخصوصى لأجل أن تسلموه المبلغ وتتكرموا بتجديد المعاهدة وأنذركم أن لا تسببوا ما يوجب كدرنا ويحملكم المتاعب والويلات مالا تطيقه بلادكم والعاقل من عرف قدر نفسه » .

ومع أن ماهان احمر قليلا عند سماعه مضمون الرسالة لكنه أظهر الجلد وتبسم ثم التفت الي المعتمد وهش فى وجهه وقال له اذهب الآن الى محل الضيافة وفى الغد ان شاء الله ننظر فى الأمر فأخذه الحاجب وخرج به الى المحل المعين لاقامته .

وكان الوزراء يظنون أن ماهان سيتبع أمر سلطان الصين فحزن أكثرهم لأنهم كانوا متألمين منه يكرهون الطاعة لأمره .

وفى ذلك المساء جمع ماهان اليه الوزراء وعقد معهم مجلس مشورة وابتدأ هو بالكلام فقال لهم ان الملك منزلة سامية وعمل عظيم وان مدار راحة العباد وحفظ السكينة موقوف على الملك ورجاله ولذلك تحتاج السلطنة الي المهابة والبسالة كما تحتاج الى العدل والانصاف فاذا كان لا يوجد في الدولة عدل ولا انصاف ولا

حب للرعية فمن المؤكد أن سقوط تلك الدولة وخرابها يكون قريبا وكذلك اذا لم يوجد للدولة مهابة واجلال فيكون جسمها قد ضعف وبدأ فى الانحلال ولكن أري أن هذه الدولة وان كان العدل والحلم سائدين فيها غير أنها مفقودة الجلال والمهابة ولذلك طمع فيها ملك الصين . فالدولة اذا كانت بالحقيقة ضعيفة فمن اللازم أن لا تترك مهابتها وأبهتها وأن لا تدع الأعداء يطلعون على أحوالها الداخلية وأسرارها فضلا عن أن يفرضوا عليها خراجات والتزامات بل من اللازم أن نقف على وجه الضعف للدولة الثانية ونطلع على أسرارها ولأجل ذلك قصدت استشارتكم وانا أريد أن أبين لسلطان الصين المهابة والفطنة فأطلب اليكم أن يبين لي كل واحد منكم ما فى ضميره ولا يخفى شيئا مما يجول فى خاطره لأن فى ذلك مصلحة البلاد وحفظ أرواح العباد .

ولما فرغ ماهان من كلامه لوزرائه الخمس وقد كانوا مشهورين بالحكمة والفضيلة فيما بين أعيان الدولة وأركانها وكان جميع الاهالى والجنود يعجبون بآرائهم ويعتمدون علي مشورتهم نهضوا وقوفا أمام ماهان وأبدوا رسوم الدعاء والثناء على أحسن وجه ثم جلسوا وبقي الوزير الاول فقال نعم أيها الملك العظيم والسيد الكريم ان هذا الامر فى الواقع أمر خطير جداً ومن الواجب والمفروض علينا أن نبين بصدق وأمانة ما يجول في خاطرنا ونصرح بكل ما يرتابه كل واحد منا فالذي يلوح لي أنا العاجز أن يتدبر الانسان فى المصلحة الموافقة لصيانته عند الشدة والذى أراه ان الدولة الضعيفة لا تقدر علي محاربة ومقاومة القوية ولذلك لا مندوحة لها عن متابعة ومسالمة تلك الدولة القوية لان الحرب خطر عظيم ووقوعها مخالف لسنن التمدن والعمران وبسببها يظهر آفات كثيرة وفتن جسيمة وعليه فالدولة الضعيفة التى تكون قد دفعت بالنظر لمصلحتها الجزية والخراج أول بأول للدولة القوية مظهرة العجز لديها اذا نكلت عن الدفع وامتنعت من تسليم المال المعين عليها أداؤه فلا بد لتلك الدولة القوية أيضا أن ترى أنه لا يليق بشأنها أن تتخلى عن غنيمتها وتترك الدولة الضعيفة تقاومها بالخروج عن سابق عادتها فلا تتوقف قط عن محاربتها ومنازعتها بكل ما تقدر عليه . وعند ما لا يكون لتلك الدولة بسالة واقدام للمقاومة فتسقط بلا ريب فمن اللازم أن لا تغش الدولة الضعيفة نفسها ولا تقدم على الحرب وهى عاجزة عن الدفاع عن كيانها .

وعند ما سمع ماهان كلام الوزير الاول حزن فى قلبه وقال ان ما أظهرته من الحزن والخوف قد انساكم النقطة الرئيسية اللازمة لعدبير مصلحة الدولة واعلاء شأنها .

ثم قال للوزير الثانى قل انت لأرى رأيك فى ذلك وما الذى تستصوبه فتقدم الوزير الثاني وقبل العرش وعاد الى مكانه فقال أطال الله عمر مولاى الملك انى لا أوافق مطلقا على رأى الوزير الاول وأرى آن الذى قاله لا يناسب فى تقديم المملكة ولا أظنه صادرا عن فراسة وحكمة لأن من الضعف تكتسب الشدة وتنتج القوة ولا أعلم معنى مداومة دفع الخراج فهل لأن الدولة الماضية قد أعطت الخراج لدولة الصين يصير من اللازم أن تدفع الدولة الجديدة الخراج دائما وبالرغم منها اتباعاً للعادة فهذا ليس صوابا وهل من العيب أن تقوي الدولة وترفع عنها طابع الذل فتمتنع عن أداء الخراج الذى كانت تدفعه فى المدة السابقة بالنسبة وعليه فالذي أراه موافقا لنا مناسبا لعلو شأننا أن نظهر بأسنا ونبين مهابتنا ونجيب ملك الصين بأنه إذا أراد الحرب فاننا على استعداد لمقاومته بالقوة والبسالة ولا يليق بنا أن نبقى على الضعف والذل إلى الآن فاذا ساعدنا الله سبحانه وتعالى حصلنا على المراد ونلنا المطلوب وقررنا شوكتنا وعظمتنا وخلصت دولتنا من الذل والعار والمهانة التى لحقت بها فى الماضى وإذا لم تساعدنا العناية فتعود إلى الذل والاستعباد كما كنا ومن الأمثال من لا يخاطر لا يطيب له خاطر فكم من دولة صغيرة أصبحت كبيرة بحسن تدبيرها وبسالتها وكم من دولة عظيمة سقطت لجهالتها وسوء تدبيرها فلنظهر الآن أمام عدونا الجراءة والجسارة والاقدام فنرعبه ونخيفه .

فلما سمع ماهان كلام الوزير الثانى وشاهد ما فيه من الحماسة والجراءة سر فى قلبه منه .

ثم التفت إلى الوزير الثالث وتلطف به وسأله أن يقول رأيه وما جال بخاطره فقبل الوزير العرش وبعد أن أكثر من الدعاء والثناء عاد إلى مكانه وقال له لا يغيب عن سيدى الملك أنى لا أستصوب قط رأى الوزير الثانى ولا أوافق أيضا على رأي الوزير الأول لأنهما لم يشيرا بعمل يستدل منه على العقل والدراية كيف يليق بنا أن نباشر أمرا من الأمور قبل النظر فيه والوقوف على حقيقته والذى أراه الآن موافقا لمصلحتنا أن لا نغفل قط عن النظر فى وجه الاصلاح الداخلى

وتعزيز القوة وأن نرسل بالجواسيس لاجل الوقوف على أحوال وأسرار قوات العدو فنعلم بذلك قوة ملك الصين ونعرف مقدار قوة جيشه ونقيسها بقوتنا ونعلم ماهو الفرق بين القوتين فاذا وجدت قوتنا أقل من قوته عملنا على زيادة قوتنا حتى تكافىء قواتنا قواته وتزيد عليها وعملنا على سد النقص وإذا وجدت القوة معادلة ويمكن لنا المقاومة نصحنا العدو وعرضنا عليه المصالحة والمسالمة وأن يكون كل منا مشغولا بحكومته لا يتعرض أحدنا للآخر ولا ينازع واحدنا الثاني فان رضى بذلك رضينا نحن أيضا وتخلصنا من سلطانه وخرجنا عن سيطرته وإذا أبي حاربناه والنصر بيد الله وان كان ليس من اقتدارنا الحرب فلنعرض عليه المسالمة أيضا فاذا أباها أخذنا فى الاحتيال والتدبير والنظر فى الامور من حيث هي يأتى بالفائدة المطلوبة والنجاح فى الحرب مكفول مع التدبير والحكمة ومن وجوه هذا التدبير أننا إذا فشلنا عدنا إلى المدينة وقفلنا أبوابها وخابرنا العدو بالمصالحة ولا بد أن يقبل إذا رأى مناعة حصوننا وحسن تدبيرنا فالتدبير مع القوة يرفعان شأن المملكة ويعظمانها في أعين سائر الممالك وإذا سقط تدبير الدولة كانت سخرية وهزءة فى أعين رعاياها وجندها مرذولة ومحتقرة عند جميع الدول .

فلما سمع ماهان كلام الوزير الثالث أعجبه قليلا لكن لما لم يره موافقا لرأى أحد من رفيقيه السابقين قال فى نفسه يا للعجب ألا يمكن أن يتفق رأيان فى شأن خطير من أمور الدولة الحيوية الا اضطرارا ولكن لم أر رأى الوزير الرابع فالتفت إليه وقال له قد جاء دورك فأسألك أن تبدى لنا رأيك وماذا تراه موافقا فى هذا الامر .

وبعد أن قام الوزير الرابع بواجب الدعاء والثناء كرفاقه قال لا يخفي على سيدى الملك أن سرورى عظيم وأن من دواعي الشرف دعوة سيدى الملك لى لأبدى ما يلوح فى فكرى وما يدفعنى اليه ضميرى بدون ارتياب واضطراب ومن رأيى أن ترك مملكتنا واختيار عار الفرار أحسن من دوس ناموسنا القديم الثابت فان كنا لا نعلم قوة العدو ومقدار شدته فليس من الحكمة أن نخاف مما يقال عنه والمعنى أننا إذا كنا نحسب من رعايا ملك الصين وأتباعه فأى لزوم لسلطنتك هنا وان كنا دولة دستورية وعسكريتنا منظمة وخزينتنا عامرة ولا نعلم درجة قوة العدو ومقدرته فلنسكت لاعتلال ناموسنا بجهل قوة المملكة

التي تجاورنا ولنحقر نفوسنا أمام الأصدقاء والأعداء لأنه مثلا إذا كانت دولة الصين تصبح غداً في حالة الضعف والعجز ولا تعود قادرة على إكراهنا على دفع الجزية والخراج تأتي دولة أخرى وتطمع فينا وتقول قد جاء الدور لي وتطلب الينا دفع الجزية والرسوم لأن من شأن الدول القوية أنهم لا يرضون مطلقا براحة الدولة الضعيفة وبرفعها من وهدة الانحطاط والخوف والذي أظنه الآن وربما كنت أعلم أيضا أن قوتنا وماليتنا تفوق مالية الصين فلنتدرع بالجسارة لأننا إذا دفعنا الجزية كما في الماضي فمن المعلوم أنهم لا يقنعون بها وربما كلفونا حمل أمر أثقل منها وتتجه أنظارهم إلى امتلاك بلادنا طمعا وعدوانا . وقد قال الحكماء والفلاسفة إن لمداراة العدو والسير معه درجة محدودة يلزم أن لا نتعدى وأن لا تصل إلى درجة الافراط والحاصل اذا رأت الصين منا الثبات والجسارة فلكي لا تحقر نفسها تقنع منا بالجزية فقط وتضرب عن باقي مطامعها .

وبعد أن سمع ماهان كلام الوزير الرابع وفهم خلاصة رأيه التفت الى الوزير الخامس وقال له هلم فقد جاء الدور عليك واني أرى فيك عين الذكاء والفطانة فانظر فيما فيه النفع وقل أي رأي من هذه الآراء تستصوبه وأي قول تفضله .

فعند ذلك نهض الوزير وقبل أذيال الملك ثم عاد الى مكانه وقال ان الذي يستصوبه عبدكم أيها الملك المعظم هو أنه ينتج من الجواب الذي تجيب عليه ملك الصين أمران وهما اما اختيار السلام أو الحرب ومن المعلوم أن السلام أفضل من الحرب . لأن من الواضح والمعلوم عند الناس الآن أن الصينيين أوفر منا عددا وعددا وأرفع منا منزلة في الحرب . ونحن لا يحق لنا أن نقول الآن إننا أكثر منهم عددا وأشد اقداما لأن ذلك معلوم والحروب التي وقعت بيننا وبينهم قبل الآن انجلت عن فشلنا وتقهقرنا . فالذي يلزمنا الآن هو أن نأمن جانبهم نعم لا نقدر أن نقول بأننا نتغلب عليهم لأن الصينيين أهل حيل ومهارة في الخداع ومن الممكن أنه في الوقت الذي نتلاقى ونقترب من بعضنا البعض يطلبون الفرار وفيما نحن نطاردهم ونسير في أثرهم يغافلوننا ويعودون الينا ومن الممكن أيضا أنهم في أثناء هزيمتهم وفرارهم ينصبون أشراك المكائد والخداع وربما يتظاهرون ونحن في ميدان الحرب والقتال بالضعف والعجز ليرمونا بفخ مكرهم واحتيالهم

لان أبواب الحيل فى الحرب كثيرة ولذلك لا يلزم أن ندخل معهم باب الحرب والقتال .

فقال ماهان مادمت لا تستصوب الحرب فما هو الجواب الآخر الذي نرسله لملك الصين . فأجاب الوزير الخامس ينبغي في هذا المعنى التأني والصبر والتفكر لان المنافع التى تحصل للسلاطين من جراء التروي والصبر والامعان لا يحصل مثلها بالمال والسلاح لان الشجاع مهما كان باسلا لا يقدر أن يتغلب بقوة سيفه على أكثر من مائة رجل ولكن يمكن للرجل العاقل الصائب الرأى أن يتغلب بحسن تدبيره على قبيلة أو مملكة والمقصود فى هذا الباب أن يقرن مولانا رأيه المبارك برأى من يراه عاقلا وحكيما من وزرائه لان رأيكم الحسن يشبه المرآة فاذا أضاف اليه رأى وزرائه زادت تلك المرآة صفاء وجلاء ولا ننكر أن رأيكم هو بحر فائض فآراء وزرائك هى كالانهر اذا صبت فيه تزيده فيضانا والسلطان الذى لا يستشير وزراءه الامناء الحكماء يضيع ملكه في زمن قصير ويسوء حظه وتتفرق كلمته غير أن مولانا محاط بوزراء أمناء معزز بكلمتهم وآرائهم ومشورتهم سواء كان بانفراد كل واحد منهم عن الآخر أو باجتماعهم معا عين الحكمة فاذا كنت انفر من الحرب والقتال فكذلك أنا أكره التذلل والجبن والخضوع والانكسار ولا أستصوب أيضا دفع الجزية على هذا الوجه لأن الرجل العالي الهمة يرغب فى أن يعيش طويلا محافظا على الانفة والشدة واذا لا سمح الله لاجل بعض الراحة فقدنا شرفنا وقل اعتبارنا فالاحسن أن لا نعيش فى هذه الدنيا فالموت أفضل من أن تمس شوكة مملكتكم وعظمة جلالتكم وقد يكفي ما أبنته الآن علنا والتمس من لدنكم أن تسمحوا لى بخلوة لأبين لكم على انفراد مالا أحب أن أقوله علنا .

فلما سمع باقي الوزراء كلام الوزير الخامس دب فيهم الحنق وملأ قلوبهم الغيظ فرفعوا أصواتهم قائلين ما هذا الرأى ألا يحق لنا التدخل فى هذا الامر والمشاورة وعرض الآراء النافعة الحكيمة وبحث الصالح منها واعطاء القرار بالاتفاق ونحن لا نفهم ما هو المقصود من انفرادك بمولانا الملك وما الذى تريد أن تخفيه عنا .

فأجاب الوزير الخامس نعم ماكل مستشار مؤتمن وما دامت أسرار المملكة من المهام الخطيرة والأمور الجسيمة فى العرف والقانون فلا تصح المفاوضة فيها

أمام كل إنسان لأن كشف أسرار الملوك يقع فى الغالب إما من أرباب المشورة وإما من السفراء والرسل فمن أين تعلمون أنتم إذا كان يوجد هنا الآن جاسوس أو لا يوجد يلزم التدقيق فى كل شىء فربما لا نكون جميعنا أمناء ألبس إذا قررنا تدبيراً الآن وقبل أن نباشر ذلك التدبير يمكن أن يبلغ العدو فنحرم من فائدته على فرض أننا جميعنا أمناء ولم يكن بيننا جاسوس قط فهل نأمن أن لا أحد منا يقول لأحد أصحابه أو حاشيته إما افتخارا أو حبا بخدمة الأمة والدولة لقد فعلت كذا وقلت كذا وتقرر كذا وبهذه الطريقة ينتشر الخبر ويسمع به الصديق والعدو فنفقد نتيجة تدبيرنا وقد صدق من قال إن كل سر من تجاوز الاثنين ضاع فضلا عن أنه يلزم الحذر من الصديق قبل العدو وقد صدق من قال :

احذر عـدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديـ ق فكان أعرف بالمضرة

وقد قيل كتم الأسرار من شيم الأحرار والعاقل من حبس سره فى صدره مع أن كتم الأسرار عند الملوك من أهم الواجبات أي كتمها عن كل كبير وصغير من الخاصة أو العامة . وحتى الآن لم يصر شىء بعد . فمن كشف الأسرار يخسر التاج والتخت وتفقد الأمة والسلطنة .

فلما أجاب الوزير الخامس بهذا الجواب المملوء بالعقل والحكمة لم يبق فى وسع رفقائه أن يصبروا لشدة صدهم فاعترضوا عليه قائلين إنك لا تقصد إلا إخراجنا من المشاورة أو البحث لينظر كل إنسان شغله بعقله مع أن العمل الذى ينظر بدون مشاورة تكون عاقبته الندامة .

فأعاد الوزير الخامس الجواب ثانية وقال كلا ليس ذلك لأجل مشورتنا بل علينا أن نساعد رأى مولانا السلطان لأن الله سبحانه وتعالى قد أقام لكل أمة ملكا فعلى الملك وحده تدبير الأمة ولكي يكون الملك على ثقة من نفسه فى تدبير رعيته أقام الوزراء والمستشارين ليقف على آرائهم فاذا كان فيهم من يفوقه عقلا وحكمة عمل برأيه وإلا استقل برأى نفسه وأنا الآن لم أقل انه ليس من الواجب مشاورة سيدى الملك لوزرائه لكن أقول بوجوب كتم السر صيانة للملكة ومن اللازم أن تجرى المشاورة إنفرادية وفي خلوة فيبقى ذلك مكتوما وإذا كان فى رأينا اختلاف لا يعلم فنأمن الانقسام والنفور من بعضنا البعض

وكان الملك يسمع ويتعجب من اختلاف آراء وزرائه ومن ذكاء وفطنة الوزير الخامس ثم التفت إلي وزرائه الأربعة وقال لهم عجبا هل تظنون أن الوزير الخامس غلط فى طلبه كلا فما هو الضرر الذى يحدث يا ترى لو أنى استشرته على انفراد مادام الكلام الذى نتكلم به ستعلمونه فيما بعد فلماذا العجلة والذى تبين لى منكم الآن ان الحسد والبغض بأكل قلوبكم ويدفعكم إلي الاعتداء على بعضكم البعض مع أن الحسد داء اختصت به العامة فاذا لا سمح الله وقع البغض والحسد بين الوكلاء والوزراء فكيف تكون أحوال الرعية وهذا ترون أنى غير راض عنكم ولا أعجبنى رأى من آرائكم ثم نهض مظهرا الحدة ودخل الحرم وتفرق الوزراء كل إلى مكانه .

وفى اليوم الثانى خرج ماهان من حوله وأمر أن يؤتى اليه بالوزير الخامس وانسحب الاثنان إلى خلوة وأخذا يتبادلان الآراء فابتدأ الملك سائلا وزيره ما هو قصدك من الانفراد وإبداء رأيك فى خلوة وما هو الذى تريد أن تقوله ولا يطلع عليه أحد قل رأيك فليس بيننا ثالث فأجاب الوزير نعم يا سيدي انى وإن كنت لم أذهب الى بلاد الصين ولم يتسن لى أن أكشف تلك الجهات بنفس لكن الذي أعلمه بعد الفحص واستقصاء الاخبار ممن رأى البلاد الصينية أن أهاليها مغرورون بكثرتهم موهومون بشجاعتهم منهمكون دائما بالمعاشرات الفاسدة غارقون فى الفسق والفجور يجهلون كل الجهل فنون الحرب وطرق القتال ولا سيما أن الجندى منهم يسير في الشوارع والمومسات الى جانبه ويطوف في الأزقة ومحلات اللهو وهن حواليه أى أن جنودهم غير منظمة وأخلاقهم فاسده وطباعهم ميالون إلى الموبقات مثلا ان الواحد من الجند إذا رأي امرأة تسير فى زقاق فانه يصير عبدا لشهوته فينضم اليها ويصرف أيامه معها غير سائل عن فرقته أو رئيسه ولا ملتفت الى نظام أو طاعة وكذلك الأهالى فانهم على أعلا مقام من الكسل والانحطاط لا يهتمون بغير الأكل والشرب والنوم ولا يعلمون ما هى فنون الحرب ولا أساليب القتال ولا كيف تحارب الفرسان وتلتقى الابطال والشيء الوحيد الذى يعرفونه هو الصناعه فانهم يتوارثونها ويتعلمونها من بعضهم البعض بحكم العادة لسد احتياجاتهم الضرورية وجل ما يصرفون اليه عنايتهم صناعة النقش والنسج بالالوان الغريبه فلا يوجد فى العالم كله نقاشون يقاربونهم في هذه الصناعة وبالنظر لهذه المبالغات ومايشاع

عنهم من كثرة العدد واتساع البلاد وزخارف الصناعة تخافهم الملوك وترهب جانبهم والمحقق عندى أنه اذا وقع بيننا وبينهم قتال وتقابل الجيشان فاننا نتغلب عليهم لامحالة بتدبير يسير وسهل جدا وهو أن تأتي بخمس أو ست آلاف امرأة من العاهرات فاذا وقعت العين على العين وتم وقوف الطرفين أريناهم إياهن قبل الهجوم وهم على استعداد لملاقاتهن فما من ريب عندى فى أن جيوش الصين تترك القتال وتميل إلى مغازلة النساء فنهجم عليهم وحينئذ نغتنم هذه الفرصة للفتك بهم وعندي أن هذه الوسيلة من أنفع الوسائل للانتصار على مملكة الصين وكبح جماحهم .

فتعجب الملك من حكمة وزيره وسعة أطلاعه وحسن تدبيره فقال له لقد أحسنت وحقا إنك وزير عاقل خبير عرفت النقطة التي يتوقف عليها فوزنا باطلاعك على أحوال الصين وحالة جنودها ورجالها وأنت جالس على كرسى وزارتك لكن لو فرضنا أننا انتصرنا فى الحرب على الجنود الصينية ونجحت مساعينا وتمت حيلتنا فماذا يترتب علينا أن نعمل بعد ذلك وهل فى إمكاننا الدخول للبلاد الصينية والاستيلاء على قلاعها وحصونها فأجاب الوزير الخامس بقوله نعم ان تدبير الامر بعد ذلك سهل . لان الصعوبة كلها تتركز في أول موقعة فاذا نحن انتصرنا دخلنا فى الحال بلاد الصين واستولينا على كل قلاعها وحصونها حتى العاصمة والذي علمته واتصل بى من البحث والتحرى أيضا أن الخفراء والقواد الموكلين بحماية الحصون والقلاع قد اعتادوا السكر والفسق فى كل ليلة ومن الصعب بل من المستحيل على من تعود على مثل هذه العوائد أن يرجع عنها ويتركها وبواسطة عاداتهم هذه ندخل حصونهم ونستولى على بلادهم .

فاستصوب ماهان رأى وزيره ومدحه عليه وسأله قائلا إنك على ما تقول لم تذهب الى بلاد الصين ولا شاهدت أهاليها فمن أين عرفت عوائدهم وقد اطلعت على نقائصهم فأجاب الوزير نعم يا سيدي الملك إنى بالحقيقة لم أذهب إلى بلاد الصين وإنما أنا وزير ولما كانت الوزارة والسفارة دعامة الدولة وركنها فالوزير الذى لا يهتم لصغار الامور قبل كبارها في كل العالم ويصرف وقته بالمسرات والمعاشرات ويقول فى نفسه ماذا يهمني من أمر الدنيا وما هى فائدتى من الاطلاع على أحوال العالم ودرس عوائدهم وأخلاقهم وماذا يتعلق بي

خربت البلاد أو عمرت لاخير فيه لامته ومملكته ولا معنى لوزارته أو لسفارته بل ربما كان تهاونه سببا فى خراب مملكته وضياعها . وأكثر الوزراء فى أيامنا لا يهمهم إلا عزل فلان ونصب فلان والانتفاع بأموال زيد وعمر وعند وقوع كل تدبير صغيراً كان أو كبيرا يرتبكون ويحملهم التكاسل على التأخير فيكتفون باصدار أوامرهم لمن تحتهم وكثيرا ما يقولون فليبق هذا العمل للغد وذاك سندبره فيما بعد مع أن فى وسعهم انهاءه فى الحال فتمر الايام والأشغال تتراكم ثم تموت من نفسها وتضمحل مع الايام وتضيع الفوائد الناتجة عنها للبلاد والعباد فمثل هؤلاء لا يصح أن نسميهم وزراء بل جهلاء وأعداء أمتهم لان من المعلوم أن الوزير وكيل الملك ولسان حاله وفكره وساعده الأيمن ومدبر أموره والملك هو المسئول أمام الله عن شعبه وأمته ولهذا نرى أن منصب الوزارة ليس من الامور السهلة فلا يصح أن يتولاه الجهلاء والكسالى . وانك لو سألت بالأمس رفاقي الوزراء الذين كذبونى وقوموني بعضا وحسدا عن الصين وأحوالها وأخلاق حكامها وأهلها لما عرف أحد منهم أن يجيبك بكلمة واحدة ولكن لو سألتني عن الصين ومحلاتها وجنودها وأهاليها وكل ما هو فيها كبيرا أو صغيرا لأجبتك اليه دون شك ولا ارتياب والسبب أنى لما لم أكن أمينا من العدو فلم أفتر عن التفكير فيه ليلا ونهارا حبا منى فى الوقوف على ما استفيد منه وربما ينفع بلادى وذلك لانى كنت أعتقد أن من الفروض الواجبة فى عنق الوزير لوطنه أن لا يغفل عن تدبير شئون الرعية ولا ينفصل عنهم ولا يشتغل بصوالحه الخاصة عن صوالحهم والوزير الذى لايكون كذلك ولا يخاف الله بترك تدبير العباد الذين وكل اليه أمرهم وباتت فى يده مصالحهم وإذا كان لايخاف الله فممن يخاف . . . وكذلك السفير عليه أن يكون عاملا وذكيا ذا دراية وحكمة فعلى الوزير زيادة البحث والاعتناء بشأن السفير أى الرسول اللازم ارساله بمصلحة وخدمة الى احدى الجهات لان الرسول يشخص مرسله فاذا كان فصيحا حكيما عالما دل على ذكاء وحكمة ملكه واذا كان بليدا جاهلا قصير الحجة دل على جهالة وحماقة سيده الذى أرسله وعليه فمن الضرورى اختبار السفير والركون الى كماله قبل ارساله لانه مادام السفير لسان الملك فبالطبع يجب الانتباه الى أن يكون عارفا بأمور الدنيا مطلعا على تاريخ العالم وجغرافية المواقع عالما بأكثر لغات العالم كى لايفوته أمر فى مهمته حريصا

على انفاذ غرض سيده وقد قيل فى الشعر السائر :

إذا كنت في حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوي فشاور لبيبا ولا تعصه

وفوق كل ذلك يلزم أن يكون جسورا مهابا من ناحية وحليما رفيقا من جهة أخرى فيدافع عن حقوق سيده وبلاده دون أن يهيج غضب المرسل اليه ويعرف بذكائه وحكمة أفكاره بواطن الأمور ولو لم يبدها ويستخرج بالحيلة واللين دفائن قلبه ويقرأ على وجهه أسرار قلبه مهما أخفاها وفوق كل ذلك عليه أن يبحث بعين عقله عن حال الحكومة المرسل اليها ويقف على مكانة ملكها من قلوب رعيته ويزن بفطانته مقدار ما عند وزرائه ورجال ديوانه من العقل والدراية ويختبر قوة البلاد ونظام جنودها وانتظام رعاياها الى كل ما هو من هذا القبيل ولا يخفي على سيدي الملك أني صرفت نحو أربعين أو خمسين سنة على هذه الخطة وأرسلت الى العدو مرات كثيرة ولم أغفل فى مرة واحدة عن واجباتي وعرفت حالة البلاد وطرقاتها وكل شعب فيها وما عدا ذلك فقد رأيت طريقا سهلا وهو أن ننظم نحو مائتي ألف فارس نسيرهم أمامنا وأما نحن فنزحف بجميع عساكرنا ولا يمكن للصين محاربتنا حتى نصل الى عاصمة بلادهم والمائتي ألف فارس نرسل كل فرقة منهم فى طريق فيدوخون البلاد ويستولون على المدن بينما نكون نحن زاحفين على العاصمة وبذلك تنقطع المدن عن العاصمة وأنا الكفيل بنجاحنا واستيلائنا على بلاد العدو .

فلما سمع ماهان كلام وزيره الخامس رآه عين الصواب وتبين أنه من ذوى الفطانة والامانة وأن ما يقوله له انما هو عن اختبار وامتحان وثقة سر منه سرورا لا مزيد عليه وعهد اليه بتدبير الامر والاسراع الى ما يراه مناسبا بعد أن مدح أمانته وصدقه .

وفى الحال ألقي الوزير القبض على سفير ملك الصين وجمع نحو مائتي فارس سيرهم إلى قلاع البلاد ومدنها وسار باقي الجيش فى أثرهم فاقتحموا القلاع ووصلوا الي المدن الكبيرة دون أن يقدر أحد على محاربتهم أو يقف فى وجوههم وبالقضاء والقدر توفى في تلك الاثناء ملك الصين فانهمك بأمر مأتمه جنده ورجال دولته وفيما هم مشغولون بذلك وصل ماهان بجنوده الى العاصمة فهاجمها بغتة ودخلها بدون تأخير ونهب فى المدينة وقتل فى أهاليها قتلا ذريعا حتي لم يبق فى وجهه

من يقاومه وقد سلمت اليه الحكومة واستأمن الاهالى فأمنهم وجلس على تخت مملكة الصين وجعل وزيره الخامس السابق المذكور وزيرا أولا وفوض اليه أمور البلاد والعباد وأقام أباه ملكا على حكومته الاولى وصرف باقي عمره فى راحة وسكينة ولاجل أن يفرى أهالى الصين عن ملوكهم ليس هو اللون الازرق لأن اللون الأزرق هو اللون المفضل لديهم ولم ينزعه عنه حتى الممات .

وبعد أن انتهت آذريون بنت سلطان المغرب صاحب الاقليم الخامس الى هذا الحد قالت لبهرام وهكذا يا سيدى انتهت حكاية ماهان وقد لاقي السعادة بعد العذاب والهناء بعد التعب .

فقبل بهرام آذريون فى خديها وقال لها حقا انها حكاية عجيبة غريبة جدا والذى زادها غرابة وفاة ملك الصين صدفة .

فقالت آذريون نعم ياسيدى وذلك من حظ ماهان فانه عندما رأى الأهالى يلبسون الثياب الزرقاء فهم منها أن السلطان قد مات ففرح باللون الازرق وحقا انه لون جميل بديع للغاية يسر الخاطر ويجلى الناظر ولذا كان لون السماء أزرق واللون الازرق رمز المجد والشرف وكذلك فان الفيروز الازرق محبوب وثمين وعلى الخصوص ان العيون اذا كانت زرقاء تحب وتمدح .

ثم ان بهرام بعد أن سمع كلام آذريون ورأي ما رأى منها من الدلال واللطف والرقة جذبها الي صدره وقبلها مرارا وساعداه تطوقان عنقها وقد أظهر لها مزيد الميل والتحبب والشغف وكان المساء قد أقبل ودنا وقت الطعام فدخلا غرفة الطعام وكانت أنواع المأكولات والمشروبات قد صفت علي خوان من حجر الفيروز وكلها بلون فيروزى أزرق فجلسا وشربا بين غنج ومسامرة وتقبيل وعناق ومساجلة ومغازلة ومناشدة . ومن بعد الفراغ من الطعام نهضا الى حوض مبنى من الفيروز فجلسا حوله وعادا إلى استئناف العمل وتلبية سلطان الغرام وداما الى أن غيبهما خمر العشق عن الصواب فانسحبا الى غرفة المنام واضطجعا على السرير والتفا التفاف اللام بالألف . . . وقد أحسنا الصنع وأحكما الوضع وبقيا على ذلك الى الصباح فخرجا من خلوتهما ناقمين على الليل لسرعة رحيله وعلي النهار لجراءته على افتضاحهما بكشف الغطاء واظهار سر ما ستره الليل وجاءا الى حوض فى الحديقة فدخلاه وهما فى لعب ومزاح ولمس ودس وبعد

أن نظفا بعضها البعض خرجا من الماء وأحضر الى بهرام أيضاثوب أزرق جديد وتقدم من الجنينة الى القصر ثم خرج من هناك قاصدا القصر الصندلى لأن لونه يشبه لون الصندل .

وتقدم بهرام فى صباح يوم الخميس الى القصر الصندلى اللون وبعد أن بعد عن القصر الأزرق قليلا رأي الطريق مفروشة ببسط من لون الصندل واشتم رائحة الصندل قد ملأت الفضاء وشاهد نحواً من مائة أو مائة وخمسين جارية من الجواري الحسان اللاتى يفضحن بحسنهن الأقمار . بيد بعضهن القماقم المملوءة بماء الورد وبعضهن يحملن المباخر الذهبية وبعضهن يحملن أطباقا من الذهب عليها الجواهر والدنانير لأجل نثرها عند وصوله

فلاقينه بالتعظيم ومشين بين يديه والدنانير تنثر على الرؤوس والمياه العطرية على المتفرجين من الجانبين .

ولما اقترب من باب القصر وجد تختا منصوبا وعنده ثلاث جوار يحملن على أيديهن الأقمشة النفيسة فنزل بهرام عن جواده ودخل الخيمة فقدم له الجوارى الثياب ففتح البقجة الأولى فوجد ضمنها ثوبا نادر المثال لم ير مثله طول عمره ففي الحال نزع ثيابه وأفرغه عليه .

ثم فتح البقجة الثانية فرأى ضمنها تاجا مرصعا بالجواهر الكريمة يبهر النواظر من عظم لمعانه فأدرك بهرام فى الحال أن التاج هو تاج الملك العادل كسرى أنو شروان الذى كان يلبسه أجداد زوجته درستى ففرح لذلك كثيرا ورفعه على رأسه .

ثم فتح البقجة الثالثة فرأي منطقة مرصعة بأكبر الحجارة الكريمة ومصنوعة على شكل غريب فتمنطق بها وقلبه يطفح من السرور والامتنان لهذه الهدايا التي قدمت اليه وكان يلبسها قبله أكبر الملوك الأكاسرة .

وبعد ذلك خرج من الصيوان ودخل القصر فلاقاه نحو ثمانمائة جارية من الجوارى الفارسيات وبأيديهن الاطباق المذهبة على الجواهر المنوعة وحالما رأينه دخل الباب رمين الجواهر عند قدميه ليسير عليها فاجتاز بهرام صفوف الجوارى بالعظمة والاجلال وتقدم إلى جهة الحديقة فسمع الموسيقي تصدح بأنغام مشجية وأصوات عذبة ساحرة فتعجب لهذه الاصوات قائلا في نفسه ماهذا وتقدم قليلا

فسمع صوتا رخيما كصوت العيدان أو غناء الكروان يغيب لسماعه عقل الشيخ المتعبد ويضيع لحسنه صبر الفتي الولهان وقلب الشجاع الباسل .

فزاد من ذلك تعجب بهرام فتقدم نحو الحديقة شيئا فشيئا وجعل يرسل بنظره فيما بين الاشجار يتتبع مصدر الصوت فتبين تحتها بركة ينفر الماء من وسطها فيحلق بين الاشجار التى تظللها وحول البركة سرير مرصع بالجواهر وفوقه السيدة درستي جالسة وعليها قميص من غالي الحرير الرفيع الشفاف متكئة على وسادة من الحرير محشوة بريش النعام وقد وضعت العود على صدرها وجعلت تضرب به وتغنى بصوت رخيم ضاع تحته صوت العود ومن حولها عشرة جوار كل واحدة منهن تفوق بلقيس فى الحسن والاعتدال والقد والدلال .

فتحير بهرام عند مشاهدته هذا الحال وتاه عقله حتي لم يعد عارفاماذا يعمل وعلى الخصوص قد أثر فيه صوت درستى فوقف جامدا فى مكانه لا يقدر على المشي وأصاخ سمعه لاستماع الصوت واستيعاب ما كانت تنشده فى غناها وقد سمعها تقول :

هلم إلى نيل المسرة والهنا	ورشف كؤوس الراح من راحة الظبي
ودعنى أغذى النفس منك بقبلة	وأطفى بها نار الفؤاد من الجوى
بحقك يا مولاى زرني فانني	معذبة من عظم هجرك والقلى
وواصل فتاة في رضاك حياتها	فأنت لها روح المسرة والهنا
وها ورد خدي فاقتطف منه ورده	فما مثل ورد الخد فى الحب يجتنى
وذق عسل الثغر النظيم فانه	رضاب شهى طعم اليوم قد حلا
وجنة صدرى فادخلن فى نعيمها	ألم تر رمان النهود قد استوي
وطوق بزنديك خصرى وضمنى	اليك فذا وقت المسرة والصفا
ولا تخش فى فعل الحلال مراقبا	فان رقيب السوء عنا قد انتفى
عدمت اصطبارى عن وصالك سيدي	فعجل به ان كنت ترحم من يهوى
فكن بطلا عند النزال سميدعا	وشق حجاب الستر كي تبلغ المني
وغص لجة البحر الخضم عسي إذا	توغلت فيه تخرج الدر من خفا
فذلك ما ترجوه كل عقيلة	إذا اتبعت مع قلبها سنن الهوي

فلما سمع بهرام إنشادها هاج به غرامه ولم يعد يطق اصطبارا فارتمى بنفسه عليها وضمها إلى صدره وهى بين جواريها وأخذ يقبلها فى خدها ونحرها

ويكثر من ضمها وامتصاص شفتيها وقد أخذ الجوارى الحياء واحمرت وجوهن من الخجل .

ثم نهض بهرام وتناول من زوجته العود وقد قال لها قد جاء دورى الآن وضرب عليه أشكالا وألوانا وأنشد :

شروط الهوى عند المحبين خمسة إذا أتقنوها أدركوا منتهى الفن
عناق وتقبيل ورشف وضمة ومن بعدها الصاق بطن على بطن

فلما سمعت درستى انشاد بهرام تحرك بها داعى الغرام فرمت بنفسها عليه وقابلته بالمثل وناولته المراد ثم جلس كل منهما للاستراحة والتنفس وحينئذ سألها أن تقص عليه ما عندها من الاحاديث والسمر فأجابته بالسمع والطاعة وبدأت بالكلام فقالت :

قصة خير وشر

اعلم يا ملك الزمان وواحد العصر والاوان أنه كان رجلان أحدهما اسمه خير والآخر اسمه شر يقيمان فى بلد واحد وقد عقدا النية على السفر بقصد السياحة والتطواف فى البلاد الغربية (ولا بد أن يتعجب من هذين الاسمين فسبب تسميتهما أن الاول كان رقيق الطبع حليم الاخلاق يحب الخير للناس جميعا لا فرق بين عدوه أو صديقه ولذلك سمى بخير .

والثانى فقد كان ردىء الطباع حاد المزاج مفسدا تماما يتمنى الضر لكل إنسان فلقب بشر ، وقد حكمت المقادير بخروجهما للسفر معا) . ولما خرج الاثنان من المدينة استلما الطريق فى البر الاقفر ومع أن خيرا كان يتألم كثيرا من مرافقته شرا لكنه كان يسالمه ولا يضمر له الا الخير وبالعكس شر فانه كان يتمنى عذاب رفيقه وايقاعه بالنكبات وكان خير يحمل على جواده طعامه وماءه وكذلك شر الا أن خيرا عندما يجلس للاكل يدعو رفيقه لمشاركته فيأتى شر ويشاركه فى طعامه ومائه وقد خبأ طعامه وحرص عليه وداما على ذلك مدة ستة أيام حتى بعدا عن بلدهما بعدا شاسعا .

وحينئذ فرغ الاكل من خير ولم يبق عنده ما يسد به رمقه وأخذ الجوع والعطش يستوليان على خير ويشتدان عليه .

فقال لرفيقه يا أخى كن منصفاً فاننا مثلما أكلنا الطعام وشربنا الماء اللذين كنت أتيت بهما فمن العدل أن نأكل ونشرب الطعام والماء اللذين معك ريثما نكون وصلنا احدى المدن فنبتاع ما يكفينا .

فأجاب شر بحدة كلا لا يمكن ذلك لأن ما معى من الزاد لا يكفينى لوحدى فلماذا لم تحرص أنت على زادك ومائك .

فقال خير انت تعلم يا أخى أنني لم آكل زادى لوحدي بل أكلته أنا وأنت فلا تكن ناكرا للمعروف جاحداً للجميل فعاملنى كما أعاملك .

فأجاب شر ومن حملك علي أن تدعونى لأكل طعامك وشرب مائك أم تكلفنى أنت بنفسك الي ذلك فأنا اجابة لدعوتك كنت أفعل أما أنا فلا أدعوك ولا أريد أن أكون مجنونا مثلك فلا تطمع منى فى شربة ماء أو لقمة خبز .

فسكت خير متكدراً من رفيقه حتى اشتد عليه الجوع والعطش وكان الحر قويا حتى لم يعد قادرا على تحريك لسانه وفتح شفتيه ولم يكن في كل تلك الناحية عين ماء ليستقي منها ولما رأى شدة مصاب رفيقه لم يكتف بما فعله معه بل جلس على الارض ومد زاده ونصب كوز الماء وأخذ يأكل ويشرب وعين خير تنظر اليه وقلبه يتحرق على الماء ولم يجسر أن يغضب شرا ويحمله على السماح له بجرعة ماء لعلمه أنه رديء وقوى وشرير وسفاك لا يشفق ولا يرحم .

وما زال الحال يشتد على خير حتي ذهب عقله من رأسه ونشف ريقه ولم يعد قادرا على الاتيان بحركة وقد أيقن بهلاكه . ثم عاد الى التذلل والتوسل الى رفيقه .

فقال : اكراما لله وللانسانية أشفق على وارحمنى واعمل معروفا معي وكن ذا مروءة واحسبنى غريبا مثلك لأن روحى وصلت الى حلقي تذكر أنى لم أعاملك الا بكل خير وما أسأت اليك قط فاسمح بنقطة ماء فقط لأبل بها لسانى وبذلك تحييني وتدفع عنى الموت ارحمني يرحمك الله . انى أموت الآن من قلة الماء المعونة المساعدة . الرحمة . الشفقة . ان روحى تخرج مني الآن ولا سبيل الى الماء منك .

فسد شر آذانه عن سماع كلامه وبقى مصرا على عناده وقساوة قلبه وقال له عبثا تحاول فانى اذا سقيتك من مائى يفرغ فالاحسن أن أتركك تموت وأذهب أنا فى حال سبيلى .

فزاد الأمر على خير وأعاد التوسل والرجاء وقال : ألا تشترى حياة انسان بنقطة ماء ، نقطة واحدة فقط صبها على لسانى فهذه لا تقدم ولا تؤخر فى الماء الذي معك فاذا تركتنى اموت لأجل نقطة ماء يكون عارا عليك ويلومك الناس فخف الله والأنبياء وافتكر أنك إذا لم ترحمنى يوقعك الله بمصاب أشد من مصابى فلا يرحمك أحد ويقسى عليك القلوب فتموت معذبا . فلم يتأثر شر من كلامه ولا أشفق عليه بل أجابه بحدة وغيظ إذا كنت لا تكف عن طلب الماء حملتنى على قتلك بيدى والخلاص منك ومن ثقلتك .

ورأى خير أن لا فائدة له فى الالحاح على الحصول على الماء من رفيقه شر وقد بلغت روحه التراقى وخارت قواه فأيقن بالهلاك والفناء .

وحينئذ مد يده إلى وسطه وأخرج كيسا تناول منه حجرين من الياقوت لا يوجدان فى خزائن الملوك فأراهما لشر وقال له هاك جوهرتان فخذهما واحينى بجرعة ماء إحسانا منك وكرما .

وعند مارأى شر الجوهرتين مالت نفسه إلى أخذهما ولعب به سلطان الطمع ولكنه فكر برهة ثم صاح قائلا لخير إذا أخذت منك الآن هذين الحجرين فمتى وصلنا غدا الى المدينة تسترجعهما منى فقال خير كلا إنى أقسم لك بالله أنى لا أفكر فيهما ولا آخذهما مطلقا بل هما حلال لك وقد سمحت بهما من كل قلبي وخاطرى . فلم يقتنع شر بكلامه وبقى مصرا على عناده ولم يسمح له بنقطة يبل بها لسانه .

فبقى خير حزينا كئيبا يتوجع ويتألم وقد قال فى نفسه ياليتنى كنت مت فى بلدى ولا رافقت هذا الرجل عديم الرحمة ماذا أعمل لو لم أرافقه لما وقعت فى هذه البلية وبعد قليل شعر بمفارقة الحياة فوقع إلى الأرض ثم تمالك نفسه وقال لشر انى أموت الآن داعيا الله أن يوقعك بمصيبة أعظم من مصيبتى هذه لاجل جرعة من الماء تمنعها عنى وتتركنى أموت . ارحمني أعطنى جرعة ماء واطلب منى معها ما شئت فأعطيك فأجاب شر انى أسمح لك بجرعة ماء على شرط أن تتركنى أقلع لك عينيك وتعطيني الجوهرتين اللتين معك .

فقال خير أواه منك أيها الظالم الغاشم ألا تخاف الله لقد من الله على بهاتين العينين وهما أعز على وأنت تريد أن تسلبهما منى فماذا تستفيده اذا قلعت عينى وما منفعتهما عندك ؟

فأجاب شر بغير ذلك لا يمكنني أن أنولك مرادك فلا تطمع بنقطة ماء الا بخروج عينيك لانك اذا أعطيتني الجوهرتين الآن فمتى دخلنا بلدا تدعى علي وتطالبني بهما ولكن اذا اقتلعت عينيك فلا تعود قادرا على أن تراني بعد ولا تعرف بمكاني فلا يتسنى لك ارجاعهما فيما بعد .

فأعاد خير الالتماس والرجاء وقال لشر الرحمة ياأخي تذكر أني من وطنك وقد أطعمتك وسقيتك عدة أيام وأنك مدين لي بالمعروف الذي قدمته اليك فتكرم علي بالماء ان لم يكن في مقابل ذلك فاكراما للوطنية والانسانية أوا كراما لله الذي خلقك وهو قادر عليك في كل وقت فان كنت لا تراعي هذا ولاذاك فاعطني شربة ماء وخذ مني الجوهرتين فهما لا يثمنان بمال وخذ ثيابي وكل مامعي من المال وخذ مني سندا بخطي وأني وهبت اليك كل أموالي وأمتعتي وملكي وأقسم لك أني أهبك الكل ولا أعود أطالبك بشيء واعف لي عن عيني واشتر حياتي .

فهز شر كتفيه وأدار ظهره ولم يتأثر لاسترحامه ولم يلن قلبه لتوسلاته وأخيرا قال له عبثا تحاول الحصول على جرعة ماء بدون قلع عينيك والآن لا يوجد عندي وقت فاما أن تدعني أخرجهما واما أن أتركك وأسير

ورأى خير أن لا فائدة من الرجاء والالتماس والتذلل وأن خصمه شر لا يعرف الرحمة والشفقة وشعر بأن روحه تتردد في صدره فصاح من الألم والدموع تتدفق من عينيه . آه ياظالم يا قليل الرحمة والمروءة هلم خذ عيني وانتظر الجزاء من خالقك هيا افعل بي ما شئت وخذ ما تحب فقط عجل على بشربة ماء افعل ما تطلبه اليك المروءة والانسانية فلم يتردد شر في العمل بل أخرج السكين من جيبه بأسرع من لمح البصر وتقدم من خير وهو غائب عن الوجود لا يرى لشدة عطشه وعظم ألمه ما بين يديه ولم يشعر الا والسكين في عينيه وقد أحس بأشد الألم عند ذلك أخذ شر منه الياقوتتين ولم يعطه نقطة ماء بل تركه في مكانه وسار يجري في تلك الصحراء كي لا يسمع صوته فيما بعد وهو قد اعتقد أن خير لا يلبث أن يموت بعد ساعة أو ساعتين . ولم يكن هذا بالامر العظيم على شر فهو قد اعتاد على الشرور منذ نعومة أظفاره فقد أكل زاد خير وشرب ماءه وأخرج عينيه وسلبه جوهرتيه وأخلف بوعده فلم يعطه الماء بل تركه ليموت شر ميتة .

أما خير المسكين فقد خسر عينيه وجوهرتيه ولم يحصل على قطرة ماء فغاب عن الوجود وبقي منطرحا على الارض يلاقى العذاب وينتظر الموت وهكذا قطع خير الرجاء من الحياة (نسأل الله أن لا يري أحدا هذه الحالة وأن لا يبلى انسانا برفيق كشر الخبيث الظالم) ولم يعد خير قادرا على أى حركة بل كان يئن ويصعد الزفرات والدم يسيل من عينيه على وجهه ويتساقط على الارض وكانت حالته يلين لها الحجر الصلد والقلوب المتحجرة الا قلب شر الذى لا يمكن أن يوجد انسان فى مثل قسوته وغلظ كبده فى كل العالم حتى الوحوش التى لا تعرف الرحمة ولا تراعى الحرمة ولا تهمها قوانين الانسانية والمدنية فانها لا تعتدى على حيوان من جنسها ولا تفتك الا بغيرها فالاسد لا يقتل الاسد لانه أخوه والذئب لا يقتل الذئب لانه أخوه وحتى البرابرة الذين اعتادوا القتل والسلب والنهب وقتل الانسان عندهم كقتل أقل الحشرات ولكنهم يحنون لاخوانهم ولا يوقعون بأبناء قبيلتهم ولا يضرون رفقاءهم مهما كانوا قساة ولكن الله جل جلاله العارف بما فى الخفايا لا يغفل ولا ينام ولا يقعد عن نصرة المظلومين ولا يبقى على الظالمين

وبالصدفة كان على بعد ساعة من المكان الموجود فيه خير قرية صغيرة لم يكن يعلم بها .

وفى صباح ذلك اليوم خرجت من القرية بنت أحد رعاتها وعمرها نحو ١٥ سنة وإلى جانبها أخوها يسوقان غنمهما للرعى فى أطراف تلك الصحراء وفى وقت الضحى ساقا الغنم إلى عين ماء كانت وراء المكان الملقى فيه خير بنحو ميلين فسقا الغنم وجلسا عندها وتركا الغنم فسرح مقدار ثلاث ساعات ثم ساقا الغنم وعادا إلى جهة القرية فى وقت الأصيل فجاءت طريقهما على الموضع المطروح فيه خير وقد سمعت الفتاة أنينه وزفراته فوقفت مستطلعة ثم مالت إلى جهة الصوت وتقدمت بضع خطوات فرأت خيرا على تلك الحالة وقد تعفر بالتراب والدم يسيل من عينيه وهو فى حالة النزع فتأثر قلبها له وبكت لحالته وحملتها الشفقة على التقدم منه فسألته عن حالته وعمن أوصل اليه هذه البلايا ورماه بتلك المصائب .

فلما سمع خير صوتها بكى من شدة الألم وصاح الرحمة يا أصحاب الخير انى أموت الآن من قلة الماء وروحى تتردد فى صدرى ... ارحمونى ... أغيثونى

الحقونى بنقطة ماء اكراما لله في الحال عمدت الفتاة الى كوز ماء وصبت منه فى فم خير

ولما شعر خير بالماء نهض وجلس ثم أخذ الكوز بين يديه وجعل يشرب منه جرعة جرعة ثم أرجع الكوز الى الفتاة وقال الحمد لله .. ثم وقع الى الأرض مغشيا عليه .

فلما رأت ابنة الراعى حالته وضعت الكوز على الأرض ورفعت رأس خير الى ركبتها وقد فهمت من حالته أنه غريب ورأت عينيه يسيل الدماء منهما الى الأرض وهو لا يزال فى حالة الشبوبية فأشفقت عليه وبكت وصارت الدموع تذرف من عينيها على غير ارادتها (ومع أن الفتاة كانت قروية متربية على الطبيعة البدوية لكنها كانت ذات قلب رقيق وميول فطرية على حب الخير وصفات حسنة ورقة ربما لا توجد فى فتيات الحضر) ...

وبعد ساعة تقريبا عاد خير الى وعيه فرأي الفتاة تصب الماء فى عينيه وتغسلهما بيدها ولما نظفتا ربطتهما بمنديل وأنهضته على قدميه وقادته من يده الى أخيها وقالت خذ هذا المسكين وسر أمامى الى البيت بينما أعود الى العين وأملأ الكوز ثانية لانه فرغ .

ثم رجعت الى العين وملأت الكوز وانكفأت الى جهة البيت فصادفت خيراً لا يزال فى الطريق لانه كان غير قادر على الاسراع .

واذ ذاك قالت لأخيها : انى سأسبقكم الى البيت فابق أنت مع ضيفنا ولا تتعبه بالمشي الى البيت وقصت لوالدتها القصة من أولها الى آخرها فحن قلب الام على خير من غير ارادة وقالت لها مسكين أين تركته ولماذا لم تبق معه ثم مكثتا تنتظرانه .

أما ابن الراعى فانه بقى قابضا على يد خير يقوده شيئا فشيئا حتي وصلا الى البيت .

ولما دخلا من الباب خفت امرأة الراعى وابنتها لملاقاة خير وفرشا له فرشا ناعما تمدد عليه للراحة .

ولما رأت أم البنت خيرا فى هذه الحالة لم تقدر أن تتحمل رؤية منظره أو تضبط نفسها من التأثر فبكت وجلست هى وبنتها عند رأسه وأخذت تتأوه

وتتحسر عليه وتقول واحسرتاه عليه انه فتى جميل فمن ياترى عمل فيه هذا العمل الوحشي وفى يدى أى ظالم وقع ألم يشفق على شبابه ألم يكن في قلب ذاك القاسى رحمة وكانت تعدد مثل هذه الالفاظ وتبكى كأنه ابنها وهذا يدل على أنه يوجد في قلب تلك القروية التي عاشت طول عمرها فى البرية عيشة البدو فى القفار من الرحمة والحنو الطبيعيين ما لا يوجد فى قلوب نساء المدن اللاتى يفاخرن بالمدنية الكاذبة والحضارة الوهمية بل انهن يعيرن أولئك المسكينات التي حرمن التنعم والرفاهية والراحة واشقاهن الحظ بالفلاحة والزراعة والرعي والتعب وحمل الاثقال والاعباء عن الرجال وخدمة مواشيهن وبيوتهن بأنفسهن . فالله سبحانه وتعالى لم يحرمهن من الاحساسات الرقيقة فيعملن الخير برغبة وحب ويفعلن الافعال الجميلة الطيبة لا للصيت والفخفخة والواقع أن تلك الوالدة بقيت نحو ساعة جالسة مع بنتها عند رأس خير تبكي على حاله وتتوجع لمصابه .

ثم أسرعت فعملت له شرابا عسليا فسقته اياه وأحضرت بعد ذلك لخير الطعام فأطعمته :

فأكل خير وشرب باشتهاء وكان قد ارتاح قليلا وتقوى بعد الطعام فلما فكر فيما لحق عينيه شعر بعظم مصابه وصار يندب حظه ويشكو دهره ويسأل الله المساعدة والمعونة ولم يفتر دقيقة عن الاتكال عليه والشكر له لعلمه أن ما يصيبه فبقدر الله وأنه لحكمة يعلمها الله وأنه ماتسقط ورقة فى الأرض ولا فى السماء إلا وهو يعلمها ويحيط بها وبحكمة سقوطها .

وفى المساء عاد الراعى إلى منزله فرأى على خلاف العادة رجلا طريح الفراش مريضا فى بيته تعتني به زوجته وابنته فتعجب من ذلك وسأل عن هذا المريض وعن الذى جاء به إلى هنا .

فاستقبلته ابنته وقالت له الرحمة يا أبى لا تسأل إنه رجل غريب مظلوم فانى قد ذهبت فى هذا اليوم إلى العين لأملأ الكوز ماء وفيما أنا عائدة الى البيت سمعت صوت تنهدات وأنين فرجعت لأرى فوقعت عينى على هذا الفقير المسكين ملقى على التراب يبكى ويستغيث ولما رأيته على هذه الحالة تأثرت كثيرا ولم أقدر أن أضبط نفسى عن البكاء ولو كنت أنت فى مكانى لما تأخرت عن مساعدته خصوصا وقد رأيته معفرا بالتراب والدم يسيل من عينيه ولما سألته عن حاله صاح مستغيثا بى وقال لي انه يموت من العطش فسقيته .

وبعد أن ارتوى تأوه ووقع إلى الارض مغشيا عليه فازددت تأثرا لحاله وجلست عنـــد رأسه أرش الماء على وجهه وغسلت عينيه ونظفتهما من التراب . ولما عاد إلى نفسه لم يطعنى قلبي أن أبقيه يموت على حالته فأتيت به إلى البيت .

فلما سمع الراعى كلام ابنته تأثر أيضا زيادة عنها . وقال لها أحسنت يابنتى صنعا لأن خدمة هذا الرجل الفقير الغريب لا تضيع عند الله .

وفى الحال تقدم الى خير وسلم عليه وطيب خاطره وسأله عن حاله وكان خير غير قادر على فتح عينيه ولا على الـكلام فعلم الراعى منــه ذلك ففتح له عينيه بيديه ونظر داخلهما ثم قال لزوجته انظرى عينى هذا المسكين وكيف غدر به الظالمون فقد أخرجوا عينيه بالسكين ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يضره فان إنسانيهما لم يصابا بضر وأنا أقدر أن أنفعه وأفيده وأعيد اليه نظره كما كان وذلك أنه يوجد في المحل الذى أرعى فيه الغنم شجرتا صندل قد التصقا ببعضهما البعض فاذا أخذ من أوراقهما كمية وسحقت وأخذ عصيرها وقطر منه فى عينيه صباحا ومساء فى ظرف خمسة أو ستة أيام يعود اليه نظره وإذا قطر منه فى أذنيه يعود اليه سمعه لأنه الآن لايسمع لشدة ألمه

ولما سمعت المرأة وابنتها كلام الراعى طارتا من الفرح وأخذتا تقبلان يديه وتشكرانه وتقولان له ارحمه وساعده فان انقاذ هـــذا العمل منوط بك الآن وألحتا عليه بالالتماس والرجاء فأجاب إكراما لعائلته وحبا فى تخفيف أوجاع خير وآلامه ونهض فى الحال وسار إلى جهة الجبل فقطف باقة من أوراق شجر الصندل وأسرع فى الرجوع إلى بيته ودفع الأوراق الى ابنته فأخذتها من يده وسحقتها فى الحال في هاون نظيف وعصرتها وأخذت العصير ودنت من خير وقطرت بضعة نقط منه فى عينيه بيدها وهي تبكي لحالته وكذلك خير فانه إلى مقدار ساعة يتألم ويتوجع من شـدة التهاب القطرة فى عينيه وبعد ساعه سكن الالم وشعر براحة .

وفى صـــباح اليوم التالى نهضت الفتاة وقطرت أيضا بضعة نقط من تلك القطرة في عينى خير . فلم يتألم من التقطير كما حدث فى المرة الاولى . وبقيت الفتاة لمدة أسبوع تقطر لخير فى عينيه كل يوم مرتين وحينئذ رأى خير جراح عينيه قد التأمت وفى لها أثر بســيط ففتح عينيه قليلا وقد بدأ ينظر إلى الدنيا

ويرى ما بين يديه . وفى ظرف عشرة أيام من وجوده فى ذلك المكان فتح عينيه جيداً وصار نظره صحيحا أكثر من الأول .

وحينئذ غطت امرأة الراعي وابنته وجهيهما منه ولكنهما بقتا على خدمته ورعايته كالاول وكانت الفتاة قد وقعت فى حب خير على غير قصد منها وصارت تشعر بحكم الطبيعة بميل خصوصى لخدمته والتقرب منه ولذلك كانت تهتم شديد الاهتمام بكل خدمة ومصلحة تلاحظ أنه فى احتياج اليها . وكذلك خير فانه بعد أن فتح عينيه رأى نفسه مدينا بحياته وبصرة وراحته لهذه الفتاة فأحبها محبة لا توصف وأصبح عاشقا لها مغرما بها خصوصا لما رأي منها ميلا اليه واجتهادا فى خدمته وو كان لم ير وجهها ولا استجلى محاسنها ولا رأى جمالها بعينيه ولكنه أدرك أنها لا بد أن تكون جميلة . وقد كان كل واحد منهما يخفى حبه وغرامه عن الآخر ولم يكن بينهما كلام أو معاشرة بل كانت دلائل الحب معروفة من بعضهما البعض بالاشارة والايماء .

وكان خير ينهض فى الصباح ويذهب مع الراعى لرعي الغنم وقد اهتم كثيرا واجتهد ليوقع حبه فى قلب الراعي وكان فى الصباح والمساء يقبل أيادى الراعى ويقول له أنت أبى وأنت السبب فى ارجاع نظرى فعيناى الآن هما من عندك فالله يجزيك عني خيراً فى الدنيا والآخرة وبكلامه استجلب محبة الراعى وزوجته فتعلقا به بأكثر من تعلقهما بينتهما وكانا لا يستريحان بدون رؤيته أو حضوره .

وهكذا أصبح كل فريق من خير وعائلة الراعي مولعا بحب الآخر مجتهدا فى راحته ملتفتا إلي خدمته

وأما محبة الفتاة فكانت تزيد يوما عن يوم وتتعاظم من يوم الى آخر ومحبة خير تنمو وتتجسم فى قلب الراعى وصار كابن له يعامله معاملة الوالد . ومن بعد أن مر عليهم بضعة أشهر على هذه الحالة جلسوا ذات ليلة مع بعضهم البعض الراعى وزوجته وابنته وفى أثناء الكلام والحديث قال الراعى انى ممنون يا ولدى كثيراً من شفاء عينيك ورجوع نظرك اليك ولكننا لما كنا لا نعلم الاسباب التي جرت عليك هذه المصيبة الكبيرة فترانا في قلق من جراء ذلك فأخبرنا بقصتك وخلصنا من انشغال البال والقلق . فلم يخف عنهم أمره بل حكي لهم قصته من أولها إلى آخرها وكيف أنه خرج من بلده لاجل السياحة فصادف

شرا و كان لا يعرفه في بلده فصار يطعمه من زاده ويسقيه الماء الذى معه ولما فرغ الزاد والماء أعرض عنه شر وأبى أن يعطيه نقطة ماء يرد بها رمقه وأخيرا طمعا في الجوهرتين اقتلع عينيه وأخذهما وسار ولم يبل رمقه بشربة ماء وبقى في حالة الموت حتى ساق الله اللطيف الخبير بنته إليه وخلصته مما هو فيه من الشقاء والموت . فتأثر الراعى وزوجته من قصة خير ولم يقدرا على ضبط شعورهما عن البكاء وصارا يسألان الله تعالى أن ينتقم له شر ويدعوان عليه بالويل والبلاء وقد تعاظمت محبة خير عندهما وصارا يدعوان له بالسعادة وحسن المآل .

إلا أن خيرا كان فكره وقلبه متعلقا ببنت الراعى . فكان يقول فى نفسه ترى هل يسعدنى الزمان وأنال وصال هذه الفتاة . كلا . ما هى المناسبة بيني وبينها أيمكن أن يقع أمر مثل هذا لأني أنا بعنايتهم ردت الى الحياة وأرى نفسي مضطرا لأن أكون خادمهم وربما هم أيضا يعتبرونني فى عيونهم كعبد رقيق فهل يمكن لهم أن يعطونى جوهرة ثمينة كهذه . أواه يا ليتنى بقيت أعمى أو ليتنى مت قبل أن أرى بعينى هذه الفتاة أو عرفت صفاتها الملائكية وأطوارها الحسنة فكل ما فيها يعشق ويحب .

وبينما كان يفكر هذه الأفكار كان قلبه موزعا بين اليأس والرجاء والغرام يقيمه ويقعده وقد غرق فى بحر من التفكير لايجاد طريقة ينال بها بغيته وأخيرا قال فى نفسه الأحسن لى أن أستأذن الراعى فى الخروج من هنا والذهاب الى بلدى . فاذا كان الراعى مسرورا مني وراغبا في بقائى عنده فلا يتركنى أسافر ومن المحتمل أن يعرض على مصاهرته فأبقى وأنال بغيتى من مالكة فؤادى ولبي وأزمة قيادي واذا فرض وسمح لى بالذهاب وتركنى أسافر فانني أسير الى بلدى حينئذ ومن دون شك فان حب الفتاة تبرد من فؤادي شيئا فشيئا لأنى لا أقدر أقيم هنا ولا أقوى على هذه الحالة التي أنا فيها الآن فكلما رأيت هذه الفتاة ارتجف قلبي والتهب عقلي وجسمى من هواها . فانى عند ما كنت بغير ماء فى الطريق كانت جناية شر على أنه كان يخرج كوز الماء أمام عيني ويشرب فيغرينى نظرى اليه والى الماء على الشرب والعطش وانى أقسم بالله أن هذا العطش هو أشد صعوبة ومرارة من ذاك العطش لأن ذاك العطش كان فداؤه العين أما هذا العطش فضحيته الروح وكل عزيز وغالي لدى .

وبعد أن صرف نحوا من أسبوع فى مثل هذه الأفكار . عاد ذات مساء من

البرية الى البيت وعلائم الكدر وانشغال البال ظاهرة على وجهه .

ولما رأى الراعى حالة خير وماهو عليه من الحزن والملل ارتبك فى أمره وسأله ما بالك ياولدى مهموما وفى أي شيء تفكر .

فنهض اذ ذاك خير من مكانه وقبل يدى الشيخ وقال له اذا كنت تسمح لى رجوتك بأمر أراه لازما . فأظهر الراعى التعجب وقال ماهذا الأمر تكلم ياولدى ولا تخف .

فقال خير . فى الواقع أنك الآن ياسيدى تعاملنى معاملة لايمكن أن يعامل بها الاب ابنه وعينى قد وجدتا النور بواسطتك ولاأزال غارقا فى نعمك ولذلك أرى أننى مدين لك بحياتى وروحى ويجب علي أن أبقي كل عمرى خادما لك وإني أعرف وأعي ف أن ذلك لا يوفى جزء من الحقوق التي لك على لكن ما العمل فان أمرا مهما فى سرى يدفعنى الى الاستئذان منك بالسفر الى بلدي ومع أنى أرغب فى أن أبقي معكم كل العمر فمن وجه آخر أرى نفسى متعلقة بحبكم فى أى مكان كنت ولهذا ترانى متحيرا ومضطربا وخجلا منكم وعارفا بعظم قدر الجميل الذى لكم على .

فلما سمع الراعى كلام خير لم يقدر أن يضبط نفسه من البكاء وتقدم من خير وقبله فى جبينه وقال خف الله يا ولدى لقد أحرقت فؤادى بكلامك هذا فأنا لا أريد أن أصرف عمري بدونك وأنا لا أتركك واذا تركتك ماذايا ترى يحل بى فدع عنك هذه الهواجس والافكار فجميع أمتعتى وأموالى التى تراها لك وما عدا ذلك فانى أهبك أيضا ابنتي فأعطيك مقتنياتى جميعا وابنتى أيضا فتكون لى صهرا وابنا فاستلم الجميع ودعني أنا أصرف باقى عمرى تحت عنايتك . دع عنك هذا التصور اكراما لله ولا تحرق قلبى فليس لى أولاد غيركم .

فأخذ خير يرتجف بكمال التأدب والحياء وبعد أن أطرق برهة عاد ثانية فقبل أيادى الراعى وقال له يعلم ياسيدى أنى لا أريد الانفصال عنكم فى وقت من الاوقات ولا أقدر حتى يوم القيامة أن أنسي معروفكم وجميلكم والآن مادامت ارادتك أن أبقى هنا ولا ترضي لى بالسفر فسأبقى هنا وأقوم بخدمتكم باقي عمرى وعلى قدر طاقتي وفوقها .

فسر الراعى من كلام خير سرورا لا مزيد عليه وفي اليوم الثاني عقد لبنته عليه وزوجه بها وصار صهره من ذاك اليوم .

وقد سر كل من خير وبنت الراعي سرورا لا مزيد عليه وتلذذا بوصل بعضهما البعض وكان خير يظن في نفسه أنه أكثر سعادة من زوجته لحصوله عليها وهي أيضا كانت تفكر أنها أكثر منه سعادة لحصولها عليه لأن الحب كان يرى خيرا أنها مع ماهي عليه من الجمال الباهر والحسن الزاهر قد تخلقت بأخلاق الملائكة ولما لها عليه من المعروف والجميل في شفائه وخدمته والاهتمام به كان يعتقد أن منزلتها رفيعة وأنها ربما لا ترضى به بعلا .

فلما حصل عليها تيقن له أن حصل على كنز عظيم ودرة غالية وحصل عليها لسعادته وكذلك الفتاة فإنها كانت قد رأت فيــه من المزايا الحسنة والآداب الرفيعة ورقة الطباع ما لم تره في غيره من أبناء قريتها اللذين كان لابد لها أن تقترن بأحدهم ولذلك حسبت نفسها سعيدة فوق ما تؤمل وهذه الأفكار كانت تزيد تعلقهما وحبهما لبعضهما البعض .

ولما أصبح خير صهراً للراعي صار في النهار يخرج معه لرعى الأغنام والأنعام وفي المساء يضم اليه زوجته وينام إلى جانبها وكثيراً ما كانت الفتاة تخرج معهما إلى البراري في وقت النهار فيتسلى بها وتتسلي به وهو مرتاح البال ساكن الخاطر قلبه خال من كل هم ففي ذات يوم بينما كان خير يتجول مع حمية لرعى المواشي في البرية صادفا شجرة الصندل التي كانت أوراقها سببا في فتح عينيه ورجوع بصره اليه وإذ ذاك قال له الراعي هاك يا ولدي الشجرة التي أخذت من أوراقها وعالجت بهـا عينيك حتى شفيت ورجع النور لها وتلك الشجرة التي إلى جانبها تفيد أوراقها للصمم . فاذا أخذت أوراقها وعصرتها وقطرت من عصيرها في آذان الاصم شفي . فخف حينئذ خير إلى الشجرتين وأخذ من كل منهما بعضا من الورق وأخذ قطعتين من القماش ثم خاطهما في الحال كيسين وملأهما من أوراق الشجر وقد قال في نفسه ربما احتجت اليها يوما وربما احتاج اليها غيري فأداويه لوجه الله . وعنـــد المساء عاد مع حميه إلى البيت وبات مع زوجته على الهناء والسرور .

ومع أن خير كان مسرورا من هذه العيشة السهلة الحسنة يشكر الله سبحانه وتعالى الذي أوصله إلى بيت هذا الراعي يقطع الاوقات بهناء ولذة لا هم له إلا شكر الراعي وزوجته . لكنه لما كان قد تربى وعاش في المدن ولما لم يكن في تلك الصحراء الواسعة والبراري الشاسعة سكان يتلهى بمعاشرتهم أخذ صدره

ينقبض من الوحدة والانفراد شيئا فشيئا ولذلك كان يقول كم يكون حسنا لو كانت هذه الراحة التى ألاقيها هنا فى بلدى أو لو أننى أمضيت وقتي مع زوجتى فى بلد واسع فكم تكون مسرورة ومنشرحة وكان يفكر باستمرار في مثل هذه الامور حتى لم يعد يخرج من ذهنه أو يبعد عن خاطره أمر سكنه فى المدن وأخيراً بعد التبصر والتفكر قال من المستحسن أن أعرض هذا الامر على زوجتي لأرى هل ترغب فيه أو ترفضه .

ففى ذات ليـــلة بينما كانا نائمين فى فراش واحد يتحادثان ويتسامران قال لزوجته ألا يوجد فى جوار هذه الصحراء مدينة كبيرة كباقي المدن . فأظهرت التعجب من كلامه وقالت له وما قصـدك من وراء ذلك وماذا يحصل لو كان بالقرب من هذه الصحراء مدينة .

فقال انى لا أقصد شيئا ولكن أسألك هل أن المدينة تبعد كثير من هنا . قالت كلا لا تبعد المدينة عنا أكثر من اثنتي عشرة ساعة ويسار اليها على الطريق العام . فأبدي تعجبه واســتحسانه لذلك ثم قال لها أى رفيقة حياتى الامينة وحبيبتي الصادقة أليس الاحسن والاجدر بنا أن نذهب إلي المدينة ونكترى لنا بيتا فيها ونعيش عيشة أهل المدن ونشاركهم في حظوظهم ومسراتهم وأنت تتعودين المعيشة فى المدينة وتسكنين مساكنهم الجميلة ان هذا أوفق لنا من البقاء فى هذه الصحراء منفردين لا نشاهد الا صخورا قائمة ووحوشا هائمة وأشجارا ونباتات وأكاما .

وبعد أن فكرت الفتاة برهة قالت له نعم يا حبيبي ولا ريب أن العيشة فى المدينة أحسن وأنسب لك لانك ربيت فى المدن واستمرأت المعيشة فيها فتراها أحسن بكثير من عيشتنا هذه الحقيرة أما أنا فانى وان كنت أفضل المعيشة فى الصحراء والبقاء في هذا البيت على قصور الملوك لكن اكراما لك وحبا لراحتك .أترك هذا المكان وأسير معك الي المدينة وعلي ذلك فاننا فى الصباح نتقدم نحن الاثنان بالرجاء إلى أبي ونستأذنه فى ذلك فسر منها خير ومدح حبها وحسن ادراكها

وفى صباح اليوم الثاني تقدم الاثنان من الراعى وأخبراه بما قر أريهما عليه فى الليل وسألاه أن يجيب التماسهما ورجاءهما فأطرق الراعى برهة فى الارض متفكرا ثم رفع رأسه وقال لخير اطمئن يا ولدى فانى لا أرد لك طلبا ولا أمنعك مما تحب فاكراما لك وانفاذا لارادتك أبيع غنمي وكل أمتعتي هنا وأسير معكما

إلى المدينة لقد صرفت معظم عمرى فى هذه البرية وسأصرف الباقي فى المدينـة لأرى ما هو الفرق بين العيشة الهمجية والعيشة المدنية عسى أن يكون فى ذلك راحة لي فى آخر عمرى فأموت قرير العين . لكن إذا كان ولابد لنا من السكنى فى المدن فالأوفق أن نقصد إحدى المدن الكبيرة والعواصم العظيمة لأنى أرى أن القرية مثل المدينة الصغيرة فاذا كنت تقبل كلامي وتسمع رأيي فسر حيث أقول وهو أنه على بعد عشرين يوما من قريتنا هذه توجد مدينة بلخ العظيمة فنقصدها ونسكن فيها مسلمين أمرنا لله تعالى فرضي خير وزوجته بذلك وشكرا الراعى على قبوله ترك وطنه ومسقط رأسه وبيع أملاكه ومقتنياته والحاق بهما كي لا يفارقهما .

أما الراعى فلم يتأخر بل فى الحال باع أملاكه وغنمه وكل ما ملكت يده لأهل قريته ودبر كل ما يحتاج اليه فى سفره .

وبعد بضعة أيام خرج الجميع من القرية وساروا يقصدون مدينة بلخ حتى وصلوا اليها ودخلوها وكانوا في أسواقها ولما كان خير معتادا على المدن ويعرف اصطلاحاتها فقد بحث عن خان موافق استأجر فيه محلا لسكنهم وبعد يومين من وصولهم المدينة وجد خير بيتا صغيرا فاستأجره ونقل اليه زوجته وأخاها الصغير وأباها وأمها فسروا لذلك واستراحوا عدة أيام .

ولما لم يكن الراعى معتادا على المدن كان يدركه العجب والدهشة من كل ما يرى وكان يذهب ويعود برفقة خير على الدوام وكان خير يهتم بجلب احتياجات البيت ويحترم الراعي وعائلته كما كان معهم فى البادية ولم يهمل لهم أمرا قط وكان يدأب على جلب السرور لقلوبهم .

ومر عليهم شهران فى المدينة يصرفون الوقت على مثل ما تقدم وقد رأي الراعى وزوجته وبنته راحة عظيمة فى السكن فى البلاد المعمورة وذاقوا النعيم واللذة في معيشتهم بين الناس وسرهم تخلصهم من الصحراء ورعى الماشية وبعدهم عن البرد فى الليل والحر فى النهار وكل أنواع التعب والعذاب فكانوا يشكرون خير على الدوام ويدعون له بالسعد والتوفيق .

ففي ذات يوم خرج خير من البيت لكي يأتى للبيت ببعض أشياء يحتاجونها وفيما هو يتمشى في الشارع سمع ضجة وضوضاء كأن القيامة قد قامت ورأي الناس من كبيرهم إلى صغيرهم يهرعون ويسيرون كالجيش . فتقدم من أحد الناس

وسأله عن السبب . فقال له إنهم يسيرون للمناجاة على حسب العادة المعلومة . فزاد تعجب خير من ذلك لانه غريب عن البلدة ولا يعرف المناجاة التى أخبره عنها الرجل وفي الحال قال حيث أنني لا أعرف هذه المناجاة فالأوفق أن أختلط بين الناس وأسير معهم فأعرف السبب وماهي المناجاة على حسب العادة المعلومة

فتتبع الناس وسار برفقتهم حتي خرجوا من المدينة وجاءوا إلي محل واسع فى الخلاء بعيدا عن المدينة فألقى كل منهم عباءته عن أكتافه وكشفوا رؤوسهم ووقفوا حفاة عراة. ونظر أيضا فرأى أن جنود المدينة قد جاءوا صفا صفا وكشفوا رؤوسهم ووقفوا ومن بعدهم جاء الملك بكمال التواضع وهو يبكي وعيونه تذرف الدموع فكان يمسحها بمنديل فى يده ثم وقفت فى وسط الجماعة . وأمر الجميع بالجلوس وبقى هو واقفا .

وكان خير يتعجب من كل ما يرى وقال يا ألله ما هذه الأحوال ماذا يعمل هؤلاء الناس هنا .

ثم رأى الجميع وقد أصغوا وسكنت حركاتهم كأنهم صم بكم أو كأنما على رؤسهم الطير ولم يعد يسمع صوت قط وحينئذ رفع صوته كأنه يخطب فقال أي رعايايا الأمناء الذين أدخلهم الله فى رعايتى وعلمنى الواجب على والمفروض على ذمتي من الاعتناء بهم والمحافظة على راحتهم أنتم تعلمون أنى ارتقيت سرير السلطنة وأنا فى الخامسة عشرة والى الآن لى نحو ستين سنة حاكما عليكم وأشكر الله أنى صرفتها على العدالة والانصاف حتى لم أدع أحدا يتشكي أو يتظلم مني بل كنت أرى بنفسي أمور الرعية خاصة وأمور الدولة بوجه تام وأدبرها على وجه يرضي الله والعباد وينطبق على شرع العدالة الربانية ولم أغفل أمرا ولا تغاضيت عن راحة أحد وقد رجوت الله كثيرا أن ينعم علي بخلف يخلفنى فى هذه المملكة فأعلمه طرق الحق وأدربه على حب الرعية فلم تشأ إرادته ذلك فتركني يائسا من أن يكون لى ولد يليني فى الحكم والملك نعم ان الله لم يدعنى بدون ولد بالكلية بل رزقنى بنتا حسناء اعتنت بتربيتها وتهذيبها مدة عشر سنين وعلمتها جميع العلوم والفنون وقمت نحوها بحق الابوة المفروض على وفيما أنا مسرور وقلبي فرح وأقول فى نفسى سأترك للاهالى والرعية وريثا أكثر منى ادراكا وأرفع علما وأميل عدلا قضت الارادة الالهية ولا أعلم ما الحكمة بذلك أن تبلى

ابنتي المسكينة بالصمم والعمي فلم تعد تسمع ولا ترى فتقطع قلبي لذلك وضعف لذلك جسمي وعاودني اليأس أكثر من الاول ومع ذلك فأنا أعلم أن لا بد من حكمة في ذلك يعلمها الله وقد غابت عن أفهامنا .

نعم انى لم أجبركم ولا أتيت بكم الى هنا بالرغم عليكم بل أتيتم من انفسكم دلالة على حسن رضاكم وسروركم منى وقد حملكم حبكم لى على الخروج مرتين فى الاسبوع الى هذا المكان للدعاء والصلاة والتضرع الى الله سبحانه وتعالى لاجل شفاء بنتي .

وقد مضت الآن مدة شهرين ونحن مداومون على الدعاء والالتماس والطلب والتضرع والتوسل اليه تعالى وقد أتينا الآن لهذه الغاية أيضا فأسألكم بل أرجوكم أن ترفعوا أصواتكم بالتوسل للحكيم الشافى عن نيات صادقة وقلوب طاهرة عسى أن الله سبحانه وتعالى يجيب توسلاتنا ويرحم قلوبنا المنكسرة فيفتح عيني ابنتي وأذنيها فتعود الى ما كانت عليه قبلا ولا بد أن لا كثر كم بنين وبنات وانكم تعلمون مقدار حبهم ومعزتهم وكم يكون الاب حزينا منفطر الفؤاد عندما يكون أولاده مصابين بالآلام والاوجاع .

فلما سمعت الرعية كلام الملك الممزوج بالتأوه والتحسر والتنهدات والزفرات فما منهم إلا من بكي وتأثر فى قلبه من كلام وحزن أشد الحزن ثم ان جميعهم خروا على وجوههم ساجدين ورفعوا أصواتهم بالصلاة والدعاء الى الله جل شأنه أن يرحم بنت الملك ويشفيها مما هى فيه من الصم والعمى .

كل هذا وخير يسمع ويرى وقد أخذ يرتجف من رأسه إلى قدمه وبقي متحيراً فى نفسه غارقا في بحر الأوهام والأفكار . يقول فى نفسه سبحان الله كم هو عظيم وكريم ان حكمته قد قضت بذلك لخيري ومنفعتى . ماذا يا ترى أعمل أأتقدم من الملك وأخبره بأوراق خشب الصندل التي عندى أو لا أخبره بها . ولبث برهة يفكر وقلبه يرتجف ثم قال في نفسه يلزم أن أتأنى وأصبر هذه الليلة وأراجع الامر بنفسي لأن من تأنى نال ما تمني ومن عمل عملا بدون ترو وصبر خاف سوء عاقبته ودام على عزمه متعجبا من عمل القدر وحكمة الله الغريبة .

وبعد أن بقيت تلك الجموع مدة ساعتين يبكون مع ملكهم ويتضرعون إلى الله تعالى بقلوب حارة خاشعة رجعوا إلى أماكنهم .

أما خير فرجع الى البيت مفكرا متغير الأحوال لانه كان يبشر نفسه بالسعادة والاقبال من جهة وكان يخاف أن يجذب على نفسه والويل والوهم من جهة أخرى ولذلك ظل غارقا فى التفكير تتجاذبه عوامل الحزن والسرور .

ولما رأى الراعى وامرأته وبنته حالة خير وما هو عليه من الاضطراب وانشغال البال قلقوا ولا سيما زوجته .

فقالت له العفو يا سيدى ماذا أصابك ولماذا أنت مصفر اللون مشتت الفكر فلم يجيبها بكلمة واحدة بل ذهب الى احدى زوايا المنزل وجلس منفردا . فزاد لذلك قلقهم وانشغال بالهم ولا سيما عندما رأوه لا يتكلم فطافوا حواليه وقال له الراعى الرحمة يا ابنى لا تزد قلقنا أخبرنا بالذى طرأ عليك جديدا فى هذا اليوم أجبنا اكراما لله والا قتلت نفسى وقالت له زوجة الراعي لماذا أنت حزين لا تجاوبنا ياولدى وألحت عليه كثيرا حتي عاد اليه صوابه .

فتبسم وقال ماذا جري لم يجر على شىء دعونى الآن بحالى فزادوا عليه فى الالحاح ولا سيما زوجته وأمها .

عند ذلك قال لهم اعلموا أنى لما خرجت فى هذا اليوم من البيت وكنت أطوف فى الاسواق كان جميع الاهالى والعساكر حتى الملك نفسه خارجين الى البرية فذهبت معهم لأنظر ما الخبر فوقفت فى جهة أراقب ماذا يجري واذا بالملك قد انتصب على كرسى عالي بكمال العظمه والاجلال وخاطب الجميع بكلام مؤثر وذلك أن له بنتا صماء وعمياء فسألهم أن يصلوا لله ويسألوه شفاءها .

فلما سمعت أنا كلامه أردت أن أتقدم اليه وأعرض عليه أمر مداواتها وأنا أعتقد أن الصندل يشفيها فلم أجسر فبقيت فى اضطراب وهذا هو السبب الذى من أجله شغل بالي وأحزنني .

وبينما خير كان يتكلم كان الراعى يسمع هذا الكلام فحالما وقع فى أذنه اسم الملك أخذ يرتجف وصاح العفو يا ولدي احذر من أن تتعرض لمثل هذا الامر أأنت مجنون لا تجلب الويل والشر لنفسك بيديك فماذا يعنيك من ذلك وربما لم يصر حسنا فكيف يمكنك أن تتخلص فاكراما لله ولخاطر شيبى وكبر سني لا تترك هذا الامر يجول فى خاطرك بل انصرف عنه بالكلية . العفو ياولدي

يا ربي يقول الملك . أي دخل لك بالملك . ثم أخذ الراعي يبكي وينتحب ويرتجف جسمه من الخوف والذعر فتبسم خير وقال في نفسه إن البدويه مازالت فيه ماذا يعمل الملك هل هو يأكل الناس . للراعى الحق فى أن يخاف من ذكر اسم الملك لأن الحضور بين يدي الملوك ليس بالأمر السهل فان هيبتهم ووقارهم يخيفان الداخل عليهم ... فالآن بأى طريقة أدخل على الملك وهل يمكننى أن أمتنع عن أن أسعي في شفاء بنته والدواء فى جيبي . وبقى غائصا في هذه الأفكار مدة .

ودام خير أياما على ما تقدم الي أن كان ذات يوم شاهد الازدحام الذى شاهده فى اليوم الماضي ورأى الناس محتشدين فاوتلط بهم وسار برفقتهم .

ولما وصلوا من المكان المعهود وقف فى محله وقد وقف الشعب ورجال الدولة حفاة عراة وإذا بالملك كاليوم السابق قد علا الدكة وأعاد على أسماع شعبه نفس الكلام الذى ألقاه فى اليوم المتقدم ذكره ولكنه زاد عليه قوله « وانى أيها الشعب الأمين الصادق مسرور منكم وممنون لكم بسبب تحملكم المشقة والتعب لأجلي فجزاكم الله عنى خيرا وأخبركم انى فى الليلة الماضية رأيت فى الرؤيا أن دعانا سيستجاب إما فى هذا اليوم أو فى الغد وأن أذنى ابنتى وعينيها ستفتح بواسطة خير .

فلما سمع خير أن السلطان يلفظ اسمه حيث قال إن أذنى ابنتي وعينيها ستفتح بواسطة خير لاح له أنه يقصد أنه سيجيء خير ويشفيها فصاح خير فى الحال من بين تلك الجموع نعم أيها الملك أنا هو خير وقد أتيت أوفي وعدك واصدق رؤيتك أطال الله عمرك فأنا قادر على أن أشفي بنتك من صممها وعماها باذن العلى الحكيم .

فلما سمع السلطان والشعب الساجد إلى الأرض هذا الكلام التفتوا بوجوههم إليه وتعجبوا منه ولاسيما عندما رأوه شابا جميلا وبناء على أمر السلطان أحضر خير إلى بين يديه . فقال له السلطان . ما اسمك . أجاب لا برحت أيها الملك السعيد عائشا بالعز والاجلال وزاد الله عمرك وقدرك إن اسمي (خير) فاستبشر السلطان بالفوز والنجاح وقال له أهلا وسهلا إن شاء الله يكون قدومك علينا خيرا . لقد قلت الآن إنك تشفى أذني وعيني بنتى فكيف ذلك فأجابه خير بجراءة ممزوجة بالحيرة والخوف نعم ياسيدى إنى فى مدة عشرة أيام أعيد بنتك أحسن مما كانت وأعدك بذلك وعدا صادقا وحرا .

فبقي السلطان متحيرا من كلامه ولكنه قال له هلم انر وان شاء الله يكون

خيرا . ثم نهض الجميع وجاءوا إلى المدينة فأخذ الملك خيرا معه الى قصره وعين له مكانا مخصوصا ورتب له فيه الخدم والحشم .

الا أن الملك كان في ضميره يتعجب من خير وكان يقول فى نفسه ترى ما يقوله خير صحيح أم هو كذب وكان الملك مرتابا فى صحة دعواه يظنه محتالا وكانت هذه الشكوك مثار تعب وضجر عند الملك فلم يمكنه الاطمئنان فانه نهض فورا ودخل على خير .

ولما شعر خير بقدوم الملك خاف من جهة وفرح من أخري وتقدم الى استقباله بالخوف والفرح .

ولما صار قريبا من السلطان دعاله وأثني على عنايته به وقبل أذياله فأخذه الملك من يده وقبله فى جبينه ودخل الغرفة التى أعدت لخير فجلس وبقى خير واقفا بين يديه بكمال الوقار والاحتشام الا أن السلطان ألح عليه بالجلوس فجلس تجاهه وبعد أن أظهر مزيد الاعتناء والاكرام هش فى وجهه وبش وآنسه بلطفه ورحب به ثم سأله عن بلده .

فأجابه خير انى من البلد الفلانى من أحقر سكانها وقدأوصلني القضاء والقدر الى هذه العاصمة لكن باذن الله تعالى سأعيد على ابنتك سمعها ونظرها فتصبح أحسن مما كانت والعلاج موجود معى فكن براحة ولا يشغل بالك أمر ولا يدركك شك أو ريب فى حكمة الله تعالى فانى بمساعدته وعنايته أشفي عينى بنتك وأذنيها وليس ذلك على الله بعسير .

فزاد فرح الملك لهذه البشرى ولم تعد الدنيا تسعه ولم يعد يعرف ماذا يعمل ولا بأى شيء يكافىء خيراً لعظم فرحه وسروره منه ومن شفاء ابنته ولكنه مع ذلك كان يتردد وهو يكاد لا يصدق مايسمع ويقول فى نفسه أصحيح يا ترى أم كذب .

ومن ثم أحضر الطعام فجلس الملك وخير على المائدة وأخذا يتناولان الطعام وكان العرق يتصبب من جبين خير لشدة خجله ولم يكن يرفع نظره الى وجه الملك من الحياء والأدب وكان لسانه لا يفتر عن الدعاء للملك والشكر له . وهذازاد الملك فيه محبة له وميلا اليه .

وأما الراعى وعائلته فانهم لما رأوا أن المساء قد أقبل ولم يعد خير شعروا أن الدنيا بما فيها انطبقت عليهم وصاروا يبكون وينوحون ويقولون ماذا حدث له

ولماذا لم يعد وما هي المصيبة التي حلت به ومنعته عن الرجوع الى البيت .

وقال الراعي اني أخاف أن يكون الجهل والطيش قد حملاه على الذهاب الى مقابلة الملك لشفاء ابنته وبذلك يكون قد جنى على نفسه بيده ولم يلتفت الى نصائحي وأقوالي ولا اعتبر بأقوال الحكماء الذين حذروا من معاشرة الملوك أو القرب منهم فان من أكبر الآفات التقرب الى الملك لأن السلطان كالبحر لا يأمن راكبه من الغرق وقد قال لقمان الحكيم ان السلطان يغضب غضب الولد الصغير وينتقم انتقام الاسد القدير .

ولهذا أقول انه رمي نفسه الى التهلكة بيده وان الحق كله على لاني أطعته في المجيء الى هذا المكان فياليتنا بقينا جميعنا في الصحراء سالمين براحة فكر وهدوء ولا أتينا الى هذه المدن فهي التعب وانشغال البال والهلاك وهكذا ظل وبقية أسرته وهم في هم ونكد صابرين على حكم القضاء والقدر يعلقون آمالهم برجوع خير اليوم بعد اليوم .

فهذا ما كان من الراعي وأهل بيته وأما خير فانه بعد المساء تناول الطعام وصلى ثم نهض مع الملك ودخلا غرفة ابنته فجلسا فيها وكان خير خائفا بزيادة فقد شاهد كل هذا الاعزاز والاكرام والاحترام واضطر إلى مشاهدة حرم الملك فماذا يجرى به إذا لم ينجح وتبين للملك أنه ضحك عليه واستهزأ به إذ لم يكن طبيبا ولا حكيما ولذلك صار يناجى الله في نفسه قائلا : إلهى الرحمة . إلهى لا تتركني ولا تتخلى عنى فكما أنك شفيت سمعى وبصرى وأرجعتنى صحيحا أحسن مما كنت فيه سابقا اجعل شفاء هذه الفتاة على يدي ولا تخجلني يا حي يا قيوم .

ثم إن خير هدأ روعه قليلا بتسليم أمره لله فسأل الملك أن يؤتى اليه بهاون فأمر الخدم فأحضروا له ما طلب فأخرج من جيبه أوراق شجرة الصندل التي كان أخذها منها كما تقدم لنا سابقا . وقال للملك كن براحة يا سيدى فان الله قد أرسلني إلي هذه المدينة لأكون واسطه لشفاء ابنتك وبعد أن سحق الأوراق بالهاون واحدة فواحدة عاد فعصرها أيضا واحدة فواحدة وأخرج ماءها وأمر أن يؤتى بزجاجة ثم وضع العصير فيها وأخيرا صب بضع نقط من العصير في

آذان الفتاة وفى عينيها وربطهما . ومنذ وضع الماء في عينيها شعرت براحة وأن الوجع قد سكن ونامت تلك الليلة بهدوء وراحة حتى الصباح .

وعند الصباح دخل عليها خير أيضا وسألها عن حالها فأخبرته براحتها ففرح نوعا ونقط لها من العصير فى أذنيها وعينيها كما فعل أولا وربطهما وعاد إلى المكان الذي أعد له .

وبقي على هذا المنوال يداوى بنت الملك بذلك العصير فى كل صباح ومساء حتى مر عليه عشرة أيام وحينئذ عاد النور إلى عينيها فصارت تنظر وتسمع ورأت كل ماحولها وشاهدت أباها واقفا أمامها ولشدة فرحها لم تعد قادره على الكلام فرمت نفسها عليه تقبله .

فلم يقدر الأب على ضبط نفسه من البكاء العظيم لما لحق به من الفرح والسرور الذى لا يقدر ولا يوصف . فضم بنته إلى صدره وجعل يقبلها ودموع الفرح تتساقط من أعينهما وهما يشكران الله على هذه النعمة .

وبعد مرورة ساعة على هذه الحالة ترك الملك بنته وضم خيرا الى صدره وقال إنى أشكر الله يا ولدي كثيرا إذ أرسلك إلي لتخلص ابنتي من البلايا والأوجاع التى انصبت عليها وما ذلك الا أن الله راض عنك راغب فيك مساعد لك ولا أغلط إذا قلت انك من رجال الله المختارين لأن عملك هذا معجزة فلا أنسى لك هـذا الجميل ما دمت حيا وأرى نفسي مدفوعا إلى بالهامات إلهيـة إلى مكافآتك على جميلك أعظم مكافأة أقدر عيها فما دمت قد دخلت بيتى وأكلت معى على مائدتى كأحد أولادى وشاهدت بنتي ومددت يدك اليها ولم يعد شيء مخبأ أو محجوبا عنك فصار من اللازم أن أزفك عليها وأجعلك صهرا وحاكما فى بلادى تسوس مملكتي وتدبرها لأن الله معك وأنا قد أحببتك ولم أعد قادرا على مفارقتك وبما أنى صرت شيخا وأحب أن أنزوى إلي عبادة الله وأصرف باقي عمرى براحة وسكينة أسلمك زمام الاحكام وأعهد اليك بتدبير الرعية بعد الآن ، فهذه نعمة كبرى قد منحني اياها الله سبحانه وتعالى لأني كنت بهم زائد وانشغال عظيم أنام مكدرا وأقوم حزينا على بلادي ورعيتي لا أعرف لمن أتركهما من بعدي ففي وقت واحد فرج الله عني إذ أرسـلك إلى وجعل شفاء ابنتي على يديك ووجدت لى صهرا موافقا وزال عنى الهم والغم حيث وجدتك كفؤا للملك وقادرا على إدارته فاسمك خير وعملك خير وكلك خير فى خير فألف شكر لله تعالى على

هذه النعمة العظيمة

فلما سمع خير كلام الملك أطرق برأسـه إلى الأرض حياء وجعل العرق يتصبب من وجهه غير أن الملك لم يتوانى عن الاسراع في انفاذ هـذا الامر ففي الحال أمر باقامة الأفراح وأن تزين المدينة ويعم الفرح سكانها كبيرا كان أو صغيرا وكان الأهالي لما سمعوا بأن بنت الملك قد ملكت صحتها ونالت الشفاء تماما سروا سرورا لا مزيد عليه وزاد سرورهم عند سماعهم بخبر زفافها على الرجل العاقل الحكيم الذى أرسـله الله لشفائها فأسرعوا الى اقامة الزينات وعلائم الافراح والسرور فأنيرت الشوارع ورفعت الاعلام وبقيت المدينة على ذلك الحال مدة سبعة أيام وسبعة ليالى بتمامها وأهالى مدينة بلخ جميعهم غارقون فى الغنـاء والرقص وعمل الولائم واطعام الفقراء والمساكين .

ولما كان الراعي لم يتعود الخروج الى شـوارع المدينة بدون صحبة خير فقد مكث مدة من الزمن ملازما المنزل مع أسرته .

وفى تلك المـدة كان الراعي وأهل بيته قد طارت عقولهم من رؤوسهم لا يذوقون طعم الراحة لا ليـلا ولا نهارا وكل بكائهم وحسراتهم على خير غير أن شـدة قلقهم أخرجت الراعى عن عادته فخرج فرأي المدينة قد زينت وأقيمت فيها الافراح فسأل الراعي بعض الناس عن سبب ذلك فقالوا له ان رجلا اسمه خير جاء المدينة وداوى بنت الملك فشفاها من العمى والصمم فالافراح لهذه الغاية .

فلما سمع الراعى ذلك طار قلبه من الفرح وأصـبح كالمجنون وخف الي بيته فأخبرهم بمـا سمع عن خير وطمنهم عنه فسروا جميعا على هـذه البشرى وشكروا الله وباتوا ينتظرون عودة خير محفوفا بانعامات الملك حائزا على رضاه والتفاته .

وبعد نهـاية الافراح أمر الملك بأن يعقد لبنته على خير وقد عين لهما أجمل قصر عنـده وفرشه بأبهى فرش واهداها الجواهر النفيسـة والاموال الغزيرة وقدم الى ابنته من أنواع الحلى الغالية ما استغرق خزينته برمتها لانه كان يحبها محبـة لا توصف ولعظم فرحه لم يعد يعقل أو يعرف ماذا يفعل .

ولما رأى خير نفسه فى هذه الحال وشاهد تلك النعمة والاجلال والابهة

والكمال شكر الله شكراً عظيما وسر من حسن طالعه وجمال بخته وقد حصل على مرامه ومقصوده من وصال بنت الملك وأصبح صهرا شرعيا له وحينئذ أرسل رجلا أحضر الراعى مع عائلته ونقلهم الى قصر عال جميل وعين لهم الخدم والحشم .

وبعد مرور عدة أيام جلس خير وحده فى غرفة منعزلة عن القصر وأرسل رسولا أحضر اليه الراعى فظن الراعي أنه سائر للوقوف أمام الملك فصار يرتجف كالغصن عند اشتداد الريح من الخوف والرجل ولكنه كان متحيراً عند دخوله القصر من التجملات والملاطفات التى كان يلاقيها فى طريقه الى حين دخوله على خير .

ولما دخل الغرفة نظر الى مافيها باندهاش وتعجب وقد رأى فى الوسط خير جالسا على تخت مرصع بالجواهر الغالية منصوب فى الوسط فلم يعرفه لشدة الخوف والاندهاش بل ظنه السلطان فخر ساجدا وقبل الارض بين يديه فنزل خير عن السرير وقبض على يد الراعى فوجدها باردة كالثلج وهى ترتجف من شدة الخوف والرعب فخاف أن يلحق به أذى فقال له لماذا ياوالدى العزيز أراك تضطرب وترتجف ألم تعرفنى وهل نسيتنى في ظرف بضعة أيام .

فلما سمع صوت خير أحدق فيه وقد عاد اليه وعيه فعرفه وصاح من شدة الفرح ولف يديه على عنقه وصار يقبله كمن ضاع له ولد وحيد فلقيه بعد زمان طويل . فأخذ خير يده وقبلها وقال له بحياء وخجل اعلم ياأبي وسيدى أن هذه النعمة التي أنا فيها والسلطنة التي أصبحت قابضا على زمامها انها من فضلك وجميلك فالمرجع فى كل ذلك لك وأنا أشكر الله على هذه النعمة بعد أن لاقيت من المتاعب والمشاق فى هذه الدنيا ما استغرق كل عمرك تقريبا . فشكر الراعى الله على ذلك وشكر خيرا .

ثم جلسا يتباحثان ويتحادثان والراعى يظن نفسه فى حلم وكان من وقت لآخر يلتفت الى ما حواليه مندهشا ومأخوذا بتلك الزينات والزخارف الملكية .

وبعد أن مر عليهما ساعة تقريبا وهما على ما سبق قال خير للراعى اعلم ياسيدى أن وقتنا الآن لا يشبه أوقاتنا السالفة فالله وتعالى هو المغير والمبدل فى أحوال الناس ومرتبها فالرجل الذي تراه اليوم فقيرا لا يبعد أن تراه غدا

غنيا والغنى اليوم قد يمكن أن يصبح فقيرا فكم من ملوك انحطت عن عروشها وكم من رجال كانت منحطة ارتفعت على العروش بأمر الله تعالى فلا يعلم أحد منتهى حكمته ولا يدرك سر غايته فها أنا الآن قد أصبحت صهرا لملك بلخ وحيث أن لا ولد ذكر للملك فاليوم أو غدا أجلس مكانه على تخت المملكة أي أنني صرت ملكا على مدينة بلخ ومهما كانت السلطنة عظيمة فهي معلومة والمراد من كلامي هو أن الانسان في أي حالة كان يلزم أن يراعى تلك الحالة وينظر نفسه بين أية طائفة أو قبيلة فيلزمه أن يتخلق بأخلاق تلك الأمة أو القبيلة ليحبب إليها وتبادله العطف والحب. فأما أصله فينبغي أن لا ينفصل عنه مطلقا بأى حال من الأحوال وربما تظن من ظاهر حالى أنى أنسى من أنا. أو أتغاضي عن واجباتى مع أنه لا يمكننى قط أن أنسى أحوالى السابقة فكل ما يجول في خواطرنا هو من صنائع الله فقد سخرك الله أنت لشفائى وجعلك وسيلة إلى أن أعرف العلاج الذى بواسطته شفيت بنت الملك حتى تسنى لى أن أصير ملكا كما سخرنى الله لانقذك من تلك البرية الموحشة التى كنت عائشا فيها منفردا كوحوش البرية وأجىء بك إلى عالم الراحة وحاشا لله أن يتخلى عن أصل الخير والاحسان فليس المرء باكرم منه وعليه فقد عينت لك قصرا مخصوصا وأعددت لك فيه كل أسباب الهناء المعيشة الصالحة فأقم فيه الآن ولكن عليك بالصبر بضعة أيام لأري ماذا يكون من أمر الملك وفى أى وقت يسلمونى للعرش وليس لي عندك إلا وصية واحدة وهي أن تحفظ زوجتى بنتك لأنها في أول حرمي وتهتم براحتها وهنائها وخدمتها وأخبرها أن لا يشغل بالها ولا تقلق لهذا الأمر وان شاء الله قريبا نتقابل.

وبعد ذلك صرف خير الراعى ليرجع الى بنته ودخل هو الى حرمه وكان يقضى أوقاته معها بالحظ والانشراح وكانت بنت الملك منذ فتحت عينيها ورأت خير لم يعد يطمئن لها قلب ولا يرتاح لها خاطر الا بقربه وقد أحبته محبة زائدة وعلقت به ولم تطق فراقه فكان يهتم بما فيه سرورها وراحتها وكذلك كان خير يسعى لارضاء الملك فكان يرى مصالح العباد بالعدل والانصاف ويساعد الفقير أكثر من الغني ويجبر خاطر الضعيف والمنكسر ويحث الناس على ترك الشر وفعل الخير ومحبة بعضهم البعض لأنهم أخوة فى الوطنية والآدمية ولذلك أحبه الكبير والصغير ومال اليه الغنى والفقير والأمير والحقير.

أما الراعى فانه عند مارجع الي بيته فقد استقبلته زوجته وابنته على الباب وسألتاه عن أحوال خير فحكى لهم قصته من أولها الى آخرها فأظهرتا الفرح والمسرة على ارتياحه وعلو مقامه .

أما الفتاة بنت الراعى وان كانت أظهرت سروراً أكثرمن الجميع لكن وقع على قلبها الحزن الناتج عن الغيرة الشديدة التي تلحق جميع النساء الضرائر . وانتظرت النهاية بفروغ صبر لترى زوجها وتسير اليه وهى تخاف أن ينساها ويكتفي بزوجته الجديدة ولا يعود يفكر فيها وبعد مرور شهرين على ذلك الحال وهم يرتعون فى نعمة المملكة يرسل اليهم كل ما يحتاجونه أرسل خير خلف الراعى ثانية واحتفل به كثيرا وأظهر له منتهى الرعاية والعناية وابان له ان من اللازم ان يوجد معه وفي ديوانه وعلي حجابه ثم فى الساعة نفسها ألبس جماعة من شبان المدينة ألبسة الفرسان وأمر أن يؤتى بالثياب الفاخرة المرصعة فخلعها علي الراعي وأقامه رئيسا للحجاب وقائدا عاما على جنود المملكة .

ثم دخل به على الملك وقال له ان هذا الرجل من الشجعان النادري المثال وله فضل علي عظيم فأردت ان اكافئه فأقمته على الجيوش قائدا عاما ولذلك اسألك ان تقبله في هذه الخدمة وتصدق على عملى هذا فالملك اكراما لخاطر صهره قال له افعل ياولدى ماتراه حسنا وموافقا لصالح البلاد والعباد فانى لا ارد لك امرا ولا اخالف لك عملا فسر خير من كلامه وقبل يديه وكذلك الراعى دعاله ولدولته وسار الى بيته وحكى لعائلته كل ما جرى له مع خير ومقابلته للملك وتعيينه رئيسا للجيش فسروا لذلك سروراً لا مزيد عليه واملوا فى خير خيرا زائدا لهم .

ثم قالت درسق وبالاختصار فانه ما مر على زواج خيرا كثرمن سنة ونصف حتي قضي الله سبحانه وتعالى بوفاة ملك بلخ حمي خير فاستقل فى الملك وصار الآمر والناهي فى العباد ولا معارض له ولا مراقب فاجتهد اكثر من الأول فى تنظيم احوال المملكة وترقية جنديتها ورفاهية الرعية وكل من من شأنه ان يزيد محبة الاهالى له ومع كل ذلك لم ينس احواله الماضية فقد خطر على باله ذات يوم مامر عليه من المصائب فشكر الله وقال فى نفسه صدق ما قال ان من يعمل خيرا فى هذه الدنيا يري خيرا ومن يعمل شرا يلاقى مثله فياليتني اصادف مرة ثانية رفيقي (شر) فيري ما انا فيه من الجاه والعظمة والملك فلاريب ان الحسد والغيظ يميتانه .

وكان خير كلما رأى محبة الناس له وميلهم اليه يفرح ويسر ويزيد نشاطا واقدامه وقد نقل إلى دائرة مخصوصة فى قصره الراعي وبنته وباقي عائلته فكانوا يصرفون أوقاتهم على السرور والهناء والفرح ولا يصدقون بالحالة الموجودين فيها وكلما جلس خير على كرسى الأحكام جلس أمامه الراعى كمستشار ومساعد له وهذا أيضا كان يسر الراعى ويزيده حبورا لأنه عندما يقيس حالته الحاضرة بحالته الماضية وهو فى البرارى يقاسى شدة حرارة الشمس وزمهرير البرد لا يصدق أنه فى يقظة ولهذا كان دأب خير والراعي وعائلته الصلاة والشكر لله على انعامه ورحمته .

وهكذا كان خير كلما تقدمت الأيام زاد اهتماما في تدبير المملكة والعدل بين الرعية لا يعمل إلا على مقتضى ناموس الشريعة . وقد أخذ فى عمارة المدن الكائنة تحت تصرفه وتحسين أحوال أهلها وفى ظرف مدة قصيرة انتشر صيته عند الحكام والملوك حتى أنهم حسدوه على عدله وعمران بلاده وحب رعيته له . وكان قد أنشأ فى ضاحية المدينة حديقة غناء للنزهة وراحة الاهلين فكان يذهب اليها فى الاسبوع مرة أى فى كل ستة أيام يوما يستدعى الوزراء ويبقى معهم فى الحديقة إلى المساء يصرفون الوقت فى النظر فى أحوال المملكة وحاجات الرعية والاسباب اللازمة وحالة المتوظفين والحكام ومكافأة من يستحق المكافأة منهم أو يستحق الطرد ثم يأخذون بعد ذلك فى تعاطى أحاديث الصفاء والانس وعند المساء يعود خير إلى قصره .

وكان كعهده مع زوجته بنت الراعى يحترمها ويتجنب كل ما يكسر خاطرها فيذهب ليلة اليها وليلة إلى بنت الملك وعلى هذه الحالة كانت تمر معه الايام والليالى إلى أن كان ذات يوم نهض عند الصباح فركب جوادا كريما عليه عدة مزركشة بالذهب وسار إلى جهة الحديقة والى يمينه رئيس الوزراء وبين يديه الموكب الملوكي يسير بنظام ما بعده نظام .

وقد صفت على الطرقات التى فى جهة اليمين الجنود لاجل السلام وكذلك الاهالى قد أقفلوا دكاكينهم كجارى العادة عند ذهاب الملك الى الحديقة ووقفوا خلف الجند صفوفا صفوفا منتظرين مرور ملكهم إلى أن أقبل راكبا بالأبهة والعظمة والى جانبه رئيس الوزراء ومن خلفه الراعى شاهرا السيف فى يده وكأنه الاسد لانه كان قوى الجسم متين العضلات لا يقدر أحد فى كل مدينة بلخ أن يصرعه .

وكان الحجاب صفوفا صفوفا يتقدمون الملك ويتأخرونه واثنان منهم يسيران الى جانبه وفيما هو سائر كان يتمهل ناظرا فى الاهالى والجنود مسلما عليهم باشا فى وجوههم وهم يحيونه بأصوات الدعاء والشكر وبينما هو على مثل ذلك وإذا به تقع عينه فجأة على شر رفيقه القديم فأصاب شر من جراء نظر الملك خير عليه رعشة وارتجاف شديد سرى فى جسمه فاقترب الملك منه قريبا وأمر الحاجبين اللذين يسيران الى جانبه أن يأتيا به متي وصلوا الى الحديقة وأشار لهما بيده عليه فقبضا عليه فى الحال وساقاه أمامهما وهما متحيران من ذلك ولا يعلمان السبب الذى حمل الملك على الامر بالقبض عليه وقدظننا أنه تظاهر أمام الملك بما أغاظه .

ولما وصل خير الى باب الحديقة نزل عن جواده ودخلها بالابهة والاجلال وتقدم الى السرير المخصوص لجلوسه فجلس عليه وجلس رئيس الوزراء ورفاقه كل واحد في مرتبته ولبثوا منتظرين أمر الملك وكذلك الراعى فانه جلس خاف الملك والسيف مشهر فى يده وعيناه لا تفارقانه . وحينئذ أمر خير بأن يؤتى بين يديه بالرجل الذي أمر بالقبض عليه . وفي الحال قدم اليه شر فوقف ذليلا حقيرا ولم يكن يعلم أنه رفيقه خير ولشدة خوفه لم يتمكن من أن ينعم النظر فى وجهه ولم يتجرأ على النظر اليه لكنه كان يرتجف كأوراق الشجر اذا هزها الريح وهو يسأل نفسه ماذا يا ترى عملت وما هوذنبي واذ ذاك التفت خير الي شر وسأله مستنطقا اياه .

خير ــ ما اسمك ؟

شر ــ أطال الله عمر سيدي الملك وبلغه سعادة الدارين أنا اسمى مبشر

خير ــ (مبتسما) هذا ليس هو الصحيح فتكلم بالحق فهو أفضل

شر ــ (بارتجاف واضطراب) معاذ الله ان عبدكم لم يقل الكذب طول زمانه وكل من يعرفني يعلم أن اسمى مبشر .

خير ــ (بحدة) حذار أيها الخبيث ان الكذب بحضور الملوك أمرعظيم أتظن أن الكذب ينجيك من عاقبة غدرك وشرورك .

شر (باضطراب زائد وخوف عظيم) العفو يا سيدى ان شئت تقتلنى وان شئت تبقي على فالامر لك أما أنا فانى لم أتكلم الكذب قط وما قلته هو الصحيح .

خير - (زاجرا إياه بحرق وغضب) تكذب وتقول إنك لا تكذب كي لا يقال انك صدقت مرة ألم يكن اسمك شر الخبيث ألست أنت الذى قلعت عين رفيقك خير ولم تعطه الماء وأخذت منه الياقوتتين وتركته فى حالة النزع ولم تشفق عليه ألست أنت فاعل كل هذه الشرور .

فلما سمع شر من الملك هذا الكلام أخذت ركبتاه فى الرجفان ولم تعودا قادرتين على حمله . فوقع إلى الأرض ثم تجلد ونهض وأمعن النظر فى وجه الملك فعرفه أنه رفيقه خير فتقوى قلبه نوعا لعلمه بسلامة قلب خير ودنا من التخت فقبل أطرافه وقال له بالحقيقة يامولاي إنى أنا شر لكن لى حديث ان أمرت عرضه عليكم وما بعد ذلك مروا بما تريدون اما بجزاء القتل أو بالعفو فالأمر لكم .

فقال قل ما تشاء لأرى ما هو حديثك . قال معلوم عظمتكم أن القضاء والقدر قد حتما بأن يكون اسمكم خير اما اسم عبدكم شر ولأجل ذلك فعلت الشر معكم طبقا لاسمى أما الآن فلا بد أن تعملوا الخير طبقا لاسمكم وهكذا قضاء الله أن تكون صفات كل منا كاسمه .

فلما سمع خير كلام شر تحركت عوامل الرحمة فى قلبه فقال له هيا اذهب فقد عفوت عنك ولم أعاملك بما تستحق جزاء شرك .

وحالما سمع شر كلمة عفو من الملك طار قلبه شعاعا فقبل أذيال الملك وانسحب من حضرته غير مصدق بالنجاة وما غاب عن العين حتى خرج الراعى فى أثره ولما أدركه صاح به آه يا خبيث ما دام اسمك شر فشرا تلاقي وضربه بالسيف الذى بيده عن قلب مقروح ففصل رأسه عن جسده ثم فتش جيبه فوجد الياقوتتين اللتين أخذهما من خير فجاء بهما وطرحهما أمام الملك وقال له إن كنت قد عفوت عن شر لسلامة قلبك فأنا لم أعف عنه خوفا من أن يوصل شره لغيرك فموته أفضل من حياته .

واذ ذاك أخذ خير الجوهرتين فى يديه وأحدق بهما وقد تذكر كل ماجرى عليه وشعر بالآلام التى تألمها من شر فاستصوب عمل الراعي ولذلك قال له ياأبي ان عينى الاثنتين هما هبة منك فاذا شئت فاقبل منى هاتين الجوهرتين هدية فى مقابل معروفك معى لأن عينى أغلى منهما فشكره الراعى وقبلهما تذكارا مقدسا وصرف خير باقي عمره فى السلطنة وبعد نصف سنة تقريبا ركب وركب معه

نحو خمسمائة فارس من فرسانه الاشداء وسار الى شجرة الصندل التي أخذ أوراقها فجلس تحتها مستظلا بظلها فوجد عند ذلك أعظم راحة ولذة ثم خاطبها قائلا أيتها الشجرة المباركة أنت مبعث سعادتي وهنائي فان نور عيني منك وبك عدت فنظرت هذه الدنيا وأنت التي أعدت بصر بنت الملك ووهبتها الراحة بعد العناء والأوجاع أنت التي أوصلتني الى درجة الملوك فتزوجت ببنت الملك وعلوت على عرش السلطنة وانقادت لأمري البلاد والعباد فزادك الله بركة وأطال عمرك وزاد نفعك في العالم .

ثم أمر أن يبني قصر حول الشجرة وصار يأتي اليه المرة بعد الثانية معترفا بجميل أشجار الصندل المباركة .

ولما وصلت السيدة درستي بنت كسرى من نسل كيكاوس من سلاطين ايران السابقين الى هذا الحد قالت أدامك الله يا حبيبي ونور عيني وساكن فؤادي ان خير بواسطة أشجار الصندل رجع النور عينيه وصار ملكا وفى الواقع ان شجر الصندل محبوب جدا ولونه يسر الانسان وينشرح له صدره وهو بالحقيقة لون جميل يمتاز عن غيره من الألوان واذا كنت لا تصدق فانظر ثم كشفت عن صدرها القميص الناعم الرفيع وقالت له انظر كم هو جميل وبديع عندما يتحد اللون الصندلي باللون الابيض فيكون لون ابيضا مشربا بصفره

ولما رأى بهرام صدر زوجته يتلألأ بأنوار اللطف والبهاء سر سرورا لا مزيد عليه وفى الحال أخذ يديها الاثنتين بيديه ومد رأسه حتى أوصل فمه الى نهديها فاشتم رائحة العطر من ذاك الوادى البهيج . ومن بعد الشم والتقبيل والامتصاص ضمها الى صدره وانهمك معها بالأنس والصفاء . ولما رأت الجوارى المحيطة بهما غرقهما فى بحر اللذات ابتعدن عنهما حتى خلا لهما الجو

وحينئذ جذب بهرام درستى اليه وضمها والتصق بها وأكثر من المداعبة والملاعبة وما انفك عنها حتى قضى الأمر وقضي كل منهما وطره من الآخر وبعد ذلك نزلا فى الحوض الموجود أمامهما فاغتسلا ومن ثم خرجا من الماء ولبسا ثيابهما وكان المساء قد أقبل فأمرت درستي باحضار الطعام

وفى الحال هيئت المائدة وكانت من شجر الصندل بجميع ما عليها من الأوانى وكذلك الكراسى المحاطة بها من خشب الصندل ولما وضعت أنواع المأكولات نهض بهرام وزوجته فجلسا على المائدة وشرعا فى تناول الطعام .

ومن بعد أن اكتفيا من الطعام رفعت المائدة واصطفت الجوارى وبأيديهن الأعواد وآلات الطرب وصفت الزجاجات المملوءة بأنواع الشراب الفاخر ودارت الكؤس تجلى على نغمات الألحان كجلاء العروس وقد انهمك الزوجان فى استجلاء كئوس الأنس والصفا وقد تذكر بهرام ما جري له بالنهار مع درستى فأخذ العود وأصلح أوتاره وضرب عليه وأنشد :

هاتها ضحوة النهار شمولا ... مثل شمس النهار وسط النهار
فهوة مثل مقلة الديك صهباء كنار الكليم ليست بنار
ذات عمر أدناه عهد أنوشر ... وان ليست بجرة معطار
تتراءي كالشمس غير سماء ... تتجلي بين حمرة واصفرار
لا تخف من لطفها بعد سكر ... من صداع باد ولا من خمار
فاسقنيها واشرب على زهر الروض وسجع القمرى وشدو الهزار
واغتنم فرصة الزمان وحث على الخمر قبل صنيعة الأعمار
لا تبالى اذا سكرت بوزر ... ان مولاك غافر الأوزار

ولما فرغ بهرام تناولت درستى العود وضربت عليه أشكالا وألوانا ثم أنشدت .

أضحى التصبر حبله مقطوعا ... لما رأيت معذبى ممنوعا
وفقدت قلبي عنده وأظنه ... لبليتي قد ساء فيه صنيعا
فغدوت أنشد واللهيب بمهجتى ... والحب جرعنى الأسى بجريعا
بالله يا أهل الهوى وبحقه ... لا زال قدركم به مرفوعا
قولوا لمن سلب الفؤاد مصححا ... يمنن على برده مصدوعا

وما انتهت درستى من إنشادها حتى سكر بهرام شاه من رقة صوتها وحسن غنائها وفصيح كلامها وغريب حركاتها وتفننها بالغنج والدلال .

وكان قد مضي جانب من الليل قضياه فى لهو وطرب وحينئذ وضع كل منهما يده بيد الآخر وانحجبا إلى مكان الخلوة وهو عبارة عن مقاصير مصنوعة من خشب الصندل قائمة فى نصف الحديقة تنبعث منها روائح الصندل الزكية فينشرح لها الصدر الحزين .

ولما دخلاها جلسا على سرير مصنوع من الخشب المذكور أيضا وعاد إلى إلى المداعبة والملاعبة والأنس والصفا وما زالا يتعاطيان كئوس الهوى والشوق

وينتقمان لليالي الوصال من أيام الهجر والعذاب خاضعين لسلطان العشق والغرام سعيدين بالقرب واللقاء إلى أن ولي من الليل جانبه استسلما لحكم النوم فاضطجعا متلاصقين وناما متعانقين وعند السحر استيقظ بهرام من النوم قبل زوجته فنظر فى وجهها متأملا وهى ملقية برأسها على الوسادة وغارقة فى بحر نوم لذيذ فرأى وجهها يلمع ويسطع كالقمر فى ليلة تمامه ويزيده رونقا وبهاء لونه المشرب حمرة الورد وشفتاها القرمزيتان تزيدانه زينة وكمالا وعنقها البلوري يتلألأ بلون أبيض بديع فوق صدر مرمرى قد ركب فيه حقان من لجين جل خالقها وجسمها جميعه مغطى بقميص ناعم رقيق من الحرير الصينى . فتوهم بهرام أنها عريانة إلى جانبه فلم يطق صبرا عنها . مع أنه كان لا يرغب فى ايقاظها من راحتها لكن كيف يمكنه أن يتحمل ويصبر وهزة الشوق قد أخذته فهيجته ودفعته إلى وضع الختام وحينئذ ضمها بين يديه ووضع فمه على خدها ثم جبهتها وعينيها وفمها وعنقها وبين نهديها وأقام ثورة من القبلات الحارة التى لا عدد لها ولا حصر ولما فتحت درستي عينيها ورأت زوجها على ماهو عليه طار قلبها شعاعا وامتلأ فرحاً وسروراً وأملت أن تنال منه الوصال فى صباح يومها فلفت يديها على عنقه وضمته إليها وقابلته بالمثل وبجحيم من القبل وكالت له بالكيل الذى كال لها به فزاد هيامه وفرغ صبره فصال وجال وأوسع فى المجال حتى حمى ميدان الضرب والطعان . وكان ما كان من الأمور الحسان التى اصطلح عليها الانسان والحيوان وداما على تلك الحال نحو ساعة من الزمان ثم خرجا من السرير ودخلا الحوض للاغتسال فأقاما فيه عدة دقائق صرفاها فى اللعب والســباحة وخرجا فلبســا الثياب وجلسا للاستراحة .

وقد نظر بهرام فى حاله وفكر فى أنه فى كل يوم من الأيام الماضية يصرف وقته مع حورية من حوارى الجنان وكان يلاقي من كل منهن صنوف الراحة والبسط والانشراح بعد أن تسمعه حكاية غريبة عجيبة فلم يسعه إلا الشكر على هذه النعمة والسعادة المتناهية .

ولما بزغت الشمس ونشرت أشعتها الذهبية على وجه البسيطة نهض بهرام ولبس أفخر ثيابه وخرج من القصر الصندلي قاصدا القصر الأبيض بالأبهة والاجلال والعظمة كسابق عادته .

وبعد ان سار بهرام قليلا في طريق القصر الأبيض رآه مفروشا على بعد نحو ساعة تقريبا بالمفروشات الحريرية والديباجية البيضاء اللون مما يأخذ الأبصار بهاؤها وسناؤها وقد صف على الجانبين الجوارى البيض يلبسن الملابس البيضاء وبيد كل واحدة منهن طبق من الفضة النقية وعليه حجارة الماس الصافي وتزين بالماس رؤوسهن وأعناقهن حتى زادجمالهن جمالا وبياضهن بياضا ولما رأين بهرام شاه مقبلا لم يجسرن على النظر اليه فأطرقن بأعينهن إلى الأرض والعرق يتصبب من وجوههن كحبات لؤلؤ فوق أطباق من عاج .

ولما دخل بهرام شاه في الممر المؤدى إلى القصر الأبيض استقبله أكثر من ٢٥٠ جارية بالركوع بين يديه ثم سرن بين يديه يغنين الأغانى والأناشيد التي تشيد بذكره وتصفه أجمل وصف وفيها ابتهالات وتوسلات إلى الله تعالى ليبارك في عمره ويزيد فى سروره ويضاعف سعادته حتى وصلن إلى صيوان ضرب هناك لأجل استقباله فنزل عن جواده وجلس على السرير فقدم له الجوارى الألبسة البيضاء المرصعة بحجر الماس الأبيض الشفاف فلبسها وعاد إلى جواده فركبه قاصدا القصر الأبيض والجواري المتقدم ذكرهن يسرن بين يديه .

ولما وصل من باب القصر أخذه الجوارى من تحت ابطيه وأنزلنه عن جواده فدخل بالتكريم والتعظيم .

ولنعد الآن الى السيدة لقمان بنت سلطان الصين فانها على ماتقدم معنا كأنها حورية فرت من الجنان لا يمكن للقلم أن يصف جمالها وكمالها ولا للكاتب البليغ أن يأتى بشرح بديع ما هى عليه من الحسن والجمال والقد والاعتدال والكمال مهما أوتى من سحر بلاغة ورقي خيال وقد زادها أنوارا واشراقا ما أفرغته عليها من الملابس البيضاء البديعة المطرزة بجواهر الماس المتلألئة بشعاعها الشمس الوهاج وعلى رأسها تاج مرصع بعدد من الماس كل ماسة كالجوزة الكبيرة ولما علمت بوصول بهرام شاه تقدمت لملاقاته بين صفين من الجواري الحسان اللابسات البياض وكأنت تنتقل كالطاوس ومن أين للطاوس أن يقلد مشيتها أو لغصن البان أن يعدل ميلانها أو للبدر الوضاح أن يشرق لدى اشراق جبينها فرآها بهرام . . . ولكن كيف رآها ؟ رآها ضائع العقل شارد الفكر من شدة تأثير خمرة جمالها ودلالها التي أسكرته بغتة وغيبت رشده عنه فلم ير بدا من الوقوف متحيرا

مندهشا ولم تساعده رجلاه على التقدم فبقي جامداً فى مكانه كالصنم يراقب مشية لقمان وحركاتها .

وعند ما نظرت لقمان اندهاش بهرام تقدمت منه وتبسمت ولكن كيف تبسمت تبسمت عن لؤلؤ ومرجان وتساقط الدر من ثناياها أسماطا وتبع تبسمها اللطيف أن مدت عنقها الى بهرام فطوقها بساعديه وقبلها فى خدها وعينيها وقد فعلت ذلك لتخلصه من الارتباك الذى وقع فيه ثم انها بدورها أخذت عنقه بين ساعديها وردت له مثل فعله ثم مازالا متخاصرين حتى دخلا الحديقة وقلب كل منهما يخفق من شدة الحب والفرح وكلما نظر بهرام الى وجهها تبتسم وتمد اليه عنقها مشيرة اليه بعينيها ولسان حالها يقول له ألا فاقطف تفاح الخدود فيسرع غير متأخر الى اجتناء تلك الأثمار اللذيذة وكأنها تحسده على نعمته وتقتدى بعمله وتبادله التقبيل ومازالا على هذا المنوال حتى وصلا قريبا من السرير الماسى المنصوب فى وسط الحديقة فجلسا عليه جنبا الى جنب .

ولم يكن بهرام ينظر الى جهة من الجهات بل كان نظره لا ينفك عن وجه لقمان مدة ساعات وهما على ماتقدم من تقبيل وعناق ثم نظر الى أمام السرير فرأى حوضا جميلا كبيرا ماؤه صاف رقرقراق ولكن أى صفاء وقد تلاعب النسيم على وجهه فأثر فى صفائه فعقد فوقه سلسلة من زمرد وكان الرائى للماء وان كان غير عطشان لا يمالك نفسه من الشرب .

فسر بهرام من ذلك الحوض ومن مائه فنهض من مكانه طامحا الى الشرب منه والارتواء من شدة ظمأه .

وحالما أدركت لقمان غايته سكتت وتقدم بهرام فأخذ اناء من البلور الصافى كان موضوعا على افريز الحوض ومد يديه قاصدا أن يملأه من الماء واذا بالاناء قد تكسر قطعا ووقع من يده فبهت ومد يده ليلمس الماء فرآه جسما جامدا فغض نظره لانه علم أن لا ماء فى الحوض وأن الذى يراه بشكل الماء هو بلاور غريب لا يمكن أن يفرقه عن الماء أبرع الصناع وأمهرهم .

فرجع بهرام عن الحوض متعجبا خجلا والتفت الى لقمان فوجدها تتبسم من عمله .

ولما جلس الى جانبها قالت له كيف رأيت يا سيدى هل أعجبتك معرفة الصينيين .

فقال لها بالحقيقة انها صنعة عظيمة عجيبة فقد ظننته ماء .

فقالت له ان لهذه الصنعة حكاية جميلة وهى أن الصينيين عملوا بوقتها على الطريق حوضا من البللور فكان الواحد من الغرباء لا يقدر أن يفرق قط بين البللور والماء وقد وضع على أطراف الحوض أقداح من البللور الرقيق وكان الواحد منهم يرفع القدح ويمد يديه به قاصدا أن يملأه فيتكسر من اصطدامه بالبللور فيخجل من نفسه

ففى ذات يوم حضر نقاش اسمه مانى فرأى الحوض فظن أن الذى فيه ماء ولما كسر القدح علم أن لا ماء هناك فأراد أن يظهر قوة براعته بفن النقش فرسم صورة كلب غاطس بالماء وقد جرح بطنه وخرج منه دود ملأ الحوض فكان الرائى عندما يأتى الحوض ويريد الماء يظهر له أنه كدر وكله دود وهوام مائية يرجع عن الماء ولا يشرب وبهذه الحيلة تمكن مانى من أن يخلص الغرباء من الخجل والغش . ولما رأى أهل الصين أن صنعة هذا الرسام هي فوق صنعتهم خجلوا من نفوسهم فبحثوا عن مانى واحتفوا به غاية الاحتفاء وأكرموه إكراما لا حد له .

فلما سمع بهرام هذه النادرة من لقهان تعجب غاية العجب . ومع استعظامه لدرجات الصينيين فى الصناعة فقد رأى أن الغريب في عمل النقاش .

وعندئذ انهمكا فى الأنس والصفاء وكانت محبة بهرام لها تزيد كل يوم عن يوم ومال اليها أكثر من الستة اللاتى جاءهن فى الأيام الماضية .

ولما رأت لقهان تزايد عشق ومحبة بهرام لها طار قلبها فرحا فلفت ساعديها على عنقه وضمته إلى صدرها وقالت له العفو يا بهرامى المحبوب وسلطانى العالى الشأن . لا تحبنى إلى هذا القدر ولا تخصص جواريك بهذا المقدار الزائد الحد من الحب :

فتعجب بهرام من كلامها فقبلها فى خدها وقال لها ما هذا الكلام يا حياتى ومهجتى ولماذا لا أحبك أيمكن للعاشق مثلى أن لا يتخذ أعز من روحه أيمكن للذى ينظر هذا الجمال العديم المثال أن يوقف نفسه عن التهور في الحب والغرام . ماذا تقولين . آه يا عينى يا ليتك تعلمين نفسك كم أنت جميلة ومحبوبة لكنت تعذرين محبك ولا تلومينة على حبه . ماذا تقصدين بقولك أن لا أخصك أنت من دون جوارى بأعلى درجات الحب يا حبيبتي

فحرك كلام بهرام إحساسات زوجته وامتلأت أعينها بالدموع على غير قصد منها وقالت لبهرام وقلبها يختلج آه يا سيدي ومعبودي انى أخاف من الدهر الظالم لأنى عندما رأيت محبتك الشديدة لجاريتك المملوكة لك خفت على نفسى لأن عوائد العالم هى من حكم الدهر فالشيء الذى يحب زائدا فلا بد أن يصاب إما بفراق أو ببرود فى الحب وفتور من جهته فالآن لا أطمع بزيادة حب ملك نظيرك ملك أقاليم العالم السبعة كي لا يقع بيننا فراق أو فتور فى الحب مع أن الانسان إذا رغب أو لم يرغب فالدهر الغادر لا يقف عند حده ولا يراعى جانب كبير أو صغير فى حكمه .

فتأثر بهرام من كلام زوجته . وقال لها آه يا روحى اهمان وملكتى السحرية لقد أحرقت قلبي ورميت النار فى كبدى فلا شيء يمكنه أن يفرق بيننا سوى الموت الذى يستوى فى شرب كأسه القبيح والجميل والحقير والنبيل والعالى والدون ، أما أنا فانى لن أنفصل عنك مطلقا مادام فى عرق ينبض أو نفس يتردد فاطردى هذه الأوهام من خاطرك لأن حبك وعشقك ملتصقان بى من الازل وقد دخل حبك فؤادي منذ الرضاعة وتغذى جسمى بعشقك منذ ولادتى كما يتغذي الطفل بلبن أمه وقد قدر الله سبحانه وتعالى على قبل أن أنظر بعينى هذه الدنيا أنك ستكونين زوجتي ومحبوبتى فلا يمكن لحبك أن يخرج من فؤادى الا مع خروج روحي فما دامت الروح فى الجسد فلا يمكن لحبك أن ينفصل عنها .

ثم عاد فضمها إلى صدره ثانيا وثالثا وقال لها . دعى يا حبيبتى وساكنة فؤادى هذا الكلام ودعينا نغتنم فرصة اللذات ونقتطف من الخدود ورود المسرات ونجنى تفاح الخدود بشهى القبلات واسمعينى من فمك الشهي المبتسم حكاية حسنة فأزيد بها ممنونيتى منك ومن اهتمامك بسرورى ونماء حظى . وأجابت اهمان طلبه فى الحال بعد أن دعت له بطول العمر ودوام العز ثم بعد ذلك استأنفت الكلام فقالت :

دعوة نساء الوزراء والكبراء إلى الحديقة وزواج ابن الوزير

نعم يا ملك الزمان وأوحد الفرسان في هذا العصر والأوان سأقص على مسامعكم الكريمة هذه الحكاية وكنت قد سمعتها من والدتي فى صغر سنى قالت أمي دعوت ذات مرة جميع نساء الكبراء والوزراء والأعيان إلى وليمة فأمرت بنصب الأسرة والكراسى حول الأفريز الجانبي للحوض الموجود في وسط حديقة القصر الفناء الواسعة المحيطة به من كل جنباته ولما اجتمع نساء الشرفاء المومى اليهن شغلن بالحظ والانشراح واللعب والمزاح واللهو والسرور والانعام والحبور وكانت أحدي أولئك النساء فتاة جميلة قد أرسلت بنظرها إلى أطراف تلك الحديقة فخطر على بالها أمر فصارت تارة تبتسم وتارة تظهر عليها علائم الحيرة (فقالت والدتى) ولما رأيتها علي تلك الحال قلت لها على سبيل المزاح يظهر لي أن حديقتنا لم تعجبك . فأجابت الفتاة بلسان الخجل والاعتذار . أستغفر الله يا سيدتى من لا تعجبه هذه الحديقة وهى كجنة الخلد مع أنه لو سمح لى أن أصرف عمرى كله فيها لكان ذلك نعمة كبرى ومنة عظمى في عيني . فقلت لها ان كان الامر كذلك فلماذا نظرت فى الحديقة وتبسمت تبسما معنويا فأجابتنى الصبية العفو ياسيدتى يبدو لى أن حالتي التي حملتك علي الظن بأن الحديقة لم تعجبنى والحقيقة أن سبب ذلك أمر خطر لي وحملنى على التبسم واظهار كل ما رأيتيه منى .

قالت والدتى فقلت لها ألا يمكنك أن تبينى الامر الذى جال فى خاطرك فاستحت وسكتت وحينئذ قلت فى نفسي لا بد لتبسم هذه الفتاة من أمر غريب وحكاية عجيبة ومالت نفسى إلى الوقوف على ذلك الامر وما زلت ألح عليها وأقول لها ما الموجب للحياء ولا أحد غريب هنا فأطلعينا على السبب الذى حملك على التبسم وإلا اعتقدت أنك تزدرين بالحديقة لانها لم تعجبك . فزاد خجل الفتاة من هذا الكلام وقالت . كلا . كلا . يا مولاتى ليس تبسمى ازدراء بالحديقة فانها غاية فى الكمال والتنسيق وعلى كل حال فما دمت تصرين على معرفة السبب فى تبسمي فاصغى لى لاشرح لك سببه وأسرد عليك أصول علته ثم قالت .

إن جاريتكم بنت الوزير فلان المتوفى فلما كان عمري ١٤ سنة فى حياة أبى ذهبت مع عدة من بنات الوزراء للتنزه فخرجنا من المدينة وطفنا مقدار ساعتين

ومن بعد ذلك صادفنا فى ضاحية المدينة حديقة كبيرة وعالية ورأينا على بابها بستانيا شيخا كبير جالسا . وحينئذ دفعنا الشوق والرغبة إلى التنزه فملنا اليها ودخلناها .

فلما رآنا الشيخ قام الينا وسلم علينا غير أننا لم نحفل بالشيخ البواب وعلانا الضحك عليه . وما لبثنا أن دخلنا كلنا الحديقة حتي أسرعنا إلى الباب فأقفلناه من الداخل وتركنا البستانى فى الخارج فاحتدم من ذلك غيظا وجعل يقرع الباب ويضربه بشدة مدة ساعة دون أن نلتفت إليه أو نفتح له وحينئذ ترك الحديقة وذهب .

أما نحن فطفنا بالحديقة وأكنافها وبالحقيقة كانت عديمة المثال واسعة جدا ولها سور عظيم عبارة عن حائط مرتفع من كل جهاتها وفيها الورد والياسمين وكل أنواع الزهور وقد زرع شجر السرو بترتيب وتنسيق جميل فى كل أطرافها وكانت أشجاره عالية وقد تلاصقت أغصانها وأوراقها ببعضها البعض وأقيمت كسد منيع بينها وبين حائط الحديقة على الدائر فسحة يبلغ طولها ثلاثين قدما فى عرض عشرة أقدام وقد زينت بالزهور والخضر وكذلك الطريق الآخر قد كسى على بعد عشرة أقدام أيضا وقد حفرت جداول الماء عند أسفل شجر السرو وخط لها طريقان فى الجانبين وكان الماء أبيض صافيا رقراقا وهكذا قد صف الشجر أيضا صفوفا صفوفا وترك بينها قطع فساح مقسمة إلى ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أقدام فالقسم الاوسط ترك للشمس والجانبان تغطيا بالزهور والخضر وقد عرش على بعضهما الكرم وتدلى فيها العنب عناقيد عناقيد وبعض أصناف أخر من الدوالى كاليقطين وأشجار اللوف ونحوهما وقد تدلى ثمرها حتى لم يغد فى وسع الانسان تقريبا الجلوس تحتها ووجدنا فى وسط الحديقة حوضا متسعا كثير النوافذ وقد صف حوله الشجر بانتظام وتزينت بأوراقها وتلاصقت ببعضها البعض حتى صارت كأنها قصر بنى من الشجر وقد أحدثت الشمس فى الحوض وما بين تلك الاشجار حلما رفيعا لؤلؤيا أى كانت تظهر كحبات اللؤلؤ فوق سطح الماء ومن جانبي الحوض الى حد الاشجار ترك مقدار عشرين قدما رصفت بحجارة المرمر الصافى وزينت بالمفروشات المنوعة . وكان يظهر فى طرف الحديقة خرابة قصر قديم قد تركت من زمان لا يعرف أوله بصفة قصر قديم . أى كان متروكا على حاله . وفى احدى الجهات كان شجر التفاح

والاجاص وباقى أنواع الأشجار ذات الأثمار اللذيذة يتدلى منها الثمر ناضجا على أحب ما تشتهى العين .

ولما دخلنا الحديقة المذكورة طفنا فى كل أطرافها متفرجين عليها فأعجبتنا جداً لأنها كانت محكمة الوضع والترتيب ورأينا من المناسب صرف تلك الليلة فيها وكان كل شيء موجوداً فيها وقد أحضرنا معنا كثيراً من أنواع الشراب والمآكل وآلات الطرب كالعود والطنبور والناى .

وبعد أن أقفلنا باب الحديقة جيدا عدنا فطفنا فيها ثانية باحثين عما إذا كان يوجد طريق آخر للدخول اليها غير الباب فلم نر طريقا إلا من جهة مرور الماء وقد تبين لنا أن مدخل الماء يمكن أن يدخل منه إلى الحديقة وعلى ذلك رتبنا قهرمانتين من قهرماناتنا كحارستين عليه تتناوبان الحراسة وأعطيناهما المآكل وكل ما تحتاجانه وأوصيناهما بشدة المراقبة والسهر ثم أتينا إلى الحوض فجلسنا حوله وأخذنا في معاطاة كؤس الأنس والصفاء بعد أن ألقينا الأغطية عنى فكان بعضنا يدير الاقداح وبعضنا يرقص وبعضنا يغنى بأصوات جميلة وبعضنا يضرب على الآلات .

وبالاختصار كنا كالحور فى الجنان نفرح ونلعب ومع هذا فكنا جميعنا فتيات فى حال زهونا وصبوتنا وما منا إلا من تفضح البدر حسناً وكمالا ولذلك كانت كل واحدة منا مع كثرة وجود أسباب الحظ والصفاء ترى نفسها غير مسرورة لعدم وجود ذكر ولكن ما الفائدة فالمحافظة على الناموس والشرف أمر ضرورى لنا . لاننا مضطرات للمحافظة على ناموسنا لاننا لو بحثنا عن ذكر وأتينا به إلى ذلك المكان لبطل فرحنا ولم يعد فى امكان واحدة منا أن تخرج صوتها أو تكشف وجهها عليه مع اعتقادنا بأن اختلاط الذكور بنا يلذنا ويطربنا ويشفي قلوبنا .

ولما لم يكن معنا ذكراً فقد أخذنا وظائف الذكور وصرنا نفعل أفعال الذكور مع النساء فكان بعضنا يعانق البعض الآخر ويقبله فى العيون والخدود والاعناق والنهود الى غير ذلك مما يطيب للصبايا فى أوان نضج أثمارهن فكن كمن يهيج النار لاننا لم نتلذذ كما نحب ولا اشتفى لنا فؤاد ولكن ما الفائدة وليس باليد حيلة .

فاكتفينا بهذه التسلية التقليدية فكنا ننشد الاشعار الغزلية والابيات الغرامية ونهيج بها الى الدخول فى أبواب العشق . . .

فكانت تدفعنا الي الحمل على بعضنا البعض لاطفاء جمرة الشهوات من لف ساق على ساق الى تطويق بالايدى على الاعناق الي ارتشاف ثغور وامتصاص نهود وضم خصور . ولا أنكر عليك أن مجلسنا كان كاملا ولكنه بالحقيقة كان محتاجا الى ذكور وادخال الذكر بيننا كان مستحيلا لان كل واحدة منا كانت تطلب الذكر ولو وجد لهربت منه حياء من الباقيات وخوفا من ثلم عرضها بخلاف مالو وجد معها فى خلوه اذ أن التستر ضروري لربات الخدور وبقينا على مثل ما تقدم الى أن مرت ساعة من الليل تقريبا .

وحينئذ جاءتنا القهرمانتان اللتان أقمناهما الحراسة وكانت احداهما قهرمانتى فتعجبنا من مجيئهما وتركهما الحراسة وسألناهما عن السبب فأجابتا بانهما ملتا الوحدة وتضايقتا من الانتظار فأتيتا للتسلية والاشتراك معنا .

ولما وكنا سكارى لا نعى على شيء لم نعترض عليهما ولا لمناهما وبعد أن أقامتا معنا برهة اعتمدتا على أن ترسل واحدة فواحدة للحراسة فعندما تأتى الينا الواحدة تذهب الثانية وبعد أن تقيم معنا ساعة تذهب الى الحراسة مكان رفيقتها .

ولنترك الكلام عنا وعن ما كنا فيه من الحظ والسرور ولنرجع الى صاحب الحديقة فاننا كنا نجهله ولا نعلم لمن الحديقة ولا فكرنا فيه قط بل كنا جالسين نأكل ونشرب ونتسلى ونلعب وكانت الحديقة لاحد الوزراء القدماء توفى وترك ولداً بين السابعة عشرة والثامنة عشرة فكان جميلا بديع المنظر وقد وصلت الحديقة اليه بالارث الشرعى وكان من عادته أن يأتى فى الاسبوع مرتين يتفقدها ويتنزه فيها فصادف أنه جاء فى نفس الليلة التى كنا فيها وكان يظن أن الباب مفتوح فرآه مقفلا قفلا محكما ولم ير البواب هناك فوقف متعجبا ثم طرق أذنيه صوت العود والاناشيد فزاد تعجبه من ذلك .

فتلاعبت به الافكار وصار يقول في نفسه من يا ترى في الحديقة هل أن الجنائنى دعا بعض أصحابه واجتمعوا على السكر والخمر . . . لكن لا يمكن أن يكون ذلك لان الجنايني عجوز لا يمكن أن يفعل شيئامن هذا فانه منذ صباه وهو

فى خدمة الحديقة ولم يبد منه أمر مثل هذا فى طول خدمته فاذن من يا ترى داخلها . . . لا يبعد أن يكون جماعة من الجن اجتمعوا فى الحديقة وعمروها وتغلبت عليه الأوهام وخطر له ألف خاطر . . . وأخيرا عقد الدخول فقرع الباب بعنف مدة ساعة فلم يسمعه أحد ولا فتح له الباب فزادت حيرته وأخذ يطرف حول الحديقة يبحث عن طريق يدخل منه ولما لم ير مدخلا إلا من محل دخول الماء حيث أقمنا قهرمانتينا على الحراسة .

ولما رأتاه ظنتاه لصا فضربتاه بالعصي التي بأيديهما فخاف ابن الوزير ظانا أنهما من الجن ووقع من خوفه إلي الأرض فربطت القهرمانتان يديه وبعد بضع دقائق أفاق ابن الوزير من غشيته فرأى نفسه مربوطا فندم على مجيئه إلى ذلك المكان .

وحينئذ قالت له قهرمانتى . أظننت أيها اللص الخبيث أن المكان خال هنا حتى أتيت للعرقه والليل لم يكد يرخى أستاره بعد فمن يا ترى يقدر أن يخلصك من أيدينا .

فأجاب ابن الوزير بحيرة وتعجب . أنا لست لصا ولا سارقا أنا صاحب هذه الحديقة وهي ملكى . وقد أتيت لأتفقدها وأتنزه فيها كعادتى فوجدت بابها مقفلا والجنايني غائبا عنها فتحيرت من ذلك ولما لم يكن لها طريق آخر يسلك منه إلا هذا المكان فقد دخلت غير خائف في البداية لم تصدق القهرمانة أنه صاحب الحديقة فسألته عن اسمه وأصله وفصله فأخبرها بذاته وبكل ماهو موجود بالحديقة فصدقته وحلت الرباط من يديه واعتذرت اليه وندمت على ما فعلت به وقالت له إنى لم أكن أعرفك ياولدى فأرجوك العفو أولا ثم أخبرك أن جميع بنات الوكلاء والوزراء قد أتين هذه الحديقة وبقين لتمضية هذه الليلة والمبيت فيها إلى وقت السحر وحيث أننا قد تعدينا عليك وكدرناك فاكراما لخاطرك آخذك إلى مكان قريب منهن فأختفى هناك بحيث تراهن ولا يرينك وأية فتاة أعجبتك فيهن أخبرنى عنها فأحضرها اليك فتتسلى معها هذه الليلة .

فلما سمع ابن الوزير كلام قهرمانتى زادت حيرته واضطربت أفكاره وصار يقول فى نفسه هل يا ترى صحيح أم كذب .

أما القهرمانة فقد أدركت من إطراق ابن الوزير أنه مرتاب فى كلامها

فقالت له لماذا هذا التفكر انى أريد أن أعمل معك معروفا فلا ترتب فى شيء فهلم أمامى ولا تضيع هذه الفرصة فوافقها وجاء إلي احدى زوايا الخرابة القديمة فاختبأ فيها وصار ينظر من ثقب فيها إلى الحوض فرأى حوارى الجنة مجتمعات وقد غاب عقله وفكره من جراء ما رأي ... وفى الحقيقة إنه لا يمكن أن يرانا أحد من الرجال ونحن على ما نحن عليه ولا يتحير ويتيه عقله :

وما وصلت السيدة لقمان بنت ملك الصين صاحب الاقليم السابع فى حكايتها إلى هذا الحد حتي فرغ صبر بهرام شاه فضمها وقبلها بين عينيها وخديها وقال لها بالحقيقة إن القلب والعقل لا يتحملان وكيف يمكن للمرء أن يثبت على حاله بعقله عندما يراكن وقد أعطيتن من فضل الطبيعة جاذبية القلوب وخصص جنسكن باللطف والظرف حتى ترفعتن به علي سائر المخلوقات فهل من ذى قلب لا يحب وهل من عاقل ولو كان سليمان فى حكمته لا يسلمكن قياده كل ذلك بتدبير من الله ليشوق المرء إليكن ويرغب فيكن وتعمر بذلك الدنيا ويتصل حبل بنى آدم وبنات حواء الى آخر الزمان ومع أن المحب يتصور أن الضمة والرشفة والقبلة تطفي لهيبا وتشفي أواما ولكن مهما أكثر فيها يرى فورة الحب فى قلبه قد زادت فى الغليان وهذا كما قال الشاعر :

ان الطعام يقوى شهوة النهم

فسبحان من أعطاكن هذا السلطان . وبعد ذلك سألها أن تتم حكايتها . فأفرغت لقمان كل ما عندها من دواعى الحب وقامت بألف حركة ما بين غنج وقصف وضم ومن ثم قالت .

أى بهرامى المحبوب ان والدتى قالت لى ان الامرأة قالت لها ان الفتى صاحب الحديقة جاء الى خرابة القصر القديم فاختفي عليها وصار ينظر الينا من نافذة صغيرة فيها وما لبث أن رأى جمعيتنا وما نحن عليه من الحظ والصفاء اذ كدنا نصل الى حالة التهتك حتى تاه عقله وضاق صبره وتحرك به كل ساكن وهو ينقل بنظره من واحدة الي ثانية كل هذا ونحن لا علم لنا به بل كنا مشتغلين بصفانا منهمكين بحظنا بين الدنيا ومن عليها وكنا جميعا جالسات تجاه خرابة القصر المذكورة نرى منها فتمكن ابن الوزير أن يرانا جيداً ويدقق فى كل واحدة منا وبعد ذلك ... العفو يا ربي ... فأين كان ذلك مخبأ لى ... فبالصدفة كنت أنا الوحيدة التي أعجبته ودفعت فى قلبه وتعشقنى دون كل البنات عند أول لحظة

رآني بها وفيما هو على هـــذه الحال جاءته قهرمانتي وقالت له قل يا ولدي من التي أعجبتك من البنات .

فقال لها الرحمة يا أماه ماذا أقول هل الذي أراه في هـذه الليلة حقيقة أم ان ساحراً سحر عقلي ماهذا المجلس الغريب وكم هو جميل ولقد ضم الجمال برمته ليست هي حديقة فقط بل ألف حديقة مثلها بل الدنيا بأجمعها فدى لأقدامهن الرحمة العفو يا والدتي أخبريني من هذه الفتاة الجالسة عند حافة الحوض وهي تبسم عن ثغر كالدر النظيم وبين أناملها العاجية قدح من البلور تريد أن تشرب وهي تمايل بعنقها الفضي كالطاووس إنها التي أغارت على قلبي وســلبت مهجتي وما أملكه من الحواس ياالله كم هي جميلة . الرحمة ياسيدتي . الرحمة أخبريني من هي وبنت من .

فلما رأت القهرمانة أني أعجبته سرت سرورا لا مزيد عليه وقالت له كن براحة يا ولدي لا تحمل هما ولا تأسف فأنا الآن أحضرها اليك لتتسلى معها إلى الصباح ومهما شئت أن تفعل فافعل . ثم تركته وجاءت .

أما ابن الوزير فوقع في الحيرة والارتباك وهو يقول في نفسه هل ما تقوله العجوز صحيح وممكن . كلا . لا يمكن أن يتم . لا بد أنها تنصب لي شركا . من أين لي أن أنال القمر وأنا على الحضيض .

كيف الوصول إلى سعاد ودونها قلل الجبال ودونهن جنوف
الرجل حافيـة ومالي مركب أسـعى اليه والطريق مخوف

أواه . يا ليتني لم أدخل الحديقة هذه الليلة وكان يحدث نفسه بهذا وعيناه تدمع وقلبه يلتهب من شدة حبه لي وغرامه لي . فلندعه الآن ونأتي إلى الحيلة التي احتالت علي بها العجوز .

فلما فارقت العجوز ابن الوزير وجاءت نحو ناقالت لقد انتهى دورها بالحراسة فأرسلت عجوزا ثانية مكانها . ودنت مني وجلست بجانبي وأنا غارقة ببحر الهرج والمرج كبقية البنات وما منا الا من لعبت الخمر برأسها فأضاعت صوابها وأنستها الدنيا فكنا نقبل بعضنا ونتبادل العناق والضم وشد الاوساط والخصور وكنت أقول أواه لو عرفت صـــديقا يوافيني إلى هذه الحديقة لترويت غليلي وسررت قلبي وتخلصت من هذا العذاب والتحرق . لأن التصاق البنات ببعضهن البعض كان يزيدهن تحرقا ويحرك فيهن السواكن المستترة في دواخلهن .

وفيما أنا أديم هذه التأوهات والتمنيات التي كنت أري تحقيقها احد المحالات إذ مدت العجوز رأسها الى أذني وقالت لى لو كنت أجد لك الآن ذكراً ظريفاً لطيفاً ماذا تعطيني .

فلما سمعت هذه البشارة من العجوز كدت أغيب عن الوجود من شدة الفرح ومع أني كنت في حالة سكر قوى لم يغب عن ذهني أنه اذا كان اجتماعى بالشاب والتقائى به على مرأى من البنات أبقي محرومة من نعمة التلذذ معه ولا أتمكن من شفاء غليلي لأن الذي أتمناه وأتحرق عليه يتمناه الجميع ويتحرقن عليه اذا ما رأينه أو وقع بين أيديهن تخاطفنه وتمتعه كل واحده لنفسها .

فقلت لقهرمانتى سرا أصمتى الآن لا تكلميني ولا تدعى البنات يدركن شيئا من هذا الأمر أو يعلمن به فاذا كان يوجد شاب كما تقولين فأنا أسير اليه وأجتمع به علي خلوة .

فقالت لى القهرمانة انهضي اذا بتحيل واذهبي الي الخرابة ترين غرضك ثم أعرضت عنى .

ولما سمعت كلام العجوز وعرفت أن بالقرب منى ذكرا أخذ الفرح منى كل مأخذ وجعل قلبي يضرب واحساساتى تتحرك وسهل لى السكر الفاضح والحظ المتوفر كل صعب فانفردت عن البنات وأخذت أطوف من خلفهن متظاهرة بالرغبه فى التمشى بالحديقة للنزهة والتفريح عن النفس وما زلت سائرة بفرح وشوق غير حاسبة حساب أمر من الأمور

وكان القمر إذ ذاك فى الرابعة عشرة وقد بعث بنوره الى تلك الخرابة فتخلل جدرانها وافترش علي بساطها وحالما دخلتها وقعت عينى على ذلك الفتى اليافع فداومت السير اليه وحالما رآني خف لاستقبالى الي أن صار كل منا فى مقابلة الآخر وفى الحال مد كل منا يديه ولفها على غير انتباه أو وعى على عنق الآخر وكان قلبه يدق ويختلج فيجاوبه قلبي الملتصق به بدقات عنيفة ناتجة عن الخوف والاضطراب

وهكذا جلسنا نحن الاثنين داخل هذا القصر علي ما نحن عليه من الخوف والرعب وبدأنا بالضم والعناق والتقبيل لكننا كنا كالخرس لا هو فاه بكلمة ولا أنا فتحت شفتى بل كنا نرتجف ونضطرب وقلوبنا تخفق ومعلوم درجة الخوف اللازم أن تلحق بنا فى مثل تلك الساعة ومع ذلك فكان يقبلنى فأقبله

ويضمني فأضمه ويلتصق بي فألتصق به . . . لكن لا صوت ولا كلمة إلا خوف متزايد . ولم نكن نعلم سر هذا الخوف الذى استولى على قلوبنا وسيطر على كل جوارحنا حتى أن العرق كان يتصبب منا الى أن تشجع ابن الوزير نوعا ما ومد يده الى تكتى وما كادت العقدة تنحل حتى سمعنا حركه وفرقعة حدثت بالقرب منا فتوهمنا أن أحدا شعر بأمرنا ففاجأنا فبأسرع من لمح البصر انفصلنا وانصرف كل منا الى ناحية ولا أعلم كيف هرب ابن الوزير لشدة خوفي وخلجان قلبي بل أعرف من نفسى أنى أسرعت الى ربط تكة سراويلى وخرجت من الخرابة وأنى معتقدة أن عينا ترانا وطفقت قليلا حول البنات ثم اختلطت بهن وجلست بينهن واذا هن على ما كن عليه من الأنس والصفاء كأن لا علم لهن بشيء قط .

وهذا زاد تعجبي واضطرابي وقد غصت فى بحر من الفكر وصرت أقول لنفسي يا للعجب ما تلك الحركة وعن أى شيء حدثت وقد اطمأننت بعض الاطمئنان وهدأ اختلاج قلبي واسكن اضطرابه ولكن لا أزال أفكر في تلك الحركة وأقول هل رآنا أحد يا ترى لا أظن ما هذا الأمر واذا ما هذا الذي صادفته انها لحلاوة غريبة ولكن دون فائدة أواه من الدهر الغادر لم يتركني أتم هنائى

وفيما أنا على مثل هذه الأفكار أذم الزمان الظالم كانت ظواهرى تدل على تعبي . فأدركت القهرمانة حالتى فتقدمت الى وهمست فى أذنى قائلة . ماذا جرى لك يا بنتى . فأجبتها أواه من الدهر يا أماه فلا يمكنه أن يترك انسانا فى هنائه كم أنا قليلة الحظ لقد حرمت التلذذ بتلك النعمة التي ساقها الى في غفلة من الزمان ولكنى الآن يئست من الهناء . فكررت على السؤال قائلة . تكلمى يا بنتي تكلمى ولا تخشى شيئا وقولى لى ماذا حدث لك

ولما ألحت على قصصت عليها كل ماحدث فبعد أن وصلت اللقمة الى الفم وقعت فاننا حين عزمنا على الالتصاق سمعنا صوت حركة بالقرب منا فأجفلنا من الخوف وهرب كل منا الى ناحية بعيدا عن أخيه .

وكان قد مر على ذاك الوقت مقدار نصف ساعة فلما جاءت القهرمانة التي كانت فى الحراسة اذ انتهى دورها وجاء الدور لقهرمانتى فنهضت وسارت تفتش وهى تبحث عن ابن الوزير .

أما أنا فبقيت غائصة فى أفكارى لأنى حالما رأيت ابن الوزير تمكن عشقه فى قلبي وأغرمت به وصرت أفكر فى اعتدال قوامه ونعومة خده وحسن منظره وكيف أنه مسكين لما تحركت فيه الشهوة وعزم على اقتناص اللذات والظفر بنوال الأمانى أجفل الطير وأفلت منه وأجفل هو أيضا وكان قلبي حوما فوق تلك الحديقة يفتش عليه وأنا أؤمل الاجتماع به ثانية متكلة على العجوز وكان من اللازم أن أمتنع عن الشرب كي لا أزيد سكرا فوق سكرى ولا أغيب عن معرفة الصواب وماذا يجب أن أعمل كي لا تفلت النعمة من يدي ثانية إذا عادت لى ولكن عدت فاشتغلت بالشرب وعيني تضرب إلى جهة الخرابة .

أما العجوزة فانها مازالت تبحث عن ابن الوزير حتى التقت به فقالت له ماذا جري لك ياولدي وما الذى أفزعك فأخذ الغلام يرتجف ويضطرب وقال لها العفو ياأماه إنى لا أعلم ماذا جري لي فانني بينما كنت جالسا مع الفتاة نتحادث سمعت صوتا يقول : نشاط . باط . فخفت وهرب كل منا إلي ناحية . فذهبت العجوز متعجبة الى جهة الخرابة لترى سبب الصوت الذى سمعناه يردد . نشاط باط . فرأت أن الغربان قد فرخت فى أعلاه فوقع بعض من أفراخها على الأرض فسمع لها هذا الصوت .

ولما تأكد للقهرمانة ذلك ضحكت علينا لشدة خوفنا وعادت الي ابن الوزير فأخبرته بالقصة فندم على ماوقع منه وخجل من نفسه وهذا فى الواقع يمثل جهل ابن الوزير الشاب وجهل محبوبته بحقيقة الأمر مع قدرتهما وتمتعهما بحيوية الشباب ونضارته وقوته كما يمثل تلك القهرمانة العجوز التي عرفت الدنيا وعمرت فيها فأصبحت الحقيقة لديها واضحة لا يخفى عليها شيء من أسبابها بينما ولت صحتها ونضارتها وذبل حسنها وخمدت فتنتها وأصبحت لا تصلح لشيء من الشهوات وملت الحياة وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

أواه لو علم الشباب وآه لو قدر المشيب

وحينئذ قالت له القهرمانة لا تفتكر ياولدى فاذهب الآن واجلس فى مكان آخر وأنا أرسل لك الفتاة حبيبتك فارتمى على يديها يقبلهما وقال لها انى ذاهب لأجلس تحت شجرة السرو هذه فارحميني وتممى معروفك معى . ثم ذهب الى تحت الشجرة وجلس هناك .

أما القهرمانة بعد أن صرفت نصف ساعتها جاءت وأرسلت الثانية لتخفر بدورها . ولما رأيت قهرمانتي تقدمت اليها وقلت لها الرحمة عجلي بالخبر هل شاهدت حبيبي فقالت لي نعم وجدته ماشاء الله عليك وعلى شجاعتك النادرة لقد وقع الى الارض من أعلى الخرابة بعض أفراخ الغربان فهربتم منها فانفعلت عند سماع كلامها وخجلت وندمت على ضياع الوقت ولم أتمالك نفسي من الضحك . ثم سألت القهرمانة أين ينتظرني الآن . فقالت لي تحت شجرة من السرو . وأشارت الى تلك الشجرة فطار قلبي شعاعا وانفصلت بخفة عن البنات لنحو تلك الشجرة وأنا أرتجف ... من أي شيء أرتجف ... لا أعلم ... وحالما رآني ابن الوزير مقبلة اليه دنا مني فاستقبلني وحالا عانقنا بعضنا البعض . ولكني لشدة الخوف لم يقدر أحدنا على فتح شفة أو التكلم بكلمة . فجلسنا تحت الشجرة وأخذنا في المداعبة والملاعبة والتقبيل والضم والشم والمخاطرة فمر علي بضعة دقائق لم يمر على في زماني ما يعادلها لذة انقضت بين عناق وتقبيل وشم وضم ثم انفتح فمي بالكلمة الاولى التي خاطبت بها ابن الوزير فقلت . الرحمة أسرع فافعل ما أنت فاعل فلم يبق وقت . والتصق ابن الوزير بي وهو يقول ما أجمل وما ألذ هذه النعمة التي حصلت عليها في هذه الليلة ثم مد يده الى تكتي ولم يكد يحل العقدة حتي سمعنا صوتا بجانبنا يقول . بام . بام . فقلت في نفسي أواه ماذا جرى لنا وماذا وقع علينا . واضطرب كل منا وارتجف وتوهمت أن البنات بأجمعهن قد أدركننا ولحق به أيضا مالحق بي وأسرعنا بالانفصال وهرب كل منا الى ناحية وأنا أقطع بوجود عيون شاهدتنا وشاهدت الحالة التي كنا عليها تحت الشجرة وحالما وصلت قريبا من البنات وجدتهن على حالهن من الحظ والانشراح يشربن ويتعانقن ويتباوسن ونهد كل واحدة بفم الثانية الى آخره ...

وكان بعض البنات قد شاهدن حالتي واضطرابي واصفرار وجهي فسألنني ماذا دهاك هذه الليلة فقلت لهن لا أعلم دعوني بحالي لا تشغلن بي فما في الامر بأس . فقد دخت وانقلبت الدنيا بي ولم أر لي فرجا الا بالقيء فصدقنني وقلن مسكينة لا تجالد لها على الشرب فقد أثرت الخمرة في رأسها فداخت . أما أنا فكنت في حالة تكاد تخرج لها روحي ... آه من أعمال الدهر الغادر . لا أعرف كيف اني كنت أحس بالخوف والارتباك من دون أن أفهم سرا للخوف والرعب

المستولى على وأنا من القهر والحيرة لا أهتدى الى الطريقة التى يجب على سلوكها اذ اننى أصبحت عاشقة ابن الوزير . وكنت حين ملاقاتى به أمرغ خدى على خده فأشعر به ناعما بأكثر من خدى ومن نظرى اليه فى نور القمر كان يتبين لى أنه أمرد لا نبات بعارضيه وأنه كالبنت البكر لم يقده الحب لغيرى بعد . ولذلك فرغ صبرى وتلون وجهى بألوان الكآبة واليأس . فأدركت قهرمانتى أنه لا بد أن يكون حدث لى حادث آخر فدنت منى وسألتنى عن السبب فقلت لها . الرحمة يا أماه لا أعرف سببا لسوء البخت فى هذه الليلة . أواه يا ليتنى لم أدخل هذه الحديقة ولا رأيت هذا الفتى فأسألك المساعدة بحياتك لانه على ما يظهر لى جميل ولطيف وناعم البدن . ما الفائدة ان الدهر يعاكسنى فى وصاله أواه ماذا أعمل يا مدبرتى ومشيرتى . انظرى لى طريقة خذى لى خبرا عن محبوبى . انظرى هل هو مكدر مما حدث لا ريب أنه مكدر وكنت أتوقع عليها وأرجوها بالاشارة وأنا أغافل البنات كى لا يلحظن شيئا من أمرى .

ولما رأت العجوز حالتى واضطرابى نهضت تفتش على ابن الوزير وبقيت أنا على ما أنا عليه من القلق والتهاب الفؤاد وأعينى تدور في أطراف الحديقة أنتظر عودة القهرمانة .

أما القهرمانة فقد فتشت على ابن الوزير حتى وجدته جالسا تحت احدى أشجار السرو .

فلما رآها آتية اليه أخذته الرجفة من الخوف والحياء فانعطفت اليه وقالت له لتخلصه من الحالة التي هو فيها ماذا جرى لك يا ولدى ما هذه الحال التى أشاهدك فيها كأنك لم تعرف ولا سمعت من أحد عن الحب والغرام . أليس من العيب عليك أن تضيع جسارتك واقدامك في المرة الاولى بسبب تحريك أجنحة بعض أفراخ الغربان التى وقعت من أعلى القصر وقع الرعب فى قلبك وقلبها وهربتما كل واحد الى جهة وفى هذه المرة ماذا حدث . وكان ابن الوزير قد هدأ باله على نوع ما فقال الرحمة يا أماه . انى أعرف وأسمع عن الحب والغرام لكن الروح عزيزة فانى أخاف أن أقع فى ورطة وأقود لنفسى المصيبة متى افتضح الأمر . فقالت له . ما هذا الخوف يا بنى فالحديقة كما تعلم محفوظة ومصانة فلا يمكن دخول أحد اليها فى مثل هذا الوقت . ولا بد أن الذى حدث فى هذه المرة يماثل المرة الاولى .

فقال لها لا أعلم . والذى أعلمه أنى بينما كنت مع محبوبتى فى ألذهناء وعند أهم نقطة سمعنا أصواتا تقول . بام . بام . وليس مرة واحدة بل تكررت بسرعة عدة مرات فهربنا خوفا من الفضيحه .

فتقدمت القهرمانة بجسارة إلى تلك الجهة التى كنا فيها وبحثت عن سبب الصوت فوجدت أن الفيران تسلقت الشجرة فكانت تقطع بأسنانها قشر الشجرة فيقع إلي الارض فيحدث عنه هذا الصوت .

فلما رأت هذه الحال كادت تقع على الارض من شدة الضحك وقامت فأخذت ابن الوزير من يده وقالت له انظر هذا الذى خفت منه .

وعندما رأى ابن الوزير قشر الشجرة أخذ يضحك من نفسه وقد ندم على ضياع الوقت وصار العرق يتصبب من جبينه لخجله من العجوز على جبنه وقلة شجاعته .

وإذ ذاك أخذت القهرمانة فى تسليته وتطييب خاطره . فقالت له لا تتكدر يا ولدى فأذهب أنا الآن وأرسل لك الفتاة .

ثم جاءت الي . وكان البنات لا يزلن على عملهن من الحظ واللهو والشرب والقصف وقد تحرشن بى عدة مرات وسألنني عن سبب جمودى وكدري فكنت أجيبهن ان رأسى تؤلمنى من كثرة الشرب وقلة النوم .

ولما حضرت قهرمانتى أرسلت القهرمانة الثانية للحراسة وهي لا تنقطع عن الضحك وكانت تحب أن تضبط نفسها عن الضحك فلم تقدر وقربت منى وجلست إلى جانبي على حالتها من الضحك وكنت أتعجب من شدة ضحكها وكذلك البنات وقد سألنها عن السبب . فأجابتهن وهى تضحك قائلة : لقد شغلتن الآن بالأنس والصفاء عن كل أمر وقد طردتن الخولى فمن يعلم إلي أية جهة ذهب . وكذلك آباؤكن وأمهاتكن لا يعلمن الآن آنكن أتيتن هـذا المكان والذي يزيد في ضحكي أن صاحب هذا الحديقة قد أنشأها لنفسه وهو لا يعلم الآن ماذا تعملن بها . فأظهر البنات استهزاءهن للقهرمانة وكلامها ولم يكترثن بحديثها .

وحينئذ نهضت العجوز واتخذت صفة الساقي فملأت الأقداح وقالت :

لا بد يا بناتى الحسان أن لكل واحدة منكن صديقا أو محبوبا فأقسم عليكن بعاشقكن سواء كانوا حاضرين أم غائبين أن تأخذ كل واحدة منكن قدحا

من يدى وتشرب بصحة من أحبته ولا تقفن عن مداومة الحظ والصفاء لأن المرء زائل من هذه الدنيا فمكسبه منها حظه فيها وهي تبقى على حالها فقد جاء اليها قبلنا ألوف وملايين لا تحصى وذهبوا عنها كأنهم لا جاءوا ولا راحوا ومن يعلم أيضا فى المستقبل كم من الملايين الذين سيأتون اليها ويرحلون عنها . فما دام الأمر كذلك فمن اللازم أن لا نضيع هذه الفرصة فأنتن الآن في زمن لهوكن وعشقكن فاسرحن وامرحن ولا تهتممن بغير حظكن والوفاء لمشاقكن ثم أعطت لكل واحدة قدحا مملوءا من الخمر وكان البنات قد تأثرن من كلام القهرمانة فبعضهن أخذ القدح وشربه بحزنه وكآبته وبعضهن بفرح وسرور ورجعن الى حالة الشرب وهاجت بهن دواعى الطرب فأخذن في ضم بعضهن البعض وفى الرقص والغناء .

وإذ ذاك دنت منى العجوز وقالت لي لماذا أنت بهذا المقدار قليلة الجسارة ألا تختشين أبدا من نفسك لقد خفت من فأرة تنقر قشر الشجرة فيقع إلى الأرض وهربت من صوت وقوعه أين شجاعتك .

وبعد أن عنفتنى بمثل هذا الكلام قالت لى انهضي انهضي الآن واذهبي الى هذا الغلام المسكين فقد تقطع قلبه وسليه وتسلى معه ما استطعت .

ولما سمعت منها كلمة تسلى معه تحركت بى جوارحى لأن عشق ابن الوزير كان يزداد بي

فقلت لها الرحمة يا أماه أين هو الآن فأشارت لى على المكان الذى هو فيه فنهضت فى الحال وخرجت من بين البنات بالحيلة . مع أن البنات لشدة ماوقع على من الارتباك والاضطراب والحركات القهرمانة وأقوالها كأنهن شعرن بشىء مما نحن فيه وفهمن سر المسألة .

فلما خرجت من بينهن سألن العجوز قائلات : ماذا حدث لهذه البنت فى هذه الليلة فالذى نراه منها الآن ما كنا نراه منها قبل ذلك أبدا . فأجابتهن وأنا أيضا أتعجب منها فهي تقول لي ان رأسها تؤلمها ولذلك أشرت عليها أن تدور فى الحديقة فدعوها لحالها تفعل ما تشاء سواء كان كلامها صحيحا أو كذبا .

أما أنا فانى بعد أن خرجت من بينهن سرت الى المكان الذى أشارت لى العجوز اليه أفتش على ابن الوزير ويدى ورجلي ترتجف وقلبي يختلج وكان باقى للصباح مقدار ساعتين تقريبا .

وحينما رآني ابن الوزير مقبلة اليه تقدم لاستقبالي وكنا عند مقابلتنا لبعضنا البعض نرتجف من الجهة الواحدة ونضحك لسبب ما جري لنا من الجهة الثانية ثم عانق بعضنا البعض وأخذنا في المداعبة . وما كنت أعلم حينئذ أنه ابن وزير لكني كنت أشعر عنـد ضمه وتمريغ خدى على خديه ومشاهدتى حسنه ولطفه بعشق زائد له .

وبعد أن تعانقنا على مثل ما تقدم أخذنا نبحث عن مكان نتسـلي فيه حتى أتينا سور الحديقة فجلسنا عند أسفله وتهيأنا للعمل ومع أن الخوف كان لا يفارقنا لكننا كنا نرى لذة غريبة . وكان خوفنا يسمع آذاننا أصواتا متنوعة فلم نحفل لها كالعادة . لأن ابن الوزير أصبح عاشقا لي عشقا غريبا كعشقي له ولذلك كنا نظهر لبعضنا البعض رغبة تامة بالالتصاق فتباوسنا على الخدود والعيون وضم كل واحد منا خصر صاحبه وصدرى على صدره بعد دقات قلبه يوما التهبت نار الشهوة فينا حتي عمدنا الى حل العقدة وحالما باشرنا العمل ملتصـقين إلى بعضنا البعض لم يقبل الدهر الظالم أن يغفل عنا لنتمم حظنا وذلك أن المحل الذي جلسنا فيه كان على حافة طريق المـاء وكانت القهرمانة القائمة على الخفر بدورها قد أخذها النوم وتغلب عليها ومالبث أن علا غطيطها حتى صادف أن بعض القرود والثعالب قد التجأ الى الماء ليختفي في النهار عن أعين الناس وكان أحد الثعالب قد قفز من الثغرة التي تنام عليها العجوز وجاء بعجلة إلى الجهة التي نقيم نحن فيها وقد أصابت أظافره وجه العجوز فخمشتها فنهضت من النوم مرعوبة وأخذت تصيح وتولول .

أما نحن من الجهة الأولى كنا نسمع صوت خشيش الثعالب بدخولها بين النبات مذعورة ومن الجهة الثانية كان صراخ العجوز يصل الينا قويا فقلنا فى أنفسنا لا شك أن البنات فاجئونا

ولما كانت هذه المرة أشد رعبا من المرتين السابقتين كنا لا نعلم الى أى طريق يجب أن نهرب وكيف يمكننا أن نختفي .

والحاصل أننا بدون أن ينال أحد منا مقصـوده من الآخر فر كل منا الى جهة .

أما قلبي فـكان يختلج ويضرب بسرعة وشـدة . وبرهة وجيزة اختلطت

بالبنات ولونى أصفر كالزعفران وحاولت كثيرا أن أمنع نفسي من الارتجاف فلم أقدر .

وحالما رأينني على هذه الحالة تبدلت شبهاتهن باليقين فقلن لى ماذا جرى عليك وما هو سبب هذا الاضطراب والقلق ان كان رأسك يوجعك نامي قليلا عسي ينصرف عنك الوجع . أما أنا فلم أر مندوحة عن التبسم وقلت لهن ما الذى يهمكن من أمرى فالشيء الذي أصابني لا يوجب انشغالكن عن لهو لكن ومتى نعست أنام .

وحينئذ أدركت قهرمانتى أن لا بد من بلاء جديد وقع على رأسى فغضبت ولكن لم تدع البنات يلحظن غضبها فتقدمت مني وقالت ما هذه الحالة يا بنيتي ولما هذا الخوف والارتجاف ولم تتم كلامها حتى وصلت القهرمانة التى كانت تحرس وهى تصيح وتبكي وتقول . آه . أنفي . أذني . وتقدمت من البنات ولما رأينا العجوز على هذه الحالة نهضنا جميعا ونحن نقول من الخوف والتعجب هل دخل أحد ياترى الحديقة . وقلن للعجوز ماذا جرى لك . فقالت لما كنت أخفر تسلط على سلطان النوم حتى لم أعد قادرة أن أتمالك نفسى فنمت فدخل الحديقة بعض من الثعالب أو الهررة أو القرود أو الجرذان لا أعلم والذى أعلمه أن واحدا منها هجم على وجهى فخدشه وهرب مع رفاقه فجعلت أصيح من الرعب ولم يعد فى امكانى البقاء هناك فأتيت إلى هنا .

ولما سمع البنات كلام العجوز أخذن في الضحك حتى وقعن على ظهورهن وسالت الدموع عن عيونهن واللعاب من أفواههن لكثرة ما ضحكن فجلست القهرمانة وقالت لهن بحدة . اضحكن ماذا جرى عليكن فانكن فى حظ انشراح فزاد ضحكهن وبقين مدة ربع ساعة حتى اغتاظت العجوز وخرجت من بينهن وجلست فى زاوية وأخذت فى البكاء . فنهضت البنات لاجل التسلى وأتين اليها وهن على حالهن من الضحك وصالحوها بألف حركة هزلية . لكن لما ذهبن اليها بقيت أنا وقهرمانتى لوحدنا فدنت منى وقالت لى لقد سمعت ما جرى فلا لزوم للاستفسار منك ولا بد أن يكون ذلك هرة أو ثعلب والذي فهمته أنك لم تنالى مقصودك ولن تناليه أذ أمركما غريب فعانقتها فى الحال لأني وجدتها متكدرة على عدم نوال المراد أكثر منى وقلت لها الرحمة ياسندى ومعيني لا تقطعى

أملى . هذه المرة فقط الرحمة المساعدة يا قهرمانتي فكما أني أتألم فذلك الغلام المسكين يتألم أكثر مني . أواه يا قهرمانتى كم هو لطيف وطرى البدن لا بد أن يكون من الاعيان أو ابن أحد الامراء . ارحميني بحقك مرة واحدة فقط اجمعيني به فاذا كنا في هذه المرة لا نتم عملا فلا عدت تساعدينا وما زلت أتوقع على العجوز حتي اجابت وقالت لى لا تأسفي فعند ما اذهب الآن ابحث عنه . وإذ ذاك كان البنات قد استجلبن خاطر القهرمانة وانثين بها وسارت قهرمانتي لتخفر بدورها .

أما أنا فبقيت جالسة مع البنات وكنت في الظاهر أضحك معهن على العجوز ولكن في الباطن كان فؤادى يتقطع قطعة قطعة وأقول ما هذا البخت الأسود في هذا الليلة الشديدة العدواة والذى أخافه أن تنقضي الفرصة بانقضاء الليل ولا أنال وصلا ممن شغل غرامه قلبي وبالى .

وأما ابن الوزير فانه لما هرب مما جرى اختفي ضمن جب لشدة الخوف لكن قهرمانتي بحثت عليه في كل مكان حتي وجدته وما كاد يراها حتي ارتمى على قدمها وهو يقول لها الرحمة يا أماه ما هذه المصائب التى وقعت على رأسى فى هذا الليل ماذا جري ياترى على الفتاة المسكينة وأين بقيت أواه ياليتني لم آت إلى هذه الحديقة فى هذه الليلة .

فأجابته القهرمانة بحدة ما شاء الله لم أر جبانا مثلك زمانى بطوله حق ولا سمعت بضعف قلب كهذا . أليس من العار عليك . أليس من العيب أن تحسب فى مصاف الذكور . أمن حركة ثعلب أو هو تضطرب وتخاف ألا تخشى من نفسك على هذا الجبن ويلك كيف أن بعد أن وقعت بين يديك فتاة في بدء عمرها جميلة ناعمة البدن وبها أكثر مما بك من العشق والغرام وقد سلمتك نفسها لتفعل بها ما تريد تتركها عند مباشرة العمل مع أن أضعف الناس قلبا فى ظروف كهذه يتشجع فلا يترك صيدته ولو هجم عليه الأسد إلا بعد قضاء غرضه . فقال لها ابن الوزير أتظنين ياسيدتى ان خوفى واضطرابى ناتجان عن خوف وجبن ليس الأمر كما تظنين لكنى أخاف على ناموسى وناموس الفتاة الاكثر قيمة من ناموسى لان عاقبته الفضيحة وخيمة وعار علينا ومع ذلك فاذا جاءتني مرة أخرى لا أتركها إلا بعد نيل المراد مهما حدث وسمعت .

واذ ذاك رقت العجوز لحالة الغلام وأخذت فى تسليته وقالت له ما دام الامر

على ماذكرت انتظرنى فى مكان موافق وعندما أعود أرسل لك الفتاة وبعد أن فكر ابن الوزير برهة قال لها فاذا أرجوك أن ترسليها الى الخرابة لانها أوفق من سواها فوافقته العجوز على رأيه وذهب الى الخرابة ينتظرنى بفروغ صبر .

أما البنات فمن شدة شرب الخمر سكرن جميعا فمنهن من نامت لا تعى على أمر ومنهن من تمددت على الارض بقصد النوم ولم تبق على الشراب الا ثلاث أو أربع بنات ولكنهن فى سكر عميق .

وفيما أنا أفكر فيهن وفى أمرى وأعيني تطوف فى الحديقة من جهة لى ثانية منتظرة مجيء قهرمانتى واذا بها قد جاءت تلحق بى من ذلك سرور لا مزيد عليه وبعد أن جلست أفهمتنى بأشارة أن ابن الوزير ينتظرنى فى الخرابة . ومالت الى البنات تشاغلهن بالكلام وتغافلهن عنى حتى ملن اليها وانشغلن بكلامها واذ ذاك نهضت قاصدة الانسحاب الى الخرابة فلحظن على ذلك وأمسكننى من ثوبي وقلن لى ما هذه الاحوال وماذا جري لك فى هذه الليلة فلا نراك الا قائمة قاعدة ذاهبة آتية اجلسى فأدركتنى القهرمانة وقالت لهن دعوها يا أولادي فانى أتعجب منها فى هذه الليلة مسكينة يا بنتى يظهر أن مزاجها انحرف فى هذه الليلة فالطواف قليلا والمشي يفيدها وعسى الله ان يصرف عنها ما بها . وبمثل هذا الكلام خلصتنى من البنات وسرت توا الى جهة الخرابة وقلبي يكاد يطير من الفرح لمشاهدة حبيبي وانا اعد نفسي فى هذه المرة بقضاء غرضى ونوال مرادي . وكان شفق الصبح قد بدأ ولم يبق على طلوع النهار الا ساعة واحدة تقريبا ولما صرت قريبا من الخرابة رأيت ... أواه ... ماذا رأيت ... رأيت نحو اربعة رجال او خمسة واقفين يتحدثون . نخفق قلبي وهربت راجعة وانا اقول ما هذا الحظ الاسود والطالع الانكد . وعدت الى البنات فجلست وانا ارتجف من الخوف وقد انخطف لونى فى هذه المرة كثيرا .

فلم تهتم العجوز فى بادىء الامر كثيرا لانها ظنت ان ما وقع فى هذه المرة كالمرات الماضية . فنظرت الى نظر الغضب وقطبت حاجبيها بحنق . فأشرت اليها بأصبعى ان تسكت وقلت لها اني لما صرت قريبا من الخرابة رأيت عدة من الرجال وقوفا وسمعتهم يتكلمون فخفت وعدت فى الحال . فلحق القهرمانة من كلامى خوف واندهال أيضا فنهضت فى الحال وقصدت الخرابة وعندما دنت

منها رأت مثلما رأيت فعــادت تسرع الخطو راجعة وهي تضطرب . فتعجب البنات من أمرها وسألنها عن السبب . فقالت لهن رأيت بعضا من الرجال وقوفا عند الخرابة فخفت وهربت .

فوقع هذا الخبر كالصاعقة على البنات فقد اصـفرت خدودهن حتى صارت كالزعفران وصارت شفاههن بلون الرماد وتحيرن ماذا يفعلن وأيقظن بقية البنات النائمات واخبرنهن بواقعة الحال فأصابهن ماأصابنا وقدتبدل سرورهن وفرحهن بكدر وحزن لأننا لا نريد أن نعلم أحد بحالنا ولا نطيق أن يرى رجل وجوهنا ويفتضح أمرنا .

فنهضنا جميعا ونحن نسأل بعضنا البعض ما العمل وإلى أين نهرب ومن هم الواقفون عند القصر .

ولندع الآن البنات في خوفهن واضطرابهن ولنسر إلى جهة الخرابة لنعلم من هم الرجال الذين عنده . فان الملك خرج في تلك الليـلة يصحبه بعض وزرائه وعدة من جنوده فطافوا في المدينة وفي آخر الليـل صادف وصولهم إلى باب الحديقة فرأوا عنـد بابها رجلا عجوزا نائما فأيقظه الملك وسأله عن حاله فصار يرتجف وحكي له مامر عليه وقال له اعلم يا سـيدي أني خولي هذه الحديقة وهي ملك فلان .

فبينما كنت في هذا اليوم جالسا عند باب الحديقة جاءني نحو ثلاثين بنتا جميعهن صبايا فدخلن الحديقة وأقفلن الباب وتركنني في الخارج فجعلت أضرب الباب بحدة وغضب مدة ساعة تقريبا دون فائدة ولما لم يفتحن الباب عدت يائسا وذهبت الى صاحب الحديقة فلم أره ولا وجدته في بيته فلم أر أوفق من الرجوع إلى هنا فأتيت ونمت منتظرا الصباح .

فتعجب الملك كثيرا من كلام الخولي وأخذ يفكر قائلا ومن هؤلاء البنات يا تري ولماذا بقين في الحديقة هذه الليلة ثم سأل الخولي ألا يوجد طريق آخر للدخول منه غير هذا الباب .

ففكر طويلا وقال كلا لا يوجد ممر للداخل إلا من محل مجرى الماء فأخذ الملك يقرع الباب بعنف فلم يجبه أحد وأخيرا رأي من المناسب الدخول من طريق الماء فأخذ معه ثلاثة من وزرائه واثنين من جنده وترك الباقين عند الباب ولما وصل إلي المحل المذكور وجد عنده القهرمانة التي عيناها للحراسة فأرادت

أن تهرب فلم يمكنها الملك بل قبض عليها وأمر بربطها من يديها ورجليها ثم سألها أن تخبره بالخبر فقالت له اننا دخلنا هذه الحديقة لأجل الحظ والتسلي .

وحينئذ فتح الملك باب الحديقة وسلم العجوز لجنده، وعاد هو يطوف في الحديقة من جهة إلى أخرى حتى وصل قريبا من الخرابة فرأى ابن الوزير مختفيا وراء بعض الصخور .

ولما رأى ابن الوزير نفسه بين يدي الملك أغمي عليه من شدة الخوف فأمر الملك في الحال أن يقيد ويسلم للعساكر .

ثم جعلوا يتفرجون علينا من الخرابة وقد كان الأمر سيئا جداً على إذذاك لأن أبي كان بصحبة الملك الليلة فكان أبي ينظر الى ويلاحظ حركاتي من هناك . ومع أن باقي الوزراء الذين جاءوا مع الملك كانت بناتهم معنا لكن أبي كان أشدهم غيظا لأنه رآني أنا التي نهضت من دونهن وسرت الى جهة الخرابة ثم رجعت خائفة ومن بعد ذلك سارت قهرمانتي الخاصة وعادت فأوجب ذلك قلقه وارتاب في الأمر وأدرك أنه شعر بشيء مما أنا فيه .

وبقينا هكذا في اضطرابنا نفكر فيما يجب أن نفعله . وكان أبي في حالة سيئة جدا حتى كاد فؤاده ينشق غيظا لشدة القهر مما رأى ولو كان يمكنه في تلك الساعة قتلي أنا وقهرمانتي لما تأخر لكن لا قدرة له على الاتيان بعمل لأنه مع الملك فالقول والعمل للملك .

والذي رآه الملك بعد التفكير والتبصر أن لا يزعجنا لأنه رأى أنه لا يوجد بيننا ذكر قط وليس من الحكمة مفاجأتنا ولا يمكن له أن يحبسنا فطاف الحديقة برمتها ولما لم ير إنسانا غير ابن الوزير الذي قبض عليه تركنا على حالنا وأخذ ابن الوزير والقهرمانة التي كانت تحرس طريق الماء وذهب هو والوزراء إلى قصره وقد سأله الوزراء الذين رأوا بناتهن في الحديقة أن يسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم فأبى لأنه كان عاقلا وحكيما وأدرك أن لا بد للوزراء من قتل بناتهم عند عودتهن ولذلك لم يسمح لهم بالرجوع .

أما نحن فبقينا نرتجف ونضطرب من شدة الخوف ولم نجترأ قط على الذهاب إلى جهة الخرابة فلبثنا مدة واقفين ينظر بعضنا إلى البعض وإحدانا تقول للثانية أرأيت كيف انتهى حظنا وهذه هي النتيجة . ولا سيما أنا فان روحي قد وصلت إلى حلقي لأني كنت أفكر في ابن الوزير من ناحية ومن ناحية أخرى

كنت مهتمة بمصيبتى الجديدة واطلاع والدي والملك على أمرى وبقينا على مانحن عليه من الكدر والقلق حتى طلع النهار وبزغت الشمس .

وحينئذ أتينا جميعنا إلى جهة الخرابة فلم نر فيها أحداً ومشينا الى جهة الباب فرأيناه مفتوحا ثم جئنا إلى طريق الماء فلم نر القهرمانه التي كانت تحرس طريقه فزاد قلقنا وأدركنا سر المسألة وفى الحال وضعنا على رأسنا الأغطية ورجعنا إلى بيوتنا ولبثنا فيها ننتظر تصاريف الأقدار . ولما دخلت غرفتي الخاصة استدعيت قهرمانتي للمشاورة والخوف متسلط علي وعليها ونحن نقول من أولئك الذين جاءوا القصر يا ترى وماذا جرى على ذاك المسكين وإلى أين أخذوه .

أما الملك فقد قاد ابن الوزير والقهرمانة إلى قصره وحبسهما فى حجرة وأقام مع وزرائه في حجرة أخرى ثانية وكان الوزراء الذين رأوا بناتهم فى الحديقة تكاد مرارئرهم تنشق غيظاولا سيما والدي ولو كان الأمر بيده لكان في الحال وبدون تردد ولا امهال قتلني وأعدمني الحياة .

ثم ان الملك أمر باحضار ابن الوزير فحضر بين يديه ودعا له بكل أدب واحتشام وهو يرتجف من الخوف والهلع . فسأله بغيظ وحدة . من أنت وماذا كنت تعمل هذه الليلة فى الحديقة ؟

فأجابه أطال الله عمر سيدى الملك وزاد فى شوكته واقباله أنا فلان ابن فلان الوزير بحضرة دولتكم قديما وقد توفى والدى وترك لى هذه الحديقة ميراثا وكان عادتى أن آتى لتفقدها فى الأسبوع مرتين أو ثلاث مرات فذهبت فى هذه الليلة اليها حسب عادتى فرأيت الباب مقفلا والبواب غائبا وسمعت من الداخل أصوات الغناء والطرب بالأوتار فقرعت الباب كثيرا ولكن لم يجيبنى أحد ولما لم يفتح الباب زادقلقى وقلت فى نفسي لابدلى من أن أقف على حقيقة ماجرى فى الحديقة فهل أحد استولى عليها وهل هو من الانس أو من الجن .

فدخلت من جهة مرور الماء ورأيت البنات قد اجتمعن على الأنس والصفاء فندمت على دخولى الحديقة ولكن ما الفائدة ولم يبق فى امكانى الرجوع لأنى عندما قصدت العودة من المكان الذى دخلت منه وجدت المرأة العجوز جالسة تخفر هناك فأتيت الى الخرابة وأقمت فيها أنتظر النهاية الى أن شرفتم ورأيتمونى .

ولما سمع الملك من ابن الوزير هذا الكلام أطرق الى الأرض مقدار ساعة

وقد تبين من كلامه الصدق ورأى أنه لا يجب عليه عقوبة لأنه صاحب الحديقة وقد رآه وحيدامنفردا ولم يره مختلطا مع البنات وانما كان يشتبه فى أمر واحد فقط وهو أنه رآنى لما أتيت نحو الخرابة وأجفلت راجعة وكذلك رأى قهرمانتى وقد هربت عندما رأتهم فى الخرابة ولذلك أرسل ابن الوزير الي حجره منفردة وأمر باحضار القهرمانة ،

ولم تكن هـــذه المسكينة تعلم شيئا مما كان في الخرابة فسألها الملك من هم الذين فى الحديقة وماذا كنتم تعملون هناك في هذه الليلة ؟ .

فدعت له ولدولته وقالت له لما كان العدل والأمان ناشر الواءه فى ظلكم السعيد ذهبت بنات الوزراء للأنس والسرور فى الحديقة ولم يكن بينهن ذكر قط حتى ولا خادم .

فأطرق الملك برهة يفكر أما أبى فكان يسمع الكلام الي نهايته وحينئذ قال للملك لا بد أن ابن الوزير قد كذب علينا وأنكر الحقيقة فلا بدمن وجود أمر خفى . لأننا عندما كنا فى الخرابة أرادت واحدة من البنات أن تأتى اليها ولا بد أنها كانت آتية لأجل الغلام .

فقال الملك هذا هو الواقع لكن لا يوجد برهان ظاهر يدلنا عليه هل ياترى عرف أحد بنت من هذه الفتاة فأجابه أبى والعرق يتصبب من جبينه لشدة الحياء والخجل هى بنتي وكان وهو يتكلم والملك يلاحظ حالته واضطرابه وقدأدرك شدة قلقه فلم يدعه يتمم كلامه ونهض واقفا وقال للوزراء انتظروا هنا الى أن أعود ثم أخذ أبى وخلا به وقال له ان البنت هى بنتك أليس كذلك ؟

أجاب نعم .

قال مادام الأمر كذلك فكيف التدبير لأن الغـلام لم يعترف بشيء من ذلك وليس بيدنا اثبات عليه ولو فرضنا أن الاثنين اعترفا به أيمكن افشاء هذا الأمر وايصاله الي اذان عامة الرعية وأعيانها فأطرق أبى الى الارض مفكرا وقدرأي أن الحق بيد الملك وأن الحكمة والعقل كتم هذا الأمر .

وكان يفكر أيضا فى إيجاد طريقة لتدبير هذه المسألة ليبقي شرفه محفوظا .

وحينئذ أمر الملك باحضار ابن الوزير إلى بين يديه ثانيا ولما صار أمامه سأله قائلا . أريد أن أسألك سؤالا فاذا أنت صدقتنى سعيت فى خلاصك ونفعك وإذا أنت حاولت ولم تقل الصحيح فلا طمع لك فى الخلاص . فأنت ابن وزير ومن

الممكن أن تجلس فى مكان أبيك فلا يليق بالوزراء أن يقولوا الكذب . فقل الآن الصحيح . لما كنا فى الخرابة جاءت نحوها واحدة من البنات ولابد أنها كانت تبغى الاجتماع بأحد فمن هو يا ترى الذي كانت آتية اليه تكلم يا ولدى بالصدق فتنجو لأن فى الصدق السلامة وفى الكذب الندامة .

وحينئذ غاص ابن الوزير متفكرا عدة دقائق وقد رأي من ملاينة الملك ووعده له أن الصدق خير من النكران ولا سيما أن ماجرى بينه وبينى كان من المصادفات الغريبة ومادام لم يتم فيها شيء يغضب الله ولا أحدا ولا سيما وأن بكارتى على حالها فهو لم يمسنى بسوء وخطر له أن هذه الحكاية لا بد أن تسر الملك وأخيرا رفع رأسه ودعا للملك بفصاحة لسانه وقال له نعم ياسيدى ان ماقلته لكم فى بادىء الأمر لم يكن فيه كذب قط . وأناالآن قصصت على مسامع جلالتكم جميع ماوقع على رأسى فى هذه الليلة لا بد أنكم تتعجبون زيادة . وذلك أنى مالبثت أن دخلت من طريق الماء حتى رأتني القهرمانة التى كانت موكلة بالحراسة فتوهمت أني لص فهجمت على بالعصا وقد ظننتها جنية أو ساحرة فخفت كثيرا ووقعت إلى الأرض فربطت العجوز يدي ورجلى وأنا أرتجف من الخوف وبعد ساعة عدت إلى نفسى فوجدت رجلي ويدى مربوطة فزاد خوفي واضطرابي فقالت لى العجوز حينئذ أظننت أيها اللص أن المكان خال هنا . فقلت لها . انى لست بلص وأقسم لك يا خالتاه أن هذه الحديقة ملكى وقد أتيت لأتفقدها . فسألتنى عن بعض أشياء فى الحديقة فأخبرتها عنها فثبت لديها صدق قولي وفى الحال حلت رباطى واعتذرت إلى وقالت لي لترضيني إن بنات الوزراء قدأتين فى هذه الليلة إلي هذا المكان وهن فيه على الحظ والسرور فهلم تفرج عليهن ومن أعجبتك فيهن أخبرنى عنها لأرسلها اليك فتتسلى معها إلى الصباح .

ولما وصل ابن الوزير إلى هذا الحد من حكايته أدرك أبى المعنى وصار ينظر إلى الأرض فى قلق وحيرة وأما ابن الوزير فمضي يقص حكايته على الملك وقال وحالما سمعت كلام القهرمانة حملني الشباب على مطاوعتى فرضيت باشارتها وذهبت وإياها إلى الخرابة وأرسلت بنظرى إلى البنات فكدت أغيب عن الوجود لما شاهدته من حسنهن وجمالهن ولست أكذب فقد أعجبتني واحدة منهن فأشرت للعجوز اليها ففي الحال ذهبت وأرسلتها إلى .

ولما سمع الملك وأبي كلام ابن الوزير ظنا أن الأمر قد قضي وأنه قد فعل بي منكرا فقطب الاثنان حاجبيهما وأخذ وجهاهما فى التلون فأدرك ابن الوزير حالتهما وماتوهماه فاضطر إلى الاسراع فى الكلام ليزيل خوفهما وقلقهما ويفهمهما أن الأمر لم يقض فقال نعم أرسلت العجوز البنت فجلست إلي جانبي وتحركت فينا الرغبة إلى قضاء الوطر واغتنام الفرصة فأردنا المباشرة فطرق آذاننا صوت حركة تقول (نشاط . باط) فأجفلنا وهربنا وسار كل واحد منا إلى ناحية بعيدا عن صاحبه وقد ظننا أن أحد الناس فاجأنا وعادت الفتاة فجلست بين رفيقاتها وسرت أنا فجلست تحت إحدى أشجار السرو وقلبي يخفق ويختلج . وفيما أنا على ذلك جاءتنى العجوز وسألتنى عن السبب فأخبرتها به فذهبت إلى الخرابة ورأت هناك بعض أفراخ الغربان تضرب بأجنحتها فخرج عنها هذا الصوت فعادت إلي وأخبرتنى ثم ذهبت لترسل لي الفتاة ثانيا ولكي لا أطيل الأمر أقول ان الصبية أتت فجلست معي تحت شجرة من السرو كالأول ولم يلتصق أحدنا بالآخر حتي سمعنا صوتا يقول (بام . بام) فهلعت قلوبنا من الخوف وتوهمنا أن الناس يروننا فهربنا وعادت هي الى رفيقاتها فجلست معهن ولما أتت العجوز رأت أن الصوت صوت فأر ينقر فى قشر الشجرة والحاصل فى المرة الثالثة جاءتني الصبية أيضا ولم نأت عملا لأننا قبل أن نبدأ دخل علينا بعض الثعالب والقرود فخفنا وهربنا وفى المرة الرابعة ذهبت الى الخرابة وسارت العجوز لترسلها الى وما لبثت أن وطئت الخرابة حتى شرفتم جلالتكم وقبضتم على . فهذا هو القول الصدق والله شهيد .

ولما سمع الملك وأبي هذا الكلام من ابن الوزير تعجبا غاية العجب ولا سيما الملك سيما الملك فقد تأمل كثيرا فيما جرى والتفت إلى أبى وقال له حقا انها لوقائع غريبة فهذا هو الصحيح وقد قنعت الآن بأنه قال الصدق لأننا لما كنا فى الخرابة جاءت البنت للمرة الرابعة ولما رأتنا فى مكان ابن الوزير هربت . والآن الذي أراه موافقا في هذه المسألة أنه من حيث أن ابن الوزير هذا قد رأى بنتك وهى قد رأته ورغب كل منهما بالآخر ولكنهما لم ينالا مراما فأنا أعين ابن الوزير وزيرا ضمن وزرائى وتزف عليه بنتك على مقتضى السنة والشرع . فرضي أبي بأمر الملك وسلم الأمر اليه .

وأما ابن الوزير فانه لما سمع هذه البشارة وأنه سيتزوج بي ويتعين وزيرا ألقي بنفسه على رجلى الملك يقبلهما ودموع الفرح تتساقط من عينيه ولم يعد يعرف كيف يجب عليه أن يفصح بشكران الملك وقد قال لا أعرف بأى لسان أشكر عدلكم ورحمتكم لأنى بينما كنت أرى نفسي مستمعا العقوبة وأنتظر الجزاء على سوء فعلى عاملتمونى بمنتهى الرحمة والشفقة .

فسر الملك كثيرا من كلامه وقال له هاأنا منذ الساعة قد نصبتك وزيرا ثانيا ورفعت حماك الى رتبة الوزير الأول

ولما رأى أبى نفسه بعد أن كان الوزير الثالث فى الدولة ترقي الي رتبة الوزير الأول وأصبح صهره الوزير الثانى فرح فرحا لا يوصف وكذلك ابن الوزير وقبلا ذيل الملك وشكراه على ما أنعم به ودعيا له ولدولته بطول العمر والبقاء .

وحينئذ زاد الملك فى كرمه وتعطفه بأن قال لهما وكذلك فان نفقات الفرح جميعه تكون من خزينتي وأصدر أمري منذ الآن أن يكون الفرح شاملا المدينة سبعة أيام وسبعة ليال والزينات قائمة فيها فلم يعد يعرف كل من أبى وابن الوزير كيف يجيبان الملك ، بل عقد الفرح ألسنتهما عن الكلام واذ ذاك خرج الملك بهما من الخلوة وأطلق سراح القهرمانة التي كانت محبوسة وأحسن الى كل من أبى وابن الوزير بخلعة سنية ولكى لا يسيء باقي الوزراء الظن ببناتهم حكي لهم قصة ابن الوزير معى وأمرهم بغض النظر عن مفاتحتهن

وبعد ذلك رجع أبى الي البيت وهو من شدة السرور والفرح على غير العادة .

ولما جاء البيت دخل احدى الغرف ودعانى اليه فخفق قلبي وضعف كثيرا وصار لونى كالزعفران وقد ظننت أن ابتسامه وبشاشته ناتجين عن الغضب الداخلى المضطرم فى فؤاده . وحالما رآنى أشار الي كرسى بجانبه وقال لى هلم يا بنتي هلم فاجلسي فجلست وأنا بحالة خجل وقلق شديد ثم التفت الى فقال لى أين يا بنتى قد تنزهت هذه الليلة . فأجبته وأنا مطرقة الى الأرض وقلت نعم لقد ذهبت مع بنات الوزراء الى احدي الحدائق وبقينا فيها مع بعضنا البعض . قال أعرف أنكم كنتم فى الحديقة لكن لماذا هربتم من أمور لا تخيف ولا يجب الهرب منها

فلما سمعت هذا الكلام من أبى وصلت روحى الى صدري ووقعت على قدمى أبى . واذ ذاك تحركت فيه عواطف الشفقة الأبوية فرفعنى عن الأرض وقال لى لا تخافى يا بنتى فحيث أن ناموسك بقى محفوظا فلا بأس عليك لكن أخبريني بكل ما وقع لك فى الحديقة .

ولما تبين لى أن أبى مطلع على الخبر لم يعد فى امكانى الكذب فحكيت له القصة بتمامها .

فقال لقد قلت الصدق . ثم قص على تتمة الخبر وأعلمنى كيف أنه ذهب مع الملك والوزراء الى الحديقة وشاهدنا هناك وقبض الملك على ابن الوزير والعجوز وأتي بهما الى قصره ومن استنطاق ابن الوزير عرف كل ما حدث فى ليلتي معه وكيف أن الملك عامله بالرحمة فعفا عنه وقلده منصب الوزير الثانى وجعل أبى الوزير الأول وفوق كل ذلك فقد أمر الملك بأن يعقـد لى على ابن الوزير وأن تزين المدينة وتقام الافراح فيها مدة سـبعة أيام ينفق عليها الملك من خزائنه الخاصة .

قالت السيدة لوالدتى ولست أستطيع أن أصور لك يا سيدتي أو أصف الفرح الذى لحق بى فى تلك الساعة عندما أخبرنى أبي بالذى تم بينه وبين الملك من أمر زواجى بابن الوزير فأنا حينئذ لم أعد قادرة على التكلم فرميت نفسى على رجلى أبى أقبلهما فأخذني اليـه وقبلنى فى جبيني ووجه الى النصائح المملوءة بالحب والحكمة .

ومن ثم بناء على أمر الملك زينت المدينة سبعة أيام وسبعة ليال وعقد لى على ابن الوزير وحينئذ نال كل منا ما تمناه من الآخر بدون خوف ولا وجل والتصقنا الى بعضنا البعض متلذذين بلذات الوصال ولم يقو على تفريقنا لا (تشاط . باط) ولا (بام . بام) وكنا كلما افتكرنا بأحوالنا فى الحديقة نتعجب مما وقع علينا ونضحك على أنفسنا .

وقد مر علينا نحو خمس سنين على هـذه الحالة وبعدها توفي أبى فنصب فى مكانه زوجى وبقي منصب الوزارة مدة سبع سنين ثم توفى الملك فكان ولى عهده من بعده الملك الحالى . وبعد ثلاث أو أربع سـنين من توليه عزل زوجى عن وظيفته والآن لا يزال معزولا .

ولهذا رأيتني يا سيدتى أنظر الى أطراف هذه الحديقة متذكرة وأضحك فى نفسي على ما وقع لنا فيها من الأمور المضحكة .

وبعد أن حكت الملكة لقمان بنت ملك الصين صاحب الاقليم السابع هذه الحكاية لبهرام شاه قالت له :

ولما حكت تلك المرأة حكايتها لوالدتى تعجبت والدتى منها غاية العجب وقالت لها حيث ان الحكاية التي حكيتيها لى سرتنى جدا وأعجبتني فأنا أعيد لزوجك منصبه فى الوزراة .

وحالما سمعت المرأة هذه البشرى من فم والدتى كادت تطير من الفرح فألقت بنفسها على رجليها .

ولما عادت والدتى الى البيت حكت الحكاية لأبى من أولها الى آخرها فأعجبته كثيرا وفى الحال أحضر زوج المرأة وأعاده الي منصب الوزارة الأول ودام على سعادته الى الآن بعد أن بقى مدة وهو معزولا مطرودا .

والقصد من حكايتي هذه يا سيدى أن الانسان الذى يسود بخته بحكم الأقدار اذا تلقي المصائب بصبر واحتمال فان ذلك السواد يتبدل بالبياض وتشرق بدور اقباله من ظلام اليأس والقنوط ولأجل ذلك توصف الشمس بالبياض دليلا على السعادة والحقيقة أن اللون الابيض جميل جدا ولذلك فان النهار أبيض الطلعة ينظر فيه كل عمل والوجه الابيض في الانسان دلالة على تفضيله على سواه بحكمة الخالق . انظر الآن هذا اللون الابيض الصافى ما أجمله وما أشهاه وحالما كشفت على صدرها الابيض البللورى وأبرزت نهدين كحقين من لجين على صفيحة من فضة . فطار عقل بهرام شاه من رأسه وفي الحال ضمها اليه وقد فرغ صبره فلم ينتظر المساء بل التصق بها ونال منها وصلا شهيا

وعاد بهرام شاه وزوجته الى الانس والصفاء حتى أقبل المساء وحينئذ مدت مائدة مرصعة بالالماس وعليها الطعام المتنوع فأخذا يتناولان الطعام ولما فرغا من الاكل عادا الي تقاطر كؤوس الانس والصفاء الى أن دنا وقت المنام فانسحبا الى غرفة النوم وهناك نسي بهرام شاه أباه وأمه والتصق بامرأته ... وما من شيء عجيب في ذلك ... فلم يقع بينهما الا ما هو معلوم لكل انسان فقد غرقا في بحر الملذات الى أن ولى شباب الليل وغاب وأدركه الضياء فأشعل فيه نيران المشيب وأزيح عن الليل الستار وأقبل النهار الفضاح

وعند الصباح نهضت لقمان قبل بهرام شاه ورفعت الغطاء عن وجهه وأخذت تتأمل فى جماله وحسن طالعه . وكان عمر بهرام إذ ذاك الخامسة والعشرين أى فى أعز الشبوبية وكان وجهه جميلا للغاية وقد حصل من نعمة الله على الملك الواسع والشجاعة النادرة المثال والعقل والذكاء المفرطين والجمال الغير موجود فى سواه فلما رأت لقمان أنوار محيا زوجها يتلألأ بالبهاء والكمال لم تقدر أن تضبط نفسها فارتمت عليه وجعلت تقبله على غير فكر فاستيقظ بهرام من نومه وشاهد بدرا بدور فوقه فمال إلى الاستصباح كجارى عادته . فضم لقمان اليه وطوقها بزنديه وقضى منها وطرا وبعد ساعة نهض من مكانه فاغتسل ولبس ثيابه وودع زوجته وركب بموكبه محفوفا بالعظمة والاجلال وسار رأسا إلى قصر الأحكام فدخله بعظمة فارسية حتى جاء التخت وجلس عليه .

ولما رآه الوزراء ورجال الحاشية وقفوا جميعا بين يديه لتأدية فروض الدعاء وبعد أن تقدم كل بدوره وأدي الواجب عليه وعاد فوقف مكانه أمرهم بهرام بالجلوس موجها اليهم عنايته والتفاته .

ثم انهم كرروا الدعاء بطول العمر له ولدولته وجلسوا فى أماكنهم وأطرقوا برؤوسهم إلى الأرض منتظرين أمره .

وفى تلك الساعة دخل على بهرام شاه رئيس حجابه فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العظمة والاجلال وأخبره أن رسولا جاء ويستأذن بالدخول عليه فسأله عن الرسول ومن أى بلد هو وماهى الرسالة فأجاب الحاجب لا أعلم وهو لم يرض أن يخبرنى بحاله فتعجب بهرام شاه وأمر باحضار الرسول فأحضر اليه على الاعزاز والاكرام فأشار اليه أن يجلس في مكان معهود .

ولما رأى الرسول عظمة ومهابة بهرام شاه وقع الخوف والارهاب فى قلبه فتقدم من العرش فقبله وقبل الارض ودعا له بأفصح كلام وأطلق لسان ثم أخرج من جيبه رسالة دفعها اليه وانسحب إلى الوراء وجلس فى المكان الذى أراه إياه بهرام شاه .

أما بهرام شاه فتناول الرساله وفتحها وقرأها وبعد أن فهم مضمونها أعطاها لرئيس وزرائه وأمره يقرأها بصوت عال فأخذها الوزير فى الحال ووقف فى مكانه وتلاها بصوت جهورى سمعه جميع الحضور .

مضمون الرسالة

أطال الله عمر ولدنا بهرام شاه وأحاط دولته باليمن والاقبال وخصه بدوام السعادة وتحقيق الامانى والآمال كما خصه بالشجاعة والاقدام وعلو المنزلة على كل الانام ووسع ملكه الى أطراف الدنيا حتي ملك السبعة أقاليم بالسيف القويم وقبض بكفه على السبعة بدور . اللاتى لم يخلق مثلهن منذ سالف الدهور دام عرشك بالسعد محفوظا وملكك بالعناية الالهية ملحوظا . آمين .

وبعد فان جل رغبتنا النظر الى بديع محياك الباهر الجمال وقد اتفقنا بواسطة الرسل نحن آباء زوجاتك على زيارة بلادك والتشرف بناديك وعينا موضعا لاجتماعنا فى الجهة الفلانية وأرسلنا اليك هذه الرسالة منتظرين صدور أمرك العالى حفظك الله وأدام بقاك .

الامضاء	الامضاء	الامضاء
حاكم الصين	قيصر الروم	ملك الهند
الامضاء	الامضاء	الامضاء
حاكم الغرب	حاكم خوارزم	حاكم صقلاب

ولما قرأت الرسالة على رجال المعية الملكية نهضوا جميعا فقبلوا ذيل العرش ودعوا بدوام العز واتساع الملك وكثرة البنين ثم عادوا فجلسوا فى أماكنهم .

أما بهرام شاه فقد شكر الله فى قلبه على ما وصل اليه من العظمة حتي زاره أعظم ملوك العالم بأسره فى وقت واحد . وفى الحال أمر بتهيئة حفلة الاستقبال .

وفى صباح اليوم التالى اجتمع عند باب قصر الحكومة جميع الوزراء والاعيان وأمراء الدولة ومأمورها الاوائل بالملابس المذهبة والخيول المطهمة المسرجة بسروج مرصعة بالحجارة الكريمة وكذلك بهرام شاه جاء مدججا بالسلاح من رأسه الى قدمه راكبا فوق جواد لانظير له على وجه البسيطة لابسا ثوبا ملوكيا مخصوصا بملوك الفرس تساوى قيمة خزائن الدول وفوق رأسه التاج المشهور الجامع لاغلى وأثمن حجر كريم فى العالم . وحينئذ خرج بهرام لاستقبال آباء زوجاته محاطا بذلك الموكب العظيم .

وحين علم ملوك الأقاليم أن بهرام شاه خرج للقائهم ركبوا خيولهم بالعظمة والاجلال وتقدموا لجهة المدينة أما أهالى المدينة فخرجوا للفرجة من كبيرهم إلى صغيرهم . وبالطبع أن مثل هذه الفرجة لا تترك لأن اجتماع سبعة ملوك أمر عظيم مبهج .

ولما ظهر بهرام شاه للملوك نزلوا جميعهم عن خيولهم وتقدموا لاستقباله فقرب منهم ولم ينزل عن جواده ويفعل كما فعلوا بل بقي راكبا معتزا بشجاعته وعظمته وقد سلم عليهم بشوكة وكبرياء فتقدموا منه وقبلوا ركابه وهذا الذى ناله بهرام شرف جسيم ومركز سامى عظيم ونعمة جليلة قدرها بهرام بالشكر لله وتمجيده .

وبعد أن رحب بهم غاية الترحيب وتبادلت بينهم المجاملات وعبارات الثناء والمدح سألهم الركوب فوق خيولهم ففعلوها وعاد بهرام شاه إلى جهة فى مقدمتهم وكان المنظر مبهجا للغاية ومستحقا للفرجة فبهرام الأسد الكاسر كان مدججا بالسلاح لحد أسنانه وعليه وعلى رأسه من الجواهر مالا يثمن بثمن ويسير خلفه ستة ملوك بالملابس الذهبية وعلى رؤوسهم التيجان المرصعة وهم مع صغر سنه (لأنه كان أوانئذ فى الخامسة والعشرين) ما كانوا يتجرأون على مخاطبته بل كانوا مطرقين برؤوسهم إلى الأرض بينما كان هو يخاطبهم ملتفتا إلى اليمين والى اليسار بعظمة وأبهة نادرتى المثال .

مما يدل على ذلك ما هو مثبوت فى سجلات ملوك الفرس وفى التواريخ العديدة من أنه لم يأت إلى الدنيا قط سلطان عظيم مثل (بهرام جور) وعلى مقتضى قول سجل الملوك كان يقال لبهرام رستم شاه ومعنى رستم فى لغة الفرس (بطل صنديد) لأنه كان شجاعا وباسلا قويا مع عقل وذكاء وحكمة مفرطة .

ومع ذلك فقد مال الى الأنس والصفاء والشغف بذوات القدود أكثر م الملوك مع ما أوتيه من القوة والبسالة النادرة وما أتيح له من العظمة والكبرياء والتغلب على ملوك العالم السبعة ومصاهرتهم وزيادة عن ذلك فما هو القدر والحظ السعيد يتيح له التقدم على ستة ملوك من أكبر ملوك العالم مترفعا عليهم ولكن بالنظر لسنه فانه رضى لنفسه الميل للكبر والخيلاء ولكنه كان محافظا بأبهته على

العوائد الفارسية والملك لم يحمر الملوك على مساواته ومحادثته والنظر فى وجهه ولا تجرأ أحدا منهم على أن يسأله سؤالا أو يدنو منه وعلى هذا الوجه جاءوا المدينة ودخلوا القصر وقد أسرع السلاطين بالنزول عن خيولهم وازدحموا أمام بهرام شاه فلم يمنعهم ولا اعتذر اليهم ولا قال لهم أستغفر الله بل بقى على العادة محافظا على الصولة والمهابة . ولكنه كان يقول فى قلبه . يا الهى أنت تعلم سبب حالتي هذه انها ليست من قبيل الغرور . فاعف عني يا ربي لأني أصغر عبادك لكن لما كنت قد قلدتني بارادتك هذه المملكة الواسعة فأصبح من اللازم علي أن أقوم برسم السلطنة فلا تدع الخوف مني والاندهاش والكبرياء تؤثر على نفسي .

وبقي بهرام شاه سائرا على ما تقدم حتى وصل الى عرشه فنزل عن جواده وصعد الى القصر ومن حوله وورائه الملوك والاعيان ثم دخل غرفة الردهة العظمى حيث نصب كرسي السلطنة المرصع بكل حجر كريم فجلس عليها وسيفه فوق ركبته وجيء له بالشراب فشرب وكان الملوك الستة لا يزالون واقفين عند الباب ينتظرون الامر بالدخول وهم يتحادثون مع بعضهم البعض متعجبين من شوكة بهرام واجلاله ومن سعة المدينة وعمرانها وكانوا يفتخرون بمصاهرتهم له .

واذ ذاك صدر أمر بهرام فدخل فى الاول الملك قيصر ثم ملك الصين ومن بعده سلطان الهند وتبعه حاكم خوارزم ومن خلفه ملك صقلاب فملك الغرب فنهض لهم بهرام على قدميه ونزل عن كرسيه وأخذ يعانق الواحد بعد الآخر مسلما عليه مرحبا به .

ثم جلس على كرسي صغير مجوهر وأذن للملوك بالجلوس من حواليه فجلسوا على الكراسى المجوهرة التى أشار اليهم بالجلوس عليها وهم لا يفترون عن التبجيل والتعظيم والدعاء وعيونهم مطرقة الى الارض وكان كل من ملك صقلاب وخوارزم والغرب لم ير بهرام بعد ولهذا كانوا مأخوذين بجماله وسلطانه وعظم هيبته وكذلك ملك الصين فانه وان كان جاء الى بلاد العجم واستولى عليها كما تقدم معنا فى أول القصة لكنه لم يره ولا وقف أمامه وأما ملك الهند وقيصر الروم فقد سبق لهما أن نظرا الى بهرام شاه وعرفاه .

ولما أن استقر كل انسان فى مكانه كان بهرام شاه يفتكر فى نفسه قائلا ها ان هيبتي ورفعة سلطاني قد وقعتا فى قلوب الملوك فمن اللازم جبر خاطرهم ورعايتهم

فدار بوجهه اليهم وخاطبهم قائلا بكل أنس ورقة . انى أشكر الله الذى أرانى إياكم فى بلادى وشاهدتك بخير وعافية كما أشكره على ادخال بلادكم تحت سلطتي وما ذلك إلا منة منه تعالى ولهذا وجب على القيام بكل ما يرضيه . فعلى أن أقي المظلوم ولا أمنع إحساني عن الفقراء وأن أهتم باصلاح البلاد وأن أسير فى هذا اليوم على الطريق المستقيم لأن فى يومى هذا خيرات الغد . واحترامي فى هذا اليوم يغنينى عن الخجل أمام الله سبحانه وتعالي . ومن المؤكد أنى أعاقب كل مجرم وأحسن إلى كل صادق أمين . وأقيم البناء الجيد . وأستأصل الشرس الفاسد . ولذلك أقطع أوهام المتوهمين باجلاسي علي هذا العرش . وأقنع القائمين حولي حولى أنى ما وجدت على السلطنة باختيارى بل ان هذه اللياقة والقوة والعظمة أعطيت لي جميعها من الله حتي أميز بين الحق والباطل . ومع ذلك فشاهدى أنى لا أقتل شخصا بالحيلة والدسيسة مهما استعملت قوتى وسيفي وعدالتى .

ولما سمع الملوك السبعة هذا الكلام الذى تكلم به بهرام تحيروا جميعهم من ذكائه وكياسته وفهمه وفراسته ورفعوا أيديهم لله ودعوا له بالبقاء وطول العمر ولدولته بالتقدم والارتقاء وأظهروا له سرورهم وامتنانهم .

وحينئذ أشار بهرام باحضار موائد الطعام فمدت سفرة فاخرة عليها أشهى الطعام فى أوان مرصعة ثمينة . فنهض بهرام شاه والحكام الستة وجلسوا حول المائدة ودارت بينهم الاحاديث وهم يشتغلون بتناول الطعام . وكانت محبة بهرام تنمو وتعظم فى قلوبهم لاعجابهم بشجاعته وجماله وسمو مداركه ورفعته عن سواه من بنى البشر وهذا مع صغر سنه .

وبعد تناولهم الطعام رفعت السفرة وغسلوا أيديهم ثم بدأوا فى مبادلة الأنس والصفاء وكانوا فى كل كلمة وكل حركة تبدو من بهرام شاه يرون فيها من الحكمة والغرابة ما يبهر عقولهم ويثير حيرتهم واعجابهم به .

ثم انهم استأذنوا بهرام شاه لمشاهدة بناتهم فأذن لهم وأرسل كل واحد إلى قصر ابنته وسار هو إلى القصر المعمول بلون خشب الصندل قصر درستى بنت كيكاوس وبات معها على المسرة والهناء .

وأما الملوك فقد التقى كل واحد بابنته وسلم عليها وفرح بها ورآها كأنها موجودة فى جنة النعيم ولاقى عندها من التجملات والترحيب والشوكة والابهة

مالا يفي بوصفه قلم ولا توفيه عبارة . وكانوا مسرورين جدا فرحين بنجاة بناتهم وراحتهن .

ومن بعد ذلك عادوا إلى مجلس بهرام ثانية وعلى هذه الحالة أقام الملوك مدة شهرين عند بهرام شاه على غاية من الاكرام والاعتبار حتى كادوا ينسوا بلادهم وممالكهم وفضلوا البقاء فى ذلك المكان لو أمكن لهم وأخيرا سألوه أن يسمح لهم بالرجوع إلى أوطانهم .

ففي الحال أحضر الخلع الثمينة فأفرغها عليهم ووهبهم خراج بلادهم لمدة ثلاث سنين وأوصاهم بملازمة العدل واتباع خطة الانصاف والسير على الطريقة التي ترضى الله وتسر الرعية . وقد أمر سلطان الهند أن يرسل اليه نحو عشرة آلاف عازف وعازفة بالموسيقى من بلاده من رجال ونساء .

وبعد أن ودع الملوك عادوا الى بلادهم والفرح يقيمهم ويقعدهم ولما وصلوا الى أوطانهم اهتم كل واحد منهم بادارة شئون بلاده وتوخوا أن يعاملوا رعاياهم بالعدل والرحمة والانصاف على حسب ما تعلموه من بهرام شاه .

أما ملك الهند فانه بناء على أمر بهرام شاه انتخب من بلاده نحو عشرة آلاف نفس ما بين ذكر وأنثى كلهم ماهر بالغناء وضرب الاوتار فأرسلهم الى ايران فسر بهم بهرام شاه وفرقهم على الاهالى وأمر بانتشار أعلام الصفاء على كل بيت من بيوت المدينة وأمر أن توزع عليهم مرتباتهم من خزينة الدولة .

أما هو فانه بقي كعادته الاولى فى كل يوم يذهب الى قصر ويبيت عند زوجة من زوجاته ولما رأى أن انهماكه فى الصفاء واللذات يشغله عن مداومة النظر فى أحوال الرعية أقام وكيلا عنه وزيره راست روشن وفوض اليه ادارة مصالح الدولة وانغمس كعادة ملوك الفرس باللذات والصفاء والالتصاق بالحريم ليلا ونهارا والتنعم بكل ما يصل اليه من أسباب التنعم . ولم يعجز ولا فتر ولا كل ولا مل . ومع هذا كله فان نساءه كن عواقر ماعدا درسق فقد ولدت له غلاما ذكرا كانت ولادته سببا فى زيادة حظوظه ومسراته وقد سماه اردشير . ولندع الآن بهرام شاه على صفائه وأنسه ولنتكلم قليلا عن أحوال الحكومة وما جرى عليها بعد أن فوض بهرام شاه أمور ادارتها لوزيره أكد العزم على أن يصرف باقي عمره فى اللذات والهناء والمسرات .

كان الوزير راست روشن الذى قبض على أزمة الحكومة الايرانية شريرا خائنا ظالما عاتيا . فحالما رأي نفسه مستقلا بشئون الدولة ولا رقيب عليه جنح إلى الظلم والتعدى ولم يمل قلبه إلى الرحمة أو الشفقة . فلم يمر شهران على وكالته حتى هدم بناء العدل من أساسه . ونشر راية الظلم في كل جهة . وتبدلت الأفراح ودواعى الأنس التى كانت قائمة فى كل منزل إلى أحزان ومآتم . وكان يقول ان الشاه قد عهد إلى بتدبير الرعية وأطلق لى الأمر فالذي أفعله أفعله باسمه وبأمره أما الوزراء الآخرون فانهم عندما أرادوا ارجاعه للصواب عاملهم بالقسوة والاستبداد وقال لهم . أنتم لا تدرون شيئا ولا تفهمون أمراً . إن الوكالة أمر عظيم . ان الخير للأهالى يزيدهم عتواً وقلة حياء . انهم لم يعرفوا قيمة عدالة السلطان فنبذوها جانبا مع أن من العدالة التهديد والتخويف ويلزم للجريمة ايقاع الجزاء والشدة فيه فاذا كنت لا أقسو عليهم ولا أجازيهم يضيع الملك ويخرب الشاه فلنضعفهم ولنذلهم كل يوم بالتكاليف والأوامر الجديدة ولنثقل كواهلهم بالضرائب الفادحة المبهظة فانهم لدينا كالحيوانات نستخدم الكبير فى حمل الأثقال والمتوسط فى حلب الألبان والصغير نذبحه وبذلك تصبح الرعية طائعة كلها نسوقها سوق الأغنام ومن الواجب أن لا نبقي بأيدى الرعية شيئا وأن لا نسمع الى ندائهم لأن رعايانا همج متوحشون . فاذا لم يكن بأيديهم سيف لا يعدون رجالا . واذا لم يكونوا مقتدرين لا يضروننا بشىء ولا يخطفون أرواحنا واذا كان ملكنا نائما فهو لا يستيقظ من نومه واذا كان لا سياسة عند الملك تذهب حكومته من يده فالملك المتصف بالسياسة هو الذى دائما يخيف أعداءه فالانسان عليه مع السياسة أن يجرى نفوذه وسلطته . ومن اللازم أن لا يغش من أحد ولا يثق بصداقة أحد ولا يركن فى حكم رعيته الى أحد . وليتأكد الانسان أن صديقه هو سيفه والآن فقد عهد الى بهرام شاه بالوكالة على الدولة لأنه أمين منى ولو لم يرق الحكمة والدراية ما يجب لما خولني الاستقلال التام . ومادام سيفه وقلمى متحدين فلمن أدعه يندم . فاذا تكلمت أنا قبل هو حتى أنى اذا قلت اقبضوا عليه سمع أمري واذا قلت دعوه نفذت كلمتى .

ومن بعد أن فرغ الوزير من كلامه قال له أحد الوزراء استعمل عقلك وحكمتك فاذا كان قصدك أن تفعل كما تقول فكل عمل تعمله تندم عليه فيما بعد لأنك وأنت فى حال وكالتك ترقبك عين ملكنا بهرام . وما انتهى هذا الوزير

من كلامه حتى امتلأ الوكيل من الغضب فزجره وصاح به قائلا سد فاك أيها الجاهل الخائن لقد أضعت عقلك ولو لم تفقد الادراك لما تكلمت بمثل هذا الكلام وفى الحال أمر بالقبض على الوزير المشار اليه . ومن بعد أن ألقاه فى السجن بغير ذنب ولا جريمة أمر أن تصادر أملاكه وموجوداته فنهبها وتملكها جميعها وفي اليوم الثانى بدأ فى عزل باقي الوزراء من مناصبهم واحدا بعد واحد واستولى على أملاكهم ومن ثم بدأ يعزل سائر رجال الدولة فكان يحبس بعضهم ويبقى البعض الآخر وكان يأمر أيضا بقتل من ينصحه أو يعترض عليه ثم مد يده الى خزينة الدولة فكان يصرف كل ما تصل اليه يده منها واستبد فى حكم الرعية وفرط فى أحوال المملكة ورجالها وصار صاحب الكلمة فاذا قال احرقوا هذا يحرقونه وافعلوا كذا لم يتأخروا عن أمره ومع أن السرور كان شاملا كل بيت انعكست الحال وصار لا يسمع من كل بيت بل من كل لوح الا أنات الرجال وبكاء النساء . وقد جمع هذا الوكيل الشرير حوله كل خبيث ومحتال . وكان كلما سمع باسم رجل متيسر غنى من الأهالى حبسه وصادر أمواله وأملاكه أو قتله أو نفاه الى بلاد بعيدة واستولى على ممتلكاته . وقد استبد وظلم الى آخر درجة من الظلم والاستبداد وفعل فى الرعية أفعالا لا يفعلها أكلة اللحوم البشرية .

ولما رأى الاهالى هذه الاحوال تحيروا ولم يدروا ماذا يفعلون فكان بعضهم يدعوا على بهرام شاه وبعضهم يتأوه ويقول أين بهرام شاه يرى حالتنا وبؤسنا وضياع الرعية وما حصل لها من الظلم والاستبداد وما كانوا يرون لهم فرجا الا فى الانين والبكاء وكما تقدم كان الوكيل قد نظف دوائر الحكومة من الوزراء الاوائل والمأمورين المعينين من قبل بهرام شاه لثقته بهم وأبدلهم برجال أشرار ولصوص على شاكلته فأخذوا ينهبون ما تصل اليه أيديهم من ممتلكات الاهالى ويبتزون أموالهم ويظلمونهم ظلما فاحشا وفي عدة سنين لم يبق فى كل ايران غني مستور بل أصبح الكل فقراء باكين شاكين يكادون لا يحصلون قوت يومهم ومن المقرر أن الظلم والاستبداد لا يحتاج الي مدة لخراب البلاد بل يكفيه خمسة عشر يوما كل هذا والوزير الوكيل يري أن ما يفعله عين العدل والصواب وعين الواجب أن يعمل فى الرعية ليقدر أن يضبط زمامها . ومن المقرر أن تأثيرات الظلم في البلاد تقود الي الخراب بسرعة ولا يمكن العدل أن يعيدها الى حالها إلا

بعد مدة طويلة . يعنى أن عمار البلاد ونجاح الذين يحكمونها بالعدل وسهر الحكام واجتهادهم فى مدة خمسين سنة يهدمها الظلم ويبيدها فى أقل من خمسين وربما فى خمسين ساعة والعكس مستحيل في ذلك .

ولهذا كان الأهالى والجند راضين الظلم صابرين على مضض متحيرين لا يقدر أن يشكو بعضهم حزنه ولا همه للآخر خوفا من أن تنقل الجواسيس شكاويهم إلى الحكام فيعدمونهم فى الحال ولم يكن لهم من سبيل إلى الوصول إلى بهرام شاه ملكهم الذى يجهل كل هذه الأمور وهو غير عالم بها بل كل همه والتفاته الى ملذاته وملاهيه والاختفاء عن عيون الناس بين جواريه وحرمه كعادة ملوك الفرس من قديم الزمان .

وفى النهاية زاد الظلم فى الاهالي كثيرا وباتوا غير قادرين على الاحتمال فاختاروا الموت فى الفلوات على البقاء على هذه الحال لا مال بأيديهم ولا هم قادرون على الصناعة أو الفلاحة فكل أملاكهم وأموالهم ومجوهراتهم صارت بيد الوزير ورفاقه ورجال الدولة الحاليين وهم مع كل ذلك يلاحقونهم بفرض الضرائب ويلزمونهم بالرسوم الاميرية الظالمة ولهذا لم يروا بدا من المهاجرة فهاجر كل منهم الى ناحية وأكثرهم فضل سكنى البرارى والصحارى أوهاجر الى البلاد العربية تخلصا من ظلم العمال والحكام وطمعا فى الحصول على القوت لصيانة أرواحهم وأرواح أطفالهم ونسائهم بعد أن كادوا يخسرونها في زمن هذا الوزير الظالم العاتى القاسي فقل عدد السكان كثيرا وعم البلاد الخراب .

ولم يكف الوزير المذكور كل هذا بل انه سعى فى ارتكاب أعظم خيانة فانه كتب كتابا الى سلطان الصين وأرسله اليه سرا يقول له فيه ان دولة بهرام شاه قد انتهت لانه منهمك ليلا ونهارا بملذاته ومعاشرته لنسائه وقد ترك الحكومة وشأنها حتي فرغت الخزينة وهاجر الاهالى وفر الجند وهذه فرصة ذهبية لحصولك على عرش ايران بدون تعب ولا عناء فاغتنم هذه الفرصة فانك بنفر قليل تقدر أن تستولى على مملكته وأنا أعدك وعدا صادقا أنك حال وصولك الى هنا أسلمك العرش لانه في يدى وأكتفي بأن أبقي عليه تحت أمرك وفى حوزتك .

فحرك هذا الجواب طمع سلطان الصين وعزم أن يغتنم هذه الفرصة ليفتح

مملكة الفرس فأسرع فجمع جيشا عرمرما وسار قاصدا به بلاد العجم ولكنه كان يسير بين الفرح والخوف خائفا من بهرام شاه لأنه يعلم عظم صولته وشدة بسالته ويفرح لانه مزمع أن يستولى على مملكة عظيمة صاحبها فى غفلة باتكاله بذلك على الوزراء الخونة .

وما خرج جيش الصين من الصين حتي سارت أخباره فى كل الجهات وأرسلت الرسل السرية من قبل وكيل بهرام في مملكة الصين الى بهرام شاه يخبره بخبر مسير الجيوش لتدويخ بلاده والاستيلاء عليها وينصح له أن يخرج من بين الحريم وينظر فى أمر الرعية ويجازى الخائن على خيانته وكان هذا الوكيل محبا لبهرام شاه وكارها لوقوع النزاع بين الحكومتين .

فلما وصل الخبر بهرام انتبه الى نفسه وخرج كالليث من عرينه وجاء الى دار الحكومة فوجدها قد انقلبت انقلابا عظيما كانت المدينة منذ خمسة وعشرين سنة عامرة آنسة زاهرة فوجدها خرابا ولم أحدا من الرجال الاوائل الذين كان نصبهم للحكم والاحكام ولم ير فى الخزينة دينارا واحدا ولم ير جنديا واحدا قط من جنوده الابطال فطار عقله من رأسه وتفقد وزراءه الامناء فلم ير لاحد منهم أثرا فسأل عن السبب فلم يهده أحد الى الحقيقة ولا قدر أحد من الاهالى فى بادىء الامر أن يتقدم اليه بشكوي خوفا من الوزير الوكيل العام ولا تجرأ أحد أن يخبره بما كان من عمل ذلك الظالم وقد أجابه الوزير أنه فى السنة الفلانية أجدبت الارض ووقع القحط فى كل أرض فارس والتاجر الفلانى أفلس فهرب والوزير الفلانى مات والآخر سافر وصار يعدد أمورا واعتذارات ليس لها حقيقة وما أنزل الله بها من سلطان حتى حار بهرام شاه فى أمره وعاد الي قصره حزينا كئيبا ولم يأخذه نوم كل تلك الليلة .

وفى الصباح ركب جواده وخرج وحده فى ضواحي المدينة وهو مرتبك الافكار لا يعرف كيف يفعل وقد ضاق عليه رحيب الفضاء وأخذ يطوف من مكان الى مكان آخر وكان من النادر أن يرى أحدا من الناس يسير فى تلك النواحي التى كانت تزدحم بأقدام الآتين الى المدينة والخارجين منها ولما تضاحى النهار اشتد عليه العطش فلم يهتد الى ماء ليشرب . وفيما هو على هذه الحالة رأى دخانا عن بعد فمال الى جهته طمعا بالماء ولما وصل وجد هناك راعى غنم عند

خيمة صغيرة وأمام الخيمة شجرة وفى أسفل الشجرة رأى كلبا معلقا فتعجب بهرام شاه من ذلك ووقف فتحيرا .

ولما رأى الراعي بهرام شاه وعليه سمة العظمة والاجلال نهض فى الحال وأمسك بالجواد لينزله عنه وقد ظنه من رجال وكيل المملكة فارتمي على قدميه وقال له الرحمة ياسيدي أشفق على شيخوختي لم يبق عندى إلا هذه الأغنام .

فزادت حيرة بهرام شاه وقال له ماذا تقول يا أبى ماذا أعمل بغنمك قد أتيتك ضيفا أطلب اليك شربة ماء .

فقام الراعى وأحضر للملك إناء مملوءا من الماء فتناول بهرام شاه الاناء وقال للشيخ إنى أتعجب يا أبي من أمر واحد وأريد أن أسألك عنه فاذا كنت لاتخبرنى بحقيقته لاأشرب لك ماء بل أرجع من حيث أتيت . فقال له أخبرني يابنى مم تتعجب فاني أصدقك الجواب .

فسأله بهرام أريد أن أعرف لماذا شنقت هذا الكلب فى الشجرة هل أتى ذنبا استحق الاعدام بسببه وحينئذ جلس الراعى أمام بهرام شاه وقال له :

اعلم ياولدى أن ذنب هذا الكلب عظيم جدا . كان فى الأول أمينا وحريصا وطائعا يحمى الغنم من الذئب فلا يفقد منها واحدا وكثيرا ما كنت أعهد اليه بالحراسة عليها وأنام مطمئنا مستريح البال من جهتها فلا يدع الذئاب تصل اليها ولكن منذ نحو شهر تقريبا افتقدت غنمى فوجدتها ناقصة سبعا فتعجبت لذلك غاية العجب ثم عددتها بعد ذلك عدة مرات فرأيتها ناقصة هذا العدد وبعد أسبوع عددتها أيضا فوجدتها ناقصة بزيادة فزادت حيرتى وقلت فى نفسى لابد من وقوع أمر غريب فأخذت من ذلك اليوم أسهر وأراقب وأتحرى الحالة بنفسى لأقف على سبب ضياع غنمي الى أن كان اليوم الماضى ذهبت الى المرعى وأمامى الغنم حتى وصلنا من الكلأ فبدأت ترعاه وتظاهرت كأنى غارق بالنوم وإذا بى سمعت حركة الكلب وقد سار من مكانه إلى جهة ذئب أقبل من بعيد ولما ألتقيا التحما ببعضهما وكان كلبي ذكرا وتلك أنثى .

فبعد ان فرغ من عمله جاءت انثى الذئب من الغنم فاختارت اسمنها وخفت به والكلب متغاضي عنها كأنها كانت تسمح له بحق السكوت فلم احتمل هذه الخيانة من كلب أقمته حارسا على غنمي فباعها طمعا بقضاء شهوته فقبضت فى الحال على الكلب وجازيته بالشنق وهذا جزاء من لا يسهر على رعيته وبقيت اتتبع انثى الذئب حتي قتلتها ايضا .

فلما سمع بهرام كلام الراعى انتبه إلى نفسه كأنه هب من رقاد عميق وقال فى نفسه ان كلام الراعى أكبر نصيحة لي ومنه تعلمت كيف يجب أن أنصرف وفى تلك الحال شرب الماء حتي أروى ظمأه وعاد إلى المدينة والغضب يغيمه ويقعده وبات تلك الليلة يتقلب على الجمر إلى أن كان الصباح نهض من نومه فلبس ثوبا أحمر وخرج إلى دار الأحكام وكان فى ذاك الزمان إذا لبس الملك ثوبا أحمر استدل الشعب على غضبه وانتقامه .

ولما جلس علي سريره أمر أن يدعى إليه جميع الوكلاء والوزراء والقواد وأشاع أن فى عزمه المباحثة والتدبير فى شأن طمع ملك الصين فى الاستيلاء على بلاد ايران فحضر اليه جميع عظماء المملكة وهم في خوف عظيم فجلس كل في مكانه ثم بعث أيضا فأحضر الوجهاء والوكلاء حتى غص المكان بالخاصة والعامة وكلهم منتظر الملك وحينئذ التفت بهرام شاه أمام تلك الجماهير إلي وكيله الذى كان أمينا علي بلاده فرآه يرتجف وقد اصفر وجهه حتي صار كهيئة الموتى فقال له والغضب يلعب به أى وكيلي الصادق الأمين قد أتيت الآن أناقشك الحساب فاخبرني آين هو ملكي وعظمة دولتي أين جنود مملكتى أين أموال وجواهر خزينتي بل أين رعيتي التي سلمتها إليك لتسوسها بالعدل والانصاف فاذا كنت لا ترعى الجميل الذي عاملتك به فهل لا تخاف ألله القادر المنتقم فاذا كنت أنا غفلت عن حقوق العباد فهل أن الله الذى خلقهم لا يسألك عنهم أجبنى فى الحال فوقع الرعب فى قلب الوكيل وانعقد لسانه عن الجواب لشدة خوفه واضطرابه فبقي صامتا كالصخرة الصماء .

وحينئذ وقف بهرام شاه والسيف في يده فلطمه به علي وجهه وأمر أن يقبض عليه وعلى رفاقه الوزراء الذين أطاعوه علي ظلمه وأن يقيدوهم بالحديد ويلقوهم في الحبس .

ثم أمر فى الحال أن يطوف المنادون فى المدينة ليبشروا الشعب بأن ملكهم قد عاد من غفلته ورجع الى عرشه لصيانة حقوقهم فمن كان منهم له حق على الوكيل ورفاقه أو علي أحد من رجال الحكومة فليحضر الى أمام بهرام شاه ويعرض أمره لديه دون خوف ولا وجل وهو مزمع أن يعيد لكل ذى حق حقه ويقاص الظالمين على ظلمهم .

فوقعت هذه البشرى على الأهالي وقوعا حسنا وشعروا بالفرح العظيم وأملوا

في اصلاح أحوالهم فهجموا على دار الحكومة أفواجا أفواجا وقد ارتفعت أصواتهم بالدعاء لبهرام شاه ولدولته بالعز والاقبال وما منهم الا من أبدي له شكواه وشرح له مظلمته لم يكن أحد خلا من ظلم الوزير من الكبير الى الصغير وبهرام يسمع شكاويهم ويطيب خواطرهم وقد ذهب بنفسه الي بيت الوكيل فوجده مشحونا بالجواهر والذهب وأخرجها كلها وصار يفرقها على الناس ويوصل لكل انسان حقه من مال أو عقار فسر الاهالى سرورا سرورا لامزيد عليه وانتشرت هذه البشرى فى كل أنحاء المملكة فأخذ الذين هاجروا يعودون الى البلاد حتى انهم فى ظرف شهر عاد الاهالى الى أعمالهم والجند الى تولى أعمالهم فانتظمت أحوال الدولة وأقيم الحكماء والعقلاء لتدبير شئون الرعية .

ثم ان بهرام شاه ذهب بنفسه الى السجون فوجدها مشحونة بالمسجونين وكلهم يتظلم ويستغيث فاستدعى سبعة أنفار من السجن وأوقفهم بين يديه وسألهم كل منهم أن يعرض عليه كل منهم سبب سجنه .

وقف (المظلوم الاول) بين يدى بهرام شاه وبعد أن دعا له ولدولته بالبقاء قال اعلم ياسيدى أني كنت اعظم تجار المدينة اعتبارا ففي ذات يوم عزمت آن ارسل اخى بتجارة الى احدى البلاد الخارجية فأعددت له البضائع اللازمة وقبل ان يخرج اتصل الخبر بالوكيل فاستدعى اخي وقال له انت ولا شك جاسوس ومرادك ان تذهب الي اعداء المملكة وتطلعهم على احوالها . وبدون ان يسمع جوابه او يصغى اليه امر بقتله ثم احضرنى بين يديه واتهمنى بتهمة اخى وألقانى فى السجن وضبط كل اموالى واملاكي ولى الآن مقدار سنة فى السجن على ما رأيت .

ثم تقدم (المظلوم الثانى) فقبل عرش الملك وقال اعلم ياسيدى أن أبى ترك لى حديقة غناء عامرة بالأشجار والأثمار لا يوجد مثلها فى بلاد الفرس وكان أبى مولعا بـ أنفق كل حياته وأمواله فى إنشائها وتنسيقها فبلغ أمرها لوكيلك فاستدعانى وفى الحال ألقانى فى السجن وأخذها منى بدعوى أن أبى اغتصبها من أملاك الحكومة ولى الآن مقدار سنتين فى السجن .

ولما حضر (المظلوم الثالث) أمام بهرام شاه قال له أنا يا سيدى رجل من اهل المدينة وتجارها وكنت مولعا بالأسفار والسياحة وقد سافرت عنها منذ زمن طويل بقصد الربح والكسب فلما عدت اليها كان معى قسم وافر من الجواهر والحجارة

الكريمة فلما عرضتها للبيع اتصل خبرها بالوكيل فاستدعاني وأخذها مني فسألته أن يدفع لي ثمنها لأنها تعب عمري فاعتبر طلبي الثمن جريمة ألقاني بسببها في السجن ولي الآن ثلاث سنوات أتعذب فيه .

وبعد هذا تقدم (المظلوم الرابع) وقال أطال الله عمر سيدي الملك أنا رجل من اللذين أخذوا واحدا من المطربين الهنود في بيته واعتنيت به حتى صار آية في الكمال والجمال فسمع به الوكيل فأخذه مني عنوة وألقاني في السجن منذ أربع سنوات .

ثم جيء (بالمظلوم الخامس) أمام الملك فقال له أما أنا يا سيدي فكنت محافظا للمدينة منذ زمان طويل ولما رأيت ظلم الوزير واستبداده بالرعية تكدرت ولكن لما كنت لا أستطيع منع الوزير من ظلمه واستبداده رأيت أن أخفف الظلم عن المظلومين فكنت أعامل المسجونين معاملة حسنة فكنت أرفق بهم وأوصي الموكلين بحراستهم أن يعتنوا براحتهم فاتصل الخبر أخيرا بالوكيل فاستدعاني وقال لي انك رجل غني جداً وقد تأكدت أن غناك ناتج عن دفائن وكنوز استخرجتها من الأرض وفي الحال أمر بمصادرة أموالي وكل ما أملك وألقاني في السجن وبقيت فيه سنتين حتى أخرجتني .

ودنا (المظلوم السادس) وقبل الارض بين يدي بهرام شاه وقال له أنا يا مولاي القائد فلان وقد خدمت الحكومة مدة طويلة ولما ظهرت الثورة الفلانية أمرتم في الاول بالقبض علي وقتلي لكن بعد أن ثبت لديكم براءتي وأمانتي أنعمتم علي بالقرية الفلانية وعينتم لي معاشا دائما وذلك من كرمكم وحلمكم ففي ذات يوم حضرت لأقبض معاشي كجاري العادة فأحضرني الوكيل بين يديه وقال لي لماذا تطلب المعاش هل فتحت قلعة جديدة أو استوليت على مملكة ومع ذلك فاننا لم نعد في حاجة الى رجال الحرب فاطرد الجند الذين تحت قيادتك واذهب إلى حيث شئت فقلت له ان كان سيدي بهرام شاه قد انهمك في ملذاته ونسائه ولا يعلم ما هو جار في بلاده فأنا أسير اليه وأعرض عليه أمري فقبض علي وألقاني في السجن ولي فيه ست سنوات .

وأخيرا تقدم (المظلوم السابع) وقال لبهرام يا مولاي وأنا كما تراني شيخ مسن وقد رأيت ما جرى في المملكة فانسحبت الي خلوة أتعبد الله وأدعو لسيدي بهرام شاة بطول العمر وأسأله تعالى أن ينتشله من غفلته ويعيده لرعيته . ففي

ذات يوم استدعاني الوكيل وتهددني واتهمني بأني أدعو عليه وأتمنى إبادته ثم ألقاني في السجن فأقمت فيه مدة سبع سنين .

فعرف بهرام شاه أن باقي المسجونين لابد أن يكونوا من هذا القبيل قد حبسوا ظلما وعدوانا ووضعوا في الحبوس بدون محاكمة فأمر باخراجهم جميعهم وفرق عليهم الاموال الطائلة ورد إليهم الاملاك التي سلبت منهم . ومن بعد ذلك أمر أن يعد الموظفون الذي اتفقوا على خراب المملكة فأخبر أن عددهم ثلاثمائة نفس فأمر أن ينصب في ميدان المدينة مشنقة .

وفي اليوم المعين أطلق مناديا ينادي في المدينة أن بهرام شاه عزم على شنق الظلمة الخائنين وهو يدعو الناس للفرجة عليهم والتشفي بالنظر إلى تعذيبهم فتسارع الناس من كبير وصغير الى ساحة المدينة ولما رفع الخائنون الى الاخشاب ضج الناس بالدعاء لبهرام شاه وهجموا على الوكيل ورفاقه يرمونهم بالحجارة ويتمنون لو يقطعونهم بأسنانهم إربا إربا .

ومن ثم خاطب بهرام شاه الاهالي بصوت عال وقال لهم هكذا قدر الله وحكم أن تكون آخرة الذين يظلمون العباد فليعتبر خلفاؤهم والذين عهد اليهم بتدبير عباد الله فتكرر الدعاء لبهرام شاه ولدولته وانصرف الناس مسرورين بهلاك الظالمين .

ولنرجع الى جيش الصين فان الملك قبل أن يصل الى حدود ايران بلغه أن بهرام شاه هب من رقاده وعاد الى ادارة مصالح رعيته بيده فتوقف عن السير بعث بالجواسيس يتجسسون حال بهرام شاه ووكيله فعادوا اليه بالاخبار الاكيدة وأعلموه بكل ماراوه وسمعوه في ايران أنهم شاهدوا بهرام شاه بعيونهم كالاسد في العرين ينظم الجيوش ويتهيأ للحرب بعد أن أهلك الوزير وأتباعه فوقع الرعب في قلب ملك الصين فأرسل الهدايا والتحف لبهرام شاه وكتب اليه كتابا يعتذر فيه ويخبره بخيانة وكيله وأرسل الجواب الذى أرسله اليه وسأله الانتباه لنفسه ومجازاة الغادرين فقبل بهرام شاه الهدايا واعاد الرسل معززين مكرمين .

وبعد ان انتهى بهرام شاه من كل ما تقدم تذكر الراعي الذى قابله في البرية وعلمه كيف يجب ان يتصرف وكيف يترتب عليه ليرضى رعيته ويصونها من

الذئاب الخاطفة فأرسل ما استدعى اليه وخلع عليه الخلع السنية وغمره بالعطايا وأقامه فى وظيفة مستشاره الخاص .

وبناء على رأى هذا المستشار الأمين هدم قصور نسائه السبعة وجمعهن كلهن فى قصر واحد وشغل من ذلك الحين بروية مصالح الدولة وجاب الخير لبلاده ورعاياه وسهر على الامن العام سهر الاب على اولاده حتى عمرت البلاد اكثر مما كانت فى الاول بكثير وزاد غنى الاهالى وسرورهم وتضاعف الصادر والوارد وصارت مملكة الغرب في ظرف اثنتى عشرة سنة جنة حافلة بأنواع الهناء والراحة وكان العدل منتشرا فيها عظيما ولم يعد للظلم اثر قط . وشاخ بهرام شاه لتجاوز الستين سنة وكان دائما يفكر في الموت ودنوه وقرب اليوم الاخير وكان كلما تذكر ما وقع على رعاياه من الظلم والجور بسبب اهماله شئونهم ولهوه وعكوفه علي اللذات والنساء وتغلب شهوته على عقله تنحدر الدموع من عينيه فيستغفر الله ويسأله العفو والتجاوز عن ذنوبه . الى ان كان ذات يوم ضاق صدره وشعر بثقل على عاتقه فخرج للصيد مع بعض وزرائه وفرسانه ولما تبطنوا القفار بدأ فى القنص .

وحينئذ وقعت عين بهرام شاه على غزال فطارده ففر من امامه فتأثره ومن خلفه ثلاثة فرسان ولا زال فى اثره حتي غاب عن وزرائه وحاشيته وفى النهاية لجأ الغزال الى مغارة ضيقة فدخلها ليختبىء فيها فتبعه بهرام شاه ودخل بجواده ولما وصل الفرسان الثلاثة الذين كانوا فى اثره الي باب المغارة وجدوها ضيقة لا يمكن للانسان ان يدخل فيها فوقفوا عند الباب متحيرين مبهوتين حتى وصل الوزراء وباقى الفرسان المتأخرين فلم يروا بهرام شاه ورأوا الفرسان الثلاثة على تلك الحالة من الحيرة فسألوهم عن بهرام شاه فأخبروهم أنه دخل المغارة فلم يصدقوهم ولما يئسوا من وجود بهرام شاه قبضوا على الفرسان الثلاثة وعادوا إلى المدينة فأخبروا بالخبر فخرج الاهالى من كبيرهم الى صغيرهم حتي جاءوا باب المغارة وكذلك والدة بهرام شاه فانها كادت تغيب عن الصواب وانفطرت مرارتها ونهضت مسرعة حتى جاءت المغارة المذكورة فوجدت الاهالى يزدحمون عندها وقد ملأوا الفضاء وحينئذ أمرت أن تحضر المغارة . وعلى رواية من روى أنهم لازموا الحفر مدة أربعين يوما حتى انتهوا الى الماء ومع ذلك لم يروا أثرا لبهرام شاه ولا لجواده ولا للغزال الذى قاده الى هناك وكانوا كل يوم

يستحضرون الفرسان الثلاثة للاستنطاق ويعذبونهم بالضرب الشديد فيغلظون الايمان أنهم رأوا بهرام شاه دخل بجواده في باب المغارة وتوارى عن نظرهم . وفى النهاية ثبت أن ما كان هو بأمر الله جل جلاله وأن بهرام أخذ الى حيث قادته العناية عند حلول يومه الاخير وأن تعذيبهم للفرسان ظلم وجور وأخيرا أجلسوا فى مكانه ابنه أردشير شاه فسار على نمط أبيه وأما نساء بهرام شاه فقد اشتد حزنهم على غيبته عنهن فجأة ولبسن ثياب الحزن والحداد وقد اشتد الوله والحزن ببعضهن فلم يطقن الحياة فى مدينة ايران فغادرتها الى بلادها وبعضهن فضلت العيش فيها وتعزين برؤية الحيطان وتقبيل الجدران لما فقدن السكان وعدمن أشجع الشجعان ولكن الصداقة والمحبة كانت قد ربطت بينهن برباط مقدس فكن يرسلن الى بعضهن بالمكاتبات ويتسلين بالشكوى من الزمان الغادر حتي أتاهن مفرق الجماعات وهادم اللذات وتجرعن كاس المنية وصرن بعد الحقيقة أثرا ولمن بعدهن عبرا وعدى الموت على تلك القدود وجرى الدود فوق المحاجر والخدود وفتك بالعيون الفواتك وداس بهن تحت السنابك فأسال منهن الصديد وفرقهن على الصعيد وجرى عليهن حكم الموت فى العبيد منذ خلق الله الخلق الى يوم الوعيد ، فسبحان من انفرد بالبقاء ، وحكم على العباد بالفناء ، هو الحى القيوم لا اله الا هو .

انتهت قصة بهرام شاه

(والحمد لله أولا وآخراً)

